

רואיֶה

# הַطَّرِيقُ إِلَى السَّيِّدَةِ الْعَجُوزِ

הַדָּרֶךְ לַגְּבֵרַת הַזְקֵנָה  
הַחִבֵּהּ הָאוֹלָא (הֵנָּה אִשְׂרָאֵל)

הַתְּקוּפָה הָרֵאשׁוֹנָה " כָּאֵן יִשְׂרָאֵל "

مُحَمَّدَ آدَمَ

عنوان الكتاب : الطريق إلى السيدة العجوز

المؤلف : محمد آدم

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

تصميم الغلاف : محمد آدم

التحرير الأدبي : محمد جاد الله

رقم الإيداع : ٢٥٢٦٤ / ٢٠١٦

ردمك : 4-977-6223-00-978

الطبعة الأولى: أغسطس 2016

المدير العام : هاله البشبيشي

مدير المبيعات : شريف الليثي



دار تويّا للنشر والتوزيع



dartoya2015@gmail.com



دار تويّا للنشر و التوزيع Dar.toya



@Dar\_Toya



Dar.toya



(+2) 01140899887 - (+2) 01000706014



٣٥ شارع النصر - المعادي - القاهرة - مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

رواية

הדרך לגברת הזקנה

# الطريق إلى السيدة العجوز

الحِقْبَةُ الْأُولَى (هُنَا إِسْرَائِيل)

התקופה הראשונה "כאן ישראל"

مُحَمَّد آدَم

دار تويبا للنشر والتوزيع



## إهداء

إلى "فلسطين" وشهداء القضية مَنْ قَضَى نَحْبَهُ مِنْهُمْ وَمَنْ يَنْتَظِر...  
وإلى أرواح كل شهداء أمتنا منذ بزوغ فجر التوحيد...  
نحسبكم جميعًا عند الله شهداء ولا نزكي على الله أحدًا.



## تَوِيه

الأحداثُ مُستقبليةٌ مُتخيَّلةٌ مُستمدَّةٌ من الواقع ،  
وأيةٌ إصابةٍ لصميمِ الحقيقةِ فهي من قبيلِ المصادفةِ المقصودةِ ..  
لا تشغلُ بالكِ بالمُقارنةِ ، ولكنْ اشغلهِ بأحداثٍ سوفَ تعيشُها  
بالفعلِ !!..



"إِذَا انْجَلَّتْ لَنَا مَاهِيَةُ الْيَهُودِ سَتَدُكُ كُلُّ الْحَبَايَا كَمَا ذُكَّ الْجَبَلُ  
أَمَامَ "مُوسَى" عِنْدَمَا تَجَلَّى لَهُ الرَّبُّ" ..  
"نِضَالُ خَلَائِلِي"





## سَفْرُ (١) "الدَّيْنُونَةُ"

السَّمَاء من فوقنا غِطَاءٌ أَسْوَدٌ تمَّ إِغْلَاقُه بِأَحْكَامِ عَلى مَا دُونِه من العَالَمِ. لَاشِئْ سِوَى الظَّلَامِ الَّذِي يُحِيطُ الكُونُ بِعَتمَتِه السَرمَديَّةِ في تَلكَ اللَّيْلَةِ الحَالِكَةِ الَّتِي غَابَ عَنهَا القَمَرُ وتَوَارَتْ فِيهَا عَنِ الأَعْيُنِ أُسْرَابُ النُجُومِ.

صَوْتُ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ يَتَسَلَّلُ مِنَ المَدَى ، كَفَحيحِ قَادِمٍ مِنَ أَحْرَاشِ القُبُورِ.. يَقتَرِبُ مِنهَکَا رَويدًا رَويدًا.

"الْيَوْمَ يَتِمُّ عَلَيْنَا إِلهِیمِ<sup>(١)</sup> عَضْبَتَهُ الكُبْرَى" هَكَذَا تُرْتَلُ وَتُكْرَرُ.

صَفيْرٌ حَادٌ يَثِيرُ الجَنُونَ يَكَادُ يَصُمُّ الأَذَانَ ، وَصَرَاعٌ عَصِيبٌ بَينَ الرِيحِ وَأَفْرَعِ الأشْجَارِ الجَائِثَةِ عَلى الطَّرِقاتِ تُمِيلُ الجُذُوعُ الَّتِي تُقاومُ اللَّاشِئْءَ.

"قَبَاعُ" الخَنَازِيرِ يَتَصَاعَدُ ، "زَفْزَفَةُ" الحَشَائِشِ تَتَعَالَى ، دَفَقَاتُ هَزِيمِ الرَعْدِ تَدْوِي ، تُوَلِّدُ القَشَعْرِيرَةَ فِي الأَوْصَالِ ، وَالبَرَقُ يَكَادُ يَحْرِقُ كَلَّ مَا

يصل إليه ، كل هذا والنعاج لا تزال نائمةً ، ثغاء البعض منها يتهدى كل حين وحين. هكذا النعاج دائماً خاضعة مستسلمة.

ما الذي أسمع ؟ أعواء ذئاب ؟ حقاً عواءها!

إذن هذا أوان العواء..

الذئاب تقترب ، والنعاج نائمة في ذلٍ مستكينة ، أنيابٌ تُباغتها تُمزق رقائق لحم الصغار ، وتسحق عظام عجائزها العجاف ، تندفق دماء النعاج أنهاراً تجري ، والقردة فوق الأشجار تتراقص فرحاً بمشهد قتل الجملان ، يتعالى صياح القردة مُقهقهة ورينها الحاد يملأ أروقة السماء زفاحاً.

لماذا أقف في سفح جبل "جرزيم"؟!

فحيح ترائيل العجوز يتواصل: "هُوَ ذَا يَضْرِبُ الرَّبُّ شَعْبَكَ وَبَنِيكَ وَنِسَاءَكَ وَكُلَّ مَالِكَ ضَرْبَةً عَظِيمَةً!"

في الأفق وراء الجبل شعاعٌ أزرق يغطي الأبصارَ بريقه ، يهبط في الظلام في إثر رجلٍ يتدلَّى عظيمٍ كأنما نزل يتدلَّى من السماء ، تضطرب الأرض وتمخضُ جبلاً أحجاره نارية ، الجبل ينمو سريعاً ليستقبل بقمته أقدام ذلك الهابط العظيم ليستقر عليه في وعيدٍ وشموخ. قوي البنية هو ، ممشوق القوام ، عظيمٌ يملأ الأفق ، والشعاع الأزرق يكشف تفاصيله ويقربها ؛ وجهه خمري مُشرب بالحمرة ، جبهته عريضة ولحيته قائمة ، شعرُ رأسه طويل مُنسدل على كتفيه ، تتدلى على أذنيه ضفيران مقصوعتان شديداً التجعد ، يرتدي معطف أسود طويل يضع فوقه طاليت<sup>(2)</sup> حريرياً أبيض وعلى رأسه قبعة أسطوانية سوداء كبيرة تُخفي ظلالها ضيق عينيه. ينزل ببطء عن الجبل ومع كل خطوة يخطوها ، تنبسط أمامه الصخور درجاتٍ نازلةً ، ثم تخضر من خلفه كأنها ضفاف النيل.

في سفح جبل عيبال ، خرَّ له كلُّ مَنْ رآه ساجدًا ، النساء يصرخن باسمه الذي لا أميَّزه ، واصطفت جموع الحريديم<sup>(٣)</sup> وراءهن ثم خرُّوا جميعًا في سجدةٍ واحدةٍ صاخبة ، وتساعد الغبار من تحت أفواههم عاليًا ، وأنفاسهم اللاهثة تتبَّتلُ ضارعة: "أمنا بك إلهًا وقد جئتُ ، أمنا بك مَلِكًا على أورشليم". ورغم كل تلك المهابة والجلال غلبتني عاداتي ؛ لقد تلكَّأت في السُّجود.

وقد رأيتُ.

انبثقت من الأفق غربانٌ سودٌ موشومةٌ بوشومٍ عربيَّةٍ بيضاء ، تُخفق ناعبة ، ومع كل خفقةٍ يخفُّ جلال العظيم الهابط ويزيد اضطرابه. وحدي رأيتُه يلتفتُ في قلق ، يقتربون أكثر فينتفضُ في هلع ، همُّوا بالانقضاء عليه فذاب في مكانه مخلفًا صرخةً هادرةً انتفضت لها أجسادُ الساجدين ليتناثروا في دعرٍ وذهولٍ ، يهربون يُحاولون الاختباء خلف الصخور وبقايا الأشجار ، وقد استحال أكثرهم مجانين ، وحلَّقت الغربان تواصل نعيِّبها المنتظم ، مبتعدة لتتوارى في تلافيف ظلام السماء.

لقد حان دوري في الهرب.

مرةً أخرى يعود فحيحُ العجوز: "اليوم يتم علينا الوهيم غضبته الكبرى. وتأتي عليك جميع هذه اللعنات وتبغك وتُدركك حتى تهلك ، لأنك لم تسمع لصوت الربِّ إلهك لتخفَّظَ وصاياهُ وفرائضهُ التي أوصاك بها. فتكون فيك آيةٌ وأعجوبةٌ وفي نسلكٍ إلى الأبد".

النيازكُ تتسلل عبر ثقبٍ صنعتها لنفسها في السقف الأسود ؛ لتسكبَ نيرانها على رأس العالم ، تنهمر بقوةٍ وتصفع وجه الأرض ، ترتجفُ الأرض وتتشقق من هول شهيق النار الناتج عن غضبة الرب.

جبال أورشليم على مرمى البصر تهوي ، والأرض تبتلع مبانيها الفارهة .

زلزالٌ عنيفٌ يضرب المدينة ، تسقط الأبراج على رؤوس البشر ، الأرضُ الجائعةُ تنشق وتبتلعُ الكثير مما عليها جرعةً واحدةً ، إعصارٌ رهيبٌ يُحيل "إسرائيل" إلى حطام داخل دوامة ، يلتقفُ الحديقة البهائية بضريح الباب الذي يُزين قبابها من "حيفا" ومتحف "قلعة داوود" بالقدس والهيكل والمدينة المقدسة .

مرةً أخرى يعودُ صوت العجوز: "كثرت ذرياتكم، وعمّرت الأرض، وتعاضمت خطاياكم، وحاولتم إغاضة الرب".....

ينقشعُ غطاء الليل ببطءٍ والشمس الهائجة تُعلّق أشعتها على حوافِ الدخان الأسود ، شيئاً فشيئاً تفترشُ الشمسُ سطح العالم ، لكن من الجهة التي لم تطلّع منها من قبل . البحرُ يفورُ ويغلي . والموج الثائر يتلاطمُ مُحطِّماً مراكبه الصغيرة ، وأساطيل السفن الراسية على شواطئ "حيفا" . الانفجارات تتوالى والنيران تتعاظم ، فقوافل النيازك ما زالت تحطُّ رحالها في قلب العالم .

البيوتُ إما مهدمَةٌ أو مهجورةٌ من ساكنيها ، قطعان من البشر تتدفق وتملأ الشوارع والطرقات ، زحفٌ هائلٌ من كس الرؤوس تدنو منه الشمس كأنها تُطارده ، ترتفعُ حرارةُ الجو وتزيد ، الناسُ تتصبَّب عرقاً وتترنح يميناً ويساراً ، كأنهم سُكارى فاقدو الوعي والإدراك .

القمرُ يترنّح ظاهراً من ناحية الشرق ، الشمس والقمر معاً في آنٍ واحدٍ!! منذ متى والشمس والقمر يُخالقان نواميسك يا "يَهُوَه" (٤)؟!!

يبدو أنه ليس الشمس والقمر فقط ، فيها هو رفيق ثالث ينضم إليهما يتصاعد إلى السماء في ثقةٍ وهوادةٍ ، يزداد حجمه شيئاً فشيئاً ، الشمس

والقمر إلى جواره مجرد نتوءان في ثوب كبير ، يُعلن عن قدومه بأثون حراري ينبعثُ منه لترتفع درجة حرارة الأرض أضعافًا مضاعفةً ، أكاد أذوبُ في مستنقع العرق البشري الذي يوشك أن يغمري.

ما الذي أتى بي إلى صحراء النقب؟!

مرةً أخرى يعود فحيحُ العجوز: "السَّلاحف على طول الطريق ترحف. ويومَ الدِّيئونة لا يرحمُ الربُّ أحدًا".

النيرانُ تُحيط بنا ، تقتربُ ببطء ، تُحاصرنا ، الإمَّ نحاول الهرب؟! ما الذي أنزلنا إلى قاع ذلك الجحيم؟!

تشتعلُ الأرضُ حتى الذوبان ، حرٌّ تائرٌ يسقط لحمَ الوجوه ، والسائرُونَ على الطرقات يئنون ، يطأون بأقدامهم بقايا وجوههم ، وأنينهم يتجمّع كآنين طلقٍ مُنهكٍ غاضب ، ومن بين الأنين صرخةٌ ناعرةٌ لاهثةٌ تدوي: "انتشينا بكوؤوس الشهوات ، فكانت عقوبتنا الدِّيئونة ، إنه الهلاك الأبدي ، الويل لنا ، وداعًا إلى الأبد أيتها الأرض".

يدوي صوتٌ نحاسيٌّ مزدوجٌ يتردد صداه في كل الأنحاء قادمًا من السماء الغاضبة.

"إذن. فإني أشهد عليكم هذه السماء ، وأشهد عليكم هذه الأرض التي تعبرون إليها إلى الأرض المقدسة لعلكم تملكونها ، إنكم لن تعيشوا طويلاً ، بل سوف تهلكون ، وبيد الفتى المنتظر".

لم يُخبرنا أحدٌ أن إلهيم سيجعل أورشليم في قاع الجحيم! يبدو أن السَّعير ما زال لديه أكثر من الدخان ، لديه كائناتٌ لم يُعرف لها مثلٌ ، ذلك الناهضُ المقرب بعيونٍ كعيون العناكب ، يتطايرُ منها الشررُ كعيني بركانٍ تائرٍ ، له قرنان كبيران حادَّان ، كقرني الأيل ، مُتشعبيْن مُتشابكيْن كجذور شجرة عجوزٍ ملعونة ، يواصل نهوضه لأعلى والظلام

يتمدد على الأرض من تحته ، رأسه كراسٍ ثورٍ جحيميٍّ ، له فك كفك  
 تمساح ، يحمل بين جنباته أسناناً حادةً ، يملك نابضين قويين في  
 الفك السفلي كأنهما لخزيرٍ بريٍّ عفنٍ ، عنقه فارِه الطول بين الزرافة  
 والنعامه ، وحشٌ ممشوقُ القوام ، صدرُه منتصبٌ كالأسد ، لونُ جلده  
 السميك القاسي مزركشٌ كالنمر ، خاصرتهٌ مثاليةٌ كخاصرة هِرِّ جبليٍّ ،  
 ظهره مُغطىٌ بريشٍ مختلفٍ ألوانه كريش الطاووس ، له ذنبٌ كذنب  
 كبش ، يمشي على أربعة قوائم كجوادٍ عربيٍّ ، له يدان ضخمتان كأيدي  
 إنسان الغاب ، يحملُ في إحدى يديه عصاً باليةً قديمةً قدم الزمن  
 معقوفة الرأس ، وفي يده الأخرى يضع في "بنصره" خاتماً مُشعاً يُغشي  
 الأبصارَ بريقه ، يرفعه فيشق ضوءه كسر السحاب المتناثرة وسط ركام  
 الدخان ، مُفسِحاً للنيازك مساراتٍ انهماكِ ضاريةً .

يضربُ بالعصا كلَّ مَنْ طالته من ركام البشر ، مُطيحاً بهم إلى فضاء  
 المجهول ، أهرب ولا زلتُ أحاول الهرب ، عصاه تكاد تضربني ..  
 حتماً ههنا يحين دوري مع الألم .

صوتُ العجوز يتواصلُ وقد ابتعد وازداد قبحاً وارتفاعاً وشماتةً:  
 "لأنكم جميعاً قد صرتم خبثاً ، هو ذا الربُّ يجمعكم في أورشليم ، في  
 وسط الأتون ، ينفخ عليها النار حتى تذوبوا" .

من الأفق يأتي العذابُ دائماً . هذه المرّة إعصارٌ كاسحٌ ، صارخٌ كطلق  
 ألف امرأةٍ ، قاصفٌ كالف رعد ، سريعٌ ك.....

اكتسحني ..

قرعةُ العظام المتكسّرة المتصاعدة ترتفعُ تؤدّي أنشودة تعظيم  
 الربِّ الغاضب بطريقتها ..

فجأةً سَكَنَ كل شيء وثبت في مكانه ، وعاد الكون إلى لحظة صمته البكر الأولى..

أغمضتُ عيني عن كل ما حولي. أنا اللا شيء الساكن وسط كل شيء ساكن..

ههنا يحين دوري في العدم.

نفخات الشوفار<sup>(٥)</sup> هذه من أين يأتي دويها؟ تكاد تُصيبي بالصمم..

نفخة الشوفار لا تُشبه أبداً صوت الانفجار! لماذا تبدو كأنفجارٍ إذن؟!

هذه أصوات انفجارات ، أحاول فتح عيني من جديد. جفناي ثقيلان كغطاءٍ من حديدٍ ورأسي أثقل من جبل.. أحدهم يذكر شيئاً عن عائلة "أبو طبول"<sup>(٦)</sup>.

الانفجارات تعودُ متقطّعةً ، أتقلّب في مكاني ، أصوات طلقات رصاصٍ أيضاً.

أحاول الاعتدال.. أعتمدُ على ذراعي ، جسدي مفكّكٌ كأن كل مفصل يُحاول الهروب مني..

وجدتني طريح الأرض والانفجارات تدوي من حولي قادمةً من التلفاز ، على صوت مراسل إحدى القنوات التي تنقل الأحداث التي تقع في شوارع إسرائيل ، ما زالوا يتابعون حروب الشوارع بين المافيا الروسية وعائلات أبو طبول التي بدأت مرةً أخرى قبل أيام.

كان البث على الهواء مباشرةً ، والنيران المفزعة مشتعلة في سيارة مصفحةٍ ، والتي أصبحت متفحمةً إثر الانفجار المدوي ، تتعالى النيران وتلتهم وجه المبنى الذي اكتسى بالدخان الكثيف.

يأتي صوتُ المراسلِ الذي يصفُ الحادثة: "أُصيب على إثر الانفجار خمسة أشخاص من المارة بينهم طفلٌ يبلغ اثني عشر عامًا، ووجدت جثة البيرون ممددة فوق عجلة القيادة وكل من معه في السيارة متفحمين وما زالت طلقات النيران تتناثر إثر تقاتل المراهقين من عائلة أبو طبول في الشوارع العامة بالأسلحة النارية ضد بعض أعضاء المافيا الروسية، فيقتلون المارة من العامة ويتوالى تساقط جثث القتلى". صرخةٌ من هنا وتحذيرٌ من هناك، والطلقات ما زالت تدوي بسخاء...

أين الريموت؟ لا أذكر أين تركته قبل ساعاتٍ. أواه. التمطّلي على الأرضية كجرعة مورفين تُغادرك سريعًا مخلفةً أضعاف الألم. اصطدم كوعي بطرف الريموت، تتبّعته حتى أمسكته بعد جهدٍ جهيدٍ. ألقيتُ بجسدي لاهثًا شاعرًا بالخلاص والظفر، وغيّرتُ القناة...

تقريرٌ تتلوه أنثى باليةٍ باردة: "حشدٌ من الفلسطينيين يحطم بوابة مجمع ميجان ديشيد (نجمة داوود) الحمراءً بهمجيةٍ ووحشيةٍ، احتجاجًا على موت سيدة عجوز من مواطني الداخل، مُدّعين أن بعض أفراد الشرطة قد داهموا منزلها باحثين عن أحد العناصر الإرهابية التابعة لإحدى الحركات المدعوة بالمقاومة، متذرعين بأنهم طرحوها أرضًا بلا رحمةٍ وأنهم دمروا كل شيء قابلهم داخل المنزل".

أشحتُ بوجهي بعيدًا، لماذا لا يطردون شرذمة الداخل هؤلاء؟! غيرتُ القناة إلى قناةٍ أخرى، الصورة مشوشة، سيقان ترتدي جوارب زرقاء وأخرى حمراء تتبارز وتنطلق مسرعةً نحو الكرة فوق البساط الأخضر. التقرير يبدو حزينًا وفي نهايته: "هزيمةٌ مدويةٌ لمنتخب إسرائيل أمام نظيره الفرنسي في التصفيات المؤهلة للمونديال، واقترب المنتخب من توديع التصفيات، وضياع حلم الحفاظ على اللقب"، يدخل

صوتُ المحلل الرياضي: "كيف نحلم بالصعود والمدير الفني يستبعد كل نجوم الفريق الذهبي؟!".

"هل سيتوجَّب علينا الاعتراف إذن بظهور آكلي لحوم البشر في جنوب "تل أفيث" (تل أبيب)؟!"، هكذا استقبلتني مقدمة البرنامج الشهير على إحدى القنوات الرئيسية فاستوقفني الخبر، وتابعتُ تقرير مراسليها: "كثفت الشرطة الإسرائيلية، من تواجدها في المناطق الجنوبية من العاصمة الاقتصادية "تل أفيث"، عقب شكاوى الأهالي من ظهور "آكلي لحوم البشر" وازدياد عمليات القتل، والعثور على بقايا جثث في صناديق القمامة. وقد تفجَّرت القضية بعد العثور الشرطة على حقيبةٍ بها جثة سيدة مُقطعة، وأجزاء كثيرة من جسدها مفقودة، وبدأت الشرطة في البحث عن الجناة لمعرفة ملابسات الجريمة. من جانبها، أكدت الشرطة أن عددًا كبيرًا من سكان جنوب مدينة "تل أفيث" اشتكوا من انتشار العصابات وتجار المخدرات ووجود الكثير من الممارسات الشاذة. ولم تتطرَّق الشرطة إلى إثبات أو إنكار تواجد آكلي لحوم البشر في المناطق العشوائية. جديرٌ بالذكر أن تلك المناطق تُعاني من ضعف الخدمات بصورةٍ كبيرةٍ، وعدم التواجد الأمني الكافي، فضلًا عن انتشار المخدرات ووجود عددٍ هائلٍ من المدمنين والمدمنات يجوبون المنطقة".

تَبًّا لكلِّ نشرات المساء. ما الذي يحدثُ يا إسرائيل؟ كل هذا في ليلةٍ واحدةٍ؟ الكابوس والأخبار السوداء في وقتٍ واحدٍ! ما الذي يحدث للمملكة الفتيّة؟

كابوسٌ هذه الليلة ليس كسابقه، لقد كاد أن يفتك بي، وتلك الأخبارُ هي الأخرى! أهنأكَ مَنْ يتأمر علينا؟ أم أننا بالفعل نستحق كل هذا؟

شعرتُ أنني بحاجةٍ إلى سيجارةٍ مع بعض الهواء ، خرجتُ إلى الشرفة ، واستندتُ إلى سورها بهرفقي ، وأشعلتُ سيجارتي وأخذتُ أشهقُ منها وأزفرُ الدخانَ علَّه يُنسيني كابوس النهاية وفضاعة الأخبار ، تصاعدتِ الأدخنةُ واختلطت في ذاكرتي مع الدخان المتصاعد من مدخنةِ ذاك البيت العتيق الموجود أسفل "جبل جرزيم" حيث يختبئ وسط الأشجار الحرجية الممتدة حتى الأردن ، امتزجتِ الأدخنة ببقايا معبد زيوس الروماني وأطلال كنيسة بيزنطية ومقامٍ إسلامي مستقرّة على قمته ، وتزين مستعمرة "براخا" إحدى قمم الجبل من الطرف الجنوبي الشرقي. على هذا الجبل الشاهق يسكن السامرة<sup>(٧)</sup> ، الذين يعتقدون أن هذا الجبل كعبتهم المقدسة ، وقبلة صلاتهم..

ما زالت الأدخنةُ تتصاعد وما زلتُ أتابعها ، تكاد تُعانق وجه القمر بلونها الرمادي ، تصعد حتى أقرب مجموعة من النجوم تتراقص معها بتناغمٍ مبهرٍ يُزين سماء بيت الرب..

فحيحُ تلك العجوز يترنح واخزًا داخل رأسي بلا توقف ، يُعشي الدخانُ عيني لأعودَ أتذكر هذا الكابوس الذي لم يُفارقني منذ فترةٍ ، كل مرّة يأتيني ويُغادرني دون اكتمال ، ويعودُ مرّةً أخرى منذ بدايته يتوقف بي عند زيادةٍ جديدة. الليلة فقط رأيتُ نهايته وقد خلا الكونُ ممّا سواي. أو هذا ما أرجوه. أتمنى أن يكون قد اكتمل. لعلّه باكتماله لا يعود. أو لعلّه سريعًا يعود! ها هو ذا مُذنب يخترق الغلاف الجوي ، مُحترقًا بدويّ يكادُ يُصيبني بالصمم ، يتجه نحو الأرض ، يهدم جميع المنازل التي أمامي!

تلك اللسعةُ الحارقةُ في أصابعي ، فتحتُ عيني ، أفقتُ. لقد غفوتُ على سور الشرفة كطفلٍ شريد. السيجارةُ أجهزتُ على نفسها وأكملتُ على أصابعي! يا لسخافتي..

فررتُ إلى الداخل حتى وصلتُ غرفةَ نومي ، وجدتُ زوجتي تغط في سباتٍ عميقٍ. لا ألحظ وجودها ما دامت نائمة.

ذهبتُ إلى الحمام لأخذَ حمامًا باردًا ، لا ، ليكن دافئًا علَّه يُساعدني على الاسترخاء.

الماء الساخنُ ينسابُ في حوض الاستحمام تتصاعد منه الأبخرة وتكوّن أشباحًا تتراءى لخيالي ، تعلقو مندمجةً مع شعلة هذا السخان المتأجج ، تبرق نيران الشعلة وتتوهج فتبدو كعيون الوحش الذي كان يلاحقني. أما أن لي أن أفيق ؟ كلا. لا أريد أن أفيق.

الماء الساخن يصعد مُغطيًا ساقيَّ. أدركتُ أن الحوض قد فاض. خلعتُ ملابسِي وهبطتُ في الماء أتلمس لأعصابي الهدوء.

أغمضتُ عيني لأسترخي ، لم أعرفُ كم من الوقت قد مضى ، أفقتُ ، وجدتني تائها بين الأرقام أعدها..

أربعيم .. شلوشيم .. عيسريم .. عيسر .. تيشع .. شموه .. شيشع .. شيش .. خميش .. أربع .. شالوش .. شتايم .. إيحاد ..

وكأنني كان ينقصني هذا الجنون !! أعدُّ الأرقام بطريقةٍ عكسيةٍ !! هل سيفقدني هذا الكابوس عقلي ؟!

الأبخرة الكثيفة تكاد تحجب ضوء المصباح ، نهضتُ وخطوتُ مترئبًا ووجدتني أمسكُ بمقبض الباب ، خرجتُ من الحمام مواصلاً ترئبتي حتى غرفة نومي ، لا أدري هل تئاءبتُ أولاً أم سقطتُ جسدي على السرير ..

كان النوم أسرع إليَّ من أن أتذكر.



## سفر (٢) "نوستالجيا"

الضوءُ الحارقُ يُتخَمُ المكانُ ، ويمنعني أن أفتح عيني.. لا يمكن أن يكون هذا الكابوس قد عاد مرةً أخرى.. أواه.. أعاود فتح عيني ، ضوء الشمس الحارق يصل حدقتي.. لا أرى شيئاً.. يا إلهيم ارحم عبادك.. زوجتي تُمارس عاداتها الصباحية ؛ تصارع ستار الشرفة ومن ثم تقتلع شباك النافذة قاسمةً إياه نصفين ، فيصرعني ضوءُ الشمس ، وتصاب عيني بالعمى المؤقت.. عليَّ أن أقبل ما تفعله بكل ترحاب ، لا أملك سوى ذلك ؛ هذا قدرنا نحن المزراحيم أمام العادات اليومية الرتيبة للإشكنازيم.

لحظاتٌ وبدأتُ أميّزُ شبحها الغارق في الضوء واقفةً أمامي وتضع يديها حول خصرها محتجةً.. صوتها يركل أذنيّ مخترقاً..  
- انهض لقد تأخرتَ عن موعدك.. إنها الثانية عشرة..  
قالتها ثم ذهبت.

نهضتُ فزعاً من مضجعي ، نجوتُ من فقد السمع في الكابوس ،  
والآن تكاد زوجتي تفقدني إياه. ارتديتُ نصف ملابسني في عجلة  
وخرجتُ من المنزل ، وكما هي عادتني أكملتُ ارتداءها في سيارتي ،  
وأدرتُ المحرّك وانطلقت.

شوارع "تل أفيث" رائقة اليوم ، هذا فال خير. لم أكن أحلم ببلوغ  
طريق "أيالون جنوب" السريع خلال هذه الدقائق المعدودات. أخذتُ  
اتجاه الطريق رقم (١) الممتد نحو القدس.

وأخذتُ مقولة جدّي الخالدة تتردد بداخلي.. تلك المقولة التي لم  
أفهم فحواها وقتئذ ، لكنني فهمتها مؤخراً:

- ليس من اليسير أن تسلك الطريق الذي تريد.. لكنه أيضاً ليس بعسير  
أن تبلغ منتهاه.. بُني.. إن الطريق إلى السيدة العجوز هو الأصب  
من بين كل الطرق قاطبة! لسوف تتشعب أمامك فروعها وتتداخل  
متشابكة.. لكن لا تتوقف أبداً.. سرّ في دربك ولا تقف.. فإنك لا محالة  
بالغ المنتهى..

حينئذ ما يندلع بداخلي يتصاعد مولداً إحساساً قديماً بالدفء. تحت  
هذه الشمس احتضنني جدّي وحكى لي عن الحياة والعناء ورحلة  
الوجود التي كان عليه أن يخوضها بكل أتراحها وصولاً إلى تأسيس  
المملكة.

"الحياة لا تبتسم لمن يريد أن تبتسم له.. بل تبتسم لمن تريد  
هي أن تبتسم له.. بئس الحياة، وبئس المصير".

تلك هي آخر الكلمات التي قالها جدّي في مرارة وهو على فراش  
الموت! ولم تغادر عقلي منذ أن قالها لأبي ، أحفظها عن ظهر قلب  
وأراها دائماً مرأى العين.



جدي "موشيه بن يتسحاق بن عوفادياه" كان حاخامًا كبيرًا بكنيس بغداد العظيم. ولد جدي بالبصرة أوائل القرن الفائت باسم "موسى بن إسحق بن عبد الله" ظل يعمل بالكنيس حتى أواخر الأربعينيات عندما هاجر معظم يهود العراق إلى إسرائيل، أو كما قال لي جدي أجبرنا على ذلك، وتم بعد ذلك الاستيلاء على كل أموالنا وأملاكنا هناك، وتمت ضدنا مجازر ضارية، وأسقطت عنا الجنسية العراقية، وذلك بسبب ما قام به (ناشطون صهيانية) من عمليات إرهابية تضمنت الأماكن التي كانت تحتفظ باليهود، ودور العبادة اليهودية، لقد كدتُ أن أفقد حياتي لولا تأخري في الوصول إلى الكُنيس بدقائق معدوداتٍ، لأجده عبارةً عن ركام وكل من بداخله يصعب حتى وصفهم بالأشلاء، كل هذا لإجبارنا على الرحيل إلى إسرائيل.

لم تكن تلك المأساة الإنسانية بمأساةٍ عراقيةٍ فحسب، فعندما جلستُ مع أصدقاء آخرين من جنسياتٍ عربيةٍ مختلفةٍ حكوا لي ما قد حدث في بلادهم، فكما حدث في العراق حدث بسائر البلدان العربية، لقد كتب الغربيون السيناريو بإحكام، وتمت الصفقة الصهيونية كما أسماها جدي بين "بن جوربون" و"نوري السعيد" على أكمل وجه، وقد كان لهم ما كانوا يبتغون.

ما زالت صورة جدي ماثلةً في ذاكرتي وهو يقصُّ لي بوجهٍ عابسٍ، وعينين تحجرتُ فيهما الدموع، وصوتٍ مرتجفٍ، وعُصَّةٍ أسفٍ كيف هاجر أغلب أبناء جيله من الطائفة اليهودية من العراق إلى إسرائيل. "عَلَى أَنْهَارِ بَابِلَ هُنَاكَ جَلَسْنَا، بَكَيْنًا أَيْضًا عِنْدَمَا تَدَكَّرْنَا صِهْيُونُ"<sup>(أ)</sup>

هكذا ترنم جدي وأخذ يقصُّ عليَّ بأسفٍ مأساة طائفتنا ببلاد النهرين، والتي لم يتبق منها إلا بضعة وعشرين يهوديًا!

- وا أسفاه! وشيكٌ هو مغيب شمس أقدم طائفة يهودية بالشرق مغيبًا لا شروق بعده أبدًا، طائفتنا العريقة الشهيرة بكونها أحد أقدم مراكز اليهودية بالعالم وفخرها، عتيقة كانت ذات تاريخٍ حافلٍ يعود لأكثر من ألفين وخمسمائة عام، تلك الطائفة قد ماتت إكلينيكيًا يا بُني، وبالغ أسفي ليس لأن أعمار نصف مَنْ تبقوا هناك قد تجاوزت عقدها السابع وبلغوا من الكِبَر عِتِيًّا، ولا لأن آخر عرس تشهده الطائفة كان أواخر سبعينيات القرن المنصرم، من كان يُصدق أن سخرية القدر ستفجر ذات يوم بهذه الطريقة البائسة في وجه الطائفة التي وصل أوجهها من البشر مائة وثلاثون ألفًا من اليهود! لكن أسفي يبلغ منتهاه لأن مَنِّيَّتي لن تحضرني على ضفاف أنهار بابل!

تهنيدة عميقة باللغة الطول ختم بها جدِّي أسفَه قبل أن يستكمل حديثه التاريخي الحزين:

- عندما تزايدت القيود على يهود العراق قررت إسرائيل تنفيذ عملية سرية لنقل اليهود من العراق إلى إسرائيل، ثم بعد ذلك تبنّت الوكالة اليهودية التي تشرف على هجرة اليهود من أي مكان بالعالم إلى أرض الميعاد؛ نقل الراغبين في العيش بإسرائيل حسبما يقضي "قانون العودة" الذي يمنح يهود العالم الحق في الاستقرار ببيت الرب.

ابتسم وهو ينظر إليّ والحزن يغمر عينيه وأخذ يكمل:

- بنجاحٍ منقطع النظير تمت عملية "عزرا ونحميا" في نقل ما بين مائة وعشرين ألفًا ومائة وثلاثين ألف يهودي من العراق إلى إسرائيل جواً عبر "إيران" و"قبرص" في أوائل الخمسينيات، واستقبل مخيم "معبروت" وحده مائة وثلاثين ألف لاجئ يهودي عراقي تقريبًا، ولكن مآسينا لم تنته عند هذا الحد، أوتدري لم؟

"لماذا يا جدِّي؟"

سألته وكلي شغف لمعرفة باقي القصة ، ابتسم جدي ومسح على رأسي بيده وأكمل:

- بعد نجاح العملية تم إغلاق باب الهجرة أمام الآلاف من اليهود الذين بقوا بالعراق من أصل مائة وخمسة وثلاثين ألف يهودي كانوا موجودين أواخر الأربعينيات، وتعرض الذين آثروا البقاء إلى الظلم والقمع والاضطهاد، وصدرت قوانين جمّدت أرصدة من رحلوا، وأُسقطت عنهم الجنسية العراقية، كما فُرضت قيود اقتصادية على من بقي، ثم أُعدم شتقًا عددٌ كبيرٌ من التجار اليهود..

- لماذا!

سألته وأنا في غاية الحزن ، وكاد الدمع أن ينهمر من عيني لولا أن مسح جدي على رأسي ثانية وهو يُجيبني:

- لفقوا لهم تهمةً باطلةً كالصهيونية والتجسس لصالح إسرائيل أو الشيوعية عندما كان السّفّاح "صدام حسين" نائبًا للرئيس في أواخر الستينيات، وذلك أدّى إلى تسارع حملة الهجرة بين البقية الباقية من يهود العراق، فلم يجدوا ملاذًا لهم إلا هنا.

تنهّد جدي واستطرد:

- بعد ثلاث سنوات فقط من انتصار اليهود في الحرب، وطرد مئات الآلاف من الفلسطينيين، وبعد معاملة الأشكيناز ليهود العراق على أنهم أقوامٌ بدائيةٌ بحاجةٍ إلى الترويض بعد أن كانوا هم النخبة في البلاد التي جاءوا منها! وبعد مرور الوقت أصبح يهود العراق يمثلون واحدًا على ثمانية من إجمالي السكان اليهود في إسرائيل، لكن فكرة التحالف مع العرب المتأهبين خلف الحدود سعيًا لرد الاعتبار المُهدر بسبب الهزيمة المخزية؛ وأخذ الدولة الوليدة من اليهود الغربيين قد جعلتِ الخوف يتركب منهم تمام التمكُّك وأصبحتُ هاجسًا أشكنازيًا

هيسستيرياً، صرخ "بن جوربون": "لا نريد للإسرائيليين أن يتحولوا إلى عرب".

أعلمُ أيضاً أن الأشكيناز أخذوا يخططون بعناية كيف ينقذون الجيل الجديد (من يهود العراق) حتى لا يكبروا ويصبحوا عرباً كالذين طُردوا من الأرض ، كانوا يريدون من أبناء الجيل الجديد (جيل أبي) أن يكونوا يهوداً مثلهم حتى يقبلوهم في دولتهم ، وبدلاً من أن يصبح يهود العراق هم العرب في إسرائيل استطاع الأشكيناز ترويضهم وطمسوا بأرواحهم كل المعالم الشرقية وتقاليدها وعاداتها ، حتى نسوا اللغة العربية ، واللكنة العراقية ، كما نسيَ الغربيون اللغة الـيديش ، وأصبح الجيل الجديد نسخةً طبق الأصل منهم في كل شيء ، وكان أول من اندمج مع اليهود الغربيين ، الذين ارتبطوا بهم أيضاً وأصبحوا يعرفون بعضهم البعض تمام المعرفة.

شكراً جزيلاً يا جدِّي الحبيب ، لن أنسى ما حييت تلك المعلومات القيِّمة التي حُفرت بصوتك في وجداني ، ارقد في سلامٍ يا جدِّي الحبيب فنحن الآن تقترب أعدادنا من نصف مليون يهودي من أصول عراقية في إسرائيل ، وأكثر من خمسة عشر ألفاً في (أمريكا) ، وما يقرب من سبعة آلاف في المملكة المتحدة.

أما أبي "أفراهام بن موسى" ذلك الرجل المكافح الذي كان موظفاً قديراً بأحد بنوك "تل أفيث" قد تعلّم اللغة العربية ذات النكهة العراقية من جدِّي ، وبالتالي نقلها إليّ بدقة حتى لا أفقد هذا التراث القومي ، على الرغم من كُره أبي للعرب إلا أنه كان يحرص على الحديث في بيتنا باللكنة العراقية كما أوصى جدِّي ، وما أن نخرج من البيت حتى نتحدث اللغة العبرية كي لا نثير اليهود الغربيين.

أنا إسرائيلي فقط كما علمني أبي؟ أم أنا يهودي عربي مثل جدي؟  
أو عربي إسرائيلي على حد قول أمي؟ ما أقسى هذا الشتات النفسي!  
نفسِي تنقسمُ على نفسِي ، وتبحثُ بداخلي عن نفسِي .

لكم أشتاق إلى تلك الأنغام الحانية في صوت جدي ورسالة كلماته ،  
والنظر في عينيه العسليتين الواسعتين ، ومداعبة شعرات لحيته الكثة  
القائمة ، وصنعي شاربًا ياحدى ضفيريته المقصوعتين ، ورؤيته المهيبه  
عندما كان يُصلي بالعبرية ، كنتُ لم أكمل السابعة من عمري بعد ،  
لكنني وجدتُ كل شيء محفوظًا بين حنايا عقلي وكبر معي بهوادة .

لم أنسَ تلك النقاشات الحادة بين جدي وأبي عن الصراعات  
العنيفة بين العرب واليهود ، وعن انتصارنا في حرب "الستة أيام" ،  
ومأساة "يوم كيبور" ، وحزن جدي لقتال أبي أقرانه من العرب عندما  
كان يخدم بجيش الدفاع ، وسألته ببراءة الأطفال: "كيف يُقاتل العربيُّ  
العربيَّ يا أبي؟" ، أجابني بجديّة واضحة: "نحن يهود.. من السهل  
نسيان أنك عربي، لكن من المستحيل نسيان كونك يهوديًا، جننا  
من العراق أي نعم.. لكن العرب يتعمدون نسياننا دائمًا، لا يريدون  
أن يتذكروا أننا عشنا معهم وتحدثنا بنفس اللسان وتشرّنا من نفس  
الثقافة، وتجاوزنا في المنازل وتزاملنا في الصفوف، هم من دفعونا  
للخروج من بلادنا مجبرين، فلا تتردد في قتال من يريد أن يقاتلك  
منهم".

إن العلاقة بين جدِّي وأبي قد بنت جدارًا نفسيًّا فاصلاً بيني وبين  
أبي ، فلقد كان جدِّي بالنسبة لي هو الأب الحقيقي ، فلقد كان حاكمًا  
تهابه الأعينُ حينما تقع عليه ، ولكنه بالبيت كان الحنان كما يجب  
أن يكون ، على العكس من أبي تمامًا ، فلقد كان أبي أقرب ما يكون  
بقائد كتيبة مصغرة بجيش الدفاع كان موقعها هو بيتنا ، لذلك لم

تفارق كلماته عقلي "أصولنا عربية نعم.. لكن هذه هي أرضنا.. واسمنا  
إسرائيليون.. انس كل شيء عدا كونك إسرائيليًا".

عند وفاة جدي في أوائل التسعينيات كنتُ في العاشرة من عمري ،  
ولم أجد ملاذًا إلا في حضن أمي ، التي اعتبرتْها أمي وأبي ، أمي هي  
نسخة نسائية من جدي ، فلقد تكفلَ براعيتها وتربيتها بعد مقتل أبيها  
(شقيق جدي) وأمها في تلك العمليات التي كانت تتم لطرده اليهود  
من بلدانهم وتهجيرهم إلى أرض إسرائيل ، فصار جدي أباه وأمه وكل  
عائلتها ، وهو من اختارها بنفسه للزواج من أبي ، الذي لم يمانع من  
الزواج من ابنة عمه ذات الأخلاق النبيلة ، فكما ربَّاه أبوه ربَّاهَا .

لماذا تُداهمني كل هذه الذكريات وأنا على الطريق ؟ أخشى أن  
أسهو مع ذلك الحنين وتسحبي الذكريات إلى ما وراء حُجبها ، ويحدث  
لي على الطريق ما لا تُحمد عقباه . أنا حتى لم أتناول إفطاري بعد!  
يبدو أنني مشتت التركيز بما يكفي هذا الصباح . لطالما صحبني هذا  
التشتت .. في طفولتي عشتُ مشتت الفكر أيضًا ، تائهًا بين أوامر أبي  
القاسية ، وحكمة جدي الراسخة ، وحنان أمي العميق ، كل منهم أثر  
في تكوين شخصيتي منذ الصغر .

هذا لم يمنع كوني أحد أهم الشخصيات العامة في إسرائيل له  
جذور عراقية أصيلة ، فصار اسمي يُدرج بعد "بنيامين بن إليعازر"<sup>(٩)</sup> ،  
وقارئ المقام "فلفل كُرْجي"<sup>(١٠)</sup> ذو الصوت الملائكي ، والرابي "عوفادياه  
يوسف"<sup>(١١)</sup> ، و"الموج بيهار"<sup>(١٢)</sup> ، وغيرهم كثيرون في شتى مناحي  
الحياة .

لولاك يا جدي الحبيبُ لما كنتُ أنا فيما أنا فيه . أعلم أنه لا يفيك أيا  
من حَقِّك أَيْ سَمَّيتُ أول مولود رزقني الربُّ به ، على اسمك "موشيه" ..  
هو متأثر بي ويفتخرُ بهويته المزراحية وكان قريب الشبه بي ، تمامًا كما

عِشْتُ متأثراً بك وفخوراً بانتمائي إليك. "موشيه" على عكس أخيه الأصغر "يوسي" الذي يعشق الانتماء الأشكيناзи كأمه فتأثر بها وأخذ منها كل شيء حتى الشكل ، فلقد أصرّت على أن تسميه باسم أبيها ودائماً ما تناديه "يوسي" كما ينطقه الأشكيناзи ، ما باليد حيلة ، هذه هي الحياة ، كالسفينة لا تُبحر في الماء في طريقٍ مستقيمٍ ولكنها تسلك طريقها تُقاوم الأمواج تارةً ، والرياح تارةً أخرى ، وإلا لما كان لرحلتها قيمة أو متعة تُذكر.

الطريق ما زال رائقاً.. لا أدري أيهما أكثر إمتاعاً حقاً.. دفء الشمس أم دفء ذلك الحنين ؟



## سفر (٣) "جرزيم"

انتزعتني المشهد الساحر لحلقة الجمال في سلاسل المدن الجبلية ، التي تتوسط إقليم المرتفعات وجبال النار ، لا أدري لماذا يصرُّ العرب على أن يسموها دمشق الصغرى وعش العلماء! لقد قطعت اثنين وستين كيلو متراً ، ما أجمل الإنجاز! أرجو ألا أشرد وأكمل طريقي نحو القدس ككلِّ مرة ، ينبغي أن أظلل مُنتبهًا ، حين يكون بيني وبين القدس تسعة وستون كيلو متراً وتصبح يافا غربًا ، من هناك أستطيع الذهاب جنوب المدينة.. ينبغي أيضًا ألا تأخر ، أي نعم لم نحدِّد ميعادًا ، ولكن لا ينبغي أن أتأخَّر.

ها هي ذي "شخيم" ، ملكة المُدن غير المتوّجة ، أعشق شموخها وهي ترتاح باعتدادٍ بين جبل "عيبال" الشاهق في شمالها ، وجبل "جرزيم" المبارك في جنوبها. لا يأسرني شيء قدر الأصالة التي تفرض نفسها على التاريخ ؛ "شكيم" يسميها العرب "نابلس" ، وجبل "عيبال"

كَنَاهُ الكنعانيون "جبل الصخور" ، أما جبل "جرزيم" فدائمًا هو "جبل جرزيم" ، الأصلة تسكن هذا الجبل من قَمَّتِهِ إلى أسفل سفحه .

وصلتُ ، وتوقفت أسفل "جرزيم" ، الكوخ بابهُ القديم مميّزٌ فعلاً كما وُصِفَ لي . نزلتُ واستنشقتُ نسيماً رائقاً ملأتُ به صدري .. ذكرى المشاعر الجميلة تتتابني . تقدّمتُ نحو الكوخ ..

السامرة أيضاً لهم مزوزاه<sup>(١٣)</sup> ؟ لا ضير ، فالجميع يعتمد عليها لتحصين النفس والبيت ضد الخطيئة ، وللتذكرة الدائمة بوحداية الإله عند الدخول والخروج من المنزل ، هكذا علمنا الحاخام الأعظم "موشيه بن ميمون" .

لم أتردد في الطرُق على الباب العتيق طرقتين متتاليتين ، وانتظرتُ حتى يُجيبَنِي أحدٌ ، وأنا أتأمل ما حول الباب من عبق الماضي العتيق . المزوزاه عند السامرية تختلف عنها عندنا ، الواضح أنهم يصنعونها من أحجارٍ كبيرةٍ ، يضعونها على الأبواب ، أو بمحاذاة مدخل المنزل كما هي الآن ، أرى محفوراً عليها الوصايا العشر بحرفيةٍ عاليةٍ ، بخلافنا نحن . فهي عندنا لها شكل صندوق صغير بداخله قطعة من جلد حيوانٍ نظيفٍ بحسب تعاليم الدين ، منقوش عليها الفقرتان الأوليان من "الشماع"<sup>(١٤)</sup> ، ومكتوب على ظهرها كلمة "شَدَّاي"<sup>(١٥)</sup> .. بحيث تظهر هذه الكلمة ، ثم توضع من ثقبٍ صغيرٍ بالصندوق . أيُّ الطريقتين أكثر بساطة ؟ لا أدري ، ولكن لا ريب أن طريقة السامرة أكثر جمالاً .

لحظاتٌ قليلةٌ وُفُتِحَ الباب لتطل من خلفه امرأةٌ ملائكيةٌ تُشبه عروس البحر كما في الأساطير الفارسية ، تُغطي شعرها الداكن بغطاء رأسٍ شفافٍ كعادة المرأة السامرية النابلسية ، قابلتني بابتسامةٍ طفوليةٍ مرَجِبَةٍ أفقدتني قدرتي على النطق ، ظللت أحملق فيها متأملاً سحر جمالها الشرقي الذي يشعُّ من عينيها الكحيلتين الواسعتين ، ورموشها

الطويلة الحادة كالسيوف تحرس أجمل حدقتين بلون العسل وقعت عليهما عيناى على الإطلاق. قالت بلكنةٍ عربيةٍ فلسطينيةٍ:

- صباح الخير..

قابلتها بنفس الابتسامة راداً تحيتها مُتلعثمًا:

- صباح الخير.. معذرةً سيدتي أنني أتيتُ من دون ميعادٍ سابقٍ..  
الحقيقة ترددتُ كثيرًا في المجيء.

قالت وقد زادت من ابتسامتها التي أسفرت عن ضوءٍ ساطعٍ ينعكس على أسنانها البيضاء كالثلج المتساقط بهوادة على جبل الهيكل بأورشليم:

- لا داعي للأسف لقد تعودنا على ذلك.. ليست المرة الأولى التي يأتي فيها أحدكم دون ميعاد.

- أهدنا؟

- نعم.. أنتم الصحفيين. ألسنَ صحفيًا؟

يبدو أنها لا تُتابع برنامجي؛ بل الأرجح أنها أصلًا لا تعرفني! ليس هذا أو ان الإحباط. ابتسمتُ..

- ومن أدراكِ أنى صحفي؟

عضتُ على شفتيها الآخذتين حُمرتيهما من النبيذ الأحمر المعتق المصنوع من عنب الخليل، وقد زاد احمرارهما بهاءً في أشعة الشمس، ثم قالت:

- الحقيبة التي في يدك.. كما أن هذا هو الميعاد المعتاد لقدوم الصحفيين إلى جدتي. تفضل بالدخول.

- هذا هو الميعاد المعتاد؟ وأنا الذي كنتُ أحرصُ على أن أكون مختلفًا!!

ترددت قليلاً ثم أشارت لي بالدخول.. واستطردت:

- أم أنك تود أن تكمل الحديث معي في الخارج؟

قلت لها مبتسماً:

- معذرةً فقد شردت بعض الشيء..

استدارت لتدخل بينما صدى الفحيح من الكابوس يتردد داخل رأسي "إلوهيم لن يرحم أحداً". أهذا وقتك؟!

دخلت خلفها في ثباتٍ إلى بهوٍ قديمٍ كبيرٍ نسبياً ، ثم جلسنا معاً وقالت مُرَجَبَةً:

- خذ راحتك كأنك في بيتك.

عبثاً أحاول تنظيم أفكارى سريعاً ، الأصالة تُطاردني ، الجبل والسَّفْحُ وباب الكوخ والمزوزاه ، وهذه الجميلة..

- "بيسان" .. "بيسان" ..

أتى الصوتُ العجوزُ من الداخل واهناً كسولاً متقطعاً.

نهضت الجميلة من على الأريكة مُسرعة ، واستدارت..

- بإذنك..

- تفضلي..

"بيسان" هو اسمها إذن.. يا إلهي ما أعذب هذا الاسم! هل أخذ اسمها من نخل بيسان أم سرق النخل اسمها وهرب قابعاً في جنوب غرب بحيرة طبرية؟ الأصالة توشك أن تأسرني.

- "بيسان" .. "بيسان" ..

يقولها الصوتُ الهرم ويزداد ارتعاشُ أحباله الصوتية..

- نعم يا جدتي إني آتية..

قالتها الحسناء وهي تغيب ، تأكدتُ لحظتها أن الصوت هو صوتها ؛ "السيدة العجوز" أو "الجددة العجوز" كما يدعوها سكان أورشليم. ها قد عرفتُ صوتها ، عمًا قليلٍ سأعرف من هي ؟ ما هي قصتها بالضبط ؟ سأعرف ما لم يعرفه غيري. عمًا قليل.. لم العجلة ؟ كل شيء يوشك على الانكشاف ، كل ما ينقصني هو قليل من الصبر. تجولت بناظري ، كل شيء في هذا المكان قديمٌ ، ولكنه يحتفظ بسحره الخاص ويشعُّه ، تحسُّ بهذا حتى وسط تلك الإضاءة الخافتة التي يبعثها المصباح الصغير المعلق في السقف المزين بنقوشٍ باهتةٍ.

لفت انتباهي صورة فوق الجدران القديمة لرجلٍ بدا لي أنه من المُعمرين ، وعلى يمين الصورة وضعت شارة سوداء دلالةً على أنه رحل ، وكأن ألوان المكان باهتةٌ تشعُّ حزنًا دفينًا على رحيله. في أحد أركان المكان أدوات صناعة العُرش ، يستعدون لعيد العُرش إذن ؟ هذا يُضفي قدرًا من البهجة ولا شك. لا ريب أن الجميلة "بيسان" تُحاول الفرار بتلك الأدوات من تلك الحالة الجاثمة. وفيما أنا أتأمل المكان ، أהלَّ وجه "بيسان" من جديدٍ وهي تحمل في يديها صينيةً وضعت فوقها فنجانين تفوحُ منهما رائحة القهوة الطازجة التي أهواها ، وضح عليه شطيرتان مغطتان بالشيكولاتة.. يبدو أن الابتسامة لا تُفارق وجهها ، وضعت الصينية على الطاولة التي أمامي وجلستُ.

- كل عامٍ وأنت بخير..

قالت بمزيجٍ من المفاجأة والدهشة والإعجاب..

- وأنت بخير..

ناولتني فنجاني من القهوة وأزاحت صحن الشطائر باتجاهي قليلًا مشيرةً أن تفضّل..



- كل ما أعرفه أنكم السامرة تحتفلون بعيد المظال بعدنا بشهر نحن المزراحييم.. نظراً لاختلاف التقويم بيننا. هل تغفرين لي جهلي وتحديثني أكثر عن العيد عندكم؟
- عيد العُرش أو المظلة كما تسمونه أنتم.. لا فرق.. فهو من أجل بني إسرائيل.. الحقيقيين.
- تجاهلتُ لفظ "الحقيقيين" وظللتُ أسمع لها لا أريد أن تكفَّ عن الشرح. لا أنوي أن أكون سامرياً ، والكثير مما تقوله ليس جديداً عليّ ، ولكيّي مستمتعٌ جداً بسماع حديثها.
- يُصادف اليوم الخامس من الشهر السابع العبري ونحتفل به لمدة سبعة أيام، نرحل إلى قمة جبل جرزيم، ويكون العيد الثالث والأخير من أعياد الحج.
- إنكم تهتمون بصناعة المظلة بدقة غريبة!
- بالطبع.. إن شكل العُرش يجب أن يتم تغييره سنوياً من أجل أن يتعلق به الأبناء ويحبوه ويُمارسوه لاحقاً.. الأمر يتطلب أن يقوم كل بيت سامري بجمع الأربعة أصناف التي ذكرتها الشريعة المقدسة: "ثمر بهجة، وسعف النخيل، وأغصان أشجار غيباء، وصفصاف الوادي".. ويمكن اختيار صنفين فأكثر ليعطي صورةً بهيئةً.. لا نختلف عنكم فقط في توقيت العيد.. وإنما في مظاهر الاحتفال أيضاً.
- ولهذا هذه الأصناف الأربعة؟
- لقد اختارها لنا الرب لأجل التعرف إلى الأرض.. فمثلاً السعف من الأغوار.. وشجر الغار من الشمال.. وثمر الوادي ينتشر في كل أرض فلسطين.. وهذه هي العبرة.. فالعبادة تحتاج مجهوداً.
- اعتقدتُ أن مناسبة العيد عندكم كما هي عندنا لإحياء ذكرى خروج بني إسرائيل من مصر.

- وهي كذلك بالفعل. تعلم أنهم صادفتهم صحراء سيناء بعد الخروج.. ولعدم تعودهم على جو الصحراء.. أظلم الرب بمظلة تقيهم حرّ الشمس.. وفي الليل أضاء لهم الرب عمودًا من النار ليستدفئوا بحرارته من برد الصحراء.. ومن هنا كانت الفكرة.. هكذا يجب أن تشرح لأبنائك وأحفادك أيًا كان مذهبك.. في جميع الأحوال قد ساعد الربُّ بني إسرائيل.

وضعتُ فنجانها من القهوة وقد فرغ.. وسألتُ بابتسامتها المعتادة..

- بالطبع أتيت من أجل جدتي.. فالكل يأتي من أجلها.. أليس كذلك؟

هذه الرائعة لا تدري أن ابتسامتها ساحرة! شعرتُ بوجهي يحمرُّ خجلًا..

- سأروي لك كل شيء بالتفصيل.. ولكن قبل ذلك أعتقد أنه لا بدَّ أن أعرفك بنفسي أولاً.

تبسَّمتُ وهي تقول:

- بكل سرور.. تفضل سيد.. "مزراحي".

رددتُ بلهفة:

- اسمي "يائير أفراهام".. السن أعتقد أنها لا تهم.. يهودي من أصولٍ عراقية.. مواطنٌ كأى مواطن عادي في مملكة إسرائيل.. المهنة نائب رئيس تحرير جريدة "معاريف".. ومقدم برنامج "كان إسرائيل (קאן אִיִּירָאֵל)؟" - هُنَا إِسْرَائِيلِ".

قالت وقد أسكرتني نظراتها الواثقة المغلّفة ببسمةٍ تمنيتُ أن تكون إعجابًا متبادلًا بيننا:

- اسمي "بيسان سمعان واصف".. سامرية وكلّي فخر.. الحفيدة الأصغر للجدّة "راحيل شلومه بن نحمان".. أكبر معمرّة على ظهر السلحفاة.. يعود نسبنا إلى سبط لاوي.

الآن أقع - بكل استسلامٍ ورضا- في أسر أصلاتها..

- في الواقع "راحيل شلومو بن نحمان" جدّتك هي موضوعي الرئيسي.. قلّما يتحرّك شخصٌ في مثل منصبٍ لأداء مهمّةٍ صحفيةٍ.. الحقيقة أنني إذا قلت إنني وهبتُ الباقي من حياتي لمعرفة حياتها وكل شيءٍ عنها فلن أكون مبالغاً.. ولذا؛ أرجوكِ سيدتي أريد أن أعرف كل شيء بالتفصيل.

تكاد تغتالي ابتسامتها هذه المرة؛ فقد كانت غير السابقات:

- بكل سرورٍ سيد "يائير".. الجدة أو الجدة المعيّرة كما تدعونها أنتم ونحن وكذلك السفارديم.. أو السيدة العجوز كما يدعوها الأشكينازيم المتغطرسون، بلغت من العمر مائة وتسعاً وعشرين سنة ومنذ سنتين فقط أصبحتُ ذاكرتها تخونها.. لكننا لن نسمح لأنفسنا بالتأكيد أن ننسى أي شيء أو حدث قد حكته لنا الجدة.. فالأحداث التي نتذكرها خلال سنوات عمرنا لا تقارن بالأحداث التي مرّت على إحدى أكبر المعمرات في الوجود.. لقد وُلدت في سنة (٥٦٧٠) عبرية أهمية عن مائة وتسعة وعشرين سنة من تاريخ البلاد.. سنجد أن أجيالاً تعاقبت.. اختفتُ مدنٌ تماماً وظهرتُ بدلاً منها أخرى جديدة.. حقبٌ مَضَتْ وحكومات وزعماء رحلوا.. لقد عاشت حياتها في منطقةٍ جغرافيةٍ مكتظة الأحداث إما مشاركةً أو شاهدةً.. ولدتُ جدتي ونشأتُ هنا في جنوب نابلس حيث تعيشُ بين أقدم وأصغر طائفةٍ دينيةٍ في العالم.. وعاصرتُ الحقبة العثمانية التي تفتخر كثيراً بها.. ثم الاندباب البريطاني والحدكم الأردني وأخيراً النكبة الفلسطينية.. التي ستنتهي قريباً.. ما زالت جدتي تحتفظ بالهوية العثمانية بين أوراقها..

فغرثُ فاهي وقد ملأني الدهول:

- يا إلهيهم ارحم عبادك.. إنها أهم وأقدم من إسرائيل نفسها.. ولكن هل لي أن أعرف المزيد عن الجدة؟
  - بالطبع.. ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟
  - كل شيء.. أريد أن أعرف كل شيء.. ربما ما لم تحكوه لأحدٍ من قبل.. فقد قررتُ خلال زيارتي لكم أن أستمع إليها شخصيًا لربما استطاعت أن تحدثني عن كثيرٍ من تلك الذكريات.
- قالت آسفةً:

- لكنها قد لا تتذكر.. ولا تستطيع أيضًا أن تسمع كل شيء.
- أرجوك يا سيدتي دعينا نحاول.
- تفكرتُ لثوانٍ ثم قالتُ غير ممانعة:
- بكلِّ سرور.

نهضتُ عن أريكتها فنهضتُ بدوري ، وتقدمتني في ردهةٍ ضيقةٍ بعض الشيء سائرين نحو غرفة السيدة العجوز..

كنتُ أسمع دقات قلبي في أذني كطبول الحرب تختلط مع أنفاسي المتلاحقة الملهوفة وجدران رأسي تردّد صدى تراتيل ذلك الفحيح الكابوسي.. وقفنا على باب غرفةٍ قديمةٍ واسعةٍ.. في وسط الغرفة تجلس ، عجوز كأبي عجوز ، جالسةً على كرسي متحرك خلف طاولةٍ مستطيلةٍ عليها قارورة ماء بجوارها الأدوية ومذياع صغير.. لكنها ليست كأبي عجوز ، هذه أقدم سيدة معمرة في الكون ، هل كانت تردّد شيئاً؟! خيل إليّ أنها تُردد بصوتٍ خافتٍ أكاد أسمعُه هسيسًا دون أن تفتح فمها على الإطلاق: "إلهيهم لن يرحمَ أحدًا".

\* \* \* \* \*

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا جالسٌ قبالتها أتأملها.. الآن أنا أهدأ قليلاً ، بعدما كاد قلبي أن يخرقَ أضلعي بسبب طرقاته الشديدة التي انطلقت حين سمعتها أول ما دخلت ، كانت رحلتي من باب الغرفة إلى وسطها طويلةً ، كان لا بدَّ أن أتمالك نفسي ، وقد فعلتُ ذلك بصعوبةٍ ، وأنا أخذ نفسًا عميقًا لم أكن واثقًا من أنني سأزفره مرةً أخرى..

أعادت "بيسان" سؤالها لجدتها بصوتٍ عالٍ كي تسمعها هذه المرة:

- كيف حالكِ الآن يا جدتي؟

ردَّت عليها العجوزُ بصوتٍ يُشبه الأنين:

- نشكر الله يا "بيسان".

قالت "بيسان":

- هذا صحفي آخر يريد مقابلتكِ شخصيًا يا جدتي.

قالت العجوز بكلِّ هدوءٍ:

- مرحبًا بضيوف الرب.

ابتسمت "بيسان" ونظرتُ إليَّ بلطفٍ ثم قالت:

- إنه مزراحي.

ابتسمت العجوزُ وقالت:

- أتى حفيدٌ آخر لرؤية جدته في قرنا الأخير.

أمسكتُ يدها وقبَّلْتُها بحنينٍ ووفاءٍ لم أدرِ سرَّهما ، وقلت وأنا أكاد أن أفقد تماسكي:

- كيف حالكِ يا جدتي؟

ردَّت وقالت بصعوبةٍ كعادتها قابضةً على يديَّ بقوةٍ لا أعلم من أين

أتتها:



- "كَفَى الْآنَ، رُدَّ يَدَكَ" اقترب منا يوم الدينونة، "وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ مَلَكًَا عَلَى أورشليم لإهلاكها، وفيما هو يُهْلِكُ سَيَرَى الرَّبُّ ذَلِكَ، وَلَنْ يَنْدَمَ عَلَى الشَّرِّ.. ولن يرحم أحدًا.. بعد سنواتٍ معدودةٍ أقل من أصابع اليد الواحدة.. سيُذبح اليهودُ جميعًا هنا على هذه الأرض وسيأتكم حين تكفرون بهميئه .. الأماذ عند إلهيم ليست قصيرة كما هي عند أبنائه.. "إن الخطيئة تجلب الدينونة على الأمة، أما البر فمدعاة لبركة إلهيم".

اقشعرّ بدني واحتبست أنفاسي، ودار بخلدي ما قاله "مَنْخِم بيجن" (مناجم بيجن) عندما دخل لبنان في عام (١٩٨٢): "يبدو أن إسرائيل ستنعمُ بسنوات السلام الأربعين التي نصّت عليها التوراة".

هل هناك علاقةٌ بين قول الجدة وما قاله "بيجن"؟ هل سوف تنتهي سنوات السلام الأربعين قريبًا؟! لكنّ العربَ عاجزون عن مجابهتنا، لا تفوتني التقارير والدراسات السياسية والإستراتيجية، حتى السريّة التي ليست للنشر، إذن كيف سيحدث هذا؟ لا أدري. حقيقة لا أدري!

هل تخلّي عنا "إلهيم"؟ ولكن لأجل مَنْ؟ لأجلهم؟ إنهم شرادم لا قيمة لهم. كلا. ليسوا كذلك، إنهم لا يظهرون على حقيقتهم، لماذا لا يظهرون جميعًا، هل هم قلة؟ لا. فهم كثير. ضعفتُ عزيمتهم، خارت قواهم، ولا يزالون في خلافاتهم، وصراعاتهم، وازدادت نزاعاتهم أكثر من الماضي بكثيرٍ، يُريدون خلافة، ولكنهم يختلفون على مَنْ يكون الخليفة، هكذا هم دائمًا، وهكذا يجب أن يظلوا، لا يتفقون إلى نهاية، ودائمًا كل منهم يحاول أن يثبت أنه الأقوى، أو الأجدر والأحق، أو الأقدر بماله، سيظلون هكذا دائمًا، إلا إذا أمدهم الرب بمعجزة ما، أتمنى ألا يفعل، فقد انتهى عصرُ المعجزات؛ وإلا ستكون كارثةٌ لا نظير لها، لن يشهد لها التاريخ مثيلاً.

بدأت الجدة تسعل بشدةٍ أقلقتنا، وظلت تُردد وهي تُقاوم سعالها:

- "كفى الآن، رُدَّ يَدَكَ".
- قالت لي "بيسان" في قلبي:
- هل لك أن تساعدني كي ننقلها إلى فراشها؟
- لا عليكِ دعيني أنقلها بنفسِي.
- حملتها برفقٍ وحرصٍ كالذي يحمل برديَّةً أثريَّةً حيةً هشةً يخشى عليها التفتت ، وضعتها على فراشها ، أعطتها "بيسان" دواءها فتوقفت عن السعال ، وأخذت تُردد بصوتٍ خافتٍ جدًّا:
- لا تذهبِ إلى حيث تأخذك الحياة.. بل خذ الحياة إلى حيث أنتِ ذاهبِ.
- غادرنا الغرفةَ في صمتٍ وعُدنا إلى البهو مرَّةً أخرى ، وبادرت "بيسان" قائلة:
- آسفةً عما حدث ، فهي شديدةُ التأثر بالأحداث التي تمرُّ بها البلادُ لعلمها المسبق بما هو آتٍ.
- قلتُ لها محاولاً التخفيف عنها:
- لا عليكِ سيدتي.. كل شيءٍ على ما يرام.. قد آتِي في وقتٍ لاحقٍ إن لم يكن لديكم أي مانع.
- قالتُ بلهفةٍ:
- لا.. لا.. ليس هناك أي مانع.
- فابتسمتُ مستطرِّدًا:
- كنتُ أودُّ أن أعرفَ الكثير عن حياتها.
- قالت وابتسامتها تُنير وجهها:
- بكل سرورٍ. لا مانع عندي وقتها تريد.
- هل أثقل عليكِ لو بدأنا الآن؟

- مطلقًا.. حياتها بسيطة جدًا.. فهي شديدة التعلق بنا ودائمة السؤال عن والدتي التي تُوفيت منذ زمنٍ بعيدٍ.. بدأ مرضها الشديد بعد إصابتها بالسكري وبترا إحدى قدميها واحتياجها لغسيل الكلى.. كل ذلك أدَّى إلى غيابها عن الوعي لأيامٍ متتاليةٍ.. ودخلها في هذه الحالة الصعبة كما رأيت.

أسندت ظهرها والتفتت نحو حجرة جدتها في إشفاقٍ ، ثم عادت وأردفت:

- جدتي عاشت الحرب العالمية الأولى والثانية والنكبة والنكسة والانتفاضتين مع جدنا.. كان أحد الجنود في الجيش العثماني إبان الحرب العالمية الأولى.. لكنه هرب وبقي مختبئًا ثلاث سنوات.. توفي عام (٢٠١٠) عن عمرٍ يناهز مائةً وعشرين عامًا وخلفته جدتنا وتعتبر وجودها حتى هذا اليوم "هبةً وسرًّا من الرب".

ثم أضافت:

- تصحو جدتي دومًا في الساعة السادسة صباحًا.. تبقى على كرسيها جالسةً حتى الساعة السادسة مساءً.. تقضي معظم وقتها نائمةً على كرسيها.. وللأسف تعيش هذه الأيام حالة من الاكتئاب الشديد والملل.. وتعاني من ثقلٍ في السمع فلا يمكنها دائمًا التواصل مع من حولها.

أخذنا الحديث عن الجدة ساعات ، هي تتحدث ، وأنا أسجل الحوار على جهازٍ صغيرٍ ، قلتُ والفضول يُسيطر على سُوالي:

- وماذا عنك أنت؟ حديثني عن نفسك.

نظرت إليّ وقطبت حاجبيها ، شعرتُ بالحرص فأضفتُ مبررًا:

- لإبراز العلاقة بينكما في تقريري.. مما يُضيف بُعدًا جديدًا لقصتها..

بدت غير مقتنعةٍ ، ومع ذا ابتسمتُ في خجلٍ وأجابت..

- اسمي "بيسان سمعان واصف" .. أعمل رسامةً .. وأكرّس ما تبقى من حياتي لرعاية جدتي.

أرادتُ أن تُعيد الحديث لسياقه الأول ..

- جدتي ترفض الخروج إلى ساحة المنزل الخارجية .. لأنها بطبيعة الحال تشعر بالبرودة طوال أيام السنة .. إنها ترتدي الملابس القطنية والصوفية الثقيلة طوال الوقت. إن جدتي تتذكر حتى يومنا هذا جميع أبنائها بأسمائهم .. وتتمنى رؤية ابنتها "سارة" المقيمة في مصر والتي أسقطت عنها الجنسية منذ عشر سنوات وحرمت من دخول البلاد.

نظرتُ "بيسان" على ساعة الحائط القديمة وقالت بخجلٍ:

- إنها السادسة مساءً ميعاد دواء جدتي ثم النوم.

أحسستُ بالحرج لرقّة أسلوبها وذكائها ، بالفعل أمضيتُ ساعاتٍ أطول من اللازم ، وأسهدني الحديث معها ، خاصة في أول لقاء ، نهضتُ عن الأريكة قائلاً:

- معذرةً كان الحديث شيئاً جدًّا .. لم أشعر بالوقت.

- لا عليك .. كل شيء على ما يرام .. سنكون في استقبالك وقتها تحبُّ.

- بالتأكيد .. تُصبحين على خير.

قالت بالعبرية وهي تفتح لي الباب:

- ليلاه طوف.

ركبتُ سيارتي وانطلقتُ. لم أظفر في حياتي المهنية بحديثٍ أمتعني مثل حديثي مع "بيسان" ؛ أجمل سيدة في أرض إسرائيل ، تحكي لي عن أعظم سيدة معمرة .. الأصالة الأسرة تحكي عن جذورها .. لا بد أن أنجز بقية مهامى الليلة سريعًا كي أتمكّن من العودة إلى "جرزيم" مرةً أخرى في أسرع وقتٍ .. يبدو أن طريقي إلى "تل أفيث" سيكون أطول من اللازم.

## سفر (٤) "أشكنازيّتي"

عدتُ إلى منزلي وأنا في قمةِ نشوتي ، لم أشعر بطولِ الطريق ، دخلتُ إلى مكتبي ، نثرتُ الأوراقَ البيضاءً أمامي ، وحاسوبي أدركته على موسيقى كلاسيكية لأستمعَ بينها أكتبُ تقريرِي ، أشعلتُ سيجارتي بشوقٍ ، قضيتُ ليلتي مسهداً أقلب ما حدث لي في ليلتي السامرية ، ظلُّ صوتُ "بيسان" الساحر يتجوّل في رأسي ويُدغدغني طوال الليل ، حتى تقصّد العرقُ غزيراً من جبهتي ، فلم يهدأ لي بالٌ ولا رأسي استكانَ للهدوء ، يا لها من ليلة!

الأشياء من حولي تبدو جميلةً ، والجميل يبدو أكبر جمالاً ، شعرتُ بفرحةٍ عارمةٍ تجتاحني تكاد تفوقُ فرحة أهل المنزل الفقير بعيدِ الپيسح أو عيد المظال ، حتى أصوات لعب أطفالِي التي كنتُ أنزعجُ منها ، وصراخ زوجتي فيهم ، وبينما أنا منهمرٌ في عملي حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل.. إذ بأشكنازيّتي الحسناء تُناديني وهي في المطبخ:

- حبيبي.. حبيبي.. هل تسمعي يا "يائغ"؟

قالتها زوجتي بلكنيتها الأشكنازية التي تنطق بها الراء غينًا وكأنها تُغرد ، خفق قلبي فور سماعه لنداء معشوقته ، فأجبتها بكل ما أوتيت من رومانسية:

- نعم حياتي أسمعك.. ما الأمر حبيبتني؟

- حبيبي تعال سلِّك بالوعة المجارير.. لأنني لم أعد أطيق رائحتها.

دبَّت الرعشة في أوصالي كأنها أصابني الرِّعَاش.. تجمدتُ مشاعري ، قتلتِ الرومانسية التي كانت قد بدأت تنساب في جوارحي بعد نداءها الأول ، تركتُ الأوراق التي في يدي ودخلتُ عليها في المطبخ وقلتُ لها بكلِّ رقة:

- فقط بالوعة المجارير يا غمري؟

أومات برأسها موافقةً:

- أها..

قلتُ لها منفسًا عن غضبي:

- لو تودين أيضًا أن أجمع أهلكِ كلهم.. وألقي بهم مع الفضلات في أقدر مكانٍ ما قلتُ لكِ لا..

ألقتُ ما بيدها ونظرتُ إليَّ نظراتٍ حارقةً.

تملكني الخوف قليلًا ، ابتسمتُ واستطردتُ مُلطفًا:

- حسنًا لا تقلقي.. يمكنني أن أضع معهم بعض الحريديم.. سوف أذهب إلى غرفة الأولاد أولاً ثم أقتلهم كي يناموا ومن ثم أسلك بالوعة حينا.

ذهبتُ وهي ترمقني بنظرةٍ غاضبةٍ ، استجمعتُ روح المرح:

- لا تخافي سيجد أقاربك من يسليهم في البلاعات.. سلاحف النينجا ومعلمهم..

لم تحتمل وبدا عليها الغيظُ:

- ماذا تقول ؟ هه ؟!

ولم أقف لأسمع باقي الجملة التي تنتهي حتمًا بسبِّةٍ أو لعنةٍ. لا يمكنني أن أفهم كيف تنام متأخرةً وتصحو مبكرةً! هرولتُ إلى غرفة ولديّ "موشيه" و"يوسي"، القردان يلعبان ألعاب الفيديو كعادتهما، وفي هذا الوقت المتأخر، ازداد اتساعُ عينيّ من الحيرة وقلتُ بصوتٍ عالٍ:

- إنه ميعاد النوم.. هيّا أغلقا هذا الجهاز اللّعين قبل أن أدمره.

لم ينتبهّا إلى وجودي على الإطلاق، كرّرتُ تهديدي لكنه لم يحظْ بأي ردِّ فعل، فحاولتُ مرةً أخرى وأضفتُ:

- ألم أقل لكما لا تقتريا من الشاشة هكذا كي لا تُصابا بالعمى؟

قاطعني "يوسي" مُجيبًا:

- ماذا تريدنا أن نفعل؟ أنضع الشاشة هنا ونلعب من يروشلايم.

ضحك "موشيه"، وطرح أخاه أرضًا من كثرة الضحك، ضحكْتُ بدوري ثم حملتهما ووضعتهما في سريريّهما فإذا بزوجتي تدخل علينا بادياً عليها الغضب:

- ألن تكف عن اتهامي الموارب بعدم رعايتي للأطفال.. تلك الشاشة الحديثة لا تصدر عنها إشعاعات ضارة.

التفتنا إليها جميعًا بنظراتٍ لا تخلو من التهكم والسخرية، كان شعرها منقسمًا نصفين وكأنهما قرنان بالضبط، وإذ بنا نصيحُ في صوتٍ واحدٍ:

- اذهب إلى الجحيم أيها الشيطان.

تنحنحتُ وكتمتُ ضحكتها ثم أردفتُ:

- لا تنسَ إلقاء القمامة يا سيد الشاشات.

أوماتُ برأسي معلناً رضوخي لطلبها:

- ولا تنسني يا عمري أن تفكري في العرض الذي عرضته عليكِ بخصوص العائلة.

ولم أستطع أن أتوقف عن الضحك ، أخافتني نظراتُها فاعتذرتُ إليها بعيني:

- لا عليكِ.. سأهتم أيضاً بغسل ملابس الأولاد بعدما أقتلهم كي يناموا وبعد تسليك البالوعة بالطبع.

بعد خروج زوجتي طلب مني الولدان أن أقصَّ عليهما قصة ما قبل النوم كالعادة ، عدلتُ من وضعي قائلاً لهما:

- عليكما الاختيار.. إما أن نتحدث عن الفيلسوف "موشيه بن ميمون" أو الأسطورة "يوسي بنعيون"؟

قال "موشيه" بفضول:

- أولاً يا أبي.. أخبرني من هم السفارديم والإشكينايزيم؟ فأنا دائماً ما أسمعك تنادي أمي "يا إشكنازيتي".

باغتني سؤاله ولكنني فرحتُ لفضوله ، يبدو أنه قد سمع نقاشي مع والدته كاملاً ، أمعنتُ النظر في وجهه ، استوقفني الذهول برهةً ، ودبَّت رعشةٌ في أوصالي ، شعرتُ وكأنني أنظر إلى نفسي في المرأة! ملامحه لم تعاد كغيرةً ولا صغيرةً إلا وقد اقتنصتها من ملامحي! نفس الأعين العسلية المشرَّبة باللون الأخضر ، مغلَّفة بسعفات من الأهداب الطويلة ، له نفس الأنف الدقيق المتوسط الطول ، نفس الشفتين العريضتين النمودجيتين ، والعنق الطويل ، حتى نفس الانحناء

الحنجورية أو كما يسميها العرب "تفاحة آدم" ، ونظرًا لنحافته في هذه السن إلا أنها أكثر مني وضوحًا ، أو بالأحرى بروزًا.

أيًا كان فولدي "موشيه" نسخة مصغرة مني ، وكم أعشق هذا إلى حد الجنون.

أجبتُه وأنا ما زلتُ أبتسم:

- الإشكيناخ هم يهود أصولهم أوروبية مثل أمك ، أما السفارد فهم يهود هربوا من إسبانيا والبرتغال منذ زمنٍ بعيدٍ ثم استقر بهم المقام حول حوض البحر المتوسط والبلقان ومناطق أخرى.

قاطعني "يوسي" صائحًا بتعالٍ ذكّرني بأمه:

- ما معنى كلمة "سفاردي"؟

- عندما نقول إشكناز نعني غربي ونقصد سفاردي شرقي.. لا تنسوا أن هناك أيضًا فلاش مورا وهم يهود أفريقيا السود.

سألني "موشيه" بلهفة..

- ما معنى "مزراحيم" يا أبي؟

- المزراحيم هم يهود الشرق الأوسط الذين كانوا يعيشون بين المسلمين والنصارى.. مثل عائلتي.

سألني مرةً أخرى:

- من أي نوع نحن؟

ضحكتُ على كلمة "نوع" تلك ، وأجبتُ:

- ليست "نوع".. السؤال يكون (من أي الطوائف نحن؟).. نحن من طائفة المزراحيم يا "موشيه" ويُقدر عددنا بأكثر من مليوني نسمة..

داخل مملكة إسرائيل فقط.. وأكثر من نصف مليون خارج المملكة..  
ونتبع المذهب اليهودي السفاردي.. وحاليًا لا يوجد فرق بين  
المزراحي والسفاردي.

سألني "موشيه":

- من هو أشهر السفارديم يا أبي؟
- راف "موشيه بن ميمون" والفيلسوف الهولندي "باروخ سبينوزا".
- من هو "موشيه بن ميمون" هذا يا أبي؟
- بعد طرد اليهود والمسلمين من الأندلس ذهب راف "موشيه بن ميمون" إلى "فاس" بالمغرب ثم انتقل إلى هنا ثم ذهب إلى العاصمة أورشليم.. ثم انتقل بعد ذلك إلى مصر واستقر بها حتى وفاته.. وعمل طبيبًا خاصًا لـ"صلاح الدين الأيوبي"..
- من "صلاح الدين" يا أبي؟
- إنه قائد مسلم انتزع أورشليم من الصليبيين فترة.. وهنا يوجد شارع باسمه.

صاح "يوسي" سائلًا:

- أنا أحب "إيال جولان" يا أبي، ماذا عنه؟
- "إيال جولان" ملك الغناء الشرقي؟ إنه مزراحي يا "يوسي" لأنه ذو أصول مغربية يمنية.
- سألني "يوسي" صارخًا:
- من أشهر الإشكنازيم؟
- العالم الشهير "ألبرت أينشتاين" والعمة "جولدا مائير".
- كم عدد الإشكنازيم؟

- أكثر من ثلاثة ملايين داخل مملكة إسرائيل، بجانب خمسة ملايين تقريبًا في أمريكا، وما يقرب من نصف مليون في روسيا كما أنهم متواجدون في دول متفرقة بأعدادٍ ليست كبيرة.

ابتسم "موشيه" بفخرٍ وقال:

- كم أشعر بالفخر لكوني مزراحياً!

صرخ "يوسي":

- لا بل نحن إشكينازيم مثل أمي.

صرخ فيه "موشيه":

- لا نحن مزراحيون مثل أبي.

صفعه "يوسي" بالسادة صارخاً:

- لا، إشكينازيم. أخبره يا أبي.

ظل الولدان في صراعهما فترةً ، لم تمنعني من أن أسقط في هوة نوم عميقٍ. رافقتني طوال ليلتي أحلامٌ عامرةٌ بوجوهٍ تحمل ملامح واعدة ، لا أعرف أيًا منها ولا لمن تكون!

\*\*\*\*\*

في اليوم التالي ، وكعادتي ، صحتُ فزعًا ناظرًا إلى ساعتِي صارخًا:

- إنها الثانية عشرة ظهرًا.

- أيقظتُك مرّتين ، ولكتُك لم تستيقظ كعادتك.

ظلت زوجتي تُحدثني وهي تُعطيني ملابسِي قطعة قطعة وأنا في قمة توتري بسبب تأخري عن موعدِي مع الجدة العجوز وحفيدتها ، لكن زوجتي كما تعودت منها لم تُقدر توتري فبادرتني:



- ما سر اهتمامك بهذه العجوز؟ ما هي الإسفاردية حقيرة، أليست كذلك؟

نظرتُ إليها وقد بدأ صبري في النفاد:

- إنها ليست سفاردية، وليست حقيرة، بل هي من أسمی الطوائف اليهودية.

نظرتُ إليّ بضيقي وقد قطبت جبينها قائلةً:

- وااا.. يا له من اكتشافٍ عظيمٍ.. لقد اكتشف زوجي طائفةً جديدةً أرقى من الإشكنازية!

ابتسمتُ وأنا أخفي ضحكةً في نفسي:

- لا.. ليست جديدةً.. بل هي الأقدم على الإطلاق.

وبمزیدٍ من الإعجاب والإكبار قلتُ:

- إنهم السامريون.

أجابتنني بكبرياء:

- أنت ثبالغ فلا يوجد مثل هؤلاء.. من المفترض أن يكونوا قد انقرضوا.

قلتُ لها بإصرار:

- عجبًا لكم أيها الإشكنازيم.. أنتم تعرفون من هم السامريون لكنكم لا تُريدون الاعتراف بهم، وتُنكرون وجودهم في الحياة الدينية والسياسية.. لماذا لا تنظرين لتلك المسألة فيما بيننا.. فهناك تشابه.. نحن نختلف فيما بيننا حول ماهية التلمود وما هو الأقدس قراءة التوراة أم التلمود؟ هناك اختلافات دينية لكنها غير جوهرية بينكم وبين السفارديم بسبب اختلاف الأصول.. فأنتم تَبَيَّتم الصيغة الفلسطينية لليهودية..

لمحت "يوسي" يمرُّ من جوار الباب ذاهبًا إلى الحمَّام فختُّ أن يظن أنني وأمه نتشاجر فتصنَّعت أنني أشرح:

- لقد تبنى السفارديم الصيغة البابلية.. وكلا الفريقين اعتقد بالتلمود البابلي. نحن المزراحيم نتبع المذهب اليهودي السفاردي.

فقلت باستنكار:

- لماذا لا تكمل المحاضرة؟ أكمل.. أما يهود اليمن فلهم مذهب ديني خاص بهم.

رأيت ابني يعود فقلتُ بمزيدٍ من التسامح:

- وهكذا تتعدد الاختلافات.. لكننا كلنا يهودٌ ويجب أن نتحاب فيما بيننا.

واجهتني بكبرياء وعدائيةٍ بعد أن اطمأنت إلى أن "يوسي" قد ذهب:

- نحن الأصل في كل شيء.. هم قلة وسيتلاشون قريبًا.. إذا أراد السامري أن يُصبح يهوديًا عليه أن يدخل في الإسلام أولاً.

قالتها في صلفٍ مقززٍ فأردتُ أن أغيظها أكثر:

- أعرف أن العداة وصل لأكثر من هذا الحد.. أعلم أن عداةكم للسامرة أكبر من عداةكم للإسلام.. هذا العداة الطائفي لن يخرج من قلوبكم أبدًا.... أتعلمين لِمَ؟

- لماذا أيها الفيلسوف؟

- لأن السامرية هي الطائفة الوحيدة القادرة على إثبات التزوير في الديانة اليهودية.

تركتها وهي في قمة غضبها، وكالعادة ارتديتُ نصف ملابسي على السلم والنصف الباقي في سيارتي.

أمرتُ محركَ السيارة بصوتي لكنه لم يستجِب لبصمة صوتي  
التي شوّهتها الحشرجة بسبب تعجّلي. تنحنحتُ وأمرته مرةً أخرى  
فسعدتُ لسماع صوت هديره ، الشمس حارقةٌ وينبغي الأيتأخر وصولي  
للعجوز..... أو إلى حفيدتها الجميلة كي أكون صادقًا.. ضغطتُ على  
دواسة الوقود بحركةٍ عنيفةٍ منطلقًا نحو الأصاله الأسرة.

## سفر (٥) "لحظات سامرية"

انطلقت نحو "جرزيم" بكل ما أوتيتُ من قوة ، وصلتُ قبل مواعيدي ، لأجد "بيسان" في انتظاري! تَبَّأ لي. حتى قبل الموعد! رأيتها من بعيدٍ تقفُ منتظرةً ، آه يا سامريتي! يا أجمل نساء الأرض. ما أكملك يا نرجس "شارون" يا سوسنة الوديان. ما فيك عيب ولا نقصان! سامريتي بين النساء كالسوسنة بين الأشواك.

عندما أراها يُدبر الشتاء ، وتنقش الغيوم ، وينقطع المطر ، وتتراقص الأزهار الندية بكل ألوانها وأنواعها مزينَةً وجه الأرض ، ويُقبل الربيع في غير أوانه ، ويحين أوانُ الرقص والغناء. يا إلهي ، ما أعظم صنعك ، ما أجمل سامريتي. ما أجملها.

اصطحبتها في سيارتي لنبداً جولتنا السامرية ، التي كنتُ أنتظرها على أحرّ من الجمر ، أخذتُ تقصُّ عليّ متى ارتحلوا ليسكنوا بالجبل ، فقالت لي:

- انتقلنا للعيش هنا منذ الانتفاضة الأولى عام (١٩٨٧) لأن الحرارة أصبحت لا تستطيع أن تتحمل المزيد من أبناء الطائفة نظراً لحالة الانفجار السكاني التي تُوْرَق البلاد.. في القرن التاسع عشر كانت أعدادنا تتراوح ما بين مائة وخمسين ومائتي نسمة.. وكنا نعيش في حي الياسمين في مدينة نابلس القديمة.. وكان معظمنا من الباعة والحرفيين.. وبشكلٍ عام لم نكن من الأثرياء.

وعندما اقتربنا من أحد الحواجز الأمنية قالت:

- لقد اقتربنا الآن من الحاجز الأمني الإسرائيلي.. هذا الحاجز موجود منذ الاجتياح العسكري الإسرائيلي للمنطقة عام (٢٠٠٢)، وهذا الحاجز مسئول عنه جنود جيش الاحتلال، يفتح في تمام الساعة صباحاً، ويتم إغلاقه في الثامنة مساءً، أصبح هناك ضغط يواجه أبناء الطائفة لقضاء حاجاتهم في هذه الثلاث عشرة ساعة، وأصبحنا نُعاني كثيراً عندما يأتينا زائر، أو نذهب لزيارة أحد، سترى الآن، إنك أحد الزوار لذا عليّ أن أترك هويتي عند الحاجز وكذلك أنت، يقوم جنود الاحتلال بتفتيش سياراتنا في الخروج والدخول، لقد تسبب وجود هذا الحاجز في قطع العلاقات الاجتماعية، إن تسعين بالمائة من أبناء الطائفة عليهم النزول إلى "نابلس" للدراسة في الجامعات، كذلك هناك موظفون بالمصالح الحكومية المختلفة، والشركات الخاصة والبنوك، وتنطبق حياتنا مع حياة أهل نابلس تماماً.

يا للمأساة المريرة، إنها فعلاً مأساة ولا شك في ذلك، كيف لهم قضاء حاجاتهم في نصف يوم فقط؟ هنا بالذات على الحياة أن تصبح طبيعية، نظراً لأهمية المكان، من الناحية الاجتماعية، ومن الناحية السياسية، لقد وصلنا الحاجز بالفعل، أخرجت "بيسان" هويتها استعداداً لإعطائها للجندي، وكذلك أخرجتها أنا وأعطيتها للجندي الذي قال:

- افتح غطاء الصندوق الخلفي للسيارة لنقوم بالتفتيش.
- وما أن نظر الجندي في هويتي وقرأ اسمي حتى نظر إليّ بتمعنٍ وقال بصوتٍ مرتفعٍ لجندي آخر كاد أن يبدأ في فحص مؤخرة السيارة.
- لا داعي للتفتيش.
- ثم نظر إليّ وابتسم قائلاً:
- آدون "ياأيغ" نحن من أشد المعجبين بك، تفضلوا هوياتكم، يمكنكم المرور والعودة في أي وقت، فلا بد أن سيادتكم تُعدّون حلقة مهمة.
- فأجبتُه بابتسامةٍ مصطنعةٍ:
- بالطبع، أتمنى أن تتابعوا هذه الحلقة باهتمام.
- فأجابني:
- طبعًا سنفعل، نتمنى لكم أوقاتًا طيبة في "شخيم" يا سادة.
- هكذا تلفظ باسمها بلكنته الإشكنازية المريعة التي تفقدني صوابي.
- بعد مرورنا من الحاجز أخذت "بيسان" تهز رأسها متهمكةً على الرغم من أن ابتسامتها لم تُفارق وجهها، وأخذت تكمل دورها كمرشدٍ سياحي على أكمل وجه، لهذا الجاهل الإسرائيلي صاحب النفوذ! الذي يجلس إلى يسارها:
- نحن الآن في شارع "فيصل" حيث يُصبح على يسارنا جبل جرزيم، وإلى اليمين جبل "عيبال".

انتقلنا بعد ذلك إلى حي "الغروز" بنابلس، وقالت لي إنهم يقطنون به منذ عام (١٩٢٧) بعد أحد الزلازل المدمرة، وخوفًا من وقوعه مرة أخرى، وكذلك بسبب الرطوبة والأمراض، في البلدة القديمة لعدم وجود شمس، ثم انتقلت مجموعة أخرى منهم في عام (١٩٣٦)،

وكذلك في عام (١٩٤٨) حيث تم بناء كنيس بالحي ، ثم أضافت ونحن أمام كنيس سامري قديم ، بدت عليه آثار التجديد واضحة:

- إن الكنائس عند السامرة يجب أن تكون أبوابها ناحية الجنوب، وعند الصلاة يجب أن نتوجه ناحية القبلة حيث جبل "جرزيم" ، والشعار عند المدخل عبارة عن سبعة مصابيح إنارة..
- المينوراه.. أعرفه جيداً..
- هذا هو شعارنا المعروف.

ثم أخذنا نتجول معاً على مهل وهي لا تكل ولا تمهل من التحدث عن الطائفة ، وأنا في حقيقة الأمر أستمتع بشكلٍ غير مسبوقٍ ، ولا أريدها أن تتوقف عن الكلام حتى لالتقاط أنفاسها ، فإن كانت ستتوقف عن الكلام فمن يحق له أن يتكلم؟

قلتُ لها:

- حدثيني عن عيد الفصح..
- ابتسمتُ وأعتقد أنها قد فهمت مغزى سُوالي ، فهي تعرفُ أنني لا أجد شيئاً للحديث حياله ، قالت بنغمةٍ محببةٍ إلى قلبي ، حقاً أدمنتُ صوتها:

- إنه ذكرى خروج بني إسرائيل من مصر.. هل تعلم ذلك؟
- نعم أعلمه جيداً..
- في هذا العيد يجب أن يكون بنو إسرائيل أو أبناء الطائفة السامرية جميعهم موجودين للمشاركة في هذا العيد على جبل "جرزيم" بشطريه..
- "نابلس" و"حولون" ..

- بالضبط.. يجيب علينا جميعًا المشاركة في هذا العيد.. لأن كل إنسان لا يحضر هذا العيد لا يعتبر سامريًا.. لأن هذا اليوم تحديدًا هو يوم سامري مميز..

- رائع جدًا.. وماذا بعد؟

- تشتعل نيران القرايين التي تُقدم للتقرب من الرب.. وتُحشر عشرات الخراف قرب المذبح الخاص بذلك في جبل البركات انتظارًا للحظة غروب الشمس التي نكلل فيها احتفالاتنا لأكثر اللحظات قداسة في هذا العيد.. عندما تكون الخراف جاهزة تمامًا ننتظر عملية إنزال الخراف إلى داخل الجوار المشتعل..

- وما المطلوب بعد إتمام عملية الذبح؟

- يهنئ أبناء الطائفة بعضهم بعضًا.. أولئك الذين قاموا بالشعائر..

- كيف تهنئون بعضكم؟

- نقول "كل عام وأنت سالم" .. وأنت تجيب..

قاطعتها وأنا أبتسم:

- وأنتِ سالمة..

- تمامًا.. وبعد مرور أسبوع على العيد، يبقى الجميع يترقبون فجر اليوم السابع للعيد إعلانًا لبدء رحلة الحج إلى جبل البركات والفرائض.. جرزيم..

شكرتُها على المعلومات وتبادلنا الصمت معًا ، ولكنها قررت قطع الصمت أخيرًا:

- هل تعرف شيئًا عن علم الفلك؟

- بالطبع لا..

- السامريون توارثوا هذا العلم عن أسلافهم منذ عهد يوسف الصديق إلى يومنا هذا.. كهنتنا المختصون بهذا العلم يستطيعون تحديد مواعيد الأعياد لمئات السنين المقبلة.. لدرجة أن المسلمين يأتون لاستشارة كهنتنا لتحديد رؤية هلال شهر رمضان..
- حقًا؟ لكن كيف؟
- هذه المعلومات تبقى سرية.. وثُورث للكهنة فحسب.. ولا يفشون هذه الأسرار للعامة..
- ماذا عنك؟
- أعرف القليل الكثير..
- كيف؟
- القليل بالنسبة لكهنتنا.. والكثير بالنسبة لك؟
- لماذا؟
- لأن جدتي ابنة كاهن فلقد تعلّمت الكثير من أبيها.. كذلك أنا تعلمتُ منها الكثير..
- ابتسمتُ وقد أخرجتُ كتابًا صغير الحجم من حقيبتها ، أعتقد أنه نسخة من التوراة السامرية ، وقالت لي بحماسة:
- ضع إصبعك هنا كي أرى طالعك..
- ألن تسأليني عن تاريخ ميلادي؟
- من قال لك تلك المعلومات المغلوطة!
- هذا ما يتناقله الكثير..
- تاريخ الميلاد لا يهتُّ للإنسان بصلة.. حسب معتقدنا..
- حقًا؟

- علم الفلك يقتصر ما بين الاسم واسم الأم.. وبعد الزواج ما بين الاسم واسم الزوج..

- أنتِ أعلم مني يا سامرية.. هاك إصبعي.. واسم أمي هو "عوفرا"..

وضعتُ إصبعي بين طيات الكتاب ، وبعد فترةٍ وجيزةٍ سمحتُ لي بإخراجه ، نظرتُ إلى الصفحات وهي تبتسم ، ثم أخرجتُ مذكرةً صغيرةً وقلماً وأخذتُ تكتب أحرفاً عبريةً قديمةً لا أعرف عنها إلا القليل! ثم حوّلتُ هذه الأحرف إلى أرقامٍ بجوار بعضها البعض ، وأخذتُ تحوّلها مرةً ثانية ولكن هذه المرة إلى اللغة العربية ، ثم نظرتُ إليّ وهي تبتسمُ قائلة:

- لن تحصل على كل ما تريد.. لكنك ستصل إلى الحقيقة التي تبتغي يوماً علّه قريبٌ.. عليك بالصبر فإنه صاحبك في طريقك الذي تسلكه بعيداً عن كل ما تحب..

أذهلني قولها ، وأخذتُ أحرق بها لوقتٍ طويلٍ وهي ما زالت تبتسمُ إليّ متعجبة ، وقالت:

- إذا أردت أن تعرف المزيد عنا عليك بالذهاب إلى الكاهن الأكبر..

- سأفعل.. يجب أن أفعل ذلك..

تبادلنا الصمت مرة أخرى ، وطال الصمتُ بيننا أكثر وأكثر ، وهي شاردة في نظرها إلى اللاشيء ، ولكنني قررتُ أن أقطع الصمت المرير بسؤالٍ جريء ، لم أتردد في سؤاله:

- "بيسان" هل لي أن أسألك سؤالاً خاصاً..

- تفضل!

- لماذا كل هذه التضحية من أجل الجدة؟

نظرت إليّ عند سُؤالي ، ثم نظرت نحو قدميها وتنهدت أطول تنهيدةٍ سمعتها في حياتي كلها على الإطلاق ، ثم رفعت عينيها لتنظر في المُطلق :

- في إحدى الليالي وقد عدت متأخرةً إلى المنزل.. كنتُ أداوم على الخروج للبحث عن عمل.. وجدتُ جدتي طريحة الأرض.. غارقة في دموعها.. ينتفض جسمها الهزيل كله لكل دمعةٍ تتساقط من عينيها.. ووجدتها تقبض بيديها على ورقةٍ.. عانيتُ الأمرين حتى استطعتُ حملها ووضعها على فراشها بعدما أعطيها دواءها..

- ماذا حدث بعد ذلك ؟

- بعدما تأكدتُ من أنها بخير.. وقد نامت ووجدتها قد بسطت يديها.. فأثارني فضولي لأعرف ما الذي بهذه الورقة..

- وعرفت ما بها ؟

- بالطبع.. فلقد كاد الفضول أن يقتلني..

- ماذا كتب بها ؟

أخرجتُ ورقةً قديمةً من حقيبتها وقرأتها عليّ :

"أي بنيّ...أيا قرّة عيني..

عندما يخطُ الزمنُ على وجهي لمحاته العميقة القاسية.. ويتبدل الأمرُ لديّ من بعد قوّةٍ ضعفاً.. ستراني عجزواً هزيلةً، عندها من فضلك..أرفق بي قليلاً..وكنْ بي صبوراً حليماً كما كنتُ لكِ دوماً. وتذكر أنني كنتُ أدخركَ لهذا اليوم..

لا تضجر من ضعفي ووهني.. فما ضعفتُ قواي إلا وأنا أتعهدك وأداوم على تلبية حاجاتك.. ولم يأخذ مني الزمان إلا بقدر ما أعطيته

لك.. فأنا من أفنيثُ شبابي وأيامي وأنا أربيك وأودبك وأعلمك لكي  
تواجه الدنيا بقلب فتية..

فكن لي يدًا إذا ارتعشت يداي.. وكن لي قدمًا إذا ما خارت  
قدماي.. ولا تحرمني من عطفك، وتذكر أنني قد أخذت بيدك كثيرًا  
لكي تستطيع أن تمشي..

فلا تستحي أبدًا أن تأخذ بيدي اليوم.. فغداً ستبحث عن من  
يأخذ بيدك..

في سني هذه اعلم أني لست مقبلةً على الحياة مثلك.. ولكنني  
ببساطةٍ أنتظر الموت! فكن معي.. ولا تكن علي..

كن لي عقلاً إذا تسربت ذاكرتي بين طيات الزمان.. فلا تملّ من  
ضعفها وبطء كلماتي وتفكيرتي أثناء حديثي إليك.. لأن سعادتي في  
المحادثة هي أن أكون معك لا أكثر.. ساعدني لقضاء ما أحتاج إليه  
فحسب.. فما زلتُ أعرف ما أريد..

عندما ترجعُ بذاكرتك إلي الأيام الخوالي فتذكر فرحي بقدمك  
ولهفي علي غيابك..

ما زالت ضحكاتك وابتساماتك تفرحني كما كنت بالضبط..

وحين تتذكر قسوتي.. فتذكر أنها ما كانت إلا لتكون الأفضل  
دائمًا..

فلا تحرمني صحبتك..

لقد خباتك بين أضلعي حتي خرجت وليدًا.. وحنوتُ عليك  
بشغاف قلبي كي لا تظل وحيدًا.. وظلللتُ أحتضنك طيلة عمرك  
أعينك على حياتك يا صغيري لتكون لي عند مماتي..

تذكر أنني كنتُ معكَ حين ولدتُ فكُنْ معي حين أموتُ."

ثم طوّتِ الورقة بحذرٍ ملحوظٍ وأعادتها مكانها بالحقيبة ، ودموعها تتساقط على خديها بلا انقطاع ، كذلك أنا لم أتمالك نفسي منذ أن بدأتِ القراءة ، أقسم أنني اشتقتُ لأمي كأنني لم أشتقُ لشيءٍ من قبل قط ، أخذتُ أكفكف دموعي الذي أبي أن يتوقف ، وهي ما زالت تُكمل حديثها..

- بعدما قرأتها ليلتها أخذتني موجةٌ عارمةٌ من البكاء.. وارتعشَ جسدي كله كأنها أصابتني صاعقةٌ كهربائيةٌ.. دخلتُ إلى غرفتها مرةً أخرى وضممتها إليّ بقوةٍ وأخذتُ أُقبِلُ رأسها ويديها وقدميها.. وأقسمتُ ألا أفارقها أبداً.. وأن أكمل ما بقيَ لي من عمرٍ عاكفةً على خدمتها.. إن كنتُ أنا من تبقى لها.. فقد قررتُ بكامل قواي العقلية أن تكون هي كل ما تبقى لي.. عليّ أن أعوّضَ النقص الذي تسبّب به أبي.

- وما علاقة والدكِ بذلك النقصان ؟

- موت أبي هو من تسبّب بدخول الجدة في هذه الحالة المزرية..

- كيف ؟

- لقد شارك أبي في الكثير من العمليات الفدائية وهو في صفوف المقاومة الفلسطينية.. لقد كان مثلاً وقدوةً للمناضلين.. ومن أكثر من قاوموا الاحتلال.. كنتُ أرى جسده مليئاً بالإصابات.. لكن الرب قد كتب له عمراً جديداً.. وبعد إحدى العمليات أُلقي القبض عليه.. وانتقل إلى غزة بإقامةٍ جبريةٍ.. ومات أثناء الانتفاضة المباركة.. لكن جدتي لم تستوعب موته.. فلقد كان الوحيد من بين أحفادها الذي تكفل برعايتها بعد موت أبيه.. جدي.. وسأداوم أنا على رعايتها مهما كلفني الأمر.. فهي تستحق أكثر من حياتي..

شعرتُ بأنني أبكم لا أقوى على التفوه بشيء ، حقيقة ماذا يمكن أن يُقال بعد الذي قرأته عليّ ؟ لا شيء على الإطلاق ، لقد لخصتِ الجدة

ما بداخلها في تلك الرسالة القديمة ، تلك الرسالة التي توارثها أسلافنا من العرب ، نداء استغاثة غاية في البلاغة والرقي ، نظرتُ إلى "بيسان" لأجدها شاردةً تنظر في المطلق ، نهضتُ تمشي الهُوَيْنَا إلى اللامكان ، فنهضتُ بدوري لأتبعها ، ذهبتُ مباشرةً صوب سيارتي ، ثم فتحتُ بابها وجلستُ ، كذلك فعلتُ أنا أيضاً ، وانطلقتُ بالسيارة لأعيدها إلى منزلها.

أوصلتها إلى بابها ، دون أن تتفوه ، حتى لم تودّعني بنظرةٍ واحدةٍ ، ولا حتى التفاتة! انطلقتُ في طريق العودة إلى البيت ، وأنا أتذكر كل كلمة قد قرأتها عليّ ، ودموعي ما زالت تنهمر دون هوادةٍ.

**"كنتُ معك حين ولدتُ فكنُ معي حين أموت"**

لقد أصابتنني تلك الكلماتُ بغصّةٍ فطرتُ قلبي ، وضيقتُ عليّ حياتي ، أجبرتني على الحنين لأمي...

أماه أين أنتِ ؟ لكم أحتاجُ اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى ، أحتاج إلى البكاء على كتفكِ حتى تشفى ألامُ صدري ، أشتاقُ إلى دفء أنفاسكِ التي تجعل السكينة تسري في جوارحي فيبتهج وجداني ، أفقد يدكِ الحانية وهي تربتُ على ظهري فتعيد الطمأنينة إلى قلبي المثقل بالآلام ، لا أتمنى من الدنيا سوى نظرةٍ ، نظرةٍ واحدةٍ فقط إليك... تكفيني.

أين أجدكِ الآن ؟

أين أنتِ أماه ؟

ما أقسى الاشتياق لأحدٍ لن تراه مجدداً ، ولن يأتي مثله في حياتك أبداً ، ولن يعوّض مكانه أحدٌ.



## سفر (٦)

### "اللقاء"

إشراقة أمل المحها منذ الأمس قادمةً لتدفع قلبي. الشمسُ اليوم حارةٌ في "تل أفيث"، لكنها دائمةً حانيةً أنيقةً في "شخيم"، تربت على جبل جرزيم. ليتها تظلُّ كذلك في قلب مملكتنا الكبرى، مملكة أجمل الأوطان، أرض الميعاد، بيت الرب، يسكنها أعرق شعب. في الطريق الذي صرتُ أحفظه، راقبتُ عناق الشمس للسماء وتقلُّبها في حضنها برقةٍ ولطفٍ لتنيرَ الأرض، أرضنا أرض الجمال، حيث تتراقص الأزهار الندية بألوانها السرمدية؛ لتزين برونقها حقولَ أيقونة الحضارات، ومهد الأديان، والجمال، راسمةً إبداع "العلي" في أجمل لوحة.

صباح الخير يروشلايم. ما أجمل صباحكِ بابتسامةٍ تُنير كوننا الصغير وتصنع طريقًا مليئًا بالتفاؤل والأمل، لولا نداء الأصالة ووعده اللقاء تحت جرزيم، للبيتِ نداء جمالِكِ المقدس!

مملكتنا حالةٌ فريدةٌ من نوعها، كونٌ صغيرٌ متناغمٌ متكامل النسق، ينسجم مع الكون الأكبر، متفاهم، متعاون.. فالمبدأ واحدٌ؛ نحن

قلب المملكة ، والمملكة قلبنا ، فهي منحة "العليّ" لنا ، كي نتصر في مكوناته صانعين وجودًا مغلفًا بجمال الخالق ، ملتزمين به كيانًا أبدياً . أبناء الله نحن ، ورسَل جماله في هذا العالم .

أية نبوءةٍ كان يُمكنها أن تتوقَّع أن أتذوق يوماً كلَّ هذا الجمال ؟ بل أي معجزة تلك التي تحدث لي ؟

تجلّى وجهُ "بيسان" من خلف الباب ، أشرقت ابتسامتها العفوية عن أسنانٍ كاللؤلؤ المرصوص ، أنارت ثغرها البهّيّ ، لا.. بل أسنانها قطع من النعجات مجرّوزة بيضاء ، قد خرجت من الماء كلها مُتئمّ ، وليس فيها عقيمٌ ، كانت تنتظر قدومي ولا شك ، تقدمتني لأرى ضفيرتها السوداء المتفحمة الطويلة ، كقطع العنزات الرابض على قمة جبل "جلعاد" ، كلما ابتسمت ينتفضُ كيانِي ، وأمعن أكثر فأكثر في النظر إلى فمها الساحر ، وأدمن التأمل في شفيتها ذلك الخيط القُرْمِزِيّ الشهي ، وخديها المتأججين كشطر الرمان . آه من عنقها وألف آه ! عنقها جميل بين أسماط اللؤلؤ ؛ تستحق أن أصنع لها بيدي قلائد من الذهب موشاةً أطرافها بالفضة .

شعرتُ وكأنها سبّت قلبي بنظراتٍ عينيها ، وتركتُ روحي تُغادر جسدي تسبقني إليها ، وتعود إليّ مرةً أخرى بطريقةٍ لم تدونها أساطير الأمم السابقة ، أسطورة لم تُذكر في أي كتاب من قبل ، أسطورة تخصني أنا ، وحدي فيها البطل والضحية . ليس مطلوباً مني إلا أن أزيد جرعة التركيز في وجهها الجميل الذي يقطر سعادة .

ما بين كلمات الأوصاف الكامنة بنشيد الإنشاد الذي لسليمان ؛ وبين صياغة "توفيق الحكيم" الأسطورية له والمزج بينهما ، تأسرنِي حالة من التخبُّط منذ تعرفت على "بيسان" وحسنها ، لتقتلني الحيرة بين توهج شمس سامريتي الحسناء ، وبين بريق الثلج حيث دوقيتي

سليلة القياصرة ، زوجتي ، إشكينازيتي الجميلة ، الشهية بطعم التوت البري ، المتوجة بخُصَلات شعرها الذهبية المجدولة ، ووجهها المرمرى المزركش بالنمش بطريقةٍ مبعثرةٍ شهيةٍ ، هي التي جعلتني أشتهي النمش الذي ما استهواني ذات يوم إلا بعد أن رأيته على صفحة وجهها المضيء ، جميلتي ذات العينين الخضراوين كمروج العشب ، ناصعتين كالقوارير الفضية التي مُرِدَّت في صرح "شلومو هاميلخ" (الملك سليمان) ، متأججتين كلهب شمس متوجة على عرشها النوري في كبد السماء . وشفتيها الأَقْحوانيتين الحمرالوين تقطران الشهد ، وتحت لسانها أنهارٌ تجري من العسل واللبن ، وشذاها أطيب من كل الأطياب ، أما رائحة ثيابها النفاذة تفوح منها روائح أريج لبنان الأخاذ . هي ينبوعي المختوم ، وجئتني المغلقة .

صدقتِ "مايا أنجلو"<sup>(١٦)</sup> إن الحب مثل الفيروس ، يمكنه أن يصيب أي شخص وفي أي وقت .

آه آه! "بيسان" تُحيي داخلي كل جميل عرفته أو لم أعرفه .

جلسنا ، طلبتُ مني أن أروي لها قصتي ، كانت لدي شهية لأن أتكلم معها ، لكن رغبتني في أن أسمعها كانت أكبر . لذلك أخبرتها أن تكمل ما لم تكمله في المرة السابقة ، كان كلامها وطريقة قصّها وكأنه قصائد الحب الندية ، كان حديثها العذب يثير جنوني ويُبهبجني كعصفورٍ صغيرٍ نجح لتوه في الطيران للمرة الأولى ، ليس عليّ الآن إلا أن أغرق في طبرية هذه البيسان ، "بيسان" الشامخة الطبع ساقمة السيقان كأبراج داؤد المشيدة للسلاح مُعلق عليها ألف ترس وترس من أتراس الجبابرة . سامريتي ، كاملتي ، عظيمة مُهابة ، مُرهبة كجيشٍ بألوية ، هي الأكثر إشراقاً من الصباح ، جمالها يُجبر القمر على الخسوف ، ويحكم على الشمس بالكسوف .

حقًا إنها لمسألةٌ مُخيفةٌ ، وجدتني أجلس أمامها لأوقاتٍ طويلةٍ جدًا ،  
أعشق التأمل في وجهها الجميل ، كان كلامها كأنه صوت "فيروز"  
ممتزجًا بمذاق قهوتها السامرية الساحرة لحظة الشفق ؛ عندما تتلاطم  
أمواج المتوسط على شواطئ "حيفا". ولا يعينني بتائنًا كيهودي مزراحي  
أن أعشق صوت "فيروز" ، فمعظمنا ههنا مُتيم بغرام صوتها الذي منحه  
لها الرب من مزيج مصطفَى لتغريدات طيور الفردوس في جنات عدن.  
كلما طالت جلستي مع "بيسان" ؛ كلما أدمنتُ قهوتها وأسألها هل  
من مزيد؟ فتزيدني. قهوتك يا سامريتي عُمرٌ مديدٌ ، في كل مرةٍ أدعو  
الرب ألا يفرغ فنجاني ، ولكن هيهات ، كل شيء لا بد وأن ينتهي.

أواه! زادت حيرتي أكثر وأكثر ، ويا لها من معادلةٍ بين جميلتين  
تساويان في المقدار تتضادان في اتجاه الدوران بي صعودًا ونزولًا ،  
أه يا قلبي يا لك من راقصٍ تتأرجح بين المسرح والكأس! والزبون  
دائمًا يشتهيك ، أما أنتَ فلا تعلم أي الفريقين تستهوي ، هل أصاب  
العهرُ قلبي؟ وأصبح يتسع لأكثر من واحدةٍ؟ أو أنه كما قال نبي الشعر  
الفلسطيني<sup>(١٧)</sup>:

"لَا أُرِيدُ مِنَ الْحُبِّ غَيْرَ الْبِدَايَةِ"

وما أروعها من بداية!

هي التي تقتلني لهفةً عندما ألقاها ، وهي التي تلوعني شوقًا حين  
تُفارقني ، أواه يا سامريتي.. رحماك يا "إلوهيم". رحماك من هذا  
العذاب!

ظلتُ متأرجح القلب بين المشاعر المتأججة تجاه إشكنازيتي ،  
وانبھاري بصلابة السامرية ، أشعر بأنني أذوب ولها ولهفةً ، كربانٍ فقدَ  
بوصلته في عرض اليمِّ لا يقوى حتى على مناجاة "يَهُوَه" كي يقوده إلى

يابسة الأمل ، كملاح اجتاحه إعصار اليأس يتقاذفه الموج كيفما شاء ،  
وتعصف به الرياح أنى شاءت.

أفقتُ من هذا الحلم الجميل ومن هذه المقارنة التي أخذتني بعيداً  
عن الواقع بحلاوته ومراراته. في الحقيقة لم تكن مقارنةً بين امرأتين  
جميلتين ، بل كانت مقارنةً بين أحلامي الحقيقية التي أعيشها ،  
وأحلامي الضائعة التي أبحث عنها.

أه من إشكنازيتي ، وأواه من سامريتي ، قلتها وأنا على أعتاب ستيديو  
برنامجي الذي أعادني إلى الواقع مرةً أخرى (هنا إسرائيل). البرنامج  
الذي حلمتُ أن أنفذ فكرته بعد سنواتٍ من العمل الشاق في الصحف  
الإسرائيلية ، وأخيراً نَوَّجَ الرب هذا القدر بأن يكون على شاشة أشهر  
قنوات المملكة.

أذكر عندما عملتُ في الصحف الإسرائيلية بعد أربع سنواتٍ من  
تخرُّجي وبعد ضغوطٍ كثيرةٍ ، مع أنني ثالثُ دفعتي ، لم يكن الإعلام  
المرئي هو هدفي على الإطلاق ، بل المقروء المتمثل في الصحافة ؛  
حيث البحث ، والتحرِّي ، وتقصِّي الحقائق ، إنها الكتابة. متعة الكتابة  
أن تتقمص الخطوات السابقة ثم ترسم بقلمك مستقبل الأحداث ، وأن  
يقرأ الناس ما خطَّه قلمك ، والناس من جمهورنا نوعان: نوع يقرأ ،  
والثاني يستمع. وأنا أفضِّل بالطبع القارئ عن المستمع ، فالقارئ يبحث  
عنا ليُعرف ما كتبته ، أما المستمع يمكن أن يجدك مصادفةً أو يدعك  
تقول ولا يشغله كثيراً ما تقول. غير أنني لم تدم لي هذه المتعة كثيراً.

بعد سنواتٍ من العمل في الصحف كمراسلٍ في صحيفة "يديعوت  
أحرونوت" ، ثم كمحررٍ في صحيفة "هآرتس" ، وكاتب عمود أسبوعي  
في نفس الصحيفة ، أرسلَ الرب منحته لي عبر فرصةٍ كبيرةٍ كي أقدم  
برنامجي على شاشات إحدى أكبر القنوات في إسرائيل على الإطلاق.

أوه يا "لوهيم"؛ لم أكن أتوقع منك هذا القَدْر؛ بعد ما لاقته آخر كتاباتي من نقدٍ لاذعٍ أدى إلى إقالتني من جريدةٍ أسبوعيةٍ أكره تذكُّر اسمها، بعدما تحدثتُ عن العنصرية الشديدة الموجودة داخل المملكة، وعن الصراعات الدائمة بين العصابات العائلية والإرهابية كـ"أبو طبول" و"المافيا الروسية". لم أكن أتوقع أن نفوذهم داخل الصحافة قد وصل إلى هذا الحد الذي يُوَدِّي إلى إقالتني!

أفنيْتُ تسعة أعوامٍ كاملةٍ في برنامجي ليكون أول وأكبر برنامج يستحوذ على أعلى نسبة مشاهدةٍ في المملكة، لم يكن هذا سهلاً أو بسيطاً. كان لا بدَّ من تدايير وحروبٍ بيني وبين إعلاميين، وصحفيين، وساسةٍ، وعنصريين، ورجال أعمالٍ مصلحين.. ولكنني تغلبت عليهم بأمورٍ تتوارى خلف القلم وتتدبَّر بالكلمة.

كان ما انتهجته كفيلاً بالدفاع عني حتى وصلت مصداقية ما أقدمه إلى أعلى درجةٍ بيني وبين جمهوري، هذا ما كنتُ أحلم به، وهذا هو ما حققته، وبجوارري زوجتي "سارة". لا أنسى قطُّ دعمها لي عندما تعرضتُ لأكبر حملة تشويه تطول المشاهير من جانب الحكومة الإسرائيلية بأني مُعادٍ للإشكنازيين. أظهر عداؤك للممارسات الحكومية، فتُظهركَ الحكومة عُنصرياً، حسبما يتراءى لهم، وقد ارتأوا لي أنني مُعادٍ للإشكنازيين. كادت هذه الحملة أن تُوقع بي وتُوقف مستقبلي كله، طبعاً استطعت أن أتعامل مع الأمر حينها، ولكن كان أكبر داعمٍ لي كان حب "سارة" لي ووقوفها بجانبني ودفاعها عني في كل مكانٍ بعصبيتها المعهودة.

سارتي مثل القطة الجميلة، ولكنها حين تغضبُ تصبح قطةً بريئةً شرسةً، وهو ما أعشقه فيها.. في ثاني مرّة التقينا بها؛ لم تصدِّق نفسها ولم أصدِّق نفسي! كان قد مضى على لقائنا الأول في "يافو" (١٨) أربع

سنوات ، كنتُ مراسلاً لـ"يديعوت أحرونوت" ، وكانت مربيةً في حضانة أطفال. في تلك المرة الثانية ، صارحتني بدموعٍ تسلّلت من عينيها الخضراوين..

- لقد وعدتُ أسرتي بعدم لقاءك مرةً أخرى.. لأنك لست من مستوانا الهادي ، أو الاجتماعي.

قالتها ولم تكن تقصد إهانتني ، قالتها وكأنها تحميني أو تحمي ما انغرس ونها وترعرع بداخلنا ، قالتها وذهبتُ ، تركتني حزينا بعدما انتزعتُ يدها من يدي ، والتي لم أحس بنعومة يد أي امرأةٍ أخرى في حياتي ؛ إلا عندما لمستُ هي يدي في لقائنا الثاني ، وتركتُ يدي خاويةً باردةً.

- أحبك..

- وأنا أيضًا أحبك..

- ماذا أتى بك إلى هنا؟

- أعمل كمحررٍ صحفي.

- حلمك..

- أقل من حلمي بكثير..

- لا تكن متسرعا.. ستصل إلى حلمك..

كانت أول مرةٍ تتنبأ بما سيقع وكأنها تقرأ المستقبل.. وما زالت حتى الآن تذكّرني بذاك اللقاء حين قالت:

- أريدُ أن أنجب منك.. أترغبُ في ذلك؟

دقَّ قلبي دقاتٍ سريعةً ، لم أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول ، لكنني ابتهلتُ للرب: "كن معي".. ولم تمهلني "سارة" الوقت الكافي لالتقاط أنفاسي أو للتفكير لوهلةٍ حتى أعادت نفس السؤال ، فأجبتُ على الفور:

- نعم..

أمسكت بيدي وقالت:

- إذن هيا بنا..

- أين؟

- سأنتقل للعيش معك..

قلت متلعثمًا:

- وعائلتك؟

- فلتذهب العائلة إلى الجحيم.

كانت فكرةً مجنونةً ، أعترف بذلك . وعلى الفور انتقلت للعيش معي في شقتي الصغيرة ، كل شيء كبر معنا بهوادة ، نمت علاقتنا أكبر فأكبر ، كنا ننتقل من شقةٍ لأخرى أفضل منها ، انقضت السنوات وحبنا يزداد يومًا بعد يوم...

هل أحبها؟

كلا ، بل أعشقها.

لم أعرف أيامًا سعيدةً في حياتي قبل تلك الأيام التي تذوقت حلاوتها بين أحضانها ، وحين حملت بطفلنا الأول قررنا الزواج.

- الساعة الآن التاسعة إلا الربع.

داهمني "ماكيري" بجملته تلك ، فقفزت من زورق ذكرياتي وخرجت من حجرتي الخاصة ، جاهزًا للظهور على الهواء مع "بيسان" ، كما أنا ، بلا ماكياج. اخترت أن أكون معها بلا أية إضافات.

جلست أمامي مستعدةً للظهور ، وأنا أرتب أوراقتي وأسئلتني.

وكانت البداية..



- لم يكن جديدًا علينا أن نتجاهل تاريخنا المجيد.. هكذا تتعمد حكومتنا مع السيدة "راحيل شلومه نهمان" الساكنة بالقدس منذ حوالي مائة واثنين وعشرين عامًا.. إنها أقدم سيدة على ظهر الأرض، وُلدت في ظل الاحتلال العثماني مرورًا بالانتداب البريطاني عام (١٩١٨) وصولاً إلى معجزة مملكتنا الحبيبة. إنها تاريخنا الحيّ الكامن بيننا الآن، ومع ذلك لم نذكرها بل نتجاهلها! لم تُقدم إليها الحكومة الإسرائيلية أي مساعدة، بل لم تستمع الحكومة إلى ما مرّت به في حياتها، ولم تؤرخ لهذه الحياة، ولا يصيبنا فزعٌ أن الحكومة لم تُقدم إليها في محنتها الصحية الأخيرة أية عناية تُذكر! إن السيدة "راحيل نهمان" تسطر للتاريخ هذه الحياة.

وبدأ البرنامج مع موسيقاه العالية، التي أشرفتُ بنفسي على اختيارها، والتي تكاد تُوحى بحربٍ وشيكةٍ، نظرتُ إليّ "بيسان" معجبةً بهذه المقدمة عن جدتها وقالت لي:

- شكرًا.

نظرتُ إليها وابتسمتُ ومع دخول ضوء الكاميرا عليّ، تابعتُ:

- مساء الخير مشاهدينا الكرام في كل أنحاء المملكة وفي أي مكانٍ بالعالم.. وليلةٌ جديدةٌ مع (هنا إسرائيل)..

توجهتُ بنظري ناحيتها قائلاً:

- مساء الخير "بيسان" ..

- مساء الخير أدون "يائير" ..

- معي الآن حفيدة السيدة "راحيل" الأنسة "بيسان" .. الحفيدة رقم أربعين من بين ثمانين حفيدة.. أليس كذلك؟

- بلى.

- لكن هذا عدد الأحياء أليس كذلك؟

- قالت بارتباكٍ لم أُلحظه من قبل وكان سببه الكاميرا على ما ظننتُ:
- بلى.
  - فابتسمتُ لها محاولاً أن أكون ودوداً معها لأزيلَ هذا الارتباك..
  - من حقِّكم أن تخشوا الحسد.. كم عدد أبناء السيدة "راحيل"؟
  - فردتُ ببسمةٍ تواري خلفها ارتباكها..
  - عشرة أبناء..
  - وصممتُ لوهلةٍ كدتُ أن أسألها سؤالاً آخر ، لكنها أردفت:
  - أربعة ذكور.. وست إناث.
  - هل تعلمين رقم والدك بين إخوته؟
  - والدي هو أصغر أحفاد الجدة الكبرى وقد تُوفي منذ فترة.
  - حسناً.. هل تعيشين مع جدتك الكبرى وحدكما؟
  - نعم.
  - أحيي هذا الالتزام النبيل منك تجاه جدتك.. هل أنتِ متزوجة
  - "بيسان"؟
  - لا..
  - كنتُ أنتظر هذه الإجابة بفارغ الصبر ، ولولا خوفي من ردة فعلها
  - لكنتُ عجلتُ بهذا السؤال منذ لقائنا الأول ، استطرَدتُ:
  - يأتيها معاشُ زوجها المتوفى وبطبيعة الحال هو قليلٌ جداً نظراً
  - لوفاته منذ أعوامٍ طويلةٍ، وأنا أرسم وأبيع لوحاتي بصفةٍ غير مستمرة،
  - ولكنها لا تكفي أيضاً.
  - والحكومة؟!!
  - لا نعرفها ولا تعرفنا....

واستطردت قائلةً وقد زال ارتباكها تمامًا مع ذكر الحكومة:

- إن جدتي هي كل شيء في حياتي، وأخشى فقدانها، وأتمنى أن تتحمل الحكومة مسؤولياتها تجاهها فهي مريضة بالقلب، والسكر، وتحتاج إلى أدويةٍ بأكثر من خمسة آلاف شيكل شهريًا، غير أدويةٍ خاصةٍ بالاكْتئاب..

وبَدَت في عينيها حبة لؤلؤ تروم الانسياب على خديها، فوجهتُ كلامي للجمهور:

- هذا هو حال السيدة "راحيل"؛ تعيش بلا رعايةٍ صحيةٍ كاملةٍ، وبلا اهتمامٍ مع حفيدتها التي تُعاني هي أيضًا. لنطالع معًا هذا التقرير المصوّر لكي تتعرفوا عليها أكثر وأكثر..

تظهر على الشاشات السيدة العجوز وهي جالسةٌ على كرسيها المتحرك، ووجهها مليءٌ بخطوطٍ طويلةٍ وعرضيةٍ وكأنها خريطةٌ للمملكة التي تعيش فيها، مرتدية نظارةً كبيرةً وكأنها تنظر باتساع هذه الحياة المديدة التي عاشتها، وشعرها الأبيض يوجد فقط بنصف رأسها الصغير، وبكل وضوحٍ تظهر أذناها الكبيرتان، وبجانبها الأدوية الكثيرة التي تتناولها.. واستمرّ عرض التقرير..

لاحظتُ تحوُّل حبة اللؤلؤ لدموعٍ دافقةٍ دون انقطاعٍ، فسألتهَا بمجرد انتهاء التقرير:

- علام تبكين؟
- هذا الإهمال..
- حسًا، سأسألكِ بعد قليلٍ عمّا يُشاع من أن جدتك لا تحب المملكة وساخطة عليها..
- إنها تحب كل بني إسرائيل أكثر من أنفسهم..

عادت الكاميرا إليّ ، فتوجّهت لـ"بيسان" مباشرةً:

- في رأيك الشخصي، ما هو السبب الرئيسي لإهمال الحكومة في الرعاية بجدتك؟ وأرجوك كوني صريحة.

أخذت نفسًا عميقًا ، وتأمّلت لثوانٍ كأنها تُرتب أفكارها ، ثم قالت:

- سببان.. أولهما عام (١٩٤٨) عندما وقعت أحداث دير ياسين، انتقدتها جدتي بعنفٍ ووصفتها بالمذبحة، وخرجت بلافتة واعتصمت أمام الكنيسة لمدة سبعة أيام، وكتبت بخط يدها على تلك اللافتة: "أيعقل أن تقوم دولة على أشلاء غيرها من البشر"، لم تُعر الدولة أو حتى أعضاء الكنيسة أي اهتمامٍ لها، وصمتت جدتي وكان هذا أول تعارفٍ بين جدتي وبين الدولة. كذلك اكتشفت حقيقة أعضاء الكنيسة الدموية، واستمر هذا الحال طويلاً لا تتدخل جدتي في شؤون الدولة، والدولة ليس لها أي علاقة بها.

- والسبب الثاني؟

- عندما قام الجيش الإسرائيلي بمذبحةٍ أخرى عام (١٩٨٢) في صبرا وشاتيلا، خرجت جدتي عن صمتها وانتقدت بشدةٍ هذه المذبحة. كانت قد قاربت التسعين عامًا حين ذاك. قالت إن أغلب صديقاتها اللائي هاجرن من دير ياسين، ورام الله، ونابلس يعشن الآن في صبرا وشاتيلا.. فكيف يتم قتلهن بهذه الوحشية؟!

- بالفعل هذا الموقف مُسجّل في أرشيفنا، وشاهدته حين كنا نُعد لتلك الحلقة، أذكرُ أن ردَّ فعل الحكومة جاء مخيبًا للأمال؛ فقد رد عليها مسئولٌ من الحكومة حين ذاك قائلاً: "هل السيدة راحيل نعمان إسرائيلية أم عربية؟ هل هي يهودية أم غير ذلك؟ ما هو السر وراء تعاطفها معهم هكذا؟ وتمنى منها أن تتعاطف بالمثل مع الإسرائيليين". لكن، وهذا سؤال، هل صمتت الجدة؟

- حينها ردّت عليه جدتي بقوة وقالت: "إنها سامرية عربية وتعترز بذلك وهي ليست بصهيونية قاتلة.. ولا هي من تسبب في الفروق والعنصرية التي حدثت بين اليهود والسامرة.. هذان هما السببان الحقيقيان وراء إهمال الحكومة لها منذ أن أنشئت الدولة وحتى إعلان المملكة مؤخرًا.

أخبرني "بنيامين" (مخرج البرنامج) في سماعه الأذن: "إن المتحدث باسم الحكومة يريد أن يعقّب على هذا الكلام"، وعلى إثرها قلتُ:

- آدون "لاوي أهارون" المتحدث باسم الحكومة يريد أن يعقّب على حديثك آنسة "بيسان"..  
واستطردتُ:

- مساء الخير آدون "أهارون".

- مساء الخير آدون "يائير".

- ما ردّك على ما قالتها السيدة "بيسان" من تجاهل الحكومة الإسرائيلية لجدتها؟

- أولاً: لستُ متصلًا للتعقيب على الآنسة "بيسان"، فلا يوجد سببٌ حقيقي - كما ادّعت - للتعقيب عليه، كلُّنا نعرف أن السيدة "راحيل" تتعاطف دائمًا مع العرب أكثر من تعاطفها مع غيرهم من الإسرائيليين.. وهذا غريبٌ لكونها إحدى مواطني مملكة إسرائيل الموحدة..

قاطعته "بيسان" بغضبٍ وجرأة، حقًا فاجأتني:

- إن جدتي تُحب جميع أبناء إسرائيل أكثر مما تُحبهم أنت..

قال في بروودٍ شديد:



- أتمنى لو كان الأمر كذلك بالفعل. وعلى أية حال، فهذان السببان - كما ادعيت- عاريان من الحقيقة.. فالمملكة لا تنسى أبناءها أيًا كانت درجة انتمائهم لها.

وأضاف بصلفٍ زائدٍ مفاجئ:

- صحيح أن الجدة تعدّت كل الأعمار المسموحة ولكن هذا من فضل الرب عليها. أطال عمرها!

قاطعته حتى لا يستطرد أكثر بهذا الأسلوب الذي أغضبني وبالتأكيد أغضب "بيسان":

- أطال الرب عمرها.. ولكن الواقع سيدي يقول غير ذلك؛ الواقع يقول إنكم أهملتموها..

- ليس بصحيح يا سيدي.. هذا واقعٌ مبالغ فيه، فنحن عرضنا قبل ذلك على السيدة "راحيل" للسفر للخارج لكي تتلقى أفضل علاج ولكنها رفضت الخروج من المملكة ولو للحظة واحدة، متحجّجة بأنها تريد الموت على هذه الأرض.

صرخت "بيسان" منفعلةً:

- وهذا يؤكد لكم أن جدتي لا تستطيع أن تفرق المملكة كما قلت ولو للحظة واحدة، ولو كان هذا على حساب صحتها. إنها مرتبطة ارتباطًا كاملاً بهذه الأرض ولم تغادرها لأي مكانٍ من قبل.

- إذن نحن لم نقصر تجاهها.. بل هي من رفضت المساعدة.

قلت متسائلًا:

- ولماذا الخروج من المملكة من الأساس؟! لقد وصلنا إلى مراحل متقدمة في الطب لم يصل إليها أحدٌ بعد.. ولم لا نعالجها في مستشفياتنا؟ إن لدينا أفضل المستشفيات المجهزة في الشرق الأوسط والعالم.. وبها أفضل الأطباء على المستوى المحلي والعالمي.

- هذه هي الحقيقة كاملة، وعرضُ الحكومة ما زال قائمًا، سواء بالداخل أو بالخارج. نحن نطلبُ إلى الأنسة "بيسان" أن تساعدنا في إقناع الجدة، وننقلها إلى أفضل المستشفيات المجهزة.

قلتُ مؤكِّدًا:

- ولكن توجد مشكلةٌ أخرى يا سيدي.

- وما هي إذن؟

- إن السيدة "راحيل" تتلقى العلاج على نفقتها الخاصة، مما يكلفها أكثر من خمسة آلاف شيكل شهريًا.. ودخلها لا يكفي كل هذه الأدوية.

- لا أظن أن هذا قد يُشكّل عائقًا أمام موافقة السيد رئيس الوزراء ووزير الصحة على قرارٍ في مصلحة السيدة "راحيل".

- عفواً أدون "أهارون" لدي سؤالٌ آخر.. لماذا لا يتم تعريف أولادنا بتاريخ السيدة "راحيل" وموافقها بالمدارس؟ إنها أرشيْفٌ حيٌّ لو صحَّ لي استخدام هذا التعبير.. لماذا لا نستمع إليها ونؤرخ لهذه الحياة ونتعرف على رأيها في كثيرٍ مما يدور حولنا؟ أنا لا أطرح هذا على أننا لا نعرف ما يدور حولنا ولكن من يعرف التاريخ جيداً يستطيع أن يقرأ المستقبل بشكلٍ أفضل.

- أوه يا إلهي.. كلُّ هذه الأسئلة! للأسف أسئلتك لا أملك الإجابة عليها وحدي والأمور لا تسير بهذه السهولة كما يعلم الجميع؛ الإجابة تحتاجُ رأي وزير التعليم، ومسئول دار التأريخ والوثائق، وأيضاً كبار قادة الأحزاب والساسة، ما أنا إلا متحدثٌ باسم الحكومة وقد أجبْتُ على الأسئلة التي بإمكانني الإجابة عنها..

- من فضلك أدون "أهارون".. هل أستطيع أن آخذ منك ردًّا صريحًا على أن السيدة "راحيل" ستلقى عنايةً صحيَّة تليقُ بها؟

- نعم يا سيدي.. هذا ما أنا متأكدٌ منه، ويشرفنا أن تأتي الأنسة "بيسان" إلى مكتبي في صباح الغد كي أنسق معها.

- توداه آدون "أهارون" ..
- عفوًا..
- وجهتُ كلامي إلى "بيسان" من جديد:
- إذن كل ما عليك هو أن تذهبي إلى السيد "أهارون" .. فقد وعد أمام ملايين المشاهدين بأن يساعد السيدة "راحيل" .
- سأفعل .. وأودُّ أن أؤكد أن جدتي تتمنى كل التوفيق لكل أبناء إسرائيل داخل وخارج المملكة.
- شكرًا لكِ أنسة "بيسان" . وجودك إلى جوار جدتكِ أعطاني الأمل بأن يكون عمري مثل السيدة "راحيل" ويرعاني أحفادي مثلما تفعلين أنت.

ابتسمتُ إليها فبادلتني الابتسام ، ووجهتُ كلامي مرةً أخرى إلى الجمهور لكي أختتم هذه الفقرة:

- هذا هو حال السيدة "راحيل" أقدم سيديّة على ظهر الأرض .. إنها عربيةٌ سامريّةٌ من مواطني مملكة إسرائيل الموحدة .. محبةٌ للجميع وتتمنى للجميع أن يعيشوا في سلامٍ مع بعضهم البعض .. وهذه أيضًا حفيدتها التي ضحّت بكل نفيسٍ من أجل رعايتها .. وضربتُ أروع الأمثلة في التضحية من أجل جدتها .. نشكرها شكرًا جزيلاً .. ونشكر الحكومة لوعدها بالاهتمام بجدتها .. وها أنا ذا أشكركم لمتابعتي ومتابعة ضيفتي .. فاصلٌ إعلاني ونعودُ مع فقرتنا التالية لهذه الليلة من (هنا إسرائيل) . تابعونا .

\*\*\*

- ما زال طوف "يائير" .. حلقة اليوم تابعها أكثر من عشرة ملايين شخصٍ داخل المملكة وخارجها .

هكذا فاجأني "بنيامين" بالخبر فرحًا مسرورًا ، رددتُ عليه على الفور:



- حظ سعيد "بنيامين"، هذا فقط لأنك أنت مخرج البرنامج ..  
عندها نظر إليّ "بنيامين" بغرورٍ مصطنعٍ قائلاً:  
- هذا هو أقل ما يُقال .

ابتسم مغادراً.. وعندها اقتربتُ مني "بيسان" وهي تقول:  
- حظ سعيد "يائير" ..

- هذا بفضل السيدة "راحيل" ..

- هذا بفضل جهدك وتعبك أنت ..

- عليّ أن أوصلك إلى المنزل .. فلقد أرهقتك معي اليوم ..

- لا عليك .. لم أشعر بأي إرهاقٍ .

- شكراً .. لكّيّ مُصراً على توصيلكٍ للجدة بنفسي .

تبادلنا أطراف الحديث ونحن في الطريق إلى سيارتي . انتهى عندما  
فتحتُ لها باب السيارة واستقرتُ بمقعدها بينما استدرتُ أنا لأخذ  
مكاني . ثم وأنا أدير مُحرك سيارتي .. قلتُ لها:

- سوف أسمعك أفضل مُعني داخل المملكة الآن .

- مَنْ يا ثرى ؟

- إنه المطرب المفضل لديّ .. إنه ..

قاطعتني وقالتُ:

- لا تذكر اسمه .. سوف أقول أنا .. إنه "يال جولان" .

حينها شعرتُ أنها تخلّصتُ من شحنة الغضب والتوتر التي أصابتها  
أثناء الحلقة ، ولا أعلم لماذا غمرتني السعادة ، لكنني تجاهلتُ ذلك  
وقلتُ:

- نعم هو .. كيف عرفتِ ؟

- ما أتوقعه أن هذه الأذن لا تسمع غير "إيال جولان".

على نغمات أغنية (בואי נברח – بوئي نقرح) بتوزيعها الجديد انطلقت بنا السيارة ، كم تمنيتُ أن تتعطل بنا السيارة ، لكن السيارات الحديثة هذه تختصر الطرق وتختزل الزمن ، هل ينفجر أحدُ الإطارات كما سأنفجر من الضغط العاطفي الذي يتزايد داخلي ؟

وصلنا ، أوقفتُ السيارة وهبطتُ معها..

- تُصبح على خير يا "يائير".

قالتها في عُجالةٍ ، وترددتُ وأنا أرددُ عليها تحية المساء ، فكم أود أن تظل بالقرب مني ولو أنني خفت سوء الظن لاصطحبتها حتى أضعها كأطفالي في الفراش ، آه لو تقول كما قالت "شولميت" لسليمان "آه يا حبيبي ، ضع شمالك تحت رأسي ودع يمينك تُعانقني" ، وأنا أقول كما قال "سليمان" "أستحلفكن يا بنات أورشليم بغزال المروج وأيل الحقول ألا توقظن حبيبتي حتى تشاء".

أخيراً رددتُ أمام نظراتها التي طالَت تنتظر..

- ليلاه طوف "بيسان".

\*\*\*\*\*

عدتُ للمنزل أتهدى على الطريق ثم على درجات السلم ، وعلى مهل فتحتُ الباب وهي في مخيلتي..

- كم مرة قلت لك أحسن العمل؟!!

هكذا استقبلتني صيحاتُ "سارة" حين كانت تُوبخ "موشيه"..  
ودائماً ما تُعيدني إلى الواقع ، أواه! رحماك يا ربي.. يا للإشكينازيم!  
لماذا تحولون بيننا وبين كل ما هو جميل؟!!

## سفر (٧) "متحف السامرة"

استيقظتُ فجأةً من نومي على صوتٍ مُقبضٍ مرتفعٍ صادرٍ من التلفاز الذي ما زال مفتوحًا ، يبدو أنني نمتُ وأنا أشاهده ، كانت فترة العمى المؤقت ما بين الاستيقاظ واليقظة قد طالت هذه المرة ؛ فلا زلتُ أرى الشاشة عبارة عن لوحةٍ سرياليَّةٍ مبهمَةٍ ، لكن هنيهات وبدأ كل شيء يعودُ إلى طبيعته ، وها هو شبحها يسيطر على الشاشة ، تمنيتُ من أعماق قلبي ألا تكون هي ، ولكن اخترقتُ أذني لكتبتها الإشكنازية المعهودة. إنها هي! كان لا بدَّ أن أدرك منذ البداية أن صوتها النحاسي اللعين جديرٌ بإيقاظي.. لماذا هي دائماً!

كانت نُخبرنا بثقتها.. قالتِ الكئيبة كآلةٍ باردةٍ :

- شهدتُ سماءَ مدينة "تل أفيث" صباح اليوم تحليقًا مكثفًا لطائرات جيش الدفاع الحربية، وذلك على إثر إرسال أجهزة الرصد والمتابعة إشارةً لسلاح الجو الإسرائيلي باختراق جسمٍ مجهولٍ سماء "تل أفيث"، وهو ما وُلد حالة من الهلع الشديد لدى ساكني "مملكة إسرائيل الموحدة". وقالت المصادر إن سرَّبًا من الطائرات الحربية

قد تلقى أمرًا بالتوجه إلى مدينة "تل أفيث" بعد إنذارٍ أطلقتها أجهزة الرصد بوجود جسمٍ مجهولٍ يحوم فوق سماء المدينة، ليتبين بعد ذلك أن ما كان يُحلق في السماء ليس سوى سربٍ من الطيور المهاجرة مرّ في غير موسمه!

هكذا إذن؟! يا له من قلقٍ لعينٍ كاد أن يفتك بنا جميعًا!

أطفأتُ التلفاز وتذكرتُ حديثي مع "بيسان" عن الجدة العجوز وطائفتها، قررتُ أن أذهب وألتقي بكاهن "السامرة" أصغر طائفة دينية في العالم. لحسن الطالع، اليوم هو أول أيام عيد العرش.

هناك، على قمة جبل "جرزيم"، كان المنظر مهيبًا رائعًا، حيث السامرة يقيمون ويقومون بطقوسهم وعبادتهم، يطوفون على قمة الجبل مرتلين متضرعين.. حيث كعبتهم المقدسة.

هناك على قمة الجبل، كان لقائي معه. أخبرني الكاهن الذي حدّد لي الموعد قبل دخولي إليه أن الكاهن الأكبر هو أعظم علماء الأرض في اللاهوت، رجلٌ مثقفٌ إلى حدٍّ مخيفٍ، دارسٌ للتاريخ والفلسفة والأدب، وهو لا يُمثل رمزًا دينيًا عظيمًا فحسب، بل هو المرجع الأساسي في دراسة الناموس، أما بخصوص رأيه فدائمًا صائبٌ ولا جدال في ذلك، كما أن له وجهة نظره الثاقبة التي دائمًا ما ينزل عليها السامرة؛ لأن ما يقوله عن الآتي لا شك في صحته، فطالما يصدق قوله فيما يتعلق بالأحداث التي تجري دائمًا من حولنا.

مع نظرتي الأولى إليه، بدالي عنيدًا فظًا بعض الشيء، كان مهمومًا شاردًا وكأنه يغوص في أعماق شروده وهو يتلو تراتيله التوراتية من هذا الكتاب الذي يحمله بين يديه، تبدو نسخة الكتاب قديمةً جدًّا فعلاً.. إعتاد السامرة أن يقولوا (نحن نمتلك أقدم نسخةٍ خطيةٍ من التوراة).. لا أدري إن كانت هذه هي أم لا.

بعد قليلٍ انتهى من قراءته وترتيلاته ، نهض فجأةً عن مقعده في حركةٍ غريبةٍ ، كان قاضب الحاجئين ، غاضب الهيئة ، أمسكني بقوةٍ من ذراعي وقال لي:

- انهض.. سأريك ما لم يرك إياه أحدٌ من قبل.. وأعلمك ما لم تكن تعلم عن أجدادك السامرة.

عندئذ تنفستُ الصعداء ، لوهلة ظننتُ من طريقته أنني مطرودٌ من هذا المتحف من دون أي أسباب. بدأنا التجول ، لقد أصابني الذهول منذ النظرة الأولى على محتويات متحفهم الرائع التي أراني إياها ، شعرتُ بالرجفة تملأ جسدي! وعبق التاريخ اليهودي يدبُّ في أوصالي ، وكأن القشعريرة تيارٌ كهربائي يجري في عروقي مجرى الدم ، المتحف يضم كل ما يتعلق بتراث وثقافة السامريين.

عندما تجولتُ مع الكاهن داخل أروقة المتحف وردهاته شاهدتُ الكثير من النقوش العبرية القديمة ، وكان يشرح لي كل شيء بدقةٍ واحترافيةٍ ، أطلعني على أقدم نسخةٍ من التوراة ، سألته عن تلك النسخة التي كانت معه يرثل منها ، فأخبرني بأنها نسخةٌ قديمةٌ لكنها منسوخةٌ عن هذه التي أمامنا. ثمّة ألحانٌ فلكلوريةٌ قريبةٌ تأخذني مع ما أرى إلى عبق التاريخ ، كيف حافظوا على كل هذا الكمّ من الأواني الزجاجية والفخارية ، والقطع الأثرية التي ترجع إلى ذلك الزمن البعيد.

لقد أصبح المتحف في السنوات القليلة الماضية قبلة للزوار والسائحين الذين يأتون إليه من كل بقاع الأرض ليتعرفوا على تاريخ وثقافة وواقع أصغر طائفة دينية في العالم ، وحتى هذا اليوم يعيشُ السامرة في مدينة "نابلس" في أمان وسلام ، ويشاطرون المسلمين والمسيحيين في المدينة الأفراح والأتراح ، ويعملون ويدرسون معًا ، في صورةٍ تناغميةٍ للتعايش الديني والثقافي بين أتباع الديانات المختلفة ..

كان الكاهن فظًا غليظًا لكنه تحوّل عن ذلك بالتدرّج فأصبح رقيقًا ودودًا عندما أُكِّدَتْ له أنني "مزراحيّ"، بدا لي متشككًا وهو يسألني قبلها وكأنه قد تذكر شيئًا "أنت مزراحيّ أليس كذلك؟"، فأومأت موافقًا. قال بنغمةٍ حادةٍ:

- ها قد رأيتَ بنفسك.. ما يملكه السامريون لا يملكه أي إنسان بالعالم.. يملكون أقدم توراة وأقدم لغة شريفة في العالم.. العبرية القديمة.. ويملكون التاريخ منذ آدم حتى الآن.. يملكون علم الفلك وهم أشهر الفلكيين على ظهر الأرض.. لا يمكن أن يخطئ السامري في تحديد الأعياد لمئات السنين القادمة.. حساباتنا الفلكية تكون صحيحةً بنسبة مائة بالمائة.. نحن أصحاب أكبر وأقدم تراث في الشرق.. بل وفي العالم أجمع. السامريون يا بُني هم السلالة الحقيقية لشعب بني إسرائيل.. أما اليهودية فهي منشقة عن الدين السامري.

انتهت جولتنا الشيقة المصحوبة بأسلوبه المتقلّب اللافت. وحين جاء دوري لأسأل، اشتراط أن أتلو عليه كل أسئلتي جملةً واحدةً حتى لا أقاطعه أثناء الإجابة. لم أخبره بطبيعة الحال عن ولعي بالتاريخ اليهودي والنقد اللاهوتي رغم قلّة اطلاعي فيهما.. تركتُ له أن يستنتج ذلك بنفسه. سألته بكل ما أوتيتُ من تركيز. وبدأ يُجيب:

- كما تعلم أن هذا هو الجبل المقدس.. أو كعبتنا المقدسة أو بيت الرب أو جبل الطور.. جبل البركات والفرائض.. قل ما شئتُ وسبّه كما يحلو لك.. عموماً هذا المكان يخضع لتقسيماتٍ سياسيةٍ في انفاقية السلام الفلسطينية الإسرائيلية.. عندما كانت هناك دولة فلسطينية قبل أن تُغتصب عن آخرها..

ثم نظر إلى الأرض وصمت قليلاً ثم أكمل قائلاً:

- المهم يقع جزءٌ منه في المنطقة المصنفة (أ) وجزء آخر في المنطقة (ب) وآخر يقع في المنطقة (ج) مما يجعل الأمر معقدًا في التواصل

الجغرافي بين الطائفة ومدينة "نابلس" التي تُعتبر مكان عمل ودراسة وحياة الطائفة.. الطائفة تتكون من خمس عائلات.. أربع منها عادية.. وعائلة الكهنة التي أنحدر منها.. وهي التي تمسك بمفاتيح الدين وتحكم الطائفة.. ولا يسمح لأبناء الطائفة الزواج من غير السامرة.. وبسبب قلة العدد وزواج الأقرباء أوشكت الطائفة على الانقراض مجددًا.. حيث بلغت نسبة الإعاقة الجسدية والعقلية بين المواليد الجدد حدًا خطيرًا..

نظرتُ إليه مشدوهًا ورفعتُ يدي اليمنى مستأدًا ، فأومأ بالإيجاب ، وأشار بيده أن أتكلم ، فقلتُ:

- وما هو الحل بالنسبة لهذه المشكلة الخطيرة؟

تنهَّد الكاهن تنهيدةً طويلةً ثم قال:

- بعد عدة مشاورات بين الكهنة.. أصدر الكاهن الأكبر للطائفة فتوى تُجيز الزواج من خارج الطائفة منذ فترةٍ تتجاوز السنوات العشر.. لقد أصدر الكاهن الأكبر لمدينة "نابلس" حينها فتوى لزواج فتياتنا من الشباب غير السامرة لكي يكثر السامرة ويقوى الدم عندهن.. خوفًا من الانقراض في المستقبل.. وتحمل السامرة ثلاث جنسيات أولها الفلسطينية وهي الأهم بالنسبة لنا.. ذلك قبل أن يغتصب الصهاينة آخر شبرٍ من الأرض.. ومِنَّا من يحمل الجنسية الأردنية وآخرون يحملون الجنسية الإسرائيلية وهم الغالبية العظمى الآن.. وقد منح الرئيس الفلسطيني الراحل "ياسر عرفات" طائفتنا مقعدًا في المجلس التشريعي الفلسطيني.. إلا أن هذا المقعد بقي شاغراً بعد وفاة ذلك النائب من دون السماح للطائفة بتمثيل نيابي آخر في المجلس.. الأمر الذي أراه غير مقبولٍ بالمرّة.. لقد سررنا بتمثيلنا في زمن الرئيس "ياسر عرفات".. وهذا زاد من اختلاط وتماسك الطائفة مع المجتمع الفلسطيني.. إن أبناء طائفتنا يتكلمون اليوم اللغة العربية بطلاقة.. بالإضافة إلى تكلمهم اللغة العبرية الخاصة بنا.. والتي هي اللغة

العبرية الأصلية وهي تختلف عن اللغة العبرية التي تتكلمونها أنتم  
يهود اليوم..

فرفعتُ يدي مرةً أخرى ، فأوماً أن أتكلم ، فسألته:

- ولماذا يوجد فرق؟

- لغتنا هي العبرية القديمة التي تحدث بها شفيعنا "موسى" النبي.. أما  
لغتكم العبرية قد امتزجت كثيراً باللغة الآشورية التي جدّدها "عزرا  
هاسوفير"<sup>(١٩)</sup> بعد السَّبْيِ البابلي..

نظر إليّ نظرةً ذات مغزى ، فحاولتُ تجاهلها قدر الإمكان ، فعاد  
واستطرد قائلاً:

- إن تاريخ الوجود السامري متوافق مع الوجود اليهودي في هذه الأرض..  
حيث جاء اليهودُ إلى فلسطين قبل ثلاثة آلاف وستمئة وأربعة  
وأربعين عامًا.. قادمين من صحراء سيناء.. حيث أسسوا مملكة ما  
لبثت أن انقسمت إلى مملكتين.. واحدة يهودية في الجنوب وأخرى  
سامرية في الشمال.. ومنذ قدوم شعب "بني إسرائيل" إلى الأراضي  
المقدسة نشب خلافٌ بين الإسرائيليين على خلفية الكهنوت الأعظم  
ما بين أوزي وإيلي.. وكان أوزي الكاهن الأكبر على جبل جرزيم في  
حين انقلب إيلي ابن عمه عليه وخالف هذه القاعدة وسكن في  
"شيلو" التي تبعد خمسة عشر كيلومترا إلى شرق جنوب نابلس..  
وبنى هناك هيكلًا نكايةً بمملكة السامريين.. كنا مع اليهود شعبًا  
واحدًا وديانةً واحدةً إلى أن مات الملك سليمان.. وانقسمنا بعده إلى  
مملكتين.. واحدة في الشمال وعاصمتها شخيم -نابلس- ومملكة  
أخرى في الجنوب وعاصمتها يهودا (القدس)..

ثم نظر إليّ وهو يعدل من وضع نظارته الطبية على عينيه ، وأكمل

قائلاً:



- ثم دارت بعد ذلك حروب طاحنة بين المملكتين سالت فيها دماء كثيرة.. مما أضعف المملكتين كثيراً.. استغل الآشوريون بقيادة "نبوخذ نصر" هذا الضعف وغزوا مملكة الشمال وأخذوا شعب المملكة كسبايا لمملكتهم الكبيرة في العراق.. وغزا البابليون المملكة الجنوبية وأخذوا شعبها كسبايا لمملكتهم في وقت متزامن كثيراً مع السبي الآشوري..

رفعتُ يدي محاولاً التعقيب فأوماً موافقاً فقلتُ له:

- سيدي إن المصريين بقيادة "شوشاق"<sup>(٢٠)</sup> قد احتلوا المملكة الجنوبية.. كان حاكماً قوياً رفع من شأن مصر.. أراد بسط النفوذ المصري على غرب آسيا.. فسيطر على لبنان وأرض إسرائيل.. كما ورد ذكره في التوراة في (سفر الملوك الأول) الإصحاح الرابع عشر.. في الفقرة الخامسة والعشرين.. أما "يُرْنَعَام" من قبيلة "إفرايم" فكان يرى أنه أحق بالمملكة من "سليمان" الملك.. فثار على "سليمان" بعد أن منحه "شوشاق" الحماية.. وذلك على الرغم من العلاقة الطيبة التي كانت تربط "شوشاق" بالملك "سليمان".. وبعدها مات "سليمان" استطاع "يُرْنَعَام" أن يتولى قيادة عشر قبائل عبرانية ويستقل بها وسماها المملكة الشمالية.. وفي عام تسعمائة وستة وعشرين قبل الميلاد؛ وبعد موت "سليمان" بخمسة سنوات قام "شوشاق" ملك المملكة الجنوبية بهاجمة "رْحُبْنَعَام بن سليمان" ونهب كنوز الهيكل.. ودَمَّرَ "القدس".. وسبى أهلها.. وأخذ كنوز بيت الرب "يهوذا".. وبيت الملك.. وآلاف الأتراس الذهبية المصنوعة في عهد الملك "سليمان".. كما قام بحملاتٍ خاطفةٍ دَمَّرَ فيها عشرات المدن اليهودية والمستعمرات التي في سهل "يززل" وشرقي وادي الأردن.. كما يبدو أنه هاجم المملكة الشمالية أيضاً.. وتدل النقوش التي على معبد الكرنك أن "شوشاق" هاجم كل أرض إسرائيل فأخضع فيها مائة وستة وخمسين مدينة.. وقد دُوِّنت أخبار هذه الحملة على جدران معبد الكرنك.

نظر إليّ نظرةً حادةً وقال:

- وما الدليل على صحة ما تقول؟

فأجبتُه وأنا أحاول تفادي هذه النظرة ، ناظرًا في جهازِي اللوحي الهولوغرامي:

- تروي التوراة في سفر (الملوك الأول) الإصحاح الرابع عشر.. من الفقرة الخامسة والعشرين إلى السابعة والعشرين " (٢٥) وَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْمَلِكِ رَحْبَعَامَ ، صَعَدَ شَيْشَقُ مَلِكُ مِصْرَ إِلَى أُورُشَلِيمَ ، (٢٦) وَأَخَذَ خَزَائِنَ بَيْتِ الرَّبِّ وَخَزَائِنَ بَيْتِ الْمَلِكِ ، وَأَخَذَ كُلَّ شَيْءٍ . وَأَخَذَ جَمِيعَ أَنْرَاسِ الذَّهَبِ الَّتِي عَمَلَهَا سُلَيْمَانُ . (٢٧) فَعَمِلَ الْمَلِكُ رَحْبَعَامُ عِوَضًا عَنْهَا أَنْرَاسَ نَحَاسِي وَسَلَّمَهَا لِيَدِ رُؤَسَاءِ السُّعَاةِ الْحَافِظِينَ بَابَ بَيْتِ الْمَلِكِ . .. إذ يبدو أن خراب المدينة المقدسة لم يكن أهم من فقد دروع سليمان الذهبية.. التي كان عليهم استبدالها بأخرى نحاسية.. ولكن من ضمن الأسماء الباقية المصاحبة للجدارية على بوابة "بِرْيَاسْتِت" لا يوجد ذكر لا لأورشليم ولا لتل الجزري.. ولكن اكتشاف شقفة في "مَجْدُو" تحمل اسم "شُوشاق" لا يدع مجالاً للشك بأن حملته على المنطقة حدثت فعلاً.. ولكنها تترك مجالاً للتكهن بإذا ما كان الهدف منها هو استعادة أمجادٍ مصريةٍ قديمةٍ.. أم لمساندة "بِرْبَعَام" .. أم أنها كانت مجرد غارة نهب..

ثم عاود النظر إليّ مرةً أخرى ، وسألني:

- كل هذا لا نؤمن به.. هذا دور الإجابة عن الاختلافات بيننا وبين يهود اليوم؟

فأومأتُ برأسي قائلاً:

- بالضبط سيدي الكاهن..



فأكمل قائلًا:

- الاختلافات بيننا وبينكم يهود اليوم الذي جعلتموه عداً لا خلافاً وذلك بسبب التوراة.. إن هناك خلافاً كثيرةً جداً تصل إلى سبعة آلاف خلاف بين التوراة السامرية وبين النسخة اليهودية.. إننا كسامريين نعتمد على أقدم نسخة خطية موجودة في العالم.. طولها خمسة وعشرون متراً.. وهي مصنوعة من جلود القرابين التي كانت تُقدم وقتها.. كتبها "أيشع بن فينحاس بن إيعازر بن هارون" أخو نبينا وشفيعنا "موسى" الكليم بعد ثلاث عشرة سنة من وصولهم إلى الأرض المقدسة.. مفاتيحها مع ثلاثة كهنة ولا يُسمح للسامرة رؤيتها إلا ثلاث مرات في السنة ليحصلوا على البركة.. ولا يُسمح برؤيتها إلا وجود الكهنة الثلاثة.. لكن أقدم نسخة خطية عند اليهود للكتاب المقدس تعود إلى ألف سنة فقط.. إن اليهودية منشقة عن الدين الأصل الذي تتبعه نحن السامريين.. ونحن نرى أن أتباع اليهودية منشقون عن الديانة الأصلية وقاموا بتحريف كلام التوراة.. وغيروا لغتهم من اللغة العبرية الأصيلة إلى اللغة الآشورية قبل (٢٣٠٠) سنة.. كما بدلوا كثيراً في عاداتهم وتقاليدهم.. أما نحن فلم نغادر هذه المنطقة منذ (٣٦٤٤) سنة حتى الآن.. في الوقت الذي انقطع فيه اليهود عن هذه المنطقة نحو ألفي سنة.. يقول كبارُ حاخاماتكم إن على السامري إن أراد أن يصبح يهودياً عليه أن يدخل في الإسلام قبل ذلك.. وهي دلالة على مدى العداً بين يهود اليوم وبيننا.. هل تستطيع أن تفسر هذا الأمر؟

ترددتُ أن أُجيب لأن شرطه ألا أقاطعه ، لكنه أوماً لي بالإجابة فأجبتُ وكنْتُ قد أتخمتُ بأسئلةٍ جديدةٍ وكانت تلك هي الفرصة لكي أسأله ؛ فبدايةً أجبْتُ:

- لأنكم الطائفة الوحيدة القادرة على إثبات التزوير في الديانة اليهودية؟

- بالضبط..
- وأسباب الخلاف بينكم وبين سائر الطوائف؟
- السامرية هي اليهودية.. والباقون هم الطوائف يا سيد "مзраحي" السامرة هي السلالة الحقيقية التي بقيت في هذه البلاد بعد انهيار مملكتي اليهود.. ونحن الآن نعيش في هذه البلاد وليس لنا أي اهتمامات سياسية.. نحن اهتماماتنا دينية محضة.. نؤمن بوحداية الله الواحد الأحد.. ونبوة سيدنا "موسى بن عمران" كليم الله ورسوله.. والتوراة خمسة أسفار.. وقدسية جبل جرزيم المبارك ماوى أقدتنا.. واليوم الآخر يوم الحساب والعقاب.. والسامري الذي لا يؤمن بهذه الأركان الخمسة إيماناً أكيداً ثابتاً وراسخاً غير قابل للشك؛ لا يُعتبر سامرياً..
- سيدي.. أتقصد الأسفار الخمسة الأولى.. سفر التكوين.. وسفر الخروج.. وسفر التثنية.. وسفر اللاويين وسفر العدد.. أليس كذلك؟
- بالطبع، فهذه هي التوراة التي أنزلها الرب على كليمه موسى الذي كتبها بنفسه.. أما الأربعة والثلاثون سِفرًا الباقية فمنسوبة إلى أشخاص كتبوها بعد النبي "موسى" بأزمان متفاوتة.. فكيف تكون من عند الرب؟ وكيف تُصبح غير محرفة!!!
- سيدي إن التلمود<sup>(٢١)</sup> قد أعطاه الرب للنبي "موسى" شفهيًا على جبل الطور.. وبالتالي لقَّنه النبي "موسى" إلى "يشوع بن نون" ومن معه من الشيوخ السبعين المنتخبين من أسباط بني إسرائيل.. وهؤلاء نقلوه إلى من بعدهم.. وهكذا.. واستمر تداول هذا التشريع لمدة (١٤٠٠) سنة.. حتى وصل إلى الحاخام "يوحناس" في عام مائة وخمسين ميلادية حيث قام بكتابة "المشناه"<sup>(٢٢)</sup> وهي الجزء الرئيسي من التلمود..

نظرتُ إليه بطرفِ عيني فوجدتهُ ينظر نحو جهازي اللوحي بتركيزٍ شديدٍ وكأنه يتأهب لمداهمتي فور انتهائي من القراءة عليه ، لكن ما زادني ريباً هو صوت زفيره الذي شعرتُ به في أذني مباشرة ، أخذتُ أكمل القراءة وما أزال قلقاً:

- ثم شرح "المشناه" في "الجمارا"<sup>(٢٣)</sup> التي انتهى من تأليفها في عام أربعمئة وثمانية وتسعين ميلادية على يد من خلفه.. أي أن تدوين التلمود انتهى بعد ألفٍ وتسعمائة عام من نزوله على النبي "موسى"..
- هناك من اليهود من يعترف أن هذا الكتاب ليس مُترجماً وأنه لا يرجع إلى عصر التشريع الموسوي.. مثل "شختر" الذي يقول: "بما أن الشريعة الشفهية هي وثيقة الاتصال بتاريخ وتطور فنون ترجمة الكتاب المقدس.. فمن الجائز بكل اطمئنانٍ إرجاع تاريخ بدايتها إلى زمن النبي عندما تم إنشاء مؤسسة الكنيس.. ومؤسسة الكنيس يعود تاريخها إلى ما بعد فترة السبي البابلي في سنة خمسمئة وستة وثمانين قبل الميلاد.
- معظم اليهود يعتقدون أن التلمود هو تكملة التوراة.. وأنه مُنزل على النبي "موسى" مع التوراة في طور سيناء..
- لكن عند التفصيل تجد أن هناك تبايناً في الموقف من التلمود.. أولاً: من يرى أن التلمود أقدس وأفضل من التوراة.. وقد جاء في التلمود ما يؤيد هذا.. على سبيل المثال إن من درس "التوراة" فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها.. ومن درس "المشناه" فعل فضيلة استحق المكافأة عليها.. ومن درس "الجمارا" فعل أعظم فضيلة.. ليس هذا فحسب.. أضف أيضاً إن تعاليم الحاخام لا يمكن نقضها أو تغييرها ولو بأمر الله.. وأنه قد وقع يوماً الاختلاف بين الرب وبين علماء اليهود ثم أُحيلت المشكلة إلى أحد الحاخامات.. واضطر الرب أن يعترف بخطئه بعد حُكم الحاخام وأيضاً إن الحاخام معصومٌ من

الخطأ.. بل وحتى حمار الحاخام لا يُمكن أن يأكل شيئاً محرماً.. هل يُعقل ذلك؟!

- نعم أعرف كل ذلك وهناك أيضاً طوائف قليلة لا تعترف بالتلمود ولا يرون له قدسيةً مثل: القراؤون الذين يؤمنون مثلكم بالتوراة وحدها.. وكذلك المحافظون.. والإصلاحيون الذين لا يقبلون بأي إلزامية للتلمود ولا يرون له قدسية.

- هل لك أن تفسر لي لماذا يُصرح التلمود بأن غير اليهودي الذي يدرس التلمود واليهودي الذي يساعده على ذلك يجب قتلها؟

- نعم.. كان الحاخامات يسعون إلى السرية ولكن سرعان ما انتشر التلمود بدايةً بنسخة البندقية.. ليست هناك أي أسباب أخرى على ما أعتقد.

تأمل وجهي علّه يستطلع صدقي:

- لا.. بالطبع هناك أسبابٌ أخرى.. ما يحتويه التلمود من ضلالات وتخريض على الكراهية ضد الآخر لذلك حُورب وهُوجم على مرّ العصور.. ففي العصور الوسطى قال الإمبراطور "هونوريوس" في أحد القوانين التي أصدرها إن الحاخامات الذين وضعوا التلمود قومٌ مُخربون.. وفي عام خمسمائة وثلاثة وخمسين ميلادية حرّم الإمبراطور "جوستنيان" نسخ أو توزيع التلمود.

- نعم وأعرف أيضاً أنه في القرن الثالث عشر أمر البابوات بإحراق التلمود وتم ذلك في باريس سنة (١٢٤٢) ميلادية.. وأدين مرة أخرى في إسبانيا سنة (١٤١٥) ميلادية.

- إضافة صغيرة في عام (١٥٢٠) ميلادية قام اليهود بتوزيع التلمود علماً أن الفاتيكان أمر بإحراق جميع النسخ الموجودة.. هل تُفسر لي سبب قولكم إنه من يقرأ التوراة بدون المشناه والجمارا فليس له إله؟

كنتُ ألمس في كلامه الصدق ، كما أن أسلوبه في النقاش جعلني أحوال الهروب من هذه المنطقة الشائكة.

- هناك خلافاتٌ أخرى كثيرةٌ تنتشر في الوسط الديني ..
- بالطبع فالخلاف بيننا وبين اليهود في قدسية جبل جرزيم.. حيث يُقدس اليهود مدينة "القدس" رغم أنها لم تُذكر في التوراة ولا حتى مرة واحدة.. في الوقت الذي ذُكِرَ فيه جبل الطور "جرزيم" ثلاث عشرة مرة.. إن كل من لا يؤمن بجبل جرزيم هو خارج عن الدين، وباقي اليهود في اعتقادنا أنهم جميعهم خارجون عن الدين الصحيح..

لاحظ الكاهن اهتمامي ، فزادتُ حماسته وابتسم قائلاً:

- ركزُ معي.. كان السكان حول القدس اسمهم "اليبوسيون" وكان اسم القدس "يبوس" ، ولكن كان لها اسمٌ آخر وهو "يروشلايم" أي مدينة الملك، "يرو" مدينة، و"شلايم" لقب الملك، وجاء "داوود" وبديل الاسم إلى "أورشليم" أي "نور السلام" واتخذها عاصمةً له ونادى إلى قدسيتها وهي كذلك إلى هذه اللحظة..

ثم أضاف بنغمةٍ دراماتيكيةٍ لا تخلو من الحزن:

- الانشقاق حدث بين بني إسرائيل بزمن الملك داوود، والملك سليمان، اختلفوا على الهيكل الموجود بالقدس، ونحن كسامريين لا نُؤمن بهذا الهيكل، نُؤمن بالهيكل الموجود على جبل "جرزيم"، نحن نُؤمن تمامًا بأن سيدنا "إبراهيم" قرَّب ابنه "إسحق" في الموقع الموجود به الهيكل على جبل "جرزيم" وباقي اليهود يقولون بأن هذا المكان موجودٌ بالقدس، وهذا خطأ فادح، فنحن نستدل بخروج سيدنا "إبراهيم" من الخليل في ثلاثة أيام، وصل في اليوم الثالث إلى منطقة "اللبد" وعندما رفع رأسه رأى جبل "جرزيم" ثم أتى بابنه وكان سوف يُقربه كما أمره الرب، وحدثت الواقعة الشهيرة أن الرب أنزل من السماء كبشًا ليذبحه بدلًا من ابنه "إسحق"، وقال الرب في

التوراة: "وجعلتُ البركة على جبل جرزيم"<sup>(٢٤)</sup> وهذه هي الآية الوحيدة التي لم يستطع اليهود تغييرها في التوراة.

شعرتُ بالصدمة رغم أنني كنتُ أهزُّ رأسي بالموافقة لا أدري أكانتُ رغمًا عني أم يارادتي! ربما لأنني أريده أن يسترسل في حديثه ، شردتُ ولا أدري كم من الوقت قد شردتُ! لكنني استفتتُ رغمًا عني بقوله:

- إن "السامرة" أمهزُّ الفلكيين على وجه الأرض.. وهم يملكون التاريخ منذ أبنينا "آدم" وحتى الكاهن الحالي.. وبصفتي أحد مؤرخي الطائفة أستطيع أن أثبت لك ذلك..

وأخذ يشرحُ لي على لوحة التاريخ السامري ، وهي عبارة عن كلماتٍ بالعبرية القديمة كتبت بدقةٍ عاليةٍ وأخذت شكل "المينوراه" بدقةٍ مذهلةٍ واحترافيةٍ عاليةٍ:

- بداية من "آدم" إلى "موسى" تقريبًا ست وعشرون سلالة.. كان لآدم ولدان "قايين" و"هابيل" .. فعندما قُتِل "قايين" "هابيل" لم يوجد نسلٌ لهابيل.. وليس من الممكن أن يأتي شفيعنا "موسى" من نسل قاتلٍ.. لذلك رزق الرب "آدم" بـ"شث" الذي عاش (٩١٢) سنة.

وأخذ يُكمل شرحه لي بدقةٍ واحترافيةٍ عاليةٍ ، أذهلني أسلوبه وبلاغته وعلمه ، وكان حديثه مقنعًا جدًّا ، ولكنني خشيتُ أن أسأله عن طالعي ، لأنهم يعرفون ذلك ليس بتاريخ الميلاد كما يدَّعي البعض ، ولكن باسم الأم ، هكذا أخبرتني "بيسان" ، وأنا حقيقةً أوجل من ذكر اسم أمي له ، هذا إن لم يكن يعرفه أصلًا.

أنهى شرحه الشيقَ بجملة لن أنساها أبدًا: "التسلسل التاريخي من "آدم" حتى "موسى" هو (٢٧٩٤) سنة" ، ليُجبرني أن أسأله بفضول:

- سيدي الكاهن لا تأخذ سؤالِي بمنحني خاطئ، ما الدليل على صحة ما تقول؟ وما يدريني أنه ليس مُحرفًا؟

فأجاب وهو يبتسم:

- يا بُني هل تعلم ما اسمنا؟

- سامريون.

- وماذا يعني ذلك في اللغة؟

- المحافظون.

- هذه هي الإجابة.. المحافظون على توراة "موسى".. كان عدد السامريين قبل ثلاثة آلاف سنة مليوناً ونصف المليون نسمة، لا يوجد مجالٌ لتثبت خطأ ذلك، فهناك آلاف الإثباتات، قُلْ عددهم بسبب المعارك والثورات التي حَلَّتْ بهم على مدى العصور، حتَّى وصل إلى مائة وسبع وعشرين نسمة فقط عام (١٩٢٧) فهي فعلاً معجزة.. كان يجب أن تكون طائفتنا قد انقرضت منذ قرونٍ، ولكن هذه حكمة الرب أن نظل أحياءً حتى هذه اللحظة كي نكمل ما بدأه أسلافنا في حفظ توراة "موسى" ولكي نثبت للعالم أجمع أن يهود اليوم قد انشقوا عن الدين الصحيح وبدَّلوا كلام الرب لأغراضٍ سياسيةٍ مرئخةٍ بالخطيئة، نحن طائفة مسالمة، ليس لنا أية أغراضٍ سياسية حتى نُحرف التوراة لنظفَر بمكاسبٍ سياسيةٍ تجعلنا نفرح في الدنيا ونخسر الآخرة، يهود اليوم يا بُني حَرَفوا التوراة لأنهم يبتغون الدنيا، ونحن منهم ومن أتباعهم براء، ولكن من يريد العودة إلى الطريق الصواب، والدين الصحيح فأهلاً به.

أفحمني بقوله! حقاً لماذا يحرفون كلام الرب وهم ليست لهم أية أغراضٍ سياسية؟! فحالنا لا يخفى على أحدٍ ما بين غطرسةٍ وتسلطٍ إشكنازي وصراعٍ سفاردي على تصدر المشهد السياسي، كذلك نحن كمزراحيين ظلُّمنا ما بين مذهب يهودي سفاردي وبين عنصريةٍ واستحقارٍ إشكنازي، وها هم السامريون يزيدون الطين بلَّةً، الكل عندهم باطل.

عاجل الكاهن أفكارى مضيئاً بنعمةٍ حادةٍ:

- يعتمد الدين على الطهارة في كل شيء.. كذلك عند الاقتراب من الأماكن المقدسة..

هذا ما رأيته بالفعل ، هم يتوضؤون كما المسلمين ، ويسجدون في صلاتهم كالمسلمين! ويعترفون بنبوّة "محمد" ، ولم يؤمنوا به لأن حجّتهم تمنعهم كسامريين! أي حجة تلك التي قد تمنعهم وهم قريبو الشبه بهم بنسبةٍ كبيرةٍ؟ قد تكون مرعبةً! لوهلةٍ ظننتهم منهم ؛ لولا أن صلاتهم بالعبرية القديمة ، ويرتدون الطاليت في صلاتهم ، أما جدي فقد كان يُصلي بالعبرية الآشورية ، والتي اختلفت منذ أيام "عزرا هاسوفير" وسرنا على خطاه إلى يومنا هذا.

أما المسلمون فكتابهم المقدّس باللغة العربية ، ولا يرتدون الطاليت في صلواتهم.

الآن علمتُ لماذا نقول إن السامرة عليهم أن يصبحوا مسلمين قبل أن يدخلوا اليهودية ، إذن لماذا قيل عنهم إنهم يهودٌ في كل شيء؟ ليست الاختلافات في الحج وبعض الأعياد فحسب ، فعندما يختلفون معنا في أكثر من خمسة آلاف اختلافٍ في خمسة أسفار فقط ، وتصل الاختلافات لدرجة أن تُكفّر كل طائفة الأخرى ، فهم ليسوا يهوداً في كل شيء ، كيف ليهودي أن يكفّر يهودياً آخر؟

هم يقولون إنهم بنو إسرائيل الحقيقيون ، كذلك نحن نقول ذلك ، أين وجه الاختلاف؟ هناك اختلافاتٌ شاسعةٌ ، كالفارق بين المشرق والمغرب ، والأصح أن أقول: هم سامريون أما نحن فيهود ، وكل منا يختلف عن الآخر تمام الاختلاف.

وكان الكاهن كان يتنصّت إلى أفكارى.. فاجأني مقرراً:

- نحن لسنا يهودًا.. ولا نعتزف باليهود إلا إذا تركوا القدس وعادوا للإيمان بقدسية جبل "جرزيم".. هم يحتقروننا ويُبغضوننا.. ولا يعترفون بأننا من بني إسرائيل.. وكذلك نحن نعتبرهم كذلك..

احترتُ حقًا في أمركم أيها السامرة ، سأظل أتساءل بما يتساءل به الجميع عنكم دومًا ، أنتم سلاله بشرية ؟ أم طائفة دينية ؟ أصليون أم منشقون ؟ مفتحون أم منغلزون ؟ أنتم على حقٍ أم مُدعون ؟ أنتم سامرةٌ تسرون على خطى موسى ؟ أم أنكم مسلمون يتمسحون في اليهود ؟



## سفر (٨) "المأزق"

إنه يومُ الفصل.

هكذا تصفه "سارة". فهي ككل شعب المملكة ؛ لها آمالٌ عريضةٌ في أن نصعد إلى المونديال ونحافظ على اللقب ونفوز بكأس العالم للمرة الثانية على التوالي. لن أستطيع أن أنسى هذا اليوم ، فمنذ الصباح الباكر والبيت في حالة طوارئٍ إستعدادًا للمباراة.

"سارة" زوجتي لها طقوسٌ غريبةٌ يوم مباريات المنتخب ، بدأت طقوسها منذ الفجر ، قامت زوجتي تتضرع بالدعاء للقدير أن نفوز على الهولنديين ، بعدها أعادت ترتيب أثاث المنزل واطعةً مقعدًا وثيرًا بالقرب جدًا من التلفاز ، كثيرًا ما يعيقنا ، خاصةً أنها تحرك الأريكة التي أجلس عليها أنا والأبناء إلى الركن في آخر الغرفة ، كما وضعت أمامها طاولةً كبيرةً استأثرت بها دوننا ، وتركت لنا منضدةً صغيرةً لا تحمل شيئًا تقريبًا مما أعدته في الفرن لتناوله أثناء المشاهدة ، ولا من تلك العصائر التي أعدتها! كما وضعت بالقرب منها نفيراً لتنفخ فيه في حال

إحرازنا الأهداف ، وبعض المساحيق التي سوف تُلوّن وجهها بها لتخرج للاحتفال بعد المباراة.

رغم كل ذلك.. عند الظهيرة تفتح التلفاز ، وهنا نبدأ المشاركة جميعاً في طقسها الأهمّ ؛ ألا نتكلم أو ننطق بينتِ شفّةٍ إلا إذا أحرزنا هدفاً ، أما الآن فالإصغاء لأستوديو التحليل حيث التحليلات الرياضية وتشكيلة المنتخب ، ومن هو الحَكَم ومن أين هو؟ وتاريخه ، وكم عدد نقاطنا ، ومن هم الموجودون على مقاعد البدلاء ، والأهم من ذلك ، من سيذيع المباراة ، وفجأةً ونحن جالسون في صمتٍ كعادتنا لا نتكلم ، سواء أنا أو "موشيه" أو "يوسي" فاجأتني "سارة":

- إنَّ حدسي يُخبرني بأننا سنفوزُ في هذه المباراة.
- وما الذي يجعلك متأكدةً إلى هذا الحد؟
- خبرتي العالية في التشجيع ومتابعاتي الكثيرة للمباريات النسائية.. أقول إننا سنفوز اثنين مقابل صفر.

نظرتُ إليها متعجباً وقلتُ:

- أنهزمُ هولندا بهدفين نظيفين على أرضها ووسط جمهورها وفي ستاد "أمستردام أرينا"!
- نعم هذه أقل نتيجة أتوقعها.
- ضحك "يوسي" ونظر إليّ قائلاً بصوتٍ خفيضٍ:
- إن إيما تقول هذا كل مباراة ثم نخسر.
- ابتسم "موشيه" وقال:
- هذا ما أتوقعه.

ضحكتُ محاولاً إخفاء ضحكتي وقلتُ:

- وأنا أيضًا.

نظرتُ لنا "سارة" غاضبةً:

- ششش.. ما الذي يُضحككم بهذا الشكل؟ أتسخرون من توقعاتي!  
وأنت يا "يوسي" ما الذي يضحكك بهذا الشكل؟ ألم أقل لك سابقًا  
عندما لعب فريق "مكابي تل أفيث" النسائي مع فريق "مكابي حيفا"  
أن "مكابي تل أفيث" سيفوز بهدفين مقابل هدف.  
ردّ "يوسي":

- نعم.

- إذن ما الذي يُضحكك بهذا الشكل؟

- لأن هذه هي المرة الأولى التي تحققتُ فيها نبوءتكِ وكانت هي المرة  
الأخيرة أيضًا.

- ماذا!

- أنذركين عندما لعب الأسبوع الماضي "مكابي نتانيا" مع "هبوعيل  
تل أفيث" وعندما قلتُ لي إن "مكابي نتانيا" سيفوز بأربعة أهداف  
مقابل هدفين، وفاز "هبوعيل" بنتيجة ثلاثة مقابل واحد.. وعندما  
لعب منذ أسبوعين فريقا "اتحاد أبناء سخنين" و"بني يهودا" وقلتُ  
لي "بني يهودا" سيفوز بخماسية وإن صديقتك "راشيل" ستحرز ثلاثة  
أهداف.. ولم تُحرز شيئاً.. ليس هذا فقط بل أحرزتُ في فريقها هدفًا  
بالخطأ.. وفاز فريق "أبناء سخنين" بهذا الهدف.

نظرتُ إليه "سارة" وكأنها تتذكر وقالتُ له:

- كان التحكيم السيئ هو من تسبّب في هذا..

- التحكيم لم يكن له دور.. و..

عندها تدخلتُ على الفور ، ووضعتُ يدي على فم "يوسي" لكي  
أسكته ، نظرتُ لي "سارة" وهي حانقةٌ وقالت:

- أنت من قلت له هذا؟

نظرتُ إليها وأنا أهزُّ رأسي نافيًا وعلى الفور قلتُ ليوسي:

- لا يا "يوسي" فأبدا دائمًا توقعاتها صائبةً.. أنسيتُ أن "إيما" لديها  
عضويةٌ في نادي "مكابي تل أبيف" وتعرفُ النتائج قبل المباراة  
بخبرتها العالية..

ضحكُ "يوسي" و"موشيه" ، نظرتُ لي "سارة" قائلة:

- أتسخر مني يا "يائغ"؟

- لا لم يحدث.. ولكني لم أركِ تقرئين الفنجان اليوم..

- لسْتُ بحاجة إلى قراءة الفنجان.. فعندما تعرفُ أن "بن يهوشواع" هو  
مَنْ سيعلِّقُ على المباراة.. يجب أن تعرفُ أننا فائزون لا محالة.. فهو  
يُلهبُ مشاعرَ الجماهير ويحمس اللاعبين.. وعندئذ نفوز.

أوماتُ برأسي موافقًا ، وقلتُ بثقة:

- نعم.. هذا تحليلٌ جيدٌ جدًّا.. كيف عرفتِ ذلك؟

- هذه هي خبرتي في التحليل.. ولن أطلعك على سرها..

نظر "يوسي" إليّ وهو يضحكُ ويُمسكُ أذني ويقول بصوتٍ خفيضٍ  
جدًّا لا أكاد أسمعه وكان الأمر سرًّا:

- كيف يُحمسُ "بن يهوشواع" الجماهير ويلهبُ أحاسيس اللاعبين وهم  
لا يسمعونهُ وهو يُعلِّقُ؟

هززتُ رأسي بالموافقة؛ حقًّا كيف سيُلهبُ مشاعر الجماهير  
بالمدرجات ويُلهبُ إحساس اللاعبين وهم لن يسمعوهُ بالمرّة!

ضحكتُ أنا و"يوسي" من هذا التحليل الجديد الذي خرجتُ علينا زوجتي به ، نظرتُ إلينا "سارة" وهي في قمة غضبها علينا وعلى ضحكاتنا بهذا الشكل ، وقالت بصوتٍ مرتفعٍ:

- ما بكما؟

ردَّ "يوسي":

- لا شيء "إيما" .. لا شيء .. كنت أقول لأبي إن "إيما" توقعاتها دائماً صائبة ..

- نعم .. كان يقول ذلك ..

وها هو الشوط الثاني من المباراة على وشك أن يبدأ ونصف ما توقعته "سارة" كان صحيحاً فالنتيجة بالفعل هدفان مقابل صفر ولكن لصالح "هولندا"!

حالةً مسيطرةً من التوتر والقلق والتشاؤم تعيشها المملكة كلها بعد إحراز الهدف الثاني في مرمانا ، فزوجتي بجواري تتضرعُ إلى القدير داعيةً ألا نخرج مهزومين ، و"موشيه" يقرض أظفاره في توترٍ شديدٍ ، وأنا جالسٌ بجوار "سارة" وعيني مثبتةٌ على الساعة ، و"يوسي" جالسٌ على قدمي ينظر ويضحك في سكون ، هكذا كان حال بيتي أثناء المباراة .

أطلَّ علينا "بن يهوشواع" ليُعيدنا مرةً أخرى إلى أجواء المباراة الملتهبة ، ومرارة الواقع في هذا الوقت العصيب من المباراة ، وبعد الهدف الثاني في مرمانا ، ولكنيّ قمتُ فجأةً ووجهتُ كلامي إلى زوجتي وأولادي وقلتُ بغضبٍ مفتعلٍ:

- لو لم نحرز هدفاً سوف يضيع أي أمل لنا في مباراة العودة ..

لم يُعرنِي أحدٌ انتباهه فيما قلتُ! كانوا كَلِيَّةً مع صوت "بن يهوشواع" المتحشرج:

- يا لها من مباراة! أخيراً ها قد استفاق منتخبنا، للأسف بعد أن أصبح متأخراً بهدفين نظيفين، الوقت يتقلص وأجواء الملعب تزداد توتراً، الضغط يزدادُ على اللاعبين، المشجّعون ينتظرون تلك الشرارة التي تُشعل حماسهم من جديد.. فقط يحتاج الجمهور إلى هدفٍ.. هدفٍ يُعيد الآمال لينقلب الضغط على "هولندا"، وسينفجر ستاد "فينورد" من الفرحة أو من الغيظ.. حينها لن يكونَ الهدف الثاني بعيداً. وصدّقوني لن تنتهي المباراة بهذه النتيجة لأنّ مدرب منتخب "هولندا" سيلعب بأحد عشر مهاجماً إذا كانت النتيجة بهذا الشكل، ربّما يتكرّر سيناريو مباراتنا مع "فرنسا" ونُسجل أهدافاً أخرى. هذا أفضل سيناريو ممكن بالتأكيد.

بالطبع كان كلام "بن يهوشوع" بالنسبة لي مجرد هرطقة لا طائل من ورائها، مثلها مثل توقعات "سارة"، لكن من وجهة نظر أقل المتفائلين لن يكون هذا السيناريو المحتمل، فليس من السهل أن تُسجل هدفاً في فريق "هولندا" الذي يمر بأفضل فترةٍ له منذ زمنٍ طويلٍ، منذ كأس العالم (٢٠١٠) بجنوب أفريقيا، وأيضاً كأس (٢٠١٤) بالبرازيل والجيل الذهبي مع "روبين" و"شنايدر" ورفاقهم.. إلى حدٍ كبيرٍ أبناء هذا الجيل يشبهون آباءهم.. ليس من السهل أن تُحافظ على شباكك وأنت تلعب من دون "ينون" فتى إسرائيل الذهبي، وما أدراك ما "ينون"!

الجميع يُفكر في الهجوم، متناسين المشاكل الدفاعية التي تُعاني منها "إسرائيل"، فالتغطية على المهاجمين السريعين مثل "شاكيل فان بيرسي" و"چوستين كلويقرت" و"ميتشيل بيركامپ" ضعيفةٌ نوعاً ما، ثلاثي الهجوم الهولندي هؤلاء سريعون جداً، ينطلقون كالفهود في محمية غزلان طبيعية من دون قلب الدفاع العربي "وليد صوان"؛ أسد الدفاع رادع كل فهود الهجوم، هكذا لخصت مشاكل الدفاع فهل لها من حل؟

نعم بكل تأكيد ، على مدرب الفريق الوطني الإسرائيلي أن يشرك العرب ، نعم ، فمن دون العرب لن نستمر. إنتزعتني تهليل مفاجئ لجماهير إسرائيل ، "مينا جوزيف" يقوم بالإحماء! صرخات التفاؤل تملأ سماء "أمستردام":

- "ينون" .. "ينون" .. "مينا" .. "مينا" .. "صوان" .. "صوان".

آه! ذاك الثلاثي الرهيب! كل مباراة يلعبونها يتألقون ويجلبون الفوز الذي سرعان ما يُنسب فيها للخطة الجهنمية للمدير الفني! فأين هم الآن؟ لنستعدّ معًا مراتب الحسرة..

أولاً: نجم الكرة الإسرائيلية وأسطورتها الخالدة الذهبي "ينون" قد اعتزل اللعب دولياً بعد فوزه بالكرة الذهبية عقب فوزنا ببطولة الأمم الأوروبية الأخيرة ، وهو خارج الحسابات منذ ذاك الوقت رغم أن مباراة اعتزاله لم تُقَم بعد ، ولا أحد يعلم عنه شيئاً حتى وقتنا هذا.

ثانياً: رأس الحربة النفاث "مينا جوزيف" حبيس مقاعد البدلاء بسبب تخطيه السابعة والثلاثين ، ولم يستعِن به المدير الفني إلا من أجل رفعه لمعنويات اللاعبين ، لكنني متأكد من أنه يستطيع العطاء أكثر من كل من بالملعب ، حتى الجناح "طالب طواطحة" الذي تخطى بدوره الثلاثين عاماً هو الآخر ، أيضاً المهاجم "محمود غدير" ، ومهندس وسط الملعب "بيرم كمال" ، والموهوب "بيبي سهار" ، والموهبة الفذة "جيلاد أوسولين" الوحيد الذي لم يتخطَ حاجز الثلاثين من النجوم ، وإن تبقى له عامٌ واحدٌ على ذلك.

ثالثاً: أسد الدفاع "وليد صوان" لاعب نادي "اتحاد أبناء سخنين" السابق وأفضل مدافع في الدوري الإسرائيلي قبل رحلة الاحتراف الخارجي ، "صوان" أقوى بكثيرٍ من أيِّ مدافعٍ في العالم.

الفرق بين الكبار والجدد ، أن الكبار هم فريق الذهب الإسرائيلي ، بينما الجدد معظمهم من الإشكيناو والسفارديم المتنازعين بطبعهم ، والباقون عربٌ كـ"مينا جوزيف" ذي الأصول المصرية ، و"وليد صوان" من عرب الداخل ، و"ينون" أسطورة الكرة الذي يُشاع أنه يفخر بجذور أبيه العربية رغم أن أمه هي نائب رئيس الكنيست وسليمة عائلة "روتشيلد" الشهيرة.

كيف سهل على المدرب تجاهل كل ذلك ؟ من دون "ينون" ورفاقه العرب لن نتأهل ، ويا له من عار على جبين الإسرائيليين.. بطل كأس العالم الأخير وبطل أوروبا في آخر نسخة له لن يتأهل لينافس على لقبه المزعوم!

إن الجماهير الإسرائيلية الكثيفة في "ستاد فينورد" ، تفقد آمالها. كذلك في كل أنحاء المملكة يحدث لها المثل. الأمل الوحيد للنجاة في هذه المباراة ألا نفقد ثقتنا في منتخبنا الذي شرفنا في نهائيات أمم أوروبا الأخيرة بفوزه على منتخب "إيطاليا" بقيادة فارسنا الذهبي "ينون". ولكن أين أنت الآن يا صاحب الحذاء الذهبي ؟ أين حذاؤك الآن في "هولندا"؟

يا إلهي! وكأن "إيطاليا" سحرت أكبر سحرتها لعملٍ سحريٍ شرير يُجلبُ اللعنات على "ينون" وإنجازاته في العام الماضي!

الآن من ينقذنا مما نحن فيه ؟ ليس من السهل أن تحافظ على شباكك نظيفة وأنت تلعب من دون الثلاثي الذهبي "ينون" و"مينا" و"صوان". هل يُحقّق "مينا جوزيف" بعض الأمل ؟ هل يعتبره الهولندي "فان بولمان" مدرب منتخبنا الذي يواجه أبناء وطنه ، مفاجأة العمر مثلما يحلم كثيرٌ من الجمهور ؟ كيف هي توقّعات "سارة" الآن يا تُرى ؟

ما زالت الهتافات تدوي صارخةً في سماء "أمستردام":



- "ينون" .. "ينون" .. "ميننا" .. "ميننا" .. "صوان" .. "صوان".  
نهضت "سارة" وأرسلت نبوءاتها:
- كم أنت ملهّب لمشاعرنا يا "بن يهوشوع" سوف يسحقهم "ميننا" جميعاً ولن يرحمهم.. نعم لن يرحمهم.
- لم أعزها انتباهي ، أكمل "بن يهوشوع" حديثه وكأنه قد سمع "سارة" واستطرد:
- أووه.. الجماهير تهتف باسم الثلاثي الرهيب.. الثلاثي الخطير الذي يعمل لهم المنافسون ألف حساب. الثلاثي الذي يؤمن بقوة الثلاثة خطوط للمنتخب الإسرائيلي.. "صوان" يؤمن الدفاع، و"جوزيف" يؤمن الهجوم الساحق، وثالثهما نجم الكرة الإسرائيلية وأسطورتها الخالدة "ينون" الذي يُسيطر على وسط الملعب. الجماهير تتساءل: أين أنت أيها المنقذ "ينون"؟ فكما تعرفون أن نجم الكرة الإسرائيلية وأسطورتها الخالدة "ينون" قد اختفى منذ فترة.. بعد فوزنا بكأس أوروبا لا أحد يعلم عنه شيئاً حتى وقتنا هذا! بينما "وليد صوان" مدافع نادي "اتحاد أبناء سخنين" سابقاً وأفضل مدافع في إسرائيل مهددٌ بالقتل من متشدّدين عرب إذا لعب لمنتخبنا مرة أخرى.. محترف في الدوري الإسباني ولا يريد العودة. وها هو "ميننا جوزيف" يقوم بالإحماء الآن استعداداً للتبديل في أي وقت.. فهل تكون آمال "قان بولمان" ضعيفةً للغاية في الربع ساعة الأخيرة أم أنها قُبلة الحياة؟ بالفعل يقوم بتبديل "ميننا جوزيف" الذي نزل إلى أرض الملعب، مرتدياً قميصه المفضل رقم (٩).. نعود إلى المباراة من جديد. الجمهور الإسرائيلي يشعل المدرجات بالشماريخ الزرقاء مع نزول "ميننا" أرض الملعب.. يمرر "ميننا" الكرة إلى "أنيس دبور" الذي يُعيدها إلى منتصف ملعبنا أملاً في فتح الخطوط الهولندية.. ثم يمررها إلى "عابد عزام" في خط الدفاع.. تمريرة قصيرة خطيرة.. ينقض "جوستين كلويفيرت" على "عزام" الذي يمررها مضطراً إلى حارس

المرمى "آريئيل أموس" .. أووو.. لقد أخذها "چوستين كلويڤيرت" قبل أن تصل إلى "دانيال أموس" .. لماذا يا "عزام" لماذا؟ خرج "أموس" من عربنه لكي يعترض "چوستين كلويڤيرت" .. لماذا يا "أموس"؟ يراوغه "كلويڤيرت" .. يا إلهي! أمامه المرمى خاليًا.. أووووه يتدخل "عزام" بقوة من الخلف.. ويُطلق الحكم صافرته محتسبًا ركلة جزاء لصالح المنتخب الهولندي.. وبطاقة حمراء ل"عابد عزام". المنتخب الإسرائيلي سيكمل المباراة بعشرة لاعبين فقط. لماذا يا "عزام" أضعت آخر أمل لنا بعد نزول "مينا"؟

فجأةً صرختُ زوجتي قائلةً:

- هؤلاء هم العرب.. دائمًا يضيِّعون آخر أمل نتعلق به.  
يتابع "بن يهوشواع":

- تقف الآن الجماهير الإسرائيلية على قدمٍ وساقٍ.. قلقين.. حابسين أنفاسهم.. بسبب ركلة الجزاء هذه التي أهداها "عزام" إلى "كلويڤيرت" .. "كلويڤيرت" يثبت الكرة في نقطة الجزاء استعدادًا لتسديدها على مرمى "آريئيل" الذي يقف متأهبًا.. لحظات دقيقة وحرجة تعيشها المملكة بأسرها.. يستعد "كلويڤيرت" للتسديد. ينتظر صافرة الحكم.. ويسدّد.. أووو.. الأسد "أموس" فعلها.. ويؤكّد تسديده على عربنه. انظروا في الإعادة كيف تصدّى لها "أموس" برشاقةٍ ليُخرجها إلى ركلة ركنيةٍ.. المدرجات تشتعل حماسًا وفرحةً بضياغ الكرة. كم أنت رحيماً بأبنائك يا "إلوهيم"! يلعب "مارتن" الركلة الركنية عالية.. يضربها برأسه "عاميخاي كينان" المدافع لتذهب إلى المخضرم "عادل عثمان" الذي يهررها إلى الناحية اليسرى ليأخذها "غالب طواطحة" ويهررها إلى "عوفير أرنون" في وسط الملعب.. هجمةً مرتدةً للمنتخب الإسرائيلي.. "أرنون" يواجه "جراتيا" مدافع هولندا القوي.. يهررها من بين قدميه وينطلق إلى الأمام.. يرفعها عالية إلى "مينا چوزيف" في منطقة الجزاء.. يأخذها "چوزيف" على صدره.. و.. أووو.. تدخل قوي للدفاع

الهولندي. ركلة جزاء. نعم ركلة جزاء. ركلة جزاء لصالح منتخب إسرائيل.. تبدو إصابة "چوزيف" قوية.. يتحامل على نفسه وينهض. من سيسدّد ركلة الجزاء؟ الكرة مع المهاجم "أنيس دبور" يضعها على نقطة الجزاء.. هل يفعلها الموهوب "أنيس دبور"! لم يتبقّ من الوقت البدل من ضائع إلا دقيقة واحدة.. لحظة حاسمة تحبس الأنفاس.. الجميع يترقب.. الجماهير الموجودة بداخل ستاد فينورد والموجودة بالمملكة وجميع أنحاء العالم.. يتقدم "دبور" ليسدد الكرة.. ويسدّد.. هدف. فعلها "دبور".. على الرغم من أن العملاق "چو فاندرسار" حارس المنتخب الهولندي كاد أن يخرجها.. ولكنه الهدف الأول والمنتظر لمنتخبنا في الدقيقة الأخيرة.

كاد رأسي يَرتطم بالسقف وأنا أقفز من على الأريكة مهلاً فرحاً مع "سارة" والأولاد.. لقد عاد الأمل في الصعود. ما زالت هناك مباراة العودة قد تحسم التأهل..

- ما زال طوف نشمتي..

قلتُ لها بفرحة عارمة:

- حظاً سعيداً يا روعي.. لقد اقتربنا ..

هرعتُ إلى غرفتي لكي أبعث برسالةٍ من تليفوني إلى "ينون" أهنته فيها؛ أعرف أنه يتابع المباراة، وبنفس شغفنا، إن لم يكن أكثر.

كان لا بد لـ"سارة" أن تكمل طقوسها في أيام المباريات.. بعد ثلاث ساعات دخلتُ عليها، وقد أنهت مشاهدة كل التحليلات والتوقعات للمباراة القادمة والآمال المتعلقة بالصعود، نامتُ إلى جواري وأمسكت يدي بيديها الدافئة:

- عليك أن تُثنع "ينون" بالعودة يا حبيبي.. فكما تعلم أن في أقدامه يكمن سرُّ انتصارنا.. وهو من يستطيع حلَّ أحجية المباراة القادمة..



أنت تعرف مقدار حبي لكرة القدم.. ثم إنها المهلكة.. وهذا مجدها الذي لا بد أن تحافظ عليه. إنها حربٌ علينا أن نتجاوزها ومنتصر فيها.. لا ينبغي قط أن نخسر.

تأملت كلماتها لثوانٍ ، ثم نظرتُ لعينيها.. لقد غرقتُ فجأةً في سُبَاتٍ عميقٍ. منذ الفجر وهي يقظةٌ استعدادًا للمباراة التي أثارت أعصابنا جميعًا..

أخذتُ أفكر في طريقةٍ لإقناع "ينون" ، ولكن دون جدوى! لم يهديني تفكيري إلى كيفية فعل ذلك!

حقيقة لكم اشتقتُ إلى ذلك الفتى المتمرد! الفاره الطول ، هذا هو النموذج المثالي للجسم الرياضي ، ومَن غيره يصلح لأن يكون عارضًا للأزياء؟ لكن ما يجعل بدني يقشعر؛ عندما ينزع قميصه عند إحرازه هدفًا يكشف عن جسمٍ جميلٍ قد شوّهته الأوشمة ، العديدة ، الغريبة المقززة.

على كتفه الأيمن تأثو لوجهٍ قاطب الجبين ، جاحظ العينين ، ويشهر إصبعه الأوسط! ولكن حقيقة لا أدري لمن يشهره! وعلى صدره الأيسر قد كتب اسمه بالأحرف العبرية الزخرفية (٦٦٦)، وحول سُرته قد رُسمت نجمتنا السداسية بطريقةٍ فنيةٍ أقل ما يُقال عنها أنها مُذهلة ، أما كتفه الأيسر فقد ترك عليه تأثو لجمجمةٍ تُخرج لسانها الطويل المتدلي بطريقةٍ بشعةٍ مقززة! ولكن ما يُثير التساؤلات بداخلي "اللجماجم السنة"؟

أما باقي الذراع حتى عظمة الكوع فلقد طبع عليه وشمًا غريبًا: نقاط مرقطة ليصبح أشبه بجسم فهدٍ أفريقي رشيقٍ ، وعند مفصل الكوع نجمة خماسية قرمزية اللون محددة باللون الأسود المتفحم.

ونُقش على ساعده الأيسر أفعى تلتفُّ حوله بحرفيةٍ ودقةٍ مُرعبةٍ ،  
وعلى أصابع يده اليسرى كتب اسمه بأحرفٍ عربيةٍ منفردةٍ بواقع حرفٍ  
لكل إصبع عدا الإبهام ، وتحديدًا بالخط الديواني الجذاب ، الذي أحبه .  
شعره مُنسدلٌ يلامس كتفيه ، مع ضفيرةٍ على شكل ذيل حصان  
عربي أصيل تبدأ من منتصف رأسه لترافق باقي الشعر لتصبح أقصر منه  
بقليلٍ ، يجعلك تشعر وكأنك ترى الأسطورة السويدية "إبراهيموفيتش"  
في إحدى فترات تألقه مع "باريس سان جيرمان" .

وعلى عنقه الطويل رُسم على الجانب الأيسر منه موتيفٌ شجري  
حاد الأطراف غريب ، أقرب ما يكون إلى فرعٍ عجوزٍ تساقطت أوراقه في  
إحدى العواصف الخريفية البغيضة .

ليس هذا فحسب ، ما زالت هناك أوْشمةٌ أخرى قد رُسمت على  
نصفه الأسفل ، تحديدًا عضلة السمانة اليمنى واليسرى أيضًا ، رسمٌ  
رائعٌ جذابٌ لجناحي نسرٍ يُحلق في السماء .

طول "نينون" لا يقل عن (١٩٠) سم ، ووزنه حسب آخر إحصائيةٍ  
(٨٤) كيلو جرامًا ، ولكن أعتقد أن وزنه قد زاد بسبب توقفه عن ممارسة  
الرياضة ، ولكن هيهات! سوف يستعيد رشاقته في وقتٍ قريبٍ ، أو  
هكذا أجزم . أحب هذا الثور الهائج رغم أنني ومواليد برج الثور لسنا  
على وفاق! ولكنه صديقي ، وعليّ أن أقبله كما هو عليه لا كما يجب أن  
يكون .

تذكرتُ تلك اللحظة التي صرَّح لي فيها بأنه سيعتزل كرة القدم  
نهائيًا ، عتفتُه قائلاً: "أأنت مجنون.. عليك التراجع عن هذا القرار  
فورًا" ، فما كان منه إلا أن نظر إليّ نظرةً حارقةً ، وزفر بحنقٍ وصلفٍ  
وهو يقول:

- لن أتراجع.. أنا على استعدادٍ تام لأن أخسر كل الدنيا في سبيل راحتي  
ولن أشعر بلحظة ندمٍ واحدة! تذكر أنني من مواليد برج "الثور" .. أو

تعرف الثور يا هذا؟ أتعرف كم هو لطيف وهادئ؟ ولكنه عندما يتخذ قراراً فاعلم أنه قد قدّم الكثير من الوقت لفعل ذلك.. الثور عنيذٌ لا يتنازل عن رأيه أبداً مهما كلفه الأمر.. ثورٌ أنا في كلّ شيء.. فاحذروا أن تستفزّ ثوراً عن غير قصدٍ.. احذروني..

كيف سأقنعك بالعودة أيها الثور؟! أقصد يا "ينون"!

## سفر (٩) "قَرَارُ الكَنِيسَتِ"

في اليوم التالي للمباراة تظاهر مئات الشباب من مجموعة "أولتراس أسْمَانْجُونِي"<sup>(٢٥)</sup> ، أمام مقر الكنيسة في العاصمة "بروشلايم" ، مطالبين بعودة "ينون" إلى صفوف المنتخب ورحيل المدير الفني الحالي ، ورددوا عباراتٍ يصفون فيها رئيس الحكومة بالكاذب لأنه وعدهم بعودة "ينون" قبل مباراة الذهاب. كانت نبرة الهتافات حادة ؛ خاصة بعد إذاعة أخبار بأنه لا يعلم أحد مكانه. في ذلك الوقت كانت تعقد إحدى اللجان الداخلية البرلمانية اجتماعًا في الكنيسة لمناقشة مشكلة السكن ، كنتُ قد دُعيتُ لتغطية الاجتماع إعلاميًا ، لكن مع سماع الأعضاء هتافات المتظاهرين تغيّرت دفة الاجتماع.

طلب أحد الأعضاء الكلمة وهو ممثل حزب "يش عتيد" فسمح له الرئيس ، بدا التوتر على النائب في صوته وكلماته وهو يتحدث:

- "ينون" هو الذي سيُعيد الروح إلى منتخبنا مرةً أخرى.. لن نقبل بقرار اعتزاله.. على الأقل قبل النهائيات.. منتخبنا - حامل اللقب- في موقف سيئ للغاية.. نحن مُهدّدون بعدم التأهل.

يعتدل الرئيس ويتحدثُ بنفس التوتّر:

- بالفعل ستكون فضيحةً. فريقنا الآن أكثر من نصفه عرب. وأيضًا نحن مهددون بعدم التأهل. "ينون" يجب أن يعود؛ كي تعود الروح للفريق، ويكسر النزاعات والنداءات العنصرية في الفريق التي بدأت في الظهور مرةً أخرى عندما اختفى "ينون" هو وأعضاء الفريق الذهبي. تُضيف عضو عن حزب "العمل" بلهجتها الاستنكارية المعهودة:

- لكن كيف سنقنعه بالعودة؟

يقول ممثل حزب "الليكود" في سخرية:

- من أين ستأتون به الآن؟ لقد أصبح رائدًا للنوادي الليلية وبيوت الدعارة.

يقف ممثل حزب "شاس" وهو يلوّح ببعض الأوراق، لفت النائب انتباهي بلحيته القائمة الطويلة والقبعة الأسطوانية الشهيرة التي تغطي رأسه والضفيرتين المقصوعتين اللتين تتدليان من تحتها، وصوته المتحشج:

- ليس هذا فقط لقد أُلحد وأصبح بوذيًا.. شاهدتُ تقريرًا عنه مؤخرًا في أحد البرامج التلفزيونية.. "ينون" بوذي ويشك في وجود الباري.. (ويقرأ من الأوراق) قام نجم الكرة الإسرائيلية "ينون" الشهير بايني، المصنف اللاعب رقم واحد عالميًا في كرة القدم للمحترفين، بزيارة الرهبان البوذيين على أحد الشواطئ في إقليم براشواب قرب العاصمة التايلندية بانكوك، هذا الأسبوع. (ويلوّح مؤكدًا) هذا تقرير موثق بهذه الحادثة.

يتدخّل عضو آخر عن حزب "كاديما" في النقاش:

- كلامك صحيح.. لقد ذكرت أحد المواقع المهمة بالشؤون الرياضية أن "ينون" قام بعد أن وصل إلى مكان العبادة بتقديم القرابين، وقبلها



قام بالسجود مع المصلين لأداء الصلاة.. الأمر ليس جديدًا فيما يبدو.. كثيرون منا يعرفون تلك الأقاويل التي انتشرت على لسانه في شكوكه حول وجود الرب.. حتى بعد بطولة كأس العالم الأخيرة الذي فاز فيها "ينون" بالكرة الذهبية لمساهمته في إحراز بلادنا الكأس.. تهرّب من الإجابة عن سؤال له عن معتقداته الدينية وقال بأن هذا خارج حدود الكلام مع رياضي!

يصيح ممثل حزب "يسرائيل بيتنو":

- علاوة على ذلك.. أصبح مدمناً للكحول والكوكايين.

تقف السيدة "روتشيلد" نائب رئيس الكنيست، ورئيس حزب "العدالة الاجتماعية" في عصبية تهكمية واضحة:

- وعمل قوَّادًا في إحدى أكبر القنوات الإباحية في العالم، وأخذ شعار "بلاي بوي" الذهبي وقام بعمل وشم شعار البلاي بوي الشهير على مؤخرته، وتحديدًا في الجهة اليسرى. هل أنهيتهم تشويه صورة الرجل بالقدر الكافي؟ هل من مزيد؟!

نظرت حولها بعد أن خيم الصمت على القاعة، واستطردت وقد احمرَّ وجهها أكثر وهي تُحاول رفع شعرها عن وجهها:

- هلا تركتم لي جميعًا هذه المهمة؟ سأعيده بطريقتي. واعلموا أنكم تتحدثون عن ابني.. الفتى الذهبي الذي قاد إسرائيل لأول فوز بكأس العالم في تاريخها. بالإضافة أنه أول إسرائيلي في التاريخ فاز بجائزة أفضل لاعب في العالم. وهو أيضًا أول إسرائيلي يحمل كأس أمم أوروبا وأول إسرائيلي يفوز بأفضل لاعب في أوروبا وبالهداء الذهبي. وهو أول إسرائيلي يفوز بأفضل لاعب في الدوري الألماني والإيطالي. هو الإسرائيلي الوحيد الذي فاز لإسرائيل بكل شيء في كرة القدم. أحلمتم بذلك من قبل؟ هل رأيتم هذا حتى في أحلامكم؟ وأنتم

تعلمون أن هذه الإنجازات لن تتكرر في تاريخنا إلا مرةً واحدةً فقط..  
ولن يتكرر نصفها في ظل ما نمر به من أحداث.

طأطأ الجميع الرؤوس ، وانغمروا في خجلهم غير قادرين جميعًا على  
مواجهة نظرات الأم المُتَحَدِّية المُحَقِّقة في كل ما قالت من كلماتٍ لاذعةٍ.

تنحني رئيسُ الكنيسة خجلًا وقال متلعثمًا:

- نأسف يا سيدتي.

يلتفت للحضور:

- ليس منكم من يعرف "ينون" مثلما أعرفه.. إنه لن يقوم أبدًا بأي  
عملٍ قذرٍ مهما كانت الظروف والعواقب، كما ادّعى بعض النواب  
الموقرين.

يُعاود النظر مرةً أخرى للسيدة "روتشيلد":

- نحن آسفون سيدة "روتشيلد". لكِ حرية التصرف في إقناع الأسطورة.  
رُفعتِ الجلسة.

انسحبتُ في هدوءٍ مع طاقمي بعد إنهاء الاجتماع ، وخرجتُ أُعطي  
المظاهرة بالخارج. لا أعرف ما الذي دفعني إلى هذا؟ قد يكون رجاء  
"سارة" الحارِّ لي ليلة أمس ، بأن أقنع "ينون" بالعودة للملاعب.

كانت المظاهرة صاحبةً بها الكثير من الفعاليات ، ارتدت شابات  
قمصانًا عليها صورة "ينون" ، بينما حمل الشباب صورًا له ، كان الهدف  
واضحًا من المظاهرة "لا بد من عودته للملاعب مرةً أخرى".

أجريت لقاءاتٍ مع كثيرٍ من الشباب والشابات ؛ أجمعوا على أنهم  
على استعدادٍ أن يتنازلوا عن وعود الحكومة لهم بالسكن ، وأنهم  
مستعدون لتحمل البطالة مقابل أن يعود الفتى الذهبي مرةً أخرى ،

إنهم يُطالبون بتأجيل أحلامهم الخاصة مقابل أن تقي الحكومة بوعدٍ واحدٍ فقط ، وهو عودة "إيني".

كنتُ قد رُتبتُ مع السيدة "روتشيلد" بعد الاجتماع أن أتولى مهمة إعادة "ينون" حيث إنني الصديق الوحيد المقرب من "إيني". ذهبتُ بصحبة حرس السيدة الخاص ودخلنا أحد الملاهي الليلية ، تحرك الحراس في هيبةٍ يؤمّنون المكان تمامًا بعد انتشارهم في كل أركان الملهى وسط دعر الجميع ، كان من بين الحرس فتاةٌ ترتدي ثيابًا غريبةً ضيقةً ، معظمها من التكوينات الحمراء اللون. كان لون شعرها الأحمر القصير يتناغم مع ملابسها ، تتقدم نحو البار وكأنها ترقص على أنغام موسيقى الجاز ، تبتسم ثم تنزع نظارتها الحمراء ، تنظر إلى رجالها وتومئ لهم بنفس الابتسامة ، يأتون بسرعةٍ وصمتٍ ، ومن ثم يأخذون الفتى الذهبي المنكبَّ بوجهه على البار ، ويحمله أحدهم على كتفه ، وينسحبون دون أن يتفوّه أحدٌ من رواد المكان بأي شيء.

عدتُ إلى المنزل بعد هذا اليوم الشاق ، وكعادتي أدتُ التلفاز لتطل عليّ ذات الصوت النحاسي الشاذ:

- سقوط أجزاء من نيزكٍ إثر انفجارٍ طفيفٍ نتج عن اقتراب النيزك من الغلاف الجوي للأرض. وقال العلماء إنه جرم سماوي تفتت إثر احتكاكه بالمجال الجوي مُكوّنًا غيمةً من الإشعاعات ، وتبحر الجزء الأكبر من مكوناته.. ثم سقطت بقاياه في بحيرة طبريا بسرعة ثلاثين كيلو مترًا في الثانية. مما تسبّب في الضوء الساطع الذي أزعج أعين الجميع.

أغلقتُ التلفازَ ولعنْتُها ولعنْتُ عادتي السخيفة. حتى صياغة الخبر ركيكة! أي ضوءٍ ساطعٍ هذا الذي رآه الجميع ولم أره!؟



## سُفْر (١٠) "مَلَكَةُ الْإِبَاحِيَّةِ"

قَلَّمَا عُدْتُ أَظْفِرُ بِمُغَازِلَاتِ أَنْتَوِيَّةٍ هَذِهِ الْأَيَّامِ؛ لَكَيْتِي مَا أزالُ أَوْاطِبُ يَوْمِيًّا عَلَى مِمَارَسَةِ طُقُوسِي الْخَاصَّةِ فِي التَّمَتُّعِ بِمِغَازِلَةِ النَّوْمِ لِي. أَلْمَلَمُ أَوْراقِي الْمَبْعَثَةَ عَلَى مَكْتَبِي، وَالتَّقْفُ بَيْتِي الْمَحْشُوءَةَ بِالتَّبَعِ، وَأَشْعَلُهَا، وَأَتَجَهُّ إِلَى الرَّدْهَةِ لِمِشَاهِدَةِ التَّلْفَازِ. أَسْتَمْتَعُ بِمَا يَفْعَلُهُ النَّوْمُ مَعِي قَدْرَ الْإِمْكَانِ رِيثَمًا أَسَلِّمُ لَهُ عَقْلِي لِيَحْفَظَهُ لِي فِي قَاعِهِ الْعَمِيقِ.

مِنَ شَاشَةِ التَّلْفَازِ أَطَلَّتْ ذَاتَ الصَّوْتِ النَّحَاسِي الرَّنَانَ، بِنَفْسِ الْوَجْهِ الْغَاضِبِ، وَالْحَوَاجِبِ الْمَعْقُوفَةِ.. أَدْرَكْتُ وَقْتَهَا أَنَّ الْقَادِمَ مِنَ الْأَخْبَارِ عَلَى لِسَانِهَا أَسْوَأُ، وَقَدْ يَطِيرُ النَّوْمُ مِنْ عَيْنِي، وَهِيَ ذِي تَبْدَأُ:

- حَالَةٌ عَارِمَةٌ مِنَ الرَّعْبِ تَعِيشُهَا نَجْبَةٌ مِنْ نَجُومِ الدَّوْرِيِّ الْإِسْرَائِيلِيِّ، بَعْدَ تَصْرِيحِ نَجْمَةِ الْأَفْلامِ الْإِبَاحِيَّةِ "مُوغَانَ حَايِيمَ" عَنْ اعْتِزَامِهَا كِتَابَةَ وَنَشْرَ مَذْكَرَاتِهَا الْخَاصَّةِ.. "مُورِي" أَشَارَتْ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرَ مِنَ التَّجَارِبِ الْمُمَيَّزَةِ الَّتِي خَاضَتْهَا مَعَ نَجُومِ الْكُرَةِ، سَتَضْمَنُهَا مَذْكَرَاتُهَا.

وَأَكْمَلْتُ بِنَفْسِ الْحَدَّةِ عَنْ أَخْبَارٍ أُخْرَى فِي مَجَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ:

- سقوط عددٍ من صواريخ الإرهابيين في صحراء النقب.. دون وقوع خسائر.

تابعتُ ذات الصوت النحاسي أخبارها السيئة ، بينما قفزتُ عائداً إلى مكنتي أنفق الأدرج باحثاً عن تقريرٍ قديمٍ يخص ملكة الإباحية ، كنتُ قمتُ به بنفسي قبل عامين من فوزنا بكأس العالم ، عندما ارتبط اسمها بنجم الكرة الإسرائيلية "ينون". شعرتُ بغبطةٍ وأنا أقرأ عنوان التقرير بصوتٍ مرتفع:

- صديقة قائد المنتخب الإسرائيلي عاربة في حمام سباحة خاص في إحدى الدول الأوروبية الكبيرة.

وتابعتُ قراءة الخبر بكل فخرٍ وبأسلوبٍ الخاص:

- ظهرت "موران حاييم" صديقة قائد ونجم المنتخب الإسرائيلي "ينون" عاربة الصدر على غلاف مجلة "بلاي بوي" (Playboy) للعام الجديد.. وذكرت الصحافة الإسرائيلية أن "موران" قامت بهذا العمل مقابل مبلغٍ مالي كبيرٍ لتبدأ عامها الجديد برفاهيةٍ إضافيةٍ.. ولم ترتدِ زوجة المستقبل لنجم المنتخب الإسرائيلي وقائد فريق "اتحاد أبناء سخنين" أثناء التصوير سوى جاكيت لم يستر صدرها.. وسروالاً داخلياً شفافاً.. وقالت مبررةً: "أود أن أكون مشهورةً بعمليةٍ كمثليةٍ أو كعارضة أزياء.. أنا لا أهتم بما يُقال عني".

وقعت عيني على خبرٍ آخر قد أعدته بنفسني ، عندما انتقل نجم النجوم إلى نادي "بايرن ميونخ" الألماني.

- احتفل النجم الإسرائيلي "ينون" الشهير بإيني بانتقاله إلى صفوف العملاق البافاري مع صديقتة الموديل الإسرائيلية الأمريكية ونقلت صحفٌ ألمانيةٌ وإسرائيليةٌ صوراً لإيني وصديقتة وهما يحتفلان معاً بخطوة الانتقال إلى صفوف عملاق الأندية الألمانية بعشاء روماني في العاصمة برلين.

واستكملت..

- ... وكان العملاق البافاري قد أعلن أنه توصل إلى اتفاقٍ لضم "ينون" البالغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا، والذي سبق له الاحتراف في أنديةٍ كبيرةٍ على رأسها الأفاعي "إنتر ميلان" و"باريس سان جيرمان" كما لعب لنادي "مكابي حيفا" الإسرائيلي ونادي "اتحاد أبناء سخنين" العربي الإسرائيلي وهو أحب الأندية إلى قلبه على الإطلاق، وتتوقف خطوة انتقال "ينون" إلى صفوف البافاري على خضوعه للكشف الطبي والتوقيع على العقد النهائي. وبعيدًا عن قدراته التهديفية، تتعلق آمال جماهير البافاري به في الموسم المقبل بفضل تمتعه بخبرة واسعة في الملاعب الأوروبية. بعض النقاد أبدوا تخوفهم من وجود صديقه في ميونخ وتأثيرها على تركيزه في الملاعب، خاصة أنها قررت القدوم معه إلى ميونخ والاستقرار بها. يأتي ذلك في الوقت الذي ما زالت ذكرى الفيلم الجنسي الفاضح الشهير الذي مثلته قبل ارتباطها بعامٍ من "ينون"، حاضرًا في أذهان ومخيلة الجماهير، خاصة بعد استثمارها في مجال العروض الإباحية.

نقلتُ عينيَّ بسرعةٍ على بعض التفاصيل الأخرى بالتقرير..

- استطاعت "موران" الاستفادة من ارتباط اسمها بإيني، وانطلقت إلى عالم الشهرة والنجومية بسرعة الصاروخ، نظرًا لمتع إيني بمكانةٍ خاصةٍ وشهرةٍ مدويةٍ، الأمر الذي جعلها تستفيد من نجوميته، وليس مستغربًا أنَّ عشاق الكرة الألمانية يتوقون لمعرفة ما يحدث من "موران" خارج الملعب كاهتمامهم بما يفعله "ينون" داخل الملعب.

بعد انتهائي من قراءة التقرير كاملاً، قررتُ أن أبذل قصارى جهدي لإعداد حلقةٍ خاصةٍ عن هذه المرأة اللغز، علَّ هذه الحلقة تُساعد على عودة "ينون" مرةً أخرى للأضواء، وربّما - من ثمَّ - للملاعب. إنه إغراء الفرصة والسبق.

وبالفعل أخذ الأمر مني وقتًا طويلاً للإعداد والبحث بنفسني عن سرِّ هذه الشخصية الغريبة ، وشعرتُ ببعض الخجل وأنا أطلب من طاقم الإعداد هذا ، ولكن ما باليد حيلة! هكذا كان لسان حالهم وهم يبحثون ، فأنا الإعلامي الأول هنا ومن أفضل الإعلاميين على مستوى العالم ، هذا ليس رأيي بالطبع ولكنها نتيجة استفتاء العام الماضي والذي قامت به مؤسسة إعلامية مشهورة عالمياً ، وبعد بعض العناء عثرنا على رقم هاتفها الخاص ، وبقيت الخطوة الأخيرة أن أتصل بها ، وأعرض عليها الأمر بنفسني ، ودار بخلدي هل توافق بالفعل على إجراء هذا اللقاء الجريء والخاص في نفس الوقت ؟ هل تقول ما تريد أن تقول في مذكراتها؟ سؤال يستحق التفكير.

\*\*\*\*\*

بعد أن حصلنا على التصاريح اللازمة وبعد مجهودٍ ضخمٍ في إقناعها ، وافقت "موران" على هذا اللقاء مقابل مبلغ مالي ضخم ، قبل الحلقة بأيام تم الإعلان عنها ، كان الإعلانُ مثيراً للغاية ، حافلاً بتقارير صوتية مطعمة بالصور وبعض مقاطع الفيديو للتعرف أكثر على الضيف المثير للجدل ، ضيف انتظره الجميع. ليستِ الصورة المعتادة لبرنامجي ، ولكن الأمر كان يستحق.

تبدأ الحلقة ولأول مرة الأستوديو مزدحم عن آخره ، الإعلانات سعرها تضاعف ومع ذلك سوِّقَتْ كلها ، عند ظهوري على مسرح الأستوديو دوى في أذني تصفيقٌ حاد ، في الواقع أنا معتادٌ على كل ذلك ولكن هذه المرة كنت أشعر بأن هذا التصفيق يقرص أذنيَّ وبدأت بتقديم ضيفتي:

- مُشاهديَّ المُحِبِّين؛ أهلاً بكم في ليلة جديدة غير تقليدية من (هنا إسرائيل). ضيفتي اليوم هي صاحبة أكبر وأخطر وأعماق أنواع الجدل.. السياسي.. والديني.. والأخلاقي.. وغيرها من أشياء عديدة لا تُعد ولا

ثُحِصِي.. ضيفتنا اليوم لا أستطيع وصفها بالقدوة.. لأنه مُحرم علينا  
الاقْتداء بما تُؤمن به من عقائد تُخالف شريعتنا اليهودية.. ولكنها  
ضربت مثلاً غير تقليدي في حب الوطن والانتماء.. هي "موران  
حاييم" أو "ملكة الإباحية"..

وهنا دوى التصفيق الحار في أرجاء القاعة فقط لسماع اسمها ولقبها ،  
ثوانٍ حتى هداً التصفيق وبدأ عرض تقرير السيرة الحياتية لـ"موران" ..

- في سن التاسعة عشرة عملت كعارضة أزياء وممثلة إباحية.. هي  
إسرائيلية الجذور والهوى.. وتحمل أيضاً الجنسية الأمريكية.. نُوجت  
كأشهر ممثلة إباحية في العالم أو ملكة الإباحية كما يُطلق عليها  
عشاقها في جميع أنحاء العالم. تنتمي إلى عائلةٍ اشتهرت بالغنى..  
لكن تغيرت أحوالها وتقريباً خسرت كل ثروتها في الوقت الذي  
وصلت فيه "موران" لسن الثالثة عشرة.. تعرّضت للاغتصاب مرتين  
في المرحلة الثانوية.. ربحت أهم ثلاث جوائز للقادمات الجدد من  
منظمات الأفلام الإباحية.. منذ ذلك الحين ربحت أكثر من عشرين  
جائزة وانضمت إلى قائمة المشاهير في (X-Rated) (XRCO) و  
(Critics Organization) و (Adult Video News AVN) قامت  
موران بإنشاء شركة متعة باسم "نادي موران" (Moran Club)  
بالاشتراك مع "جاي باراك" الذي تزوجته فيما بعد.. تخصص "باراك"  
في فن الوشم.. وهو الذي أعطاها أول عدد من الوُشوم منها الوشم  
الذي أصبح علامتها التجارية فيما بعد.. قلبان على النصف الأيمن  
من مؤخرتها.. ثم بعد ذلك أضاف كلمة مالكة القلوب تحت هذا  
الوشم..

انتهى التقرير السريع ، فتدخّلتُ:

- دعونا نستقبل ضيفتنا الفاتنة "موران حاييم" أو "موران جيمسون"  
كما ينادونها في أمريكا.

تصفيقٌ حادٌ مرةً أخرى من الجماهير الحاضرين في الأستوديو ،  
لكنني احتفظتُ بابتسامتي رغم تعجبي من هؤلاء الشباب الذين أتوا  
إلى هنا لحضور لقاء مع عاهرة أو قوادة على أفضل حال ، عجبت لكم  
يا أبناء الرب الأنقياء الأطهار!

ها هي ذي "موران" تدخل أخيراً ، حسناء ، فاتنة ، شقراء الشعر ،  
ممشوقة القوام ، بيضاء اللون ، عيناها زرقاوان واسعتان ، تحفظهما  
بارتداء نظارة زرقاء لطيفة ، تتوقف لتحياي الجمهور ، ثم تجلسُ على  
مقعدها أمامي . نظرتُ لي وابتسمتُ ابتسامةً فاتنةً . لا أستطيع إيجاد  
وصفٍ لبياض أسنانها ، لم أحظ من قبلُ بلقاء نجومات هذا النوع من  
العمل في برنامجي أو في أي لقاء تليفزيوني أو صحفي على الإطلاق ،  
هذه هي المرة الأولى التي تجلس فيها أمامي إحدى نجومات هذا النوع  
من العمل الممنوع داخل إسرائيل ، وإن كنا جميعًا نعلم بوجوده  
داخل المملكة بطرقٍ غير قانونية!

جلستُ "موران" أمامي متعربة الصدر تقريبًا إلا من الأجزاء الأكثر  
حساسية ، جذب ناظري هذا الوشم المرسوم على صدرها الأيسر وهو  
عبارة عن رأس كلب يُدلدل لسانه الطويل خارج فمه الكبير المليء  
بالأسنان الحادة والزبد يقطر من بين أنيابه ، وضعت "موران" ساقًا  
على ساقٍ بطريقةٍ تسمحُ للأعين المتطفلة بأن تبلغ أقصى مدى في  
رؤية ما تُريد رؤيته . هذا برنامج محترم يا "موران" العاهرة! استطعتُ  
أن أقاوم رغباتي واكتفيتُ بنظرةٍ خاطفةٍ لم أتمادى فيها كيلا تقضحني  
الكاميرات:

- مرحبًا بكِ في برنامجي "موران" .

بادلتنني الابتسام وهي تُحاول أن تعتدلَ في جلستها جاذبةً تئورتها  
القصيرة إلى أسفل .

- مرحبًا بك .. يشرفني أنني أجلس أمامك ..  
أجبرتُ في أن يفسح مجالاً أكثر للابتسام ، تمنيتُ ألا تبدو ابتسامتي  
أكثر إصطناعاً ورددتُ في نفسي (وأنا لا يُشرفني ذلك بالتأكيد) قبل أن  
أجيب على مضمضٍ:

- وأنا كذلك .. بالطبع أحب أن أبدأ من أكثر النقاط إثارةً .. أوْدُ لو تخبرني  
الجمهور لماذا وافقتِ على الظهور في البرنامج ؟ وأي معلومات مهمة  
عن "ينون" تريدان أن تخبرينا بها وعن علاقتكما معاً .. خاصة بعدما  
اعتزلت أفلام البورنو من أجله .. لكن في البداية أخبرينا عن سبب  
التحاقك بمجال البورنوجرافي ..

أجابتنِي بصدقٍ وصراحةٍ وشفافيةٍ:

- نعم .. التحقتُ بمجال البورنوجراف بعدما تعرضتُ لحالتي اغتصابٍ  
وأنا في المرحلة الثانوية .. وبسبب هذه الحادثة أدمنتُ الكوكايين ..  
وإل إس دي .. والهيثامفيتامين .. لمدة أربع سنوات حتى تعالجتُ  
بعد ذلك من كل هذا .. عندما عرضت عليَّ إحدى صديقاتي الدخول  
لمجال الأزياء .. ارتبطنا أنا و"ينون" كان ذلك منذ أكثر من خمس  
سنوات .. دام ارتباطنا تقريباً لمدة سنتين من دون زواج رسمي ..  
وانفصلنا لأسبابٍ لا أعلمها حتى الآن .. لن أقول أكثر من أنه خائني  
مع عربيةٍ وضيعةٍ حازت على لقب ملكة جمال العرب في إسرائيل ..

قاطعتها محاولاً ألا يكون خبث سُؤالي قد بدا واضحاً:

- وهل خيانتُه لكِ تُبرر قيامك بعلاقةٍ جنسيةٍ مع كلب! رغم أنكِ لم  
تمثلي هذا النوع في أفلامك مع حيوانات ..

توترتُ قليلاً لكنها تماكنتُ نفسها مُجيبةً:

- نعم بعد تجربتي الفاشلة مع "ينون" وما سبَّبه لي من مشاكل نفسية  
وعاطفية ، أصبحتُ لا أطيق الرجال حيث إنهم لا يهتمون بالمرأة

إلا عندما يريدونها بالفراش لإرضاء رغباتهم الجنسية.. إنهم لا يمكن الوثوق بهم أيضاً.

قاطعها مرةً أخرى مستفزاً إياها:

- نريد أن نعرف تجربتكِ الخاصة مع الكلب.

تُضيف بكلِّ هدوءٍ:

- بعد تجربتي الخاصة مع الكلب وجدتُ أنه يختلف عن الرجال.. فهو لا يعرف الخيانة.. وأنه أكثر وفاءً لي من الرجل.. ولذلك أقدم له كل ما يحتاج من طعامٍ واهتمامٍ ونظافةٍ شخصيةٍ دون الخوف من أنه في يومٍ سوف يقوم بخداعي من أجل إرضاء رغباته..

أقاطعها مرةً أخرى مستهزئاً:

- لكنه من الطبيعي أن يخونك مع أول كلبةٍ تلتقي به إذا ما فتحت له الباب وعرف الطريق إلي الشارع..

ولم أتمالك نفسي من الضحك ، فضحك جميع من في الأستوديو..

وأكملتُ سؤالي لها بتحدٍ:

- هل ندمتِ يوماً على إقامة علاقة جنسية مع كلب؟

تجيبني بكل ثقةٍ مشيرةً إلى الوشم على صدرها:

- بالطبع لا.. فالتجربة وحدها خير برهانٍ ويكفي أنه وفيّ أكثر من الرجل.. لكنني ندمت على علاقتي بالرجال وأولهم "ينون" طبقاً..

سألتها مرةً أخرى:

- انضممتِ للقوات البحرية في الجيش الإسرائيلي لأداء الخدمة العسكرية ؟

- بالطبع فمن منا لا يُريد خدمة وطنه مهما كلفه الأمر ..

قاطعتها:



- وهل هذا مُبرر ليستخدمك الموساد في عملياتٍ لزجةٍ مبرّرة بفتاوى من حاخامات ليس لهم وجود على الساحة الدينية لتحليل ممارسة الجنس من أجل الإيقاع بالأعداء؟

قالت بكلّ صراحة:

- إسرائيل أهم وأعلى شيء في الوجود.. وأهم من الأشخاص أنفسهم.. هي بالنسبة لي أهم من جميع الحاخامات وكل فتاويهم.. نحن نعمل من أجل إسرائيل.. ولولا إخلاصنا في عملنا لما أصبحت إسرائيل مملكةً موحدةً الآن.. هكذا تعلمنا في الجيش.. الجيش هو الشعب والشعب هو الجيش..

قاطعتها مكملًا:

- لكن هذا ليس مبررًا لتمثيل أفلامٍ فاحشةٍ من أجل المتعة الشخصية والمال لا من أجل مصالح إسرائيل.. لا عليكٍ لنعود إلى موضوعنا الرئيسي.. شركتك كانت في البداية عبارة عن موقعٍ وحيدٍ على الإنترنت.. توسعت عن طريق الاهتمام بصفحات إنترنت مشابهة لنجوم أخريات وصارت تنتج أفلامًا إباحية بعد ذلك.. حديثنا عن أرباح الشركة.

أجابت بتلقائيةٍ ملحوظة:

- الشركة تُقدر بتسعين مليون دولار أمريكي.. وأرباحها تُقدر بأضعاف ذلك المبلغ..

وأكملتُ تقريرِي:

- بالنسبة للإعلانات عن أفلامها فلقد علقت لها لوحة طولها (٥٠) قدمًا في ساحة التايمز (Times Square) في مدينة نيويورك.. موران أيضًا مشهورةٌ بسبب نجاحها في الانتقال من كونها نجمةً إباحيةً إلى كاتبةٍ مشهورةٍ.. حيث أصدرت كتابًا من تأليفها بعنوان (كيف تمارسين الجنس كنجمة إباحية)، وألفت كتابًا آخر تحت عنوان

(قصة تحذيرية) الذي نُشر منذ عامين وتربّع على عرش الكتب الأكثر مبيعًا في نيويورك لمدة أحد عشر أسبوعًا كاملاً..

توقفتُ فجأةً فقد ناداني المخرج في أذني ("ينون" على الخط).. يبدو أن الصيد قد التقط الطعم. لم أتمالك نفسي من السعادة الحقيقية التي بدتُ على وجهي في هذه اللحظة بالذات وقلتُ بصوتٍ مرتفعٍ عن مُعدل صوتي الطبيعي:

- معنا مداخلتة تليفونية مع أسطورة إسرائيل الحية.. اللاعب الذي فاز بكل شيء.. فتى إسرائيل الذهبي.. صانع الفرحة في القلوب.. آدون "ينون" مساء الخير.

لم يرد "ينون" التحية ، وقال بلهجةٍ حادة:

- هذا الكائن الذي يجلس أمامك الآن لم يتب بعد.. فالدعارة تجري في عروقها مجرى الدم.. فلقد اعتزلتُ عالم البشر متوجهةً إلى عالمها الصحيح الذي تنتمي إليه.. أتمنى لها التوفيق مع أقرانها وأقاربها من الحيوانات.

أنهى حديثه فجأةً وأغلق الخط مباشرة ، وسط دوي تصفيق الجمهور الحاد ، لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك ، لكن جراءة الفتاة لم أر لها مثيلاً من قبل فهي لم تهتز مطلقاً ، فعندما سألتها سؤالي الذي أصمت الجميع وجعل السكون يُخيم على المكان بكلِّ مَنْ فيه شعرتُ أن الوقت نفسه قد أصابه التجمد:

- هل استخدمك الموساد؟

وبثقةٍ لا حدود لها أجابتُ:

- قبل أن أجيب على سؤالك هذا أحب أن أقول إن هذه المداخلتة تؤكد صحة نظريتي التي تُبين الفرق بين الرجال والكلاب.. أما بالنسبة لسؤالك.. نعم.. فقد مارسْتُ الجنس مع بعض الأمراء والساسة العرب

من أجل جمع معلوماتٍ مهمةٍ لصالح إسرائيل ومصالحتها الخارجية..  
أو من أجل ممارسة الضغوط عليهم.. كذلك مارستُ الجنس مع  
بعض قادة الموساد ومع الكثير من نجوم المجتمع الإسرائيلي لكن  
من أجل المتعة.

أنهتُ كلامها بابتسامةٍ أقرب ما تكونُ لابتسامة النصر بينما الخجل  
كاد أن يغلفني تمامًا ، أنهيتُ الحلقة وابتسمتُ رغماً عني ولكن حينما  
أتى ميعاد كلمة "ليلاه طوف إسرائيل" ، شعرتُ بكياني كله يرتجفُ لا  
أدري لماذا!

وقلتُها من أعماق قلبي الذي يعشقُ قولها دومًا..

- ليلاه طوف إسرائيل.



## سفر (١١) "الفاتنة والثور"

الفاتنة "ليلي نعوم" صديقة "ينون" السابقة التي اتجهت لرياضة التنس بعد فوزها بلقب ملكة جمال إسرائيل ، كانت تُمارس لعبة التنس كهواية وبعد ذلك احترفت المجال داخل إسرائيل وتوجت بطلة لإسرائيل ومن ثم اتجهت لتمثيلها على المستوى الأوروبي والعالمي ، حققت مراكز متقدمة أوروبياً وعالمياً ورفعت علم المملكة في أكثر من دولة حول العالم.

ذهبتُ مع "ينون" للقائها في الأماكن التي تعتادُ الذهاب إليها ، وجدناها تُمارس رياضتها المفضلة ، وتتدرب بشكلٍ شاقٍّ ومرهقٍ ومثيرٍ لأبعد الحدود ، كانت إثارته مرسومةً على ملامح وجه صديقي العزيز ، ظللنا في انتظارها حتى الانتهاء من تدريبها ، ثم ذهبنا لتأخذ حمامها ونحن منتظرون ومن ثم أتت عاقفةً حاجبياً وكأنها لا تُريد أن ترسم أي ابتسامةٍ حتى ولو كانت مصطنعةً ، انطلقت بسيارتها ونحن خلفها بسيارتنا متجهين إلى أحد الأندية الليلية للقاء وعقد اجتماعنا المرتقب والمحدد في هذه الليلة.

دخلنا خلفها أنا وصديقي "ينون" الذي أخفى وجهه كي لا يراه أحد، ثم اتجهت هي مباشرة إلى طاولة البلياردو وأمسكت عصاتها التي ألقتهما إلى "ينون" الذي كانت ردة فعله عاليةً ورائعةً حيث التقطها بخفةٍ ومن ثم كشف عن غطاء رأسه ووجهه وبدأ في اللعب والتحدي، رأيتُ مباراةً لم أرَ مثلها من قبل، وأعتقد أنني لن أرى بعدها.

التحدي الذي كان بينهما والخلافات الصعبة كانت تبدو مع كل ضربةٍ عندما ترتطم بالكرة التي تضرب الأخرى وتزيحها عن طريقها محققةً نقطةً أو مسببةً مشكلةً لكرات المنافس التي لن تُحقق نقاطه، كنتُ أتمنى أن أشاهد مباراةً للشطرنج بينهما، ولكنهما اختارا الشق البدني أكثر من اختيارهما للشق العقلي، فكلاهما يعتمد أكثر على البنيان، "ينون" حيث القوة والرشاقة والرجولة، أما هي فاعتمدت على اللياقة والرشاقة والأنوثة والإثارة في ذات الوقت، مزيج رائع لتحديٍّ يجمع بين الذكر والأنثى، أما فكري فقد كانت أن من يفوز على الآخر في الشطرنج يُملي على المهزوم شروطه التي ستحقق ما نريده وهو فضُّ الخلاف القائم بين الاثنين، وفضُّه قد يصبُّ في المصلحة العليا لإسرائيل، فنحن جميعًا نُنحِّي خلافاتنا جانبًا من أجل أمن مملكتنا، ولكل منا طريقة تفكيره في فضِّ النزاع أو التنازل أو التخلي عن الخلافات.

هما مثلاً يحبان إسرائيل بشدة، ولكنهما قررا خدمتها بعد وضع حدٍّ لخلافاتهما وذلك أفضل من أجل خدمة الوطن.

محاولاتٌ عديدةٌ وطرقٌ مختلفةٌ وجيلٌ كثيرةٌ رتبتهَا وأعدتهَا ولكنها لم تنجح لولا أن هداني تفكيري إلى "ليلي نعوم" ملكة جمال إسرائيل، الفاتنة "ليلي" من أصلٍ مصري، كانت على علاقة بـ"ينون"

وتركا بعضهما البعض ، أو بالأحرى تركته هي لأسبابٍ تعتبرها شخصيةً ، ولكنها من أجل إسرائيل عادت مرةً أخرى لتقنعه.

تركتهما وحدهما في مكثبي الخاص ، وبعد مدةٍ تقرب من الساعتين خرجتُ "ليلي نعوم" وخلفها "ينون" معلناً للجميع أنه سيعود إلى الرياضة مجدداً من أجل إنقاذ إسرائيل.

تركتُ "ينون" للصحفيين ولمراسل برنامجي وعدتُ بليلي إلى مكثبي مرةً أخرى لأسألها عما دار بينهما في هذا اللقاء وكيف استطاعتُ إقناعه. ابتسمتُ وهي تُخبرني:

- كان رافضاً تماماً في بداية الأمر.. فقد اختلطتُ عليه الأمور.. إعتقدنا أننا انفصلنا بالأمس.. ونسي أن الأمس كان منذ ثلاث سنوات كاملة.. حصلتُ خلالها على ملكة جمال العالم.. مسيحية من أصولٍ مصريةٍ تفوز باللقب من أجل إسرائيل.. لم يتمالك نفسه وقال "أنا الذي فزتُ بكل شيء". لا أدري كيف تمكّنه الغرور إلى هذا الحد! ونعمة الأنا تلك التي ما زالت تُسيطر عليه بنهم.. صدمته عندما أخبرته.. أنت لا شيء.. ما أنت إلا سكير ترتاد الأماكن المشبوهة.. أنسيت من أين أتينا بك.. طبعاً فأنت لا تُدرك كم من الوقت أخذت حتى تعود إلى رشدك.. وكى تضيع منك آثار الخمر.. ألا تذكر رائحتك الكريهة التي كانت تفوح منك؟ ما أنت إلا مراهق.. زير نساء داعر.. لا يعشق إلا المعاصي.. لم تحترم تعاليم دينك.. ضربت بالوصايا العشر عرض الحائط.. أنت عارٌ على إسرائيل.. أنت لم تُحقق شيئاً لإسرائيل.. كل ما حققته ما هو إلا مجدٌ شخصيٌّ لك وحدك.. أنت لم تكن تلعب وحدك في الفريق عندما فازت إسرائيل بكأس العالم.. هذا ما فعلته أنت.. مجهود الفريق تنسبه لنفسك.. لأن الرب خلقك وسيماً.. وجعل لك ذاك القدر من القبول والمهارة لكي تحصد الجوائز الكبرى.. إنه

لقادرٌ على أن يأخذها منك.. فهو الذي منحك إياها وبدون منْحَتِهِ  
أنت لا شيء.

ظَلَّتُ تقص ما حدث وأنا أتابعها بشغفٍ ، فما لديها من جرأةٍ قادرٌ  
على أن يفطس أنف الفارس الذهبي! هو حاخام الكرة الإسرائيلية ،  
لكنها قديسة الجمال الإسرائيلية ، فعلاً هو الذي فاز بكل شيء ومن  
أجل إسرائيل ، ولكنها محققةٌ فيما نقول ، فهي تريد أن تقنعه بأنه يجب  
أن يعودَ من أجل زيادة رصيده بمجدٍ شخصي آخر ، ولكن من الواضح  
أنه قد أصيب بمناعةٍ من الأمجاد والجوائز والمال ، لا شيء يمكن أن  
يشرح صدره أو يُخرجه من حالة الاكتئاب والإحباط إلا "ليلي" ، "ليلي"  
وحدها.

تابعت حديثها الشيق قائلةً:

- قال "سأعود إلى الملاعب بشرط أن تعودي إليّ مرةً أخرى.. هذا  
شُرْطي".. قلتُ له أنت تحلم يا هذا.. من تظن نفسك؟! أنسيت لماذا  
تركتك في المرة السابقة؟ لأنك وافقت في الظهور أمام الكاميرات مع  
نجمة أفلامٍ إباحيةٍ.. انظر كيف كانت نظرة الناس إليك.. وكل من  
حولك وكل من له علاقة بك.. قال لي وقد قطب حاجبته "ولكنها  
اعتزلت هذه المهنة بسببي أنا.. لأنني ظهرت في حياتها.. لا تنسي من  
أنا.. أنا أسطورة الكرة الإسرائيلية.. أنا الفارس الذهبي.. أنا..." قاطعته  
قبل أن يكمل جوائزه وألقابه.. وإلا لكان حوارًا طويلًا لا نهاية له  
وقلت ما أنت إلا زير نساء.. رائحة الخمر تفوح منك.. والعرق المُنْتِن  
يفوح من تحت إبطك.. فالعاهرات اعتدن أن يختلط عرقهن بعرقك  
على فراشي.. ملأته نجاساتك فمتى تنظفهن؟ فغر فاه من طريقتي  
وانفعالي الزائد.. فلم أعطه فرصةً واحدةً للدفاع عن نفسه.. فقد  
صارحته بكل ما قد فعل.. وقال أعدك لو وافقت على العودة إليّ  
مرةً أخرى ألا أفعل هذا ما حييت.. وسأظل ملكك وحدك ولا أحد  
سواك.. لن أشرب الخمر.. لن أعصي الرب.. وسأحترم الوصايا العشر..

وسأعود كسابق عهدي لك وللرياضة فقط.. قلتُ له شرطي.. مهري ليس كأَيِّ مَهْرٍ.. لا الألباس ولا اللؤلؤ ولا هذه الأشياء.. فمهري هو ستة كيلوجرامات من الذهب الخالص.. مهري هو كأس العالم.. من أجلي ومن أجلك ومن أجل إسرائيل.. قال لي بفرح "أوافق" وعانقني من شدة الفرح.. فلم يكن يحلم بموافقتي بالطبع.

ضحكتُ فضحكتُ بدورها بصوتٍ مرتفعٍ جدًّا، تعجبتُ لذلك عندما توقفتُ عن الضحك فجأةً، ثم نظرتُ إليَّ وهي تكتُم ضحكاتِها، فابتسمتُ إليها، ولكنها ما لبثت أن انفجرت بالضحك أكثر وأكثر، حقيقة أخشى أن يسمع المارة بالشارع تلك الضحكات الرهيبة، قالت وهي ما زالت تضحك:

- ضحكاتُ الفتيات تكون عادةً هكذا (ههههه).. وتحمَّرُ خدودهن من الخجل.. ثم يصمتن بعد ذلك.. أما أنا.. شهيق.. زفير.. ركوع.. سجود.. ثم الانبطاح على الأرض والتصفيق باليدين والقدمين.. وأنوثتي تجلس أرضًا بإحدى الزوايا وتجهش في البكاء..

لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك، تبادلنا الضحكات، أقصد تبادلنا القهقهة ولم نأبه لشيء، فليسمع من يسمع. نهضتُ برشاقةٍ كغزالٍ جبليٍّ، واحتضنتني فرحةً. ثم انصرفتُ.

أواه يا إلهي! شكرًا لنعمائك التي لا تُحصى.

يا للنساء!

ما أروعهن. خلُفنَ بعقلٍ ناقصٍ من ضلعٍ أعوج، وبهنَّ تستقيمُ الحياة، وتكتمل الأديان!



## سفر (١٢) "بوكير طوف"

نسيّمها الخلابُ دليلٌ على عظمةِ العليِّ القدير ، شوارعها تأخذني إلى عبق التاريخ ، وعراقة حضارتنا الشامخة ، ما تبقى من آثارها القديمة ، يرسم لوحةً وكأنها أئمن التحف ، اشتقتُ لأبوابها وأسوارها وأكبر بواباتها ، بوابة صهيون ، نسيّمها يُزيح الهمَّ عن روعي ، شوارعها تُبهجني ، الوحيدة التي أنعم فيها بالسكينة ، والهدوء ، والطمأنينة ، أتمنى أن أظلَّ ههنا لآخر لحظةٍ بعمرِي ، هنا في بيت الرب ، هنا في يروشلايم..

صباح الخير أورشليم.

أوه..يا إلهي..كم أتقنت صنع أورشليم..كم أنت جميلة يا بنت صهيون منعش هواؤك ، منغرسه كشجرة الزيتون..عطرة رائحة جبالك الشامخة المغطاة بالزيتون كرائحة عطر الضحايا الأبرار الأوفياء..

عندما نظرت إلى مغارة الشموع (من عجائب إسرائيل السبع) في جبال أورشليم أجمل المناظر الطبيعية ومن عجائب الطبيعة في

أورشليم واستنشقت أنقى هوائها في الصباح الباكر .. لقد تكونت هذه المغارة بفعل الظواهر الكارستية .. مغارة الشموع قرب بيت شيمش في جبال أورشليم ..

كم أنت جميلة يروشلايم .. هذه أول كلمة قلتها لنفسي وأنا بداخل سيارتي في طريقي لمقابلة صديقي "أساف" ولكن جمالها أوقفني وأخرجني من سيارتي لكي أستمتع بجمالها في هذا الصباح وأتنفس هواءها وأنظر إلى جبالها وطبيعتها الخلابة وكأنني لم أرها من قبل ، فأورشليم في الصباح جميلة بالرغم من كل الحروب التي مرّت عليها .. والدماء التي سالت على أرضها .. ومع ذلك وكأنها خلقت الآن بكرة لم تطأها أي قدم بشرية .. حقاً كم أنت جميلة يا أورشليم .. قلتها لنفسي وأنا ما زلتُ أنظر إلى كل ما هو جميل بها ..

أسرعتُ قليلاً كي أصل في موعدني المضروب بيني وبين صديقي "أساف" ، صديقي الإشكنازي ذو الأصول البولندية ، ذلك الرجل القوي الذي منحه الرب مساحة من الجمال يليق بملكة جمال الكون أن تكون خليلته ، فهو أبيض اللون ، ممتلئ ، ذو عيون خضراء ، وشعر بني مائل إلى الحمرة ، لكن ما أن تراه لأول مرة لا تستطيع أن تفرق بينه وبين الدب القطبي ، وعندما تدخل مكتبه للمرة الأولى لسوف تشعر أنك بداخل ثلاجة كبيرة كتلك التي تُحفظ بها الجثث! ويجعلك تستشعر بذلك القدر الهائل من البرودة التي تكمن بداخله ، فتلك الملامح العابسة تُضفي هالةً عظيمةً من الغموض غير المحبب للأنفوس ، لكنها تتناسبُ كثيراً مع طبيعة عمله ، فهذا الشعور قد انتابني عندما رأيته للمرة الأولى. ويا لها من مرة.

عندما دلفتُ إلى مكتبه وجدته عابسَ الوجه كعادته ، قاطبَ الجبين ، ألقىتُ تحيتي كما اعتدتُ:

- صباح الخير عزيزي "أساف".

- صباح الخير "يائير".

لم يقفْ لمصافحتي كما اعتدت منه ، فمنذ أن عرفته لم يقابلني بهذه الجدية الشديدة التي بدتْ على وجهه ، بعث في نفسي الحيرة من جديته الشديدة التي أراها لأول مرة ؛ ومكالمته لي ليلة البارحة في وقتٍ متأخرٍ وإصراره على مقابلتني بمكتبه بالمبنى الرئيسي للشاباك ، بادرته:

- ماذا بك يا صديقي العزيز؟ وما هذا العبوس الذي يغمر وجهك؟  
ويكأني أرى وزير الدفاع يُخفي أنباء عن وقوع الحرب.

زفر "أساف" دخان سيجارته وقال وهو ينظرُ إلى بعض التقارير التي أمامه:

- قبل أن أخبرك بالموضوع الرئيسي الذي أعدته لك.. هناك موضوعٌ فرعي خطيرٌ قلب الطاولة ليلة أمس..

- لقد تسببت بسقوط قلبي في قدمي.. هيا تكلم.. أنا لا أطيق الانتظار..

- بالأمس أصيب مواطنٌ حريدي بطعناتٍ في الصدر والظهر من شاين فلسطينيين.. وأصيب بجروحٍ متوسطةٍ.. ونقل إلى مستشفى "شعاري تسيدك" بأورشليم..

- هل قبضتم على الجناة؟

- الشرطة مشطت المكان واستطاعت أن تمسكهما.

- لكنها حادثةٌ عاديةٌ.

- لا.. بعد التحقيق معهما اعترفا بأنهما تمنيا قتله لأنه يهودي متطرف.

- إذن للجريمة خلفيةٌ قوميةٌ.. خاصة أنها تأتي في الأيام الأولى من شهر رمضان.. وبعد فترةٍ من الهدوء النسبي.. لكن ما هو الموضوع الرئيسي؟

احمرَّ وجهه وطَرَقَ على مكتبه بقبضة يده ثم فتح أحد الملفات الموجودة أمامه وبدأ يُقلب في الأوراق وهو يكلمني:

- زوجين.. الزوجة مُدرسة تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا.. وزوجها طبيبٌ يبلغ من العمر تسعة وأربعين عامًا.. فشلا في علاقتهما الخاصة فقررا أن تُشاركهما مجموعة من العمال الأفارقة لمضاعفتهما.. ومن بين هؤلاء العمال عاملٌ صغيرٌ من نيجيريا يبلغ من العمر ستة عشر عامًا.. تحوّل إلى عبدٍ لرغبات الزوجين الشاذة رغماً عنه..

استطرد "أساف" قائلاً:

- لقد مرّت عليّ مثل هذه القضايا ولكن ما يُخيفني ويُزعجني ويضع عليّ علامات الجدية هذه.. أنه في أقل من شهر مرّ عليّ أكثر من ثلاثين حادثةً من هذا النوع.. الغريب في الأمر أن من أبلغ هو هذا الشاب.. وبالرغم أنه تسلل لداخل المملكة بطريقة غير شرعية إلا أنه توجّه إلى شرطة الهجرة بـ"تل أفيث" وقدم بلاغاً ضد الزوجين..

قطع "أساف" حبل أفكاره عندما أطفأ سيجارته بحركةٍ عصبيةٍ وعبأ وجهي بزفير دخانه، ثم ضغط على زرٍّ ليدخل من الباب شرطي بعدما طرق طرقتين متتاليتين على الباب، قال "أساف" وهو ينظر إليه:

- أحضر الشاب النيجيري على وجه السرعة.

إنصرف الشرطي بينما تحوّل دخان سيجارة "أساف" كسحابةٍ تلتف حول عنقي لا هدف لها إلا أن تخنقني، هذا كثيرٌ على إسرائيل.

أشعلتُ سيجارتي ونظرتُ أرضاً يغمرنى شعورٌ مخزٍ حول ما سمعت.. لحظات قليلة مرّت وها هو ذا طرق الباب يعود مرةً أخرى.. رفعتُ

رأسي بحركة لا إرادية ونظرتُ نحو الباب متذكراً الماضي عندما قابلتُ  
"أساف" لأول مرةٍ حيث دخل منه شرطي وهو يقول :

- هذا هو الصحفي يا سيدي ..

نظر إليّ "أساف" وهو مشفقٌ على ما أنا فيه وقال :

- تفضّل بالجلوس ..

جلستُ وأنا أتمتّم :

- هذه هي أول مرة أدخل فيها قسم الشرطة وأنا متّمهم ..

ضحك "أساف" :

- ولن تكون الأخيرة .. يبدو عليك أنك صحفي مغامرٌ حتى تُورط نفسك  
في مثل هذه الورطة ..

- أتعرف حقيقتنا وإظهارها ورطة؟!!

- كان يجب عليك أن تملك مستنداً يُثبت حقيقة ما تقول ..

- معي وها هو الصبي بالخارج واسأله عما حدث بينه وبين مُدرّسته  
عندما أجبرته على ممارسة الجنس معها داخل المدرسة ..

أمر "أساف" بإدخال الصبي الذي صدمني عندما أجاب على السؤال :

- لم يُجبرني أحدٌ على ممارسة الجنس .. ثم إنها مُعلمتي وهي تُعاملني  
أفضل معاملةٍ وليس بيننا شيءٌ كما ادعيت أنتِ وكتبتِ في  
صحيفتك ..

فاجأني الفتى وهو يقول ذلك ويُنكر ما ذكره لي سابقاً ولا أعلم  
لماذا غيّر الفتى أقواله! أخوفاً على سمعته؟ أيعقل هذا؟ هل أنا بهذه  
السذاجة حتى يكذبني هذا الفتى؟ وأنا لا أملك أي دليل ، لماذا لم  
أسجل له مثل هذا الاعتراف ، كم أنا أحمق ومتهور! ثم أخرج "أساف"  
الفتى من المكتب وقال لي ما قلته لنفسِي :

- لماذا لم تسجّل للفتى؟ وكيف وافقت صحيفة كبيرة على نشر مثل هذا الخبر بدون دليل!

ثم استطرد قائلاً:

- لحسن الحظ أن المُدرّسة قد تنازلت عن البلاغ المقدم ضدك.. وهذا من كرمها وحسن خلقها..

ضحكتُ ساخرًا:

- حُسن خلقها.. أمقتنعُ أنتَ بذلك؟

نظر لي "أساف" نظرة المتفق معي قائلاً:

- لا.. لستُ مقتنعًا..

- ها أنتَ ذا متفقٌ معي.

- نعم أتفق معك.. ولكن أين الدليل.. لولا أنني رجوتُ المُدرّسة لَمَا تنازلتُ عن حقها.

نظرتُ إليه وأنا في قمة حسرتي على ما الأقيه، أكمل "أساف"

حديثه:

- إن إسرائيل باتت تُعاني من أمراض الحروب التي تُصيب المجتمع.. المجتمع يتمزق نتيجةً لخوضنا عدة حروب.. فهناك أكثر من أربعة آلاف حالة اعتداءٍ جنسي على الأطفال سنويًا.

أومأتُ برأسي موافقًا، قال لي "أساف" مازحًا:

- ابتسم.. أنتَ في إسرائيل..

قلتُ له:

- أستطيع أن أرحل الآن؟

أجابني مُبتسمًا:

- لا مانع.

وكان هذا هو أول تعارفٍ بيننا ..

انتبهتُ إلى "أساف" وهو يُجلس الفتى الإفريقي ، رفعتُ رأسي نحو الفتى صاحب هذه المشكلة ، تقدّم نحونا وهو مطأطئ الرأس ، أشار إليه "أساف" بيده فجلس وهو في حالةٍ من الانكسار الواضح ، أشعل "أساف" سيجارته وبدأ الاستجواب:

- فُصِّ عليّ بالتفصيل ..ماذا حدث بعدما استعان بك الزوجان بأعمال النظافة.. وما الذي أجبرك أن تأتي وتُخبر الشرطة مع علمك بأنك سترحل من مملكة إسرائيل؟

أجابه الشاب قائلاً:

- أعلم أنكم سترحلوني إلى نيجيريا وأنني سأفقد عملي الذي هاجرتُ من بلدي إلى هنا من أجله.. ولكن هذا أشرف لي من أن تستعبدوني بهذا الشكل وبهذه الطريقة غير الأخلاقية.. إنني لا أخشى شيئاً من عودتي إلى بلادي رغم ما سوف ألاقيه من عذابٍ وفقرٍ وجوعٍ.. ولكن كما ذكرتُ لك سابقاً.. إن هذا أشرف لي..

يا للكلمات اللاذعة! شاب بهذا العمر وبهذا الفقر المُضني ، يشعر بهذا الشعور القاتل! شرفٌ له مغادرة مملكة الرب الموحدة على أن يظل هنا تحت وطأة هذه العائلة الداعرة؟

نعم أيها الإفريقي أنتَ على صواب ، ولكَ كل الحق فيما تقول ، أمثال هؤلاء هم من يجلبون لنا العار ، وما أكثرهم هنا للأسف!

شاهدتُ الدموع متحجرةً في عيني الفتى وهو يكمل:

- عندما أتيتُ إلى هنا لم ألقِ إلا المهانة والذل بعدما رجُل أبي.. كان ذاهباً إلى عمله كأني يوم وأمسكتموه لأنه دخل بطريقةٍ غير شرعية.. لكن ما هو الشيء الشرعي هنا كي نعيشَ فيه؟ رجُلٌ وزوجته

استأجراني للقيام بأعمال نظافة في شقتيها.. وبعد مرور أقل من أسبوع من عملي عندهما أجبرني الزوج على إقامة علاقة جنسية مع زوجته.. ثم عاود الطلب مرة أخرى بأن أقيم نفس الشيء معه بعد الانتهاء منها.

- ما الذي أجبرك على الموافقة؟
- وافقتُ لكي أظل عندهما وإلا سأرحل مثل أبي.
- لماذا قررت الإبلاغ عنهما؟
- تطوّر الأمر بعد أن سجّل الزوج كل هذه اللقاءات معهما بكاميرا فيديو.
- وماذا في ذلك؟
- أنا أخشى من انتشار مقاطع الفيديو التي أظهر فيها في أنحاء إسرائيل كأفلام بورنو وأبدو فيها كممثلٍ دون أن يكون لي دخلٌ فيها ..
- وأنهى الفتى حديثه وهو حزينٌ ..نظر "أساف" تجاهي وأكمل:
- هل حصلت على أي مقابل مادي لقاء ذلك؟
- نعم ..حصلتُ من الزوجين على أربعمئة شيكل ..
- ثم بكى خوفاً..
- طمأنه "أساف":
- لا تخشَ شيئاً ..هنا كل شيء تحت السيطرة ..أنت في حماية الشرطة الإسرائيلية.. وهنا تطبق حقوق الإنسان على أفضل ما يكون ..لكن قل لي أولاً.. هل استأجروا أحداً غيرك في مثل هذا الفعل؟
- أجابه الفتى على الفور :

- نعم.. أنا لست الوحيد الذي تم إجباره على ممارسة الجنس معها رغمًا عني أمام الكاميرا.. فخلال فترة وجودي في شقتيها شاهدت خمسة أفلام فيديو يظهر فيها شابان آخران يُقيمان علاقة معها..
- هل كان هناك أحدٌ غيركم موجودًا أثناء إقامة هذه العلاقة؟
- نعم كان طفلهما الرضيع موجودًا باستمرار أثناء مضاجعتي لهما ..
- ضغط "أساف" على الزر مرةً أخرى ليدخلَ شرطي يأمره بإحضار الزوجين ، بالفعل يدخلهما على الفور ، يجلس الزوجان أمامنا رافعَيْن رأسيهما ، ثم باشر "أساف" التحقيق معهما:
- هل أجبرتَ هذا الفتى على ممارسة الجنس معك ومع زوجتك؟
- يردُّ الزوج متبجحًا قائلًا:
- نعم.. لقد أغريتُ چورچ على ممارسة الجنس معي ومع زوجتي مقابل بعض النقود.. وأظن أن هذا يكفله لي حقي الدستوري والقانوني.. أما عن سنه الحقيقية فأنا لم أكن أعرف أنه صغير السن.
- تدخل الزوجة في الحديث وهي تضع ساقًا على الأخرى:
- يبدو عليه أنه أكبر من عمره بكثيرٍ ..
- يبتسم الزوج وهو ينظر إلى زوجته:
- إن الأشرطة التي ضُبِطت لدينا للاستخدام الشخصي فقط.. ولمشاهدتها في غرفة النوم الخاصة بنا.. نحن لم نُخالف القانون.. فيما عدا عمر الشاب الذي لم نكن نعرفه.
- طلب "أساف" من الشرطي اصطحابهم إلى غرفةٍ أخرى واستغرق "أساف" في كتابة تقريره بينما ازدحم رأسي بالكثير من الأسئلة.....
- هل نستحق هذه الحرية ؟ أم أنها عبءٌ على عاتقنا تسحقنا بثقلها.

أظن أن "أساف" سأل نفسه هذا السؤال.. ولكن أي حرية هذه التي  
تصل بنا إلى هذا؟

المجتمعُ يسمح لنفسه بالحرية عندما يستطيع أن يسيطرَ على  
الممارسات الشاذة. أيقنتُ على الفور أننا لا نستحق هذه المملكة!  
تركتُ "أساف" وتقاريره واندفعتُ بسيارتي عائداً لكني لم أستطع  
أن أتجاوز مغارة الشموع دون أن أقفَ مرةً أخرى لأتغزل في جمال  
أورشليم ، ووجدتُني أصبحَ رغباً عني: "إننا لا نستحق إلا عذاب إلهيم"  
لكن بعد أن هدأتُ من غضبتي وجدتُني أبتسم وأتمتم وأنا أفتح باب  
سيارتي "صباح الخير يا إسرائيل".

## سفر (١٣) "عشاء الرب"

جلستُ مع الرائع الدولي الإسرائيلي "مينا جوزيف" في ليلة عشاء الرب ، فهو مسيحي من شهود يَهُوه<sup>(٢٦)</sup> ، هنأته بعشاء الرب ، وكان هذا هو المفتاح الذي تسلّمه ليبدأ معي حديثه الشيق ، كنتُ أفتقد الحديث إليه ، صديقي ذي الأصول المصرية الذي يتفاخر بها دومًا ، صاحب الوجه الأسمر المشرب بطمي النيل.

"مينا" ذو العينين القططيتين الخضراوين الفاقع لونهما ، حقًا نظرته مُخيفة! كيف اجتمع هذا المزيج الغريب؟ لَوْنُ أسمر مع عينين خضراوين؟ قال لي ذات مرة عندما سألتُه هذا السؤال: إن هاتين العينين الخضراوين تعودان إلى الجذور التركية لعائلته التي استقرتُ بمصر ، وكان هو نتاج هذا المزيج.

ولكن لا ضير ، هكذا أراد الرب أن يكون.

له أنفٌ دقيقٌ طويلٌ ، بنيانه يميلُ إلى القصر ، على الرغم من أنه متوسط ، ولكن لا أدري لماذا أشعر أنه قصير! من الجائز أراه كذلك

لأنه يمتلك عضلاتٍ قويةً قد سيطرت على هيئته الرياضية ، يُغطي معظم جسمه بوشومٍ غريبة الشكل! لا أحبذ الخوض فيما تعنيه ، هو صاحب أشهر قفزة في تاريخ مهاجمي المملكة ، ينافس بها العملاق "ديفيد جادول" أقوى رأس حربة في تاريخ فريقنا القومي ، أما "مينا" على الرغم من ذلك إلا أنه صاحب تسديدةٍ راسيةٍ صاروخيةٍ ، ورغم قوة بنيانه إلا أنه سريعٌ كالبرق ، فلا يستطيع أي مدافع بالعالم أن يلحق به مهما كان! وهو أكثر مهاجمٍ يُسدد على المرمى من داخل أو خارج مربع العمليات ، وهو الهدف التاريخي لفريقنا القومي ، وكذلك هو بالنسبة لفريق "اتحاد أبناء سخنين" العربي.

الغريب أن "مينا" مُجَعَّد الشعر ولكنه كل فترة يطل علينا بطريقةٍ جديدةٍ لتصفيف شعره ، تارة يضفِّره فيجعلك تشعر وكأنك ترى الإفواري الأسطوري "ديديه دروجبا" ، وتارة كأنك ترى التوغولي "إيمانويل إيدي بايور" ، أهم ما في الأمر أنه يهتم بمظهر شعره المُلْتَوِي كل حين.

ما أجمل الرِّضَا بكل شيء قد كتبه الرب لك ، حتى وإن كان غير مرغوبٍ لدى البعض ، لكن الرِّضَا به وحده يكفي ، وأن تُحاول قدر ما أمكنك أن تتمتع به بكل السُّبُل الممكنة.

استهَلَّ كلامه معي ليحدثني عن عشاء الرب وكيف أوصى به المسيح ، كانت أمامنا طاولة وُضِع عليها الفطير وبعض من النبيذ الأحمر ، أشار إلى المنضدة كي أشاركه العشاء ، فقلتُ مشدوهاً:

- فطير وخمر حمراء في عشاء الرب؟!  
 - إن الفطير والنبيذ يعتبران رمزَيْن.. لكن لا نتناول منهما سوى عددٍ محدود.

- وما هي المناسبة؟

- داوموا على صنع هذا لذكري.. هكذا أمرنا المسيح..

- وما الحكمة في ذلك ؟
- رجاء الحكم مع المسيح في ملكوت حكومته السماوية برئاسته.
- ناولني القليل من الفطير والنبيد ، ثم ابتسم مرحبًا ، ثم بدأ يكشف لي أسرار رحيله عن نادي "مكابى حيفا" خلال الصيف الحالي ، المثير في الأمر أنني أول إعلامي يقصُّ له "مينا" قصته .
- إن زوجتي كانت تُعاني من سرطان الثدي وأن رحيلي قبل إتمام شفائها كان أمرًا صعبًا للغاية.. في الموسم المنصرم أرادت إدارة "مكابى حيفا" رحيلي.. لكنني تمسكتُ بشروط العقد خاصة أنني كنتُ بحاجة ماسةٍ للمال لأتمم علاج زوجتي.. لذلك طلبتُ البقاء وأنا على يقين تام بأنني لن أكون ضمن العناصر الأساسية للفريق ..  
رفع حاجبهُ وتابع:
- زوجتي بخير الآن والأمور على أفضل ما يُرام.. أنا سعيد لأنني رحلت عن "مكابى حيفا" وأصبحتُ لاعبًا في صفوف "اتحاد أبناء سخنين" الكبير..
- الجماهير تتوقع منك الكثير.. فهل أنت مستعد لذلك ؟
- نعم فهدفي الأخير في مرمى "هولندا" شجّع إدارة نادي "اتحاد سخنين" على التعاقد معي.. هنا سأحصل على المتعة الكروية التي أبحث عنها دائمًا.. سأعود للمستوى الذي اعتاد عليه محبِّي في السابق.. ونعيد ذكرياتنا أنا والأسطورة "ينون" وأسد الدفاع "صوان" فكلنا أصولنا عربيةٌ وبدأنا مشوارنا الكروي معًا وسننهيه معًا..
- إن فريق "اتحاد أبناء سخنين" هو بطل الدوري في المملكة حاليًا.. فرصة جيدة..
- يجب أن نختم حياتنا الكروية فيه كما بدأناها فيه.. لهذا النادي فضلٌ علينا ويجب علينا أن نردَّ له ولو جزءًا بسيطًا منه.

- ماذا عن موقفك من المنتخب خاصة بعد أن وضعك المدير الفني في المباراة السابقة على مقاعد البدلاء؟

- كنت سعيدًا جدًا لارتدائي قميص المنتخب مرةً أخرى.. وسعادتي لا يمكن وصفها عندما أحرزتُ الهدف الذي أعاد الآمال للمملكة للعودة لكأس العالم.. إنني متعطشٌ للعب لبلادي بعد أن قضيتُ معه خمسة عشر عامًا.

هنأتُ "مينا" بعشاء الرب مرةً أخرى وانصرفتُ لأكمل إعداد حلقتي عن المنتخب بمقابلة المدير الفني لمنتخبنا، فهناك الكثير من الأحداث التي استجدت، خاصة قرار "ينون" بالعودة.

## سُفْر (١٤) "نعم لقد عاد"

عندما أُجريتْ حوارِي مع المدير الفني الجديد لفريقنا القومي لكرة القدم قال لي: "إنه سيشارك مهاجمه المصري الأصل "مينا جوزيف" في المباراة ضد المنتخب الفرنسي في إسرائيل الليلة ؛ في حين أنه يستبعد "جاي أوسولين" بسبب الإصابة".. وأضاف أن الفرصة سانحةٌ لمشاركة المهاجم العملاق "ديفيد جادول" الإفريقي الأصل ، رأس الحربة الطويل المتميز بضربات الرأس.. كما يُجيد أيضاً ألعاب الهواء بمهارةٍ غير طبيعية".

وبعد سُؤالي عن عودة "ينون" إلى التشكيل قال :

- نعم لقد عاد.. لكنه لا يستطيع أن يلعب المباراة كاملةً.. فلياقته البدنية إلى الآن غير مكتملة.. فلقد عاد منذ وقتٍ قصيرٍ جداً.. لا يتعدى الثلاثة عشر يوماً فقط.. إن "أوسولين" يُعاني من آلامٍ في الظهر مما يستوجب رعاية طبية دقيقة لكي لا تتفاقم تلك الآلام.. وهو بحاجةٍ إلى برنامج رعاية خاص.. لذلك سيشارك "مينا جوزيف" منذ البداية.. وكذلك "صوان" قلب الدفاع الحديدي ..

دار بخلدي سؤالٌ يهمني ويهمُّ صديق عمري :

- سيدي.. ما هو شعورك بعد أن تولَّيت هذه المهمة الوطنية.. وكما تعلم أن الفريق يُعاني من النتائج السلبية في التصفيات حيث يحتل المركز الثالث.. وتلبيتك لمطالب عشاق الساحرة المستديرة الذين طالبوا طوال التصفيات بعودة مثلث الربيع.. وصخرة الدفاع.. وشعورك بعد عودة "ينون" إلى صفوف الفريق مرةً أخرى؟

أجابني في ثباتٍ بعدما تنفس الصعداء وابتسم :

- إنه لشرفٌ لي ولأي مواطنٍ إسرائيليٍ تدريب المنتخب القومي.. وسأبذل قصارى جهدي للوصول بالفريق إلى برِّ الأمان.. أما بالنسبة لعودة "ينون" للفريق.. بمثابة عودة الروح إلى الجسد الذي طال رقوده.. ولن أقول أكثر من ذلك.. لقد عاد.. وهذا يكفي.

\*\*\*\*\*

تملكتني حالةٌ غريبةٌ ، حالةٌ شعوريةٌ امتزج فيها الفرح مع الخوف مع تأنيب الضمير أثناء متابعتي للمباراة ، "ينون" يبذل مجهوداً جباراً قبل أن يُطلق الحُكم صافرته معلناً نهاية المباراة بالتعادل.

اندفع "ينون" بالكرة من وسط الملعب ، بينما لاحقه لاعب خط الوسط "بلال عمري" ، كان الصراع شديداً لكن إصرار "ينون" على الكرة كان الفارق بينهما ، وبعد هذا السباق القوي استطاع "ينون" إحراز هدف الفوز ، لكن بدلاً من أن يتبادل التهنئة مع زملائه ركع على ركبتيه وأفرغ ما في جوفه! تقياً فارسنا الذهبي كما لم يتقياً أحدٌ من قبل! الموقف أثار مشاعري ولو قصَّه عليَّ أحدٌ ما صدَّقته.

هذا الموقف أظهر معدن "ينون" على حقيقته ، يا لك من ساحرةٍ يا "ليلي" ، تجمَّع لاعبو الفريق حول "ينون" للاطمئنان عليه ، لكنه وقف منتصباً ليواجه أحد المشجعين المهووسين به والذي اقتحم الملعب

دون مقاومة الأمن وقام بتقبيل قدم النجم الذهبي "ينون" ثم خرج في سلام واتجه إلى مكانه في المدرجات.

بعد الفوز باللقاء احتفلت بي "سارة" عند عودتي إلى المنزل ، كانت سعيدةً بصدق تنبؤاتها هذه المرة ؛ لكنها كانت أسعد بعودة الأمل لإسرائيل في الصعود إذا ما فازت بالمباراة القادمة أمام "هولندا" هنا في إسرائيل.

بعد انتهاء المباراة وبعدها ذهبنا إلى الطبيب الخاص بـ"ينون" وطماننا على حالته ، جلسنا ندردش كأصدقاء في سيارته حول مستقبله الكروي حيث استبعد عودته للعب في أوروبا نهائيًا ، مشيرًا إلى أنه سيركز على مسيرته مع فريقه "اتحاد أبناء سخنين" العربي واختتم حياته الكروية به ؛ فهو في السادسة والثلاثين من عمره ولم يعد في العمر مزيدًا من الوقت ليضيعه ، فلقد عاد لتوه لكرة القدم بعد عام ونصف العام من الاختفاء عن الأنظار وأسماه البعض اعتزالًا ، عاد للعب مرةً أخرى بقرارٍ من الكنيست ورئيس الحكومة وبقرارٍ ملكي أصدرته الملكة من أجل مصلحة الفريق ومن ثم مصلحة الدولة ، فقد كان "ينون" المطلب الجماهيري رقم واحد خلال العام ونصف العام الماضيين ، الغريب في الأمر أن "ينون" كان يتحدث بكل صدقٍ عندما قال إن كل هذه القرارات لم تكن فقط في صالح إسرائيل ، لكنها كانت في صالحه هو في المقام الأول ، قال لي بالحرف الواحد:

- أحتاج حقًا إلى التركيز على استعادة كامل لياقتي.. من الناحية الجسدية أحتاج إلى استعادة توازني بعد فترة غيابٍ طويلةٍ.. لا يمكنني التأكيد على أي شيء.. ولكن أعتقد أنه يتحتم عليّ الانتظار..

كانت سعادة "ينون" بعودته لكرة القدم عامرةً ، أما فرحته بالهدف فقد كانت لا تُوصف ، اتصلت به "ليلي" بعد المباراة مباشرةً ، كانت

هذه المكالمة تُمثل أعلى وسام حصل عليه "ينون" ، ما إن انتهت المحادثة الهاتفية بينهما حتى وجدته ينظر لي والدموع تكاد أن تنهمر من عينيه:

- أريدك أن ترافقني إلى النادي.

- أي نادٍ؟

- اتحاد سخنين.

- ولكنك مُجهّد والتعب الشديد بادٍ عليك...

- لا عليك.. تولى أنت القيادة.. جماهير النادي كلها في انتظاري هناك ومجلس الإدارة في المقدمة.. أريدك أن تشاركني هذه اللحظة..

تبادلنا أماكن الجلسة في السيارة واتجهنا إلى الشمال الشرقي في طريق "حيفا".

عند دخولنا النادي استقبلتنا الجماهيرُ الحاشدة استقبلاً أسطورياً بعد التصريحات التي أدلى بها "ينون" مراراً وتكراراً حول عشقه وانتمائه غير المعقول للنادي ، وأنه يتمنى أن يُنهي مسيرته الكروية به .

كادت فلاشات الكاميرات أن تعمي أعيننا لكثرتها! كذلك لاحظتُ أكثر من كاميرا فيديو لقنوات بعينها تصوّر الحدث المرتقب ، أشار رئيس النادي إلى شيء مُعطى بعلم أحمر يتوسطه حسانٌ عربي أبيض راقصٌ على كرة قدم ، هذا هو شعار النادي ، اقتربنا جميعاً منها واستبقنا الكاميرات لتصويره ، طلب رئيس النادي من "ينون" أن يرفع هذا العلم بنفسه ، ابتسم "ينون" ومن ثمّ فعل .

كاد "ينون" أن يفقد الوعي! وظل فاغراً فاه ، جاحظ العينين ، لم يكن ذلك من الإعياء ولكن من الذهول الذي أصابه عندما رفع العلم ليكشف عن تمثال برونزي له خارج "ملعب الدوحة" الذي بناه حاكمٌ

قطري هديةً للنادي ؛ في إطار احتفالات الصعود للمنافسة في الدرجة العليا.

كان الأمر مؤثرًا للغاية ، فكما يحمل "ينون" بين جنبيه حبًا جمًّا لهذا النادي ؛ ها هو ذا النادي إدارة و جماهير قد عَبَّروا لهذا الفتى بخالص الحب ، أمرٌ غايةٌ في التقدير والوفاء حيث إن ما حدث هو تقديرٌ لِنون الذي يملك رصيْدًا غير مسبوقٍ مع نادي أبناء سخنين ؛ بعد تسجيله أرقامًا قياسيةً مع الفريق كادت تجعله يتخطى نادي "مكابى حيفا" خلال مشواره مع فريق شمال إسرائيل ، وساعده في إحراز لقب الدوري مرتين ، والكأس مرتين أيضًا ، قبل أن ينتقل إلى أوروبا ومشواره مع العالمية والنجومية لفريق "إنتر ميلان" الإيطالي ، ويحرز معه لقب دوري أبطال أوروبا لاحقًا ، ثم انتقله إلى نادي "بايرن ميونخ" الألماني لموسمين من الإنجازات أيضًا..

وقال "ينون" الذي بدا متأثرًا داعمًا:

- لم يخطر لي في سقف أحلامي أن يُوضع تمثال لي أمام ملعب الفريق الذي أحبه وأعشقه..

إنهآلت رسائل التقدير عبر كل وسائل الإعلام ، كان أهمها لِنون ؛ اثنتين ، أولاهما كان لقاء إذاعي مع رئيس اتحاد كرة القدم الإسرائيلي ، وثانيهما وأحبها إلى نفسه كان لقاءه مع الملكة.

وصف رئيس الاتحاد الإسرائيلي لكرة القدم قائد الفريق القومي "ينون" العائد بعد غياب ما يقرب عامين بأنه رمز الفريق الأسطوري ، معتبرًا أنه يُمثل كل القيم العظمى للفريق ..

- بالنسبة لي ولكل الإسرائيليين فإن "ينون" هو رمز الفريق.. ويظهر إخلاصه للفريق في السراء والضراء وبالتالي فهو يستحق كل ما حققه عبر مسيرته ..

وأضاف:

- أكن الحبّ لكلّ اللاعبين.. ولكن لـ"ينون" وضعٌ خاصٌّ فحين أنظر إليه أرى تاريخ إسرائيل.. فهو الذي لعب للمنتخب أكثر من ثلاثمائة مباراة منذ نعومة أظفاره في فرق الشبيبة.. وحمل شارة قيادة الفريق الذي سبق وحقق معه أربعة ألقاب لكأس العالم للناشئين تحت سبع عشرة سنة.. وكأس العالم للشباب وكأس العالم ولقب أفضل لاعب في العالم مرتين.. المرة الأولى بعد فوزنا بكأس العالم والمرة الأخرى بعد فوزنا بكأس الأمم الأوروبية وأعتقد أنها لن تكون الأخيرة.. ولقبين لدوري الأبطال الأوروبي مع فريق "إنتر ميلان" الإيطالي.. وكأس أبطال أوروبا مع "بايرن ميونخ".. لائحة طويلة من الإنجازات العظيمة لا يستطيع أن ينافسه فيها أحدٌ داخل أو خارج المملكة.

ومن جهةٍ أخرى ؛ أعرب عن أمله في أن ينجح أفضل وسط في العالم في استعادة مستواه المعهود ، والعودة إلى أفضل حالاته ، والتخلص من لعنة الاكتئاب التي حاصرته من بعد إحراز بطولة أوروبا الأخيرة ولقب أفضل لاعب في العالم والحداء الذهبي ..

لم يتبقَ على مباراة العودة مع هولندا إلا أسبوعٌ ، كان منتخبنا في معسكرٍ مغلقٍ منذ ثلاثة أيام عندما فوجئ الجميع بإطالة الملكة عليهم ، حضرت إليهم فجأةً وكان يرافقها عددٌ قليلٌ من الحرس الخاص في زيٍّ مدني ، إلتف اللاعبون والجهاز الفني حولها ، كانت الجلسة أقرب ما تكون إلى جلسةٍ عائليةٍ ، لم تتكلف الملكة لا في مظهرها ولا في حديثها ، كانت تتحدث معهم في ثقةٍ من فوزهم في المباراة القادمة وصعودهم للمونديال ، بَعَثَتْ فيهم روحًا من البهجة والحماسة ، وما أن أَنَهَتْ حديثها طلبت من "ينون" أن يرافقها إلى سيارتها ، وفي الطريق وضعت يدها في يده ، رغم أن الملكة كانت في ريعان شبابها ؛ فهي في

أواخر العقد الثالث من العمر ، إلا أن "ينون" شعر معها بتجردها من جلالها وتحديثا كصديقين ، هكذا قال لي :

- هل ستعودُ إلى "ليلي"؟
- أتمنى ذلك..
- وما المانع؟
- كأس العالم جلالتك..
- إذن نحن ننتظر خبراً سعيداً في وقتٍ قريبٍ؟
- لا..
- لقد احترتُ في أمركما!
- بعد الفوز بالمونديال جلالتكِ.. هذا هو مهرها الذي تتمناه.
- ضغطتُ على يده برفقٍ ونظرتُ له والابتسامة تتسع مزينةً فمها الملكي ، يا لدقة وصفك يا "إيني":
- أنتما رمزان لإسرائيل..
- وجلالتك أيقونة المملكة.
- كلنا نعمل من أجل مملكة الرب الموحدة.
- تنهّد "إيني" تنهيدةً حارةً ، ثم أضاف قائلاً:
- سحبتُ يدها من يدي وصافحتني بحرارة.. فانحنيتُ مقبلاً يدها في خشوعٍ لم أعهده في حياتي.. فابتسمتُ وربتتُ بيدها على رأسي.. ودلفتُ إلى سيارتها وانصرفتُ.. بينما عدتُ مسرعاً إلى غرفتي لأتصل بكُ وأخبركُ بذلك اللقاء المقدس.. لقد قصصتُ عليكُ ما حدث بالتفصيل الممل.. لهيترأوت..
- ثم أغلق الخط كعادته! تَبّاً لتلك العادة البغيضة.

كان صوته يصلني عبر الهاتف حاملاً معه أفراحاً عارمةً وشعوراً  
مضاعفاً بالمسئولية.

لا أنكر أنه قد تسرّب إلى داخل روحي إحساسٌ غريبٌ بالسعادة ،  
شعرتُ لحظتها أنني أريد أن أحلّق في السماء ، ولكن ما لي من أجنحةٍ  
كي أستطيع فعل ذلك.

ما زالت هناك ضحكات وضحكات لم نضحكها بعد ، وأفراح كثيرة  
تختبئ في جراب الأيام العامر لم نعيشها بعد ، وما زال في العمر خبايا  
أجمل وأجمل ننتظر قدومها بفارغ الصبر. ولن نمل الانتظار ، أبداً.

## سُفْر (١٥) "التَّنْصِيب"

أنهى "ينون" مكالمته ليعيدني إلى حفل تنصيب الملكة ، اليوم الذي يوافق عيد الاستقلال ، هو نفس اليوم الذي أُختير أيضًا لإعلان المملكة ، فأصبح عيدًا للاستقلال ، وعيدًا قوميًا للمملكة ، وكذلك تم فيه تنصيب الملكة ، قبل ذلك اليوم المشهود يجب على كل أبناء شعبنا الذهاب لجبل الذكري بأورشليم لإشعال الشموع تأبينًا لذكري ضحايانا الأبرار.

أما مشهد التنصيب كان قد أفقطني توازني وأفقد كل الشعب الإسرائيلي عقله من روعته ، اجتمع ما يقرب من ثمانين ألف مواطن في ستاد "رمات غان" ، كان يومًا احتفاليًا ضخماً ، كل المصالح الحكومية في إجازة رسمية ، امتلأت الميادين في طول البلاد وعرضها ، نصبت شاشات ضخمة مزودة بأجهزة الصورة التجسدية "الهولوجرام" ، فرق الموسيقى من كل نوع تصدح في الشوارع والميادين ، والكرنقالات الراقصة انتشرت في كل الأماكن حيث ارتدى الراقصون أزياءً زاهيةً بمختلف ألوان الطيف وإن شاع اللون الأسمانجوني والقرمزي فيها

مارين في أنحاء المدن ، شارك فيها عشرات الآلاف من الراقصين والراقصات ، كانت العروض الراقصة قد اُتسمت بالحماسة والحيوية ، جوُّ من البهجة والرضا والسرور يعمُّ البلاد.

اقترب تحقيقُ الحلم بعودة مملكة إسرائيل الموحدة مرةً أخرى ، ليس التلفزيون الإسرائيلي فقط من ينقل هذه الأحداث ، بل معظم القنوات العالمية ، وكل من يهتم بأمر إسرائيل وشؤونها يتابع باهتمامٍ شديدٍ ، لم يتبق إلا بضع ساعات ويتغير اسم البلاد الرسمي إلى "مملكة إسرائيل الموحدة" ، كان كل شيء منظمًا ومعدًّا له مسبقًا بكل دقةٍ وإتقانٍ.

عندما ذهبتُ إلى الإستاد وسلمتهم تذكرة الدعوة التي وُجّهت إليّ من وزارة الثقافة اصطحبتني فتاةٌ لطيفةٌ إلى مقعدي في المقصورة الرئيسية ، بدأ الاحتفال الرسمي في تمام الساعة التاسعة مساءً ، أُطفئت أنوار الإستاد لتظهر الملكة على الشاشة الرئيسية للملعب بالهولوجرام.

ظهرت الملكة ترتدي ثيابًا شرقيةً فخمةً أسمنجونية اللون ، هذا اللون الذي كان فيما سبق لباس الملوك والأغنياء طوال تاريخنا المجيد ، الأمم الأخرى تعتبر هذا اللون رمزًا للموت ولكنه عندنا يعبر عن القداسة ، وعظمة وغبطة النفس ، كان فستان الملكة يتطابق تمامًا كما ذكر في "سفر إستير" الإصحاح الثامن في الفقرة الخامسة عشرة: "وَحَرَجَ مُرْدَحَايَ مِنْ أَمَامِ الْمَلِكِ بِلِبَاسِ مَلِكِيِّ أَسْمَانُجُونِيٍّ وَأَبْيَضَ وَنَاجٍ عَظِيمٍ مِنْ ذَهَبٍ وَحَلَّةٍ مِنْ بَزٍّ وَأَرْجُوانٍ. وَكَانَتْ مَدِينَةُ شُوشَنَ مُتَهَلِّلَةً وَفَرِحَةً".

شاهدنا الملكة وهي تضع على وجهها قناعًا مذهبًا دلالةً على العفة حيث إن هذه ولأول مرة في التاريخ اليهودي يتم تنصيب ملكة.

الجميع توقفوا عن الكلام ، توقفوا حتى عن الهمس ، توقفوا مشدوهين أمام جلاله ما يرون ، ثم انبرينا في تصفيقٍ حادٍ كاد أن يصم أذاننا من فرط حماسه ، كانت الملكة وكأنها حلم تطير في الهواء فوق رؤوسنا ، والحضور جميعًا يتابعونها بذهولٍ تام لا نظير له ، كنا نشعر بالسعادة تغمرنا وكأننا سكارى دون خمر ، فتلك الليلة تحديدًا لا مثل لها حتى في كل مجلدات "ألف ليلة وليلة" المتخمة بالأساطير.

ظل التصفيق ممتدًا لدقائق عدة ، ثم ظهر رجالٌ يرتدون الطاليت بألوانه السماجونية والقرمزية والبيضاء ، وعلى رأس كلٍ منهم توضع القبعة الأسطوانية ويحملون في أيديهم الشوفار المصنوع من قرن الطباء ، وفي لحظةٍ واحدةٍ يرفعون أيديهم في حركةٍ منتظمةٍ لينفخوا تسع نفحاتٍ متتاليةٍ عاليةٍ ، ليتوقف التصفيقُ ويعم المكان سكوتٌ تام مشبعٌ بالهيبة والحب والإجلال.

يدخل أربعة رجالٍ زنوج أشداء أرض الملعب ، لا يرتدون إلا ما يستر العورة فقط ، حاملين مَحْمَلًا مغطىً بوشاحٍ عليه "نجمة الملك داوود" مزركش بزخارف أندلسية رائعة متفرقة على الوشاح ، كلها مطلية بالذهب الخالص الذي يلمع وكأنه نور الشمس.

يضعون المحمل برفقٍ شديدٍ ، تظهر نقوشٌ فرعونيةٌ على أيدي المحمل الملكي ، كأنه محمل توت عنخ آمون المصنوع من الذهب الخالص.

تجتمع فتياتٌ جميلاتٌ يُحطنَ بالمحمل وهن يرتدين الزي الشرقي اليهودي الفولكلوري ، على رأس كلٍ منهن سلسلة من الذهب الخالص تأتي من وسط رأسهن لتتدلى على جباههن الوضاعة لآلئ ، تراقصن حول المحمل على زفير الشوفار ، ليكشفوا عن المحمل ببطءٍ ويُزحن الوشاح ليتكشف أن هناك أحدًا بالداخل ينهض ببطءٍ شديدٍ

جدًا ، تخرج من الداخل برفقٍ وتؤدّة ، تساعدُها الفتيات الجميلات ، بينما يتصاعد التصفيق بجنونٍ ، والكاميرات تعزف أجمل الألحان أثناء التقاط المصورين الموجودين للصور في هذه اللحظة التاريخية.

الملكة تظهر أمام الجموع الحاشدة ، كما ظهرت بالهولوجرام منذ قليلٍ بالقناع المذهب ولكنها ما زالت دون تاجٍ.

تنحسر الأضواء عن الملكة المنتظرة ليظهر الراق الأكبر ومعه الحاخامات جميعًا ، كان يرتدي ثياب رئيس الكهنة وعلى رأسه عمامة زرقاء علامة القداسة ، كان يحمل في يده بردية فرعونية مطوية ، يتقدم شاب نحو الراق الأكبر وفي يديه صولجان ذهبي متوج بالنجمة السادسة ، ينحني أمام الرابي الأكبر فيباركه ، ثم تمثل أمامه فتاة رشيقة ذات جمال شرقي صارخ حاملة وسادة حريرية زرقاء عليها تاج ذهبي مهيب مرصع بالألماس على شكل نجمتنا السادسة كتب عليه حرفان مختصران (מ"מ") اختصارًا لكلمة "מלכת ישראל" - ملكة إسرائيل .

تقدم الرابي الأكبر حيث تقف الملكة المنتظرة ووراءه الشاب حامل الصولجان والفتاة حاملة التاج ، وقف في مواجهة ملكتنا المنتظرة ، يخلع عنها القناع المذهب ، ليكشف لنا عن وجهٍ أجمل من ضياء القمر ، وجهٍ مزרחيٍّ خالصٍ ، تتجمع فيه كل معاني الجمال في دقةٍ وتناغمٍ ، لون خمري لامع ، عينان سوداوان واسعتان ، رموش طويلة معقوفة في رقة بالغة ، أنف منحوت بدقة ، شفتان عربيتان بلون النبيذ ، خدّان يتأججان حمرةً كالتفاح ، عنقٌ طويلٌ ملفوفٌ ، جسمٌ رشيقٌ طويلٌ ، إنها امرأةٌ وُلدت لتتربع على عرشٍ مفقودٍ منذ زمنٍ بعيدٍ ، ويشهد التاريخ عليها لينقش اسمها بالذهب الخالص على صفحات التاريخ الإسرائيلي العظيم ، إنها أول ملكة في تاريخ إسرائيل العريق.

إنها اللحظة التي مات من أجلها مئات الآلاف ، لحظة انتظرتها أجيالٌ متعاقبةٌ على مرّ الزمان وها أنا ذا أشهد عليها ، الشكر للرب الذي أعطاني هذه الفرصة للخلود ، لحظة أن وضع قداسته التاج على رأسها لتحنني أمامه برفقٍ ورشاقةٍ ، ثم يسلمها الصولجان ويصطحبها من يدها بلينٍ ، ليجلسها على العرش ، الذي رفعتِ الفتيات عنه الوشاح .

تجلس الملكة الفاتنة على عرش أحدث وأقوى الممالك في العصر الحديث ، كان التصفيق والنفير والموسيقى خلفيةً لهذا المشهد الخرافي ، أشار الرابي الأكبر للحضور بالهدوء ، فيصمت الجميع وتتوقف الموسيقى ويعم المكان صمتٌ رصينٌ ، أشار للملكة بالنهوض عن العرش فتقف في جلالٍ ، ثم يبدأ نغمًا أولى كلمات النشيد الوطني الإسرائيلي الذي يبث روح الحماس في نفوس الجميع ، فكل نفس يهودية تشتاق لإنشاده ، ننشد جميعًا في وقت واحدٍ النشيد الوطني مع المطربة "شيري ميمون" التي أتت لتنشد النشيد في هذه اللحظة التاريخية:

طالما تكمن بالقلب      نفس يهودية تشتاق  
للنظر إلى الأمام نحو الشرق      عينٌ تنظر إلى صهيون  
أملنا لم يضع بعد      أملنا عمره ألفا سنة  
أن نكون أمة حرة في بلادنا      أرض صهيون وأورشليم

بعدما انتهينا جميعًا من إنشاد النشيد الوطني ، صفّق الجميع وأشار الراق للملكة بالجلوس على عرشها والتصفيق يزداد قوةً وحماسًا ، وعاد النفير من الشوفار ليتصاعد وأصوات التقاط الكاميرات تهزول وكأنه الماراثون ، إنه حقًا عامك الذهبي يا إسرائيل .



## سفر (١٦) "العام الذهبي"

العام العسكري هو المُسمَّى الإعلاميّ للعام الذي يسبق العام الذهبيّ ، بدأ العام العسكري بدايةً مبشّرةً عندما حكمت المحكمة الدولية بأحقية بعض المواطنين اليهود المصريّ الأصل باستعادة أملاك لهم ولأجدادهم في سيناء وفي أماكن متفرقة من الوادي ، لم تنفذ الحكومة المصرية أحكام المحكمة الدولية ، طلب المواطنون من الحكومة الإسرائيلية التدخل لإعادة حقوقهم المسلوبة منهم ، أرسلت وزارة الخارجية طلبًا رسميًا تخاطب فيه الحكومة المصرية بسرعة تمكين المواطنين الإسرائيليين من أملاكهم ، لم ترد الحكومة المصرية لا من قريب ولا من بعيد ، اعتبرت حكومتنا هذا التجاهل إهانةً ونوعًا من الاستخفاف المبتذل من الممارسات العربية ؛ واستهتارها بإسرائيل كقوةٍ يجب أن يُحسب لها ألف حساب وحساب .

أرسلت بعدها الحكومة تهديدًا واضحًا شديد اللهجة ؛ بأنها ستقوم بعملٍ عسكري في سيناء إذا لم تستجب الحكومة للطلب الرسمي المقدم من الخارجية الإسرائيلية ، لكن الحكومة المصرية لم تُعلق على

هذا التهديد ، يبدو أن جميع مؤسسات الدولة المصرية مشغولةً انشغالاً تاماً بالأمر الداخلي لدولتهم ، حتى المؤسسة العسكرية المصرية كانت قد انغمست انغماساً مبالغاً فيه في الشؤون السياسية للبلاد ولم يفكروا في الأمر رغم وضوحه وجلائه .

اجتاحت قواتنا "سيناء" في الخامس والعشرين من يناير في ذلك العام أثناء احتفالات المصريين بذكرى الثورة المصرية ، وهكذا تمكّنا وبمنتهى السهولة استعادة سيناء كاملة دون ردٍّ يُذكر من القوات المسلحة المصرية الموجودة على طول الحدود ؛ وكان الفرار هو الحل الأمثل لمن بقي حياً منهم ، لم نكن نريد ذلك ولكنهم لم يحترموا أحكام المحكمة الدولية التي احترامناها نحن من قبل ؛ عندما حكمت للمصريين بأن "طابا" أرضٌ مصريةٌ ، كان الأمر صعباً نسبياً في الداخل عندنا ، لكن الحكومة الإسرائيلية بحكمتها استطاعت احتواء الموقف مع كل العرب الموجودين في إسرائيل وخاصة أصحاب الأصول المصرية ، وهكذا مرَّ الأمر بسلاٍ وتحققت كل الأهداف المرجوة ، واقتنع مواطنو المملكة أن من لا يحترم القانون ستردعه القوة .

عَمَّتِ الفرحة أرجاء إسرائيل وذلك لأسبابٍ عديدةٍ ، منها أننا استرددنا بقعةً مهمةً في تاريخ اليهود وخطوة مهمة جداً للوصول للمملكة الموحدة ، أرض تاريخية بدأ بزوغ العصر الذهبي لمملكة إسرائيل من على جبلها ، على هذه الأرض أخذ نبينا العظيم موسى الألواح هكذا كانت كلمة الرب ، في هذه الأرض المقدسة دُفن بها جسده الطاهر قبل أن يحقق حلم أبناء إسرائيل ويفتح الأرض المقدسة ، وأكمل أماله خادمه "يشوع بن نون" واستطاع أن يفتح الأرض المقدسة والقضاء على الجبارين ، وها هي ذي سيناء قد رُدَّت إلينا ، فقد أعطتنا المحكمة الدولية سبعين بالمائة من الأراضي السيناوية ، والقوة أعطتنا ما نستحقه مائة بالمائة ، دائماً لا نريد استخدام القوة ولكن هم العرب

من يُجبروننا على ذلك! فالقوة في بعض الأحيان لا تصلح إلا أن تكون الخيار الثاني للسلام ، فالقوة تحمي السلام ، وتحمي المال ، وتارة تحمي القوة كما يقول مثلنا الشعبي ، وفي بعض الأحيان تُصبح القوة لغة صامتة قادرة على فعل ما لا تفعله غيرها.

في العام التالي للعام العسكري كان العام الذهبي ؛ وأعلنا مملكة إسرائيل الموحدة ، فيها هو ذا الحلم يقترب بعد أن وضعنا يدنا على ما يُقارب من (٩٥ ٪) من أراضيها كما ذكر في التلمود.

بعد تقسيم العراق تمكنا من أن تكون حدودنا الغربية هي النهر الكبير ، توسعت أراضيها جنوباً حتى أشرفت على حدود يثرب ، وها هي ذي سيناء تعود إلى حوض الأم إسرائيل ، الأمر لم يكن سهلاً ولا بمحض الصدفة ، لكنه احتاج إلى مجهود أجيال متعاقبة ، فبعد انسحاب قوات حفظ السلام الدولية من "الأردن" و"أورشليم" ؛ حلت محلها قوات جيش الدفاع ، ومع تقسيم "سوريا" تمكنا من بسط نفوذنا على جنوب سوريا تقريبا ، بهذه الطريقة حاصرنا المملكة السعودية شمالاً ، وبمنتهى السهولة فمنا بالتوغل جنوباً ؛ وبمساعدة أصدقائنا الأوفياء استطعنا ضم "تبوك" وما حولها ولم يبق إلا فتح "يثرب" ، ها هو ذو حلم "مملكة إسرائيل الموحدة" أصبح حقيقة واضحة وضوح الشمس في كبد السماء.

لم يكن قرار التحول من "دولة إسرائيل" إلى "مملكة إسرائيل العظمى" أمراً سهلاً ، لكنه كان رغبة ملحة من المواطنين ، لكن اختيار الملك كان نقطة خلاف كادت أن تعصف بالحلم نفسه بل كادت أن تحوله إلى كابوس ، كان الأمر جد خطيراً! لكن بعد مشاور طويل قرر كهنة صدى هيكل سليمان الذي يرأسه الراق الأكبر أن يتجنبوا الأخطاء التاريخية التي وقعت فيها أمتنا من قبل ؛ والتي أدت إلى زوال مملكة

إسرائيل وانقسامها إلى مملكتين شمالية (إسرائيل) وجنوبية (يهودا)، حيث نُصَّب على كلّ منهما تسعة عشر ملكًا انحدرت بهم القوى في شكلٍ بياني هابطٍ إلى حدِّ مُرعبٍ؛ حتى أدى إلى انهيار المملكتين فيما يقرب من مائة وثلاثين سنة.

كانت هذه الأمور مدعاةً للتشاؤم، فتوصلوا أنه لا بد من تنصيب ملكة لا ملك! وهكذا ما أن استقروا على هذا الأمر حتى بدأ النزاع على كينونة هذه الملكة، فأصدقاؤنا الإشكيناز رأوا أنها لا بد وأن تكون إشكنازية، وناديننا بدورنا بأن تكون سفاردية، وكان الرأي الأخير لكهنة صدى هيكل سليمان بأن ملكة إسرائيل مزراحية سفاردية؛ ولا بد أن تكون من نسل أدمور ينتهي نسبها إلى إسرائيل الأب، وأن تكون بكراً يُشهد لها ولعائلتها بالعفة والالتزام الديني، وأن يكون عمرها في العقد الثالث، وهكذا بدأت رحلة البحث عن ملكتنا القادمة حتى توصلوا إلى "أورلي بن شوشان بن بنيامين بن ديفيد بن شلومه بن دانيال بن أفراهام بن لاوي بن يوشيه بن عوفادياه بن يتسحق بن يهوذا إلى أن يصل النسب إلى نبي الرب يشوع بن نون بن أفراهام بن يوسف بن إسرائيل"، الحاصلة على جائزة إسرائيل لأدب التوراة عندما كان عمرها ثلاثة وعشرين عامًا.

كان الاختيارُ موفقًا فهي ابنة "شوشان بن بنيامين" الحاخام الأكبر السابق لليهود السفارديم في إسرائيل، يحظى بالتبجيل ويعتبره الكثيرون أهم شخصية دينية في الجيل الحالي، صُفِّ باعتبارها أحد أكثر الحاخامات تأثيرًا في الرأي العام الإسرائيلي، له تاريخٌ طويلٌ نظيفٌ كما شهد له، فلقد عُيِّن في محكمة الاستئناف اليهودية العليا في أورشليم، ثم أصبح كبير حاخامات السفارديم في "تل أفيف"، ثم تم انتخابه كبيرًا لحاخامات السفارديم في إسرائيل.

ما إن وقع الاختيار على الملكة "أورلي" حتى تفاءلنا بهذا الاختيار ، حيث أعلن المهندسون المختصون بمشروع إنشاء سحّارات داخل البحر الأحمر قادمة من "إثيوبيا" مرورًا بالسودان لتعطينا حقنا من نهر النيل باكتمال المشروع قبل الوقت المحدد بستة أشهر ، تكلف هذا المشروع مليارات الدولارات ، أجّلنا افتتاح هذا المشروع لحين تنصيب الملكة .

كان أول ما قامت به الملكة "أورلي" بعد تنصيبها هو افتتاح قناة فرع نهر النيل القادمة من المنبع من خلال مشروع هندسي هو الأول من نوعه في العالم .

أثار هذا الإنجاز غضب الشعوب العربية التي دائمًا ما تغضبُ لنجاح إسرائيل وتقدمها في كل شيء! كل شيء بلا استثناء ، إسرائيل فخر لنا جميعنا وجيلنا هذا هو فخر إسرائيل ، هذا الجيل هو جوهرة التاج الكبرى .

في ديسمبر من هذا العام افتتحت الملكة الهيكل الجديد وأسميناه "الهيكل الأعظم" ، لقد تمت صناعته وبنائه بأحدث الإمكانيات ، إتسم بالذوق والفن اليهودي الشرقي القديم ، كانت كل جنباته مطعمةً بالذهب الخالص ، أما الأعمدة الداخلية فكانت على الطراز الفرعوني الذي أبدعه أجدادنا اليهود الذين بنوا الأهرامات والمسلات في مصر الفرعونية ، أشرف على هذه التصميمات مهندسون يهود كثيرون من شتى بقاع الأرض ، لكن أكثر ما أسرني في هذا الهيكل أنه يتبع ضوء الشمس في النهار بحيث تتسرب إليه الإضاءة من نوافذه لتضيء المكان ، ويستطيع أن يتعقب القمر وتحركاته ليلاً ، ويستمد الهيكل نوره من الطاقة الشمسية ، وبذلك تشتعل أضواء "المينوراه" الذي كان

يُستخدم في إنارة الهيكل القديم ، وهو نوع من الاعتماد على الطاقة الطبيعية والاستعراض العلمي الذي توصلنا إليه.

حقًا لقد كان عامًا ذهبيًا على المستوى العام وعلى المستوى الشخصي أيضًا ، استمرت نجاحاتي المهنية ، واكتسبتُ أصدقاءً جددًا ، وتوطدت غلاتي أكثر بسارتي الحبيبة ، وحصل ابني الأكبر "موشيه" على المركز الأول في مدرسته ، وأقمنا له حفل ختان حضره معظم أصدقائي. لا أستطيع أن أقول شيئًا إلا شكرًا للرب على نعمائه.

## سفر (١٧) "القرار الملكي"

كنتُ في مكنتبي مشغولاً بإعداد بعض التقارير الخاصة ببرنامجي عندما سمعتُ رنين الهاتف ، شعرتُ برعشةٍ خفيةٍ تسري في أوصالي عندما ظهرَ اسم "بيسان" أمامي على شاشة هاتفي ، أسرعْتُ بالرد ، تسلَّل صوتُها الحاني إلى أذني كهديل الحمام:

- مساء الخير.. أرجو ألا أكون قد أزعجتك.
- لا.. أبداً.. إن سماع صوتك من دواعي سعادتِي.
- أتصل بك لأشركك على ما قدمته للجدة.
- لكني لم أفعل شيئاً.
- لقد حضر اليوم مسئول من القصر الملكي ومعه قرار ملكي بعلاج الجدة في أحدث مستشفى بالمملكة.
- هذا خبر مُفرح.. لكني لم أتدخل في هذا الأمر.
- إعتقدتُ أنك من توسط لذلك.

- لا لستُ أنا.. الجدة كانت رافضةً للعلاج خارج المملكة والآن الفرصة سانحة لها لأن تتلقى علاجها داخل المملكة.
- نعم.. بعد أن تأكدوا من سلامة العلاج بتكنولوجيا فوق الصوتية اتصلوا بنا حتى تكون من المستفيدين بذلك.
- لقد قرأتُ كثيراً عن هذه التكنولوجيا من قبل.. فهي تقوم بعمليات جراحية دقيقة دون مباسع وندوب.
- أشعر بارتياحٍ غريبٍ لهذا القرار.. هل تتصور أن الجدة تحسنت حالاتها قليلاً بمجرد استلامنا للقرار الملكي.
- بشرى طيبة.
- إذن لي رجاء عندك.
- تفضلي.
- هل يمكن أن تعرف من وراء هذا القرار.
- سأبذل قصارى جهدي.
- أستأذنيك الآن فهي تُناديني.
- تفضلي.

أنهتُ مكالمتها لأجدني أبتسم لمدةٍ طويلةٍ! ثرى ما السبب؟ هل لأنني سمعتُ صوتها؟ أم لخبر علاج الجدة؟ ثم لماذا تريد أن تعرف من هو السبب في هذا القرار؟ إن الجدة لم تأخذ حقها أثناء الدولة وها هي ذي المملكة تُعيد إليها القليل من حقوقها، لا بد أن لها وجهة نظر في ذلك، لماذا لم أسألها؟ يبدو أن خبر علاج الجدة قد أسعدني لدرجة أنني نسيتُ أهم ما يميز الصحفي الناجح، لكن لا يهم فما زالت الفرصة قائمةً، والمفتاح الآن هو أدون "يشعياهو عوفر" رئيس الديوان

الملكى ، علاقتى به تسمح بالحديث حىال الأمر ومنصبه يساعده على ذلك.

اتصلت بالديوان الملكى وطلبتُ إيصالى بأدون "عوفر" ، لكنهم أخبرونى أنه خارج القصر الآن ، أخبرتهم بأن يبلغوه بأننى قد اتصلتُ به .

بعد ثلاث ساعات تقريبًا وجدتُ "عوفر" يتصل بى ، أخبرنى بأنه كان مع الملكة يتفقدون دور الأيتام الجديدة ، طلبتُ منه أن يعرف من وراء إصدار قرار علاج السيدة "راحيل" السامرية ، صمتَ لثوانٍ قليلةً يتذكر ، ثم عاود حديثه أن الراقف "شوشان" والد جلالة الملكة هو من تحدتَ معها فى أمر الجدة ، وطلب منها اتخاذ هذا القرار فى أسرع وقتٍ ، شكرته على تعاونه وعلى اهتمامه بالرد.

بعدها أنهيتُ محادثتى معه اتصلتُ بـ"بيسان" على الفور فأصابها الدهول وهى تصرخ "كيف!" عندما أخبرتها أن الراقف "شوشان بن بنيامين" هو من طلب ذلك من الملكة بنفسه ، حاولت أن أعرف سبب الدهشة الصادمة لكنها رفضتُ أن تخبرنى فى الهاتف ، فطلبتُ موعدًا لزيارتها ، واتفقنا على أن يكون الموعد فى تمام السادسة من مساء اليوم التالى.

ذهبتُ فى الموعد المحدد لأجدها تطل علىّ من الباب بشعرها الأسود الناعم المنسدل على كتفيها الرقيقين ، ابتسامتها زادتها بهاءً وإشراقًا ، حقيقةً أجد نفسى فى حالةٍ يرثى لها كلما وقعت عيناى على هذا الجمال الشرقى الأصيل ، دعتنى للدخول ، رافقتها وجلسنا فى نفس المكان حيث كان لقاءنا الأول عندما أتيتُ للتعرف على الجدة ، كان المكان كما هو لم يتغير به شيء إلا إنها ازدادت جمالاً فانعكس

- هذا على المكان من حولي ، وكأن هذا القرار قد أعاد لها ما لا يقل عن عشر سنوات من عمرها ، بعد أن اطمأنتُ على حالة الجدة سألتها:
- ما الذي أدهشك عندما علمتِ بأن الراه "شوشان بن بنيامين" هو من طلب ذلك من الملكة ؟
  - للراه قصة غريبة مع الجدة.. ليتها واعية لتقصها عليك بنفسها.
  - ما الأمر ؟
  - منذ سنواتٍ بعيدةٍ قامت الجدة بتأليف كتاب عن تاريخ الطائفة السامرية.. أبرزت فيه بالحجة والبرهان على صحة معتقداتهم.. وكان ضمن ما استشهدت به صورة زكوغرافية تشرح قصة عهد الأمان الذي أمر بكتابته لهم نبي المسلمين "محمد".. والذي أخذه منه حكماء السامريين آنذاك.
  - وما فحوى هذا العهد ؟
  - أمر فيه نبي المسلمين أن يُكتب للسامرة أماناً وضماناً على دينهم وديارهم.
  - وما شأن الراه "بنيامين" بذلك ؟
  - رفض الراه "بنيامين" نشر الكتاب.. ولم يكتفِ بذلك بل أخذ قراراً من الكنيست وقتئذ بعدم السماح لنشر هذا الكتاب.
  - لكن ما العائد عليه من ذلك ؟
  - لا أدري.. ربما لأن هذا الكتاب كان سيثير الرأي العام في إسرائيل.. لكنني لم أعد أهتم بذلك.. حتى الجدة لم تعد تذكر أمر هذا الكتاب منذ زمينٍ.. فعلاج جدتي الآن هو ما يهمني في المقام الأول.
  - قد يكون ذلك اعتذاراً عما بدر منه في الماضي.

أعتقد أنها اطمأنت لهذا التبرير وارتاح بالها.. ثم انصرفتُ من عندها  
وأنا أعاني لوعة حبي لـ"سارة" ومرارة فراق "بيسان"، أواه من لوعة  
القلب.....

لِمَ يا إلهيم لِمَ تخلقنا بقلبين؟



## سفر (١٨) "المزمار الذهبى"

لم تكن زيارات "مور" لي متكررةً ، فلقد كانت تزورني في أوقاتٍ متفرقةٍ ولكن هذا لا يمنع من مداومتها على الاتصال بي ، "مور" هي أول من شجعني على اقتحام عالم التلفاز ، تعمل ماكيبير في السينما الإسرائيلية ، هي ليست أشهر من يمارس هذا العمل فحسب ولكنها الأعلى أجراً ؛ في بعض الأعمال خاصة التاريخية لا يجدون من هو أفضل منها للقيام بذلك ، وفي هذه الأعمال يضاهاي أجراها أجور الكثير من النجوم المشتركين في مثل هذه الأعمال ، لها مركزُ تجميل خاص في "تل أفيث" وهو الأشهر والأفخم والأعلى ، عندما قبلتُ بتقديم البرنامج منحني هديةً لا يستطيع أحدٌ رفضها ؛ ستقوم بعمل الماكياج الخاص بي لمدة عامٍ كاملٍ دون تحميل الإنتاج أية نفقات هديةً منها لنجم الإعلام المرئي القادم ، اشتهرتُ بحبها لمساعدة الموهوبين في عالم الفن والأدب ، وفي زيارتها الأخيرة لمكتبي دعنتني إلى منزلها على العشاء وأخبرتني أن هناك مفاجأةً قد أعدتها لي .

ذهبتُ إلى العشاء والمفاجأة التي أنتظرها عند "مور" تشغل بالي ،  
تُرى هل هو برنامج جديد لي ؟ لا أعتقد فبرنامجي في قمة نجاحه والكل  
يعلم ذلك. هل تريدني أن أقتحم عالم السينما مثلاً؟ بالطبع سأرفض  
فأنا لست ممن يستغلون نجاحاتهم لمجرد كسب المال. هل جُنَّتُ  
وتريدني أن أشارك في الترويج لأحد منتجات مصنعا الجديد؟ لا يمكن  
فالمصنع ينتج أدوات تجميل نسائية لا علاقة لي بها. ظلت الأفكار  
تتناوب على رأسي حتى وصلتُ إلى شارع "شينكين" جنوب "تل أبيب"  
وبه المبنى الأنيق حيث تقع شقتها بالطابق الأول العلوي ، تراجلتُ  
من السيارة وما أن وصلتُ إلى باب الشقة حتى وجدتها تقتحه قبل  
أن أطرقه وابتسامتها الزاهية تُنير وجهها الأشقر الممتلئ ، بادرتني وهي  
تتلقف يدي لمصافحتي:

- تفضل المفاجأة في انتظارك بالداخل.

تبعتها إلى الداخل ، فوجدتُ شاباً عشرينياً ذا بشرة خمرية محببة  
للأعين ، له عينان واسعتان غارقتان في اللون العسلي ؛ تستظل  
برموشٍ كثيفةٍ طويلةٍ ، وفم دقيق رائع التكوين ، أنفه دقيق منحوت ،  
شفتاه متوسطتان جذابتان ، له وجه طويل مميز ، عندما تراه تعرف أنه  
عربي ابن عربي.

مد يده ليصافحني وحمرة الخجل تعتري وجهه ، بادرتُ "مور"  
بالتعريف بي:

- آدون "يائير أفراهام" أشهر إعلامي وصحفي في إسرائيل.. لا بد أنك  
سمعتَ عنه..

- بالتأكيد شاهدتُ برنامجه (هنا إسرائيل) أكثر من مرةٍ عندما كانت  
تسرح لي الفرصة بذلك..

وأكملتُ "مور" وهي تضع يدها على كتفه:

- "مهـاب ساسون" هاجر جده من مصر إلى أمريكا وهناك بدأ حياةً جديدةً.. عمل في التجارة ولكنه لم يُنجب إلا ولدًا واحدًا هو "إيليا" والد "مهـاب".. تعرّف على أختي "نتالي" عندما كانت تدرس هناك.. كان "مهـاب" هو ثمره زواجهما.. ماتا في أحداث سبتمبر الحزين عام (٢٠٠١).. كان "مهـاب" لا يزال طفلًا صغيرًا وقتئذ.. أشرفت على تربيته جدته "ليا ساسون".. عندما توفيت لم يتبق له أحد هناك فقرر العودة إلى حضن أمه إسرائيل وخالته "مور"..
- مرحبًا بك في بيت الرب.. وهنيئًا لك بحضن خالتك..
- لقد ورث "مهـاب" حلاوة صوت أختي "نتالي".. ولهذا أنت هنا الآن..
- لن أتحدث قبل أن أتذوق الكبة اللبنانية التي تبرعين في طهيها.. يبدو أنك لم تُعديها!
- لا تقلق فأنا أعرف كم تحبها.. تفضلا العشاء جاهز في انتظاركما.. فأنا أعرف كم تحافظ على مواعيدك آدون "يائير"..
- ابتسمت ثم رمزت بعينها، أعتقد لأنها تُضيف كلمة "آدون" قبل اسمي حتى نعيش جو الرسميات أمام "مهـاب" ابن أختها.

\*\*\*

كان العشاء أكثر من شهّي ف"مور" ليست أشهر ماكيير فحسب، ولكنها أبرع من يطهو ويُعد الطعام اللبناني الشهّي. بعد العشاء اللذيذ انتقلنا إلى الغرفة التي تعرّفْتُ بها على "مهـاب" منذ قليل، "مهـاب" لم يتبادل معنا الحوار، كان نظره مركزًا على طبقه رغم أنه لم يأكل كثيرًا، أثناء جلستنا الثانية وبينما كانت خالته تُعد لنا شيئًا نشربه لم ينطق ببنت شفة! حاولتُ أن أفتح معه مواضيع عامة لكن ردوده كانت بالموافقة أو الرفض بإيماءاتٍ من رأسه. عادت "مور" بالعصائر،

وجلستُ إلى جواره ، نظرتُ إليه ومسحتُ على رأسه بحنانٍ بالغٍ وهي تبتسم ، ثم نظرتُ إليّ وقالت وابتسامتها لا تزال زاهيةً:

- آدون "يائير".. ألا تحب أن تستمع إلى غناء "مهاب"؟  
- بلى أحب أن أستمع إليه.. لقد حاولتُ أن أكلمه لكنه لم يشاركني الحديث..

- نعم ف"مهاب" خجول جدًا.. خاصةً عند مقابلة الأصدقاء الجدد..  
عاودتُ النظر إلى "مهاب" ثم قالت همسًا بصوتٍ مسموعٍ وهي تناوله آلة البوزوكي (البُزُق):

- أطينا يا قيثارتى..

اعتدل "مهاب" في جلسته وبدأ يُعد أوتار البوزوكي ، ثم تنحج وانطلق بنا نحو السماء ، كان صوته شجيًا ومعبرًا لأبعد مدى ؛ راقياً رقيق الوقع في الأذن ، لم أجد لصوته شبيهاً ، لكن يمكن وصفه بالكريستال المذاب ، تغنى بلحنٍ يوناني حزينٍ ؛ ولكن باللغة العبرية بالطبع ، استطاع أن يعبر عنه بعزفه على البوزوكي بتكنيكٍ تُركيٍّ أكثر من رائع ، وغلفه بصوت سماوي عذب ، تأثر قلبي بحزن أنغامه ، وأجبر عواطفِي على أن تتحرك طرباً ، حقاً إن "مهاب" هذا يستحق أن يكون المرتل الأول للمزامير في إسرائيل ، بل في العالم كله ولهدهد بذلك عرش "إيرز ياخيل".

أنهى "مهاب" أغنيته وأنا في حالةٍ وجدانيةٍ غريبةٍ! امتزج فيها الحزنُ والشجنُ مع الحبور والرضا. نظرتُ نحو "مور" فوجدتها مغمضةً العينين ؛ في حالةٍ غريبةٍ وكأنها قد فقدت وعيها ، أفاقت بعد ثوانٍ قليلةٍ والتفتت إليّ وهي في حالةٍ من اللوعة:

- ما رأيك؟ أليست مفاجأة؟

- هذه ليست مفاجأة.. هذه قبلة نووية! كيف استطاع "مهاب" أن يظل كل هذه المدة بعيدًا عن أحضان أمه إسرائيل؟ إنها أنانية مفرطة أن نسمعه نحن فقط.. لا بد أن تستمع إليه كل إسرائيل.. وأؤكد لك أنه سيكون نجم إسرائيل الأول خلال سنوات قليلة..
  - هذا هو دورك سيدي.. ستقدم أنت ل"مهاب" وبنفسك في مسابقة (كخفيه هشير - דוכבי השיר)..
  - هذا شرفٌ لي.. جهزي أوراقه وسيفوز بالموسم القادم لا محالة.. أعتقد أنهم بدأوا بقبول الراغبين في الاشتراك منذ يومين..
  - لا عليك فكل شيء مُعد.. ما عليك سوى الترتيب مع "يوفال حزان".. وهذا أمرٌ بسيطٌ بالنسبة لك أدون "يائير"..
- نهضتُ مستعدًّا للانصراف ، فنهضتُ "مور" بدورها وكذلك فعل "مهاب" ، على الرغم من صمته الدائم إلا أنه صاحب حضورٍ مريح ، جذاب بطريقة غير عادية.
- عندما نهض هذه المرة شعرتُ أنه أطول مني كثيرًا ، فجسمه الذي يميل إلى الطول ؛ بدا رشيقيًا متناسقًا ، وكأنه أحد أبطال السباحة ، ولكنني عندما سألته عن ذلك ابتسم نافيًا ، وأخبرني أنه يُمارس رياضة خفيفة عندما يصحو من النوم ، إضافة إلى أنه يتبع نظامًا غذائيًا صحيًا ، لكم تمنيتُ أن أحذو حذوه ، ولكن ليس لدي ما يكفي من الوقت لفعل ذلك.
- تبًا ، الوقت يقتل كل شيء.



## سفر (١٩) "إلى عليين"

استيقظتُ من نومي في اليوم التالي كعادتي على صوت التلفاز ، لكنني حمدتُ الرب أنني لم أصطحب على الصوت النحاسي الرنان ، أغلقتُ التلفاز وبدأتُ يومي روتينيًا ، دخلتُ غرفة مكثبي الملحقة بالمنزل ، كان أول ما فعلته هو أنني اتصلتُ على الرقم الخاص بـ"يوقال حزان" ، أخبرته بغاييتي من الاتصال فرحّب بذلك جدًّا ، تواعدنا على أن نلتقي في مطعمٍ قريبٍ من مكثبه حيث يتناول وجباته الخفيفة هناك ، عندما وصلتُ في الموعد وجدته في الانتظار يجلس في زاويته المفضلة ، توجهتُ إليه فنهض مرحبًا وسألني مشدوهاً:

- أتيتَ وحدك! أين زمارك الذهبي ؟
- ليس هنا.. هذا المكان غير معدٍ للاستماع إلى الأصوات السماوية.
- يا لك من إعلامي بارع.. حقًا يمكنكم السيطرة على عقول البشر.. لكنني لا أقتنع بسهولةٍ يا "يائير" وأنت تعلم ذلك.

- هذه أوراقه.. ستستمع إليه عندما تريد.. لكن ليس هنا أو في مكانٍ مشابهٍ.
- إلى هذه الدرجة.. أين تقترح إذن؟
- في مكثبي أو مكتبك أو في بيت خالته.
- مَنْ خالته؟
- "مور ساسون" ..
- الماكبييرة الشهيرة؟
- أها..
- معذرةً.. لكن لماذا لَجأت إليك؟ فهي صديقة حميمة لي ولكل العائلة.
- ربما لعلها بمدى انشغالك بالإعداد للموسم الجديد للمسابقة.
- دعني أتحدث إليها وأضرب موعدًا لمقابلتهما.. هل تحب الحضور؟
- في الواقع إنني مشغولٌ جدًّا كما تعلم.. لكن من أجل سماع الشاب الموهوب على حد وصفك.. سأحضر بكل تأكيد.
- سأتصل بك بعد تحديد الموعد.
- عظيم.

تناولتُ قهوتي وتركته يكمل بعض الاتصالات الخاصة به على وعد أن يُعاود الاتصال بي ليخبرني بالموعد المحدد.

توجهتُ لمكثبي لأعدَّ مقالي الذي ينشر في مجلة "نيكودا" الأسبوعية، جلستُ أمام مكثبي ورأسي خالٍ تمامًا من الأفكار، كان صوت "مهاب" يسيطرُ على كل تفكيري، يبدو أن شخصيتي لم تتغير كثيرًا، فمنذ الصغر وأنا أتعلق بكل ما هو جديدٍ في حياتي، حتى

الملابس كانت أمي تشتكي من أنني لا أرتدي ملابس القديمة إذا ما امتلكتُ ما هو جديد.

دخلتُ عليّ سكرتيرتي لتقدم لي فنجاناً من الشاي الأخضر ولتخبرني بأن "مائير أبو طبول" شقيق لاعب منتخبنا الوطني لكرة القدم "ليشي أبو طبول" قد تعرّض لإطلاق نار منذ فترةٍ وجيزةٍ وهو الآن في مستشفى "لنداو" بنتانيا.

هل هناك علاقة بين هذا الحادث والمافيا؟ ربما، هل ستصبح إسرائيل أرضاً خصبةً لممارسات المافيا؟ هل يصلح ذلك أن يكون موضوعاً لمقالتي؟

لكن ما إن بدأتُ في إعداد الأوراق وقلمي الرصاص المفضل الذي أستخدمه عند كتابة كل ما هو جديد، دخلتُ عليّ سكرتيرتي مرةً أخرى لتخبرني بأن بعض الإرهابيين الفلسطينيين الذين قد اعتقلوا بسبب محاولتهم تنفيذ عملية إرهابية قد بدأوا في الإضراب عن الطعام، تركتُ الأوراق والقلم جانباً وزادت حيرتي، فهذا موضوعٌ آخر يصلح لأن يكون مقالاً، يمكنني تناول الأمر من زاوية مختلفة عن الآخرين عند تحليلي هذا الخبر، لكن من أي زاوية؟

وجدتها تسرع إليّ مرةً أخرى لتزيد حيرتي بخبرها الأخير بأن هناك مسيراتٍ تتجه إلى مبنى مجلس الوزراء للمطالبة باستقلالتهم، أعدتُ الأوراق والقلم للدرج مرةً أخرى، فلا داعي للعجلة، فأمامي يومان آخران على موعد تسليم المقال، علّني أكون قد تخلصتُ من سيطرة "مهاب" عليّ وعاد إليّ رشدي مرةً أخرى، لقد كان قراراً صائباً بعدم كتابة المقال الآن حيث وجدتُ "يوفال حزان" يخبرني هاتفياً بأن الموعد هذه الليلة في مكتبه في شارع "ديزنجوف" بجوار "مركز ديزنجوف" للتسوق في

تمام العاشرة ، تركتُ مكتبي وأنا في تمام الرضا عن تقاعسي في كتابة المقال .

تناولتُ الغداء مع "سارة" والأولاد في المنزل ، أخبرتها بأني لديّ موعد بالقرب من "مركز ديزنجوف للتسوق" مكانها المفضل ، فطلبتُ مني أن ترافقني إلى هناك ، على أن نذهب هي للتسوق وأعيدها للمنزل بعد أن أنهي موعدي ، دخلتُ لأستريح قليلاً بعد الغداء الدسم الذي أعدته "سارة" بينما هي قد انهمكتُ في كتابة قائمة مشترياتها الطويلة التي تريدها ، أيقظتني في الساعة الثامنة مساءً لنستعد لرحلتنا ، غادرنا منزلنا ودلفنا إلى السيارة لأجدها تضع ذاكرة مؤقتة في المقبس الخاص به في السيارة ، ثم رفعتُ صوت سماعات السيارة أكثر ليصل إلى أذني لحن الأغنية التي غناها "مهاب" من قبل ، نظرتُ لي وهي تبتسم:

- سمعتكُ ترددها كثيراً بالأمس .
- نعم.. لكن هناك فرقاً شاسعاً بين ما أسمع الآن وبين ما سمعته بالأمس.. ليتكُ تتناسين أمر المشتريات وتأتين معي لسماعه .
- هل أصابكُ البخل بسهمه ؟
- أعدكُ بأن تشتري ضعف ما كتبتيه في قائمتكُ..
- لا.. فهذه الأشياء مهمة جداً الآن بالنسبة لي .

أغلقتُ السماعات وبدأتُ في الغناء بنفسي محاولاً تذكر صوت "مهاب" ، بينما فتحتُ هي حقيبتها لتراجع قائمة مشترياتها ، لم يكن "مركز ديزنجوف التجاري" بعيداً عن منزلنا ، لم أكن قد أكملتُ غنائي حتى كنا قد وصلنا إلى "ميدان ديزنجوف" ، تركتُ سيارتي في پاركينج الذي اعتدتُ تركها به ، وترجّلنا ، ودعّتني أمام المتجر وانصرفتُ .

صعدتُ درجات السلم بخفةٍ ورشاقةٍ ، أكملتُ طريقي إلى مكتب "يوقال" ، وجدتُ باب المكتب مفتوحًا ، قابلتني السكرتيرة مبتسمةً ، وأشارت لي في صمتٍ للتقدم إلى حجرة ذات بابٍ صغيرٍ ، فتحتُ الباب لأجد "يوقال" جالسًا على جهاز الميكسر يُعد بعض المقطوعات ، ما أن رأني حتى أشار لي في صمتٍ للجلوس بجانبه .

جلستُ وقبل أن أعتدل في جلستي كان الباب الصغير للأستوديو الخاص بـ "يوقال" يفتح وتدخل منه "مور" وعلى وجهها نفس الابتسامة الزاهية وبصحبتها "مهاب"! أشار "يوقال" لها بالجلوس بينما أشار إلى "مهاب" بالدخول لغرفة التسجيل ، دخل "مهاب" غرفة التسجيل ومن ثم أشار له "يوقال" بأن يضع السماعات على أذنيه ، ضغط "يوقال" علي بعض الأزرار وأدار بعض المفاتيح ، بينما وضع سماعةً أخرى على أذنيه ، بدأ "مهاب" في التمايل مع النغم ، وبدأ في الغناء ، ابتسم "يوقال" وهو يُحرك قدميه مع الإيقاع ويتمايل مُطربًا ، بدأت الغيرة تنهش فيّ ، لقد حضرتُ لسماع "مهاب" وها أنا أجلس صامتًا وبجانبي "مور" ، أستمرّ "مهاب" في الغناء ما يُقارب من الخمسة والأربعين دقيقة ؛ ما بين توقف وانقطاع وإعادات ، يستمتع بها هذا الطماع الجشع المدعو "يوقال حزان" ، نظر "يوقال" نحوي وابتسم ثم خلع السماعات من على أذنيه وقال:

- لم تعطِ هذا الشاب حقه عندما وصفتُ صوته لي .
- هل أعجبك؟
- بكل تأكيد .
- هل سيشارك في المسابقة؟
- نعم.. وإن كانت النتيجة ستعتبر تحصيل حاصل .
- ماذا تقصد؟

- سوف أتبني هذا الشاب.. لكنه سيقدم في المسابقة توفيراً للدعاية.
- هل تعتقد أنه سيفوز؟
- رأي الجمهور هو الفيصل.. لكنني كخبيرٍ في الأمر أستطيع أن أؤكد لك أنه سينافس بقوةٍ حتى المراحل الأخيرة.
- رائع.. لكنك تعلم أنني حضرتُ إلى هنا فقط لسماعه.. لماذا حرمتني من هذه الفرصة؟
- كنتُ أحتاج إلى التركيز.

ابتسم ثم دعانا لمشروبٍ في غرفته الخاصة ، هناك تطرَّق الحديث للفن والسياسة وأمور كثيرة ، لكن "مهـاب" لم يتفوه ولو بكلمةٍ واحدةٍ! كعادته. إتصلتُ بـ"سارة" لتخبرني بأنها قد أنهت تسوقها ، استأذنتُ لأغادر ، فاصطحبني "يوقال" إلى الباب مودعًا ، وهناك أعطاني أسطوانةً مضغوطةً كمفاجأةٍ لي ، ربتَ على كتفي وابتسم قائلاً:

- هذه هي الأغنيات التي غناها "مهـاب" منذ قليلٍ.. تعرف دائماً أنني أحب أن أمازحك.

شكرته وانصرفتُ سعيداً بهذه المفاجأة ، وجدتُ "سارة" بالسيارة تنتظرني ، فهي معها نسخة أخرى لمفتاح سيارتي كما لدي نسخة من مفتاح سيارتها ، وضعتُ الأسطوانة في مكانها المعتاد وأدرتها وساد الصمت بيننا ، في طريق العودة أخبرتني أنها لا تريد الذهاب إلى المنزل الآن ، فأخذنا نجوب شوارع "تل أفيث" دون كلام ، فكلانا مفتونٌ بالاستماع لهذا المزمـار الذهبي.

"مهـاب" ..

## سفر (٢٠) "كوخفيه هاشير"

بدأت المسابقة وتحققت نبوءة "يوقال" بوصول "مهاب" إلى المرحلة الأخيرة ، وصل معه إلى هذه المرحلة شابةً إسرائيليةً وشاب ذو أصولٍ مصريةٍ ، دائماً ما احتلت هذه المسابقة مساحةً واسعةً على كل المواقع الإخبارية على شبكات الإنترنت ، وتصدرت صور الثلاثي الجرائد والمجلات على اختلاف أسمائها وتخصصاتها.

كان من أبرز ما قيل أن شاين عريين يحاصران فتاةً إسرائيليةً في المرحلة الأخيرة من المسابقة ، كانت علاقة الشاين مع الفتاة مجرد علاقة زماله مغلقة بالود ، وإن اتسمت بالمنافسة ، لكن علاقة "مهاب" بالشاب العربي الآخر "طارق" كان يشوبها البرود والتجاهل الواضح!

في آخر ليالي المرحلة النهائية ذهبتُ إلى المسرح وبصحبتي "سارة" والأولاد ، فاجأني حقاً عدد الحاضرين! كانت "سارة" وبالتبعية "يوسي" متحمسةً جداً للفتاة لمجرد أنها إشكينازية ، بالرغم من أنها كانت دائمة الاستماع لمهاف سواء في المنزل أو في السيارة ، لكنها العنصرية وليس

شيء سواها ، عند اقتراب إعلان النتيجة النهائية خيم الصمت بجناحيه على الموجودين ، بينما سيطر الوجوم على المتسابقين الثلاثة وكأنهم في انتظار الحكم بالإعدام في غرف الغاز ، ها هو ذا "يوقال حزان" يعتلي المسرح وفي يده ظرفٌ مغلَقٌ تمهيداً لإعلان النتيجة كانت خطوات "يوقال حزان" ثقيلةً ، كان كلما يخطو خطوة نشعر بها فوق صدورنا مخترقةً الحجاب الحاجز خاصة في القلب ، وبالفعل بعد أن تلاعب "يوقال" بأعصابنا وأعصاب الجميع ، وبأعصاب المتسابقين أكثر ؛ قال بغرابةٍ منقطعة النظير:

- لقب هذا العام ليس بإسرائيلي خالص.. فلتتنحى نجمتنا بنت صهيون جانباً.. فلقب هذا العام عربي الأصل.. إسرائيلي الجنسية.

دوّت صيحات الجماهير الموجودة صارخةً في الصالة ، تنحت الفتاة جانباً بعد أن احتضنت زميلها ، بينما لم تمالك "سارة" نفسها ، غطت عينيها بإحدى يديها ، واليد الأخرى انقبضت وانهالت على كتفي ضرباً ممزوجاً بدلالٍ محببٍ ، أما "يوسي" فقد دفن رأسه في حجر أمه تعبيراً عن حزنه وإعلاناً لتضامنه معها ، بينما جلس "موشيه" إلى جوارِي يُشاركني قلقي ، كانت جميع الأعين معلقةً على "يوقال" الذي لم يُرد أن يطيل عذابنا ، بدأ بفتح الظرف في تودة ثم قال بصوته المميز:

- اللقب ذهب لمن سيطر على أذان الجماهير.. إلى من حصد قلوب الجميع.. ونال أعلى نسبة تصويت في تاريخ البرنامج.. عذراً "طارق".. إنه "مهاب".

ضجّت الصالة بالصياح بينما قفزت كالأطفال فرحاً ، احتضنتني "سارة" مخبئة رأسها في صدري ، وقف "موشيه" مهللاً.. كلا.. بل صارخاً ، ومدّ يده ليصافح "يوسي" في غرورٍ مصطنع ، على المسرح كان الجو بارداً ، صافح "طارق" "مهاب" في برودٍ ملحوظٍ ، وتحنّى بجانب زميلته

بعد أن حيّا الجمهور ، "طارق" ولأول مرة تأخذه الحماسة ليتحدث مع الجمهور شاكرًا إياهم والدموع تخنقه ، لم تستطع "مور" التحكم في تصرفاتها فخرجت من الكواليس متشحةً بعلمنا ، واحتضنت ذراع "مهّاب" الخالي وقد ازدادت ابتسامتها زهًا ، ودموع الفرحه تنهمر من عينيها دون توقف.

\*\*\*

أثناء عودتنا إلى المنزل اتصل بي "يهودا" كبير معدي برنامجي وأحد أصدقائي المقربين ليقترح عليّ أن نستضيف الثلاثي في الحلقة القادمة ، نظرت إليّ "سارة" نظرةً لها معنى ، فقد كان هذا اقتراحها قبل الذهاب إلى الحفل ، بالطبع وافقتُ وبدأ فريق الإعداد في العمل .

كان خبر فوز "مهّاب" يُسيطر على كل وسائل الإعلام بلا استثناء ، لم ينافس أحدٌ في ذلك .

بالفعل كانت الحلقة رائعة لكنني لاحظتُ برود العلاقة بين الشابين ، لم أكن أنا الوحيد الذي أدرك ذلك ، فعلى جميع مواقع التواصل الاجتماعي كان النقاش محتدمًا بين جماهير الثلاثي ، البعض فسّر ذلك بالغيرة ، والبعض الآخر أرجع ذلك لتنافسهما على قلب الفتاة ، لكن لغز هذا البرود بالنسبة لي كعالم بيوطن الأمور ظل أمرًا محيرًا ، فأنا أعلم أن الثلاثة لم يخسروا ، فكلهم فازوا بسيارة ، ووقّعوا عقودًا مع شركات إنتاج مختلفة لإنتاج ألبوم وتصوير فيديو كليب ، إنه سرٌّ وسيتكشف لي ذات يومٍ ، أنا متأكدٌ من ذلك .

نقّذت شركات الإنتاج عقودها مع النجوم الثلاثة ، لكن "مهّاب" حقق أعلى مبيعات وحصلت أغانيه المصورة على مراكز متقدمة في نسبة المشاهدة ، لقد أصبح "مهّاب" نجم إسرائيل الشاب ، حاصد

الجوائز والألقاب ، والمسيطر الأوحده على ساحة الغناء في البلاد ، وتذاكر حفلاته هي البضاعة الرائجة عند متعهدي الحفلات مما دعا الكثير للمناداة بأن يُمثل إسرائيل في مسابقة الأغنية الأوروبية في نسختها القادمة ، يبدو أن فوز "مهاب" باللقب قد فتح شهية الشعب الأبوي.

لم تنقطع علاقتي بـ"مهاب" طوال رحلته الفنية ، كان كثيراً ما يلجأ لي عندما تطارده الشائعات التي تلاحق كل النجوم طالباً مني أن أدحض هذه الشائعات ، أحياناً بإذاعة تصريحات على لسانه أو بمداخلات هاتفية معه في برنامجي ، وأحياناً أخرى يطلب مني أن أستضيفه في البرنامج لتوضيح حقيقة هذه الشائعات ، توطدت العلاقة بيننا أكثر ، فأنا صديقه الوحيد الذي يثق به ، ذات يوم طلب مني طلباً غريباً حيث أرادني أن أقدمه في حفل لإحياء ذكرى حرب الستة أيام ، ولم أتردد في ذلك بالطبع.

بعد انتهاء الحفل وعند مغادرتنا المكان تجمّع الكثير من المعجبين حول "مهاب" ، بعد فترة من تبادل الابتسامات والتوقعات السريعة على الأوتوجرافات ، وانفضاضهم من حوله ، تقدمت نحوه إحدى مجندات جيش الدفاع ، كان وجهها يفيض نوراً بينما شعرها قد اختبأ تحت القبعة العسكرية ، كان قوامها ممشوقاً كأيل الوديان ، جذبته من يده واحتضنته ثم طبعت قبلةً حارةً على خده ، كان "مهاب" مشدوهاً ، مأخوذاً بجمالها واستسلم لكل ذلك مع أنه كان دائم الرفض لمثل هذا النوع من التعبير عن الإعجاب ، انتزعت قبعتها العسكرية لينسدل شعرها الحريري اللامع مهفهاً بانسيابية ساحرة ، وكأنها إحدى نجومات هوليوود الفاتنات ، لكنها نجمة هذه اللحظة ولن ينافسها أحد في ذلك ، ثم طلبت منه توقيعها عليها ، تناول "مهاب" القبعة في لهفة سربت إليّ

شعورًا مغلفًا بالقلق! مما أجبرني على أن أحملق فيما يحدث ، لم يكن توقيعه فحسب! لكنه كان قد كتب رقم هاتفه الخاص أيضًا!  
أثناء عودتنا صارحته بما رأيت ، قال لي إنه لا يدري لماذا فعل ذلك!

\*\*\*\*\*

انقطعتُ عني أخبار "مهاب" الشخصية فجأة! لكنني لم أنقطع عن متابعة أخباره الفنية ونجاحاته مثلي كممثل كل إسرائيلي ، إلى أن اتصلتُ بي "مور" ذات يوم لتخبرني بما أنني الصديق الوحيد لـ"مهاب" فعلى عاتقي إنجاز مهمة أكثر من شاقة ، وهي إقناعه بتمثيل إسرائيل في مسابقة الأغنية الأوروبية (Eurovision Song Contest) ، تعجبتُ من هذا الطلب ، فكيف لـ"مهاب" أن يرفض هذا الشرف الذي يُمنح إليه من بلدٍ قد صنع منه نجمًا لامعًا وأعطاه الشهرة والمال بلا عدد!

وبالفعل قد كان ، تحدثنا عبر الهاتف ، وتواعدنا على أن نلتقي في مقهى صغير هادئ اعتدنا الجلوس به ، كنتُ أريد أن يكون اللقاء بعيدًا عن "مور" فلعلّه يريد أن يبوح لي بشيء لا يستطيع قوله لخالته.

عندما وصلتُ إلى هناك كان جالسًا في انتظاري مهمومًا قلقلًا ، تبادلنا أطراف الحديث ، أخبرني عن حبه الجديد ، كانت المجندة التي كتب لها رقم هاتفه على قبعته العسكرية ، كيف تعلق بها ، وكيف سيطرتُ على كيانه ، لقد استطاعتُ هذه الفتاة التي لم يُرد أن يخبرني باسمها أن تربطه بهذه الأرض بعد أن كان لا يشعر بانتماؤه إليها.

بعد أن أنهى كلامه عن حبه وفتاته ؛ واجهتهُ بأن هذه البلاد شرّفته بتمثيلها في مسابقة الأغنية الأوروبية فعلام الرفض ، تحدثتُ معي وأعطاني حججًا أراها واهيةً ، كأنه لا يستطيع أن يترك خالته بمفردها

خاصة بعد اعتلال صحتها قليلاً ، أو لأنه لا يستطيع أن يتحمل مرارة فراق محبوبته ، أو أنه لا يجد في نفسه القدرة على تحمل هذه المسؤولية .  
كانت كل حجة من هذا النوع ، لكنني لم أقتنع بالطبع ، كنتُ أشعر بأن هناك سرّاً يُخفيه عني ، ولكن كعادتي لم أحاول أن أعرف هذا السر ، ففي كل مرة تنكشف أمامي الحقائق التي حاول أصحابها أن يخفوها لسنوات .

## سُفْر (٢١)

### "تَطُورَات"

كنتُ جالسًا في مكثبي أفكر في طريقةٍ أخرى لإقناع "مهاب" للاشتراك في المسابقة ، ودون شكٍ اعتبرتُ هذا العمل عملاً وطنياً في المقام الأول ، فكرتُ كثيراً دون جدوى ، فالسرُّ الذي يُخفيه عني هو المفتاح لهذا اللغز ، شعرتُ بحرارةٍ تدبُّ في أوصالي رغم برودة الطقس ، فطلبتُ من سكرتيرتي إحضار مشروبٍ باردٍ لكنها لم تجبني ، تذكرتُ أنها في ساعة الغداء وأنني بمفردي في المكتب ، توجهتُ حيث الثلاجة لأحضر المشروب بنفسي ، عند مروري بصالة المكتب استوقفني صوتُ نحاسي رنان أعرفه جيداً ، نعم هي الإشكينازية المتعجرفة مرةً أخرى! ما الذي تُخفيه في جرابك اليوم؟ ألن تخطئي ذات يوم وتُسمعيني خبراً مُفرحاً؟ متى يأتي ذلك اليوم؟ شعرتُ وكأنها تحقق فيَّ بتحدٍّ من خلال الشاشة وكأنها تُخبرني بأنني لن أصل إلى مرادي أبداً ، رفعتُ صوتها الحاد وقالت بلهجتها المعهودة:

- تعرَّض اللاعب الدولي الشهير "ليفي أبو طبول" لإطلاق نار مكثف على سيارته أثناء عودته إلى منزله.. الجدير بالذكر أن أبا اللاعب

"مأثير أبو طبول" قد تعرّض لإطلاق نار مماثل منذ حوالي شهر تقريبًا.. كانت شرطة "نتانيا" قد تولت التحقيق في الحادث ولكنها لم تتوصل لشيء بعد.. لكن "ليشي" قد ذكر في التحقيقات أن إطلاق النار عليه له علاقة وطيدة بحادث إطلاق النيران على أخيه من قبل.. معنا على الهاتف الآن آدون "شموئيل عزرا" الخبير الأمني.. مرحبًا آدون "عزرا".

- مرحبًا بك.
- ما تعليقكم على الأحداث وعدم وصول تحقيقات الشرطة لشيء ؟
- في الواقع عندما سمعتُ خبر إطلاق النيران على "مأثير" توقعتُ بأن الشرطة لن تصل إلى شيء.
- لماذا آدون "شموئيل" ؟
- هناك تاريخٌ قديمٌ وإرثٌ دامٍ بين عائلات "أبو طبول" وبين المافيا الروسية.
- ما هي توقعاتكم ؟
- لا شيء إلا الكثير من الدماء.. ما لم ينجحوا فيه هذه المرة أعتقد أنهم سينجحوا فيه المرة القادمة إلا إذا تدخلت بينهم أجهزة أمن سيادية.
- وما قيمة الشرطة إذن ؟
- في هذه المواقف تقف الشرطة مكتوفة الأيدي.
- ما الأسباب التي تجعل الشرطة تقف مكتوفة الأيدي رغم إمكانياتها غير المحدودة وجاهزية أفرادها ؟
- هذه أسبابٌ غير معروفة وإن عُرفت لا يمكن الإعلان عنها.
- كلنا يعلم ذلك فمشاكل المافيا وعائلات أبو طبول مستمرة منذ عقود.. نشكر آدون "شموئيل عزرا" الخبير الأمني..

يا لك من فاشلة مثلك كمثل الشرطة ، تبًا لك ولهذا الخبير الفاشل ،  
الذي لا يصلح أن يشوي البطاطا في الشوارع العربية ، هل من مزيد ؟  
حقًا فأنتِ جديرة بالثناء ، واستكملتِ تقريرها:

- حاول بعض الفلسطينيين اقتحام السجن تضامنًا مع الأسرى  
المضربين عن الطعام منذ ما يقرب من الشهر.. الجدير بالذكر  
أنهم لا يتناولون سوى الماء والملح للحفاظ على الوظائف الحيوية  
لأجسادهم.. وقد تعاملت الشرطة مع الوضع بكل حزم وقوة مما  
أدى إلى سقوط بعض الخسائر من الجانب الفلسطيني.. لكن من  
المحزن أن بعض رجال الشرطة قد تعرضوا للاحتراق نتيجة لقتائف  
الملوتوف الملقاة من جانب بعض المتظاهرين.. وقد تزايدت أعداد  
المتظاهرين من المواطنين العرب في كل أرجاء المملكة تنديدًا  
للمعاملة السيئة.. وغير الآدمية للأسرى.. على حد وصفهم .

بات من الواضح أن رجال شرطتنا لا يستطيعون الوقوف إلا في  
مواجهة هؤلاء العرب ، لماذا لم تقارني بين موقفهم المشرف مع العرب  
وموقفهم المخزي في خبرك السابق ، هل من مزيد أيتها الباعثة على  
الأسى ؟

- تصاعدت الأحداث أمام مبنى رئاسة الوزراء وتحولت المسيرات إلى  
مظاهرات عارمة يقودها بعض رموز المعارضة الإسرائيلية والعربية..  
ونادى المتظاهرون بضرورة استقالة الحكومة التي نعتوها بالفاشلة..  
كما طالبوا أيضًا بحل الكنيست الحالي والتبكير بانتخابات برلمانية  
جديدة..

ارتفعت حرارتي بعد سماع هذه الأخبار ، فأغلقتُ التلفاز وذهبتُ  
إلى الثلاجة لأتناول مشروبًا باردًا علَّه ينسيني هذه الأخبار ، ثم عدتُ  
إلى مكتبي شارداً الذهن غارقاً في التفكير مجدداً في أي طريقة قد تصلح  
لإقناع "مهباب".



## سفر (٢٢) "الأسير"

كان التفكير في إيجاد طريقة لإقناع "مهّاب" قد أجهدي ، وللأسف لم يهدني تفكيري لطريقة مناسبة ، عدتُ إلى المنزل خالي الوفاض. أخذتُ أنزع ثيابي في غرفة التلفاز ، لم أطق صبراً حتى أبدل ثياب ، أسرعْتُ بفتح التلفاز لأتابع كعادتي الأخبار الأخيرة وما يدور في البلاد ، تبّاً.. لا.. بل سحقاً.. طلتُ هي.. نفس الطلة! نفس الحاجبين المعقوفين.. وهذا أكبر دليل على أنها ستهل علينا بالأخبار السيئة كعادتها التي لا تكلُّ ولا تملُّ منها.. فتحتُ فهمها وقالت ولكنها الإشكنازية التي بسببها كرهتُ كل الإشكنازيين:

- الأسير المضرب عن الطعام "جهاد دعاجنة" من قطاع غزة يُنهي عامه العشرين في السجون وهو أكبر الأسرى حيث حُكم عليه بالسجن مدى الحياة.. الآن في حالة خطيرة واستدعت السلطات المحامية "ميخال موشيه" بشكلٍ عاجلٍ ومفاجئ.. حيث أبلغه الأطباء أنه يواجه خللاً في عمل القلب حيث وصل ليومه المائتين والثمانين دون تناول شيء إلا الملح والماء..

- وعلى صعيدٍ آخر خرجت المظاهرات المباشرة تنديدًا بأداء الحكومة لها وصلت إليه حالة الأسير الصحية.. مطالبين جمعيات حقوق الإنسان بالضغط على الحكومة.. وقادت هذه المظاهرات حركة "الأمهات الأربع"<sup>(٢٧)</sup>.. كما شاركت في هذه المظاهرات الحركة الإسلامية بالداخل.. ومن ناحيةٍ أخرى انطلقت صافرات الإنذار من جديدٍ في "تل أفيث" فقد فاجأت الحركة الإرهابية الفلسطينية الغاشمة وقصفت مدينة "تل أفيث" وأسقطت طائرة استطلاع فوق قطاع "غزة" الذي لم يتطهر منهم بعد.. وأسفر القصف عن سقوط عشرين شهيدًا من أبناء شعبنا الأبوي.. وأكثر من مائتين وستة وثمانين جريحًا.. من بينهم مائة وسبعون طفلًا في مراحل مختلفة من العمر.. بعد قليلٍ نوافيكم بالتفاصيل..

أي تفاصيل أيتها المعتوهة هناك أسوأ من ذلك ممكن أن تفصّليه؟! يا إلهي ماذا حدث؟ بعد تطهير القطاع وإنشاء مستوطنات هناك.. تظهر أشباحٌ مسلحةٌ لتقصف "تل أفيث" وكأن القطاع لا يزال صامدًا مقاومًا لنا بكل قوته الإرهابية! يجب أن أذهب إلى "جهاد" في الصباح لكي أقنعه بالتوقف عن محاولته للانتحار، فهو في حالة يرثى لها، لقد حاولت معه مرةً من قبل ولكن دون جدوى، علني أنجح هذه المرة. في الصباح توجهتُ إلى السجن حيث يقبع "جهاد" خلف جدرانه، كانت التصاريح قد أُعدت مسبقًا بعد اتصالي بـ"أساف" ليلة أمس، قادني أحد حراس السجن إلى مستشفى السجن حيث وجدتُ "جهاد" ممددًا فوق سريره، منهك القوى ولا يقوى على الكلام، لكنه يسمعي جيدًا، حاولتُ كثيرًا معه ولكنه رفض بكل الطرق التي يستطيع التعبير بها، إنه العناد العربي الموروث من الأجداد، أواه! لقد خلُق العناد فلسطينيًا.

التحق "جهاد" بنادي "رفح" الرياضي ليلعب في فريق الأشبال عندما بلغ من العمر ثماني سنوات ، فهو سليل عائلة رياضية ، ومنذ سن مبكرة ظهر حبه لكرة القدم وشغفه بممارستها ، ولموهبته اختير للعب في صفوف المنتخب الفلسطيني لكرة القدم وهو لم يبلغ السادسة عشرة بعد ، كان أصغر وأمهر اللاعبين .

اعتُقلَ عندما حاول التسلل عبر حاجز إيريز العسكري ، ادَّعى أنه كان في طريقه للالتحاق بنادي "هلال القدس" .

هذا النادي العربي الشهير الذي ذاع صيته وحظي بألقاب كثيرة ، أشهرها هو الأسود ، والقلعة ، ونادي العاصمة ، تميز هذا النادي بتعدد الأنشطة ، منها كرة القدم ، ويُعد من أعرق الأندية الفلسطينية حيث تأسس عام (١٩٧٢م) في أورشلیم .

قال لي "جهاد" في بداية اعتقاله إنه قد حصل على تصريح مرور بالفعل من السلطات الإسرائيلية لدخول الضفة ، ولكن استمرت فترة حبسه لذلك لجأ إلى الإضراب عن الطعام .

اقترب "جهاد" من شهره العاشر بعد أن بدأ إضرابه المفتوح عن الطعام ، حيث يُعد "جهاد" الآن صاحب أطول إضراب عن الطعام في التاريخ! وقد سبقه في ذلك "سامر العيساوي" و"أيمن الشراونة" و"خضر عدنان" و"تائر حلاحلة" ، لكنه تخطى الجميع .

وتضامناً معه لتردّي وضعه الصحي امتنع ألفان وخمسمائة أسير فلسطيني عن تناول وجبات الطعام ، حيث أطلقوا على هذه الخطوة "معركة الأمعاء الخاوية الكبرى" للضغط على سياسة السجن ، وامتناعهم عن تناول الطعام والشراب عدا الماء والملح لتتحقق مطالبهم التي طبق من أجلها الإضراب ، ويُعد هذا الإضراب الأضخم من نوعه في سجوننا منذ العام (٢٠١٢) نيسان / إبريل ، وكذلك إضراب السجناء

الأردنيين في العام (٢٠١٣) حيث قاموا بتطبيق الإضراب والامتناع عن تناول الجلوكوز ثم تطبيق مرحلة الإضراب الأيرلندي.

تردد في ذهني قول "جهاد":

- غداؤنا العزة والكرامة والحربة ..

وأنا أقول دائماً:

- حقاً وُلِدَ العناد فلسطينياً ..

تذكرتُ عندما رأيتُ "جهاد" وهو ممدد على فراشه لا يقوى على الحراك - لقاءنا الأول- عندما ذهبتُ إلى السجن لأعرف مطالب المضرين ولكي أطمئن على صحته ، حقيقة إنني أحترمه منذ اللقاء الأول ، فلقد كان شخصاً مفعماً بالحياة والنشاط ، لكنه كان مُضرباً عن الطعام لعدم سماح إدارة السجن له بممارسة لعبته المفضلة (كرة القدم) ، تعجبتُ كثيراً لأمره ، يُضرب أكثر من خمسين يوماً عن الطعام من أجل عدم السماح له بلعب الكرة! ولكنني عندما علمتُ أن إدارة السجن تتخذ معه هذا الإجراء التعسفي من أجل إحباط وإماتة آخر شيء يمنحه الصبر على هذا السجن ، فقرر أن يُعطينا درساً في عدم الاستسلام والرضوخ ، فقرر الإضراب عن الطعام ، ومع أنه مُضربٌ لأكثر من خمسين يوماً وقتئذ ؛ إلا أنه كان نشيطاً ومتحدياً لسجانه فأجبرني على احترامه وحكم عليّ بالتعاطف معه لا أدري لم! نظر إليّ مبتسماً وقال:

- إن إرادة الإنسان فوق إرادة السجن ..

ولكن عندما رأيتُه هذه المرة كان شخصاً آخر ، مختلفاً كل الاختلاف ، شارد الذهن عن كل من حوله ، وجسمه نحيف للغاية ، وعينيه لا تستقران في مكانٍ واحدٍ ولو للحظة ، كانت لحيته الطويلة

الكثة تدل على تمسكه بمطالبه ، ولكنه بدا لي كشبح "جهاد دعاجنة" أو أنه شخصٌ آخر لا أعرفه!

إلى هذا الحد قد استسلم "جهاد" إلى سجانَه؟ أم أنه يُمعن في تلقينهم الدرس ، بعد أكثر من مائتين وثمانين يوماً من الإضراب ، اقتربتُ منه بهدوء وجلستُ إلى جواره ، نظر إليّ في وهنٍ وقال بصوتٍ واهنٍ ونبرةٍ حزينةٍ وعيناه مليئتان بالدموع:

- أجنّت لكي تكتب عني أن السجان قد قهر الإنسان؟  
فأجبته إجابةً قاطعةً:

- لا.. بل جنّت لكي أوصل صوتك المحبوس لكل أرجاء العالم..  
نظر لي وقال:

- إن أحبال صوتي قد قُطعت بموت ابنة أختي بثلاث رصاصات في القلب..

قالها والدموع تنهمرُ من عينيه بغزارةٍ ووجهه جامد منصوب كالحجر ، حنيتُ رأسي ناظرًا إلى الأرض خشية أن تلتقي عيني بعينه ، وعلى حين غرة دقت أجراس الإنذار بالسجن ، أسرعْتُ مهرولاً لأعرف ماذا حدث ليصدمني أحد الضباط وهو يهرول وينظر لي من وراء ظهره قائلاً:

- عليّ أن أنصرف فورًا لإخبارهم بمعلومات أن السجن به إحدى القنابل..

قالها الضابط لي بكلّ حزنٍ وأسفٍ ، أتى ضابطٌ آخر مسرعًا محاولاً حمايتي وهو يُخرجني بأقصى سرعةٍ من السجن خوفًا من حدوث أي مكروه لي فتصبح كارثة أخرى ، قال لي:

- آدون "يائير" خالص تعازينا.. لقد قُتل "ليفي أبو طبول"..

قالها بحزنٍ عارمٍ ، بينما غرقتُ في حالة من الذهول لسماع خبر مقتل "ليفي"!



## سفر (٢٣) "بنت صهيون"

المرأة الحديدية.. بنت صهيون الوفية.. المرأة الخارقة.. امرأة الأمازون..

ازدحمت شاشات العرض في برنامجي بما تداولته الصحف الإسرائيلية في الفترة الأخيرة عن خبر هذه الأم الشجاعة.. التي زادت عن أسرتها بكل ما أوتيت من قوة.. كانت عناوين الصحف مختلفة ولكن كان العامل المشترك كلمة الأم.. الأم التي تحوّلت إلى مقاتل.. وإلى آخره من التعبيرات التي قد فاقت الوصف.. وعجزت التعبيرات عن وصفها.. تعدّدت هذه النوعية من الحوادث مؤخراً، إرهابي فلسطيني يتسلل داخل البلاد، ثم وبمنتهى الوحشية وكأنه تجرّد من كل ما يمتُّ للآدمية بصلّة، يقتحم منزل أحد المواطنين ليروع كل من فيه وينهي حياتهم جميعاً دون رحمة أو شفقة، حدث هذا عام (٢٠١٢) حيث تعدّى أحد الإرهابيين الفلسطينيين على منزل الأم الذي لم يكن به رجل يزود عنه حيث كان بالصدفة في إحدى وريديات عمله الليلية، تداولت جميع الصحف كيف تحوّلت الأم إلى مقاتل لتدافع عن أطفالها

في وجه الموت المثلث أمام الاقتحام الإجرامي للمنزل لقتل نساء وأطفال إسرائيل ، الذين هم دائماً ضحايا شر الإرهاب ومجازره ، فاتني لقاء تلك البطلة ولكن ها هي ذي الفرصة تعود من جديد ، فقررت الأيفوتني هذا اللقاء مع الأم الجديدة التي دافعت عن بيتها وأسرته ببسالة .

كانت تجلس أمامي وتزين ملامحها شموخ المرأة الإسرائيلية ، القوية ، الباسلة ، أعلى النساء جميعاً ، هي بنت صهيون ، كان التصفيق حاراً في قاعة البرنامج ، ظل التصفيق الحار مستمراً طوال دقيقتين كاملتين ، وكاد يمتد متخطياً الدقيقة الثالثة ، ونحن على الهواء مباشرةً ، كادت الدموع أن تنهمر من عيني فخراً ، نعم أنا فخورة بها ، وعلى الجميع أن يفخروا بها ، كل يهودي ، كل من يحمل الجنسية الإسرائيلية ، كل من يحمل الهوية الزرقاء عليه أن يفخر ، فهي إحدى نساء إسرائيل ، ونساؤنا فخرٌ لنا جميعاً ، بادرتُ بالقول :

- نعم صدق من قال "الشر لا يعرف حُرْمات البيوت .." اقتحم المجرم عربنها في ساعات الفجر الأولى .. بيت لم يكن فيه رجل ، رب العائلة كان في عمله ، بينما عائلته المؤلفة من زوجته وأربعة أطفال يرقدون بسلام .. على أمل يوم جديد .. يرسم لهم نموذجاً لمستقبل يتوقون إلى عيشه بأمان .. الإرهاب حاول أن يقضي على هذا الأمل في محاولة سافرةٍ منه لقتلهم .. إلا أن هذا المخطط أحبطته شجاعة أم .. بطلةٌ عشقت الحياة وقررت منحها لأبنائها مهما كان الثمن باهظاً .. دخل هذا الإرهابي البيت مزوداً بسكينٍ وقضيبٍ حديدي وقبلهما قسوة قلب لا يعرف الإنسانية .. قصد غرفة النوم .. حيث تنام هي وأولادها الأربع .. دخل محاولاً قطف ورود إسرائيل الندية .. حاول قتلهم في مشهدٍ يعيد لأذهاننا التاريخ الدامي .. فما أشبه "إيتمار"<sup>(٢٨)</sup> بالبارحة .. امتلأت شاشات العرض ببعض صور مجزرة "إيتمار" الوحشية ، الصورة الأولى لطفلٍ طريح الأرض غارقٍ في دمائه ، وصورة أخرى لفتى

آخر طريق الفراش ملطخ بالدماء في غرفته ، ومشهد مروع للأب القليل وإلى جواره طفله الرضيع البالغ من العمر شهرًا واحدًا فقط .

ضحجَّ الأستوديو بشهقات الألم وصرغات فزع الحاضرين ، والموسيقى الحزينة تصدح في كل الأنحاء .

تمالكتُ نفسي وأخذتُ أكملُ تقريرِي :

- راح ضحية مجزرة "إيتمار" خمسة شهداء من عائلة يهودية فالضحايا ليسوا بجنود إنما أب وأم وثلاثة أطفال كبيرهم ابن الأحد عشر عامًا وصغيرهم ابن الشهر الواحد. ورغم فظاعة الصور التي تشاهدونها الآن.. تبقى الصور أكثر إنباء من الكلمات، لترسم الوحشية والإجرام، ولتشهد على الجبن الذي يستقوي على الأطفال والأبرياء... تفضلي سيدتي يمكنك الحديث بالتفصيل..

تنهدتُ وهي تنظر أرضًا ، ثم رفعتُ رأسها وقالت :

- كنتُ نائمةً في غرفتي عندما سمعتُ جلبةً خفيةً خارج الغرفة.. هممتُ بالخروج لأستطلع الأمر علَّ أحد أطفالِي يحتاج إلى العون.. لكنني لم أستطع أن أخرج من الغرفة.. ما إن فتحت الباب حتى وجدتُ عينين تبرقان من خلال لثامٍ.. وضع يده على فمي في سرعةٍ خاطفةٍ وقادني إلى داخل الغرفة.. دفعني على السرير.. كانت المفاجأة قد أوقفت عقلي عن التفكير.. سألته ماذا تريد؟ مألًا؟ طعامًا؟ حينها بدأ يتمتم بشفتيه من خلف اللثام الذي كان يُخفي به وجهه بكلماتٍ من قرآنهم لن أستطيع ما حييت أبدًا أن أنساها "إن ينصركم الله فلا غالب لكم" قالها أكثر من مرةٍ بسرعةٍ لا تستطيع أن تصدقها.. ثم علا صوته في المرة الأخيرة وهو ينقض عليّ.. أدركت مراده على الفور "إيتمار" ..

- "إيتمار"!

- نعم "إيتمار" أخرى.. ارتعدت فرائصي لتذكري "إيتمار" وما حدث بها من قتلٍ لأسرةٍ مسالمة.. تحولت عيناى إلى حجرة أطفالى.. إنه يريد أطفالى.. يريد قتلهم.. وقتلى أنا أيضًا..

- ماذا فعلتِ عندما أدركتِ مبتغاه؟

كشرتُ عن أنيابها قائلة:

- قاومته بكل ما أوتيتُ من قوةٍ.. فسدد بعض الطعنات التي طاشت منه فمزقت ملاءة سريري لكنه حينها تمكن من ذراعى.. ضمهما أمامي وقام بربطهما بقطعةٍ من ملاءة السرير التي تناثرت إلى قطعٍ أصغر بسبب طعنات خنجره الطائشة ثم فعل نفس الشيء في ساقى بعدها أغلق فمى..

- هل تسلل اليأس إلى قلبك وقتئذ؟

- نعم.. وقتها كنت راکعةً على الأرض بين قدميه.. وأصبحت مهمته أسهل.. فهو سيبحث عن أطفالى.. حاولت إعاقته بإلقاء جسدي عليه حتى أمنعه من الذهاب إليهم.. لكن هيهات..

- لم تستطيعي الصراخ لطلب المساعدة.. ولن يمكنك منعه من أن يفعل ما يريد.. سيكون هذا ربما أمام عينيك.. يا لها من لحظاتٍ لا أتمنى لأحدٍ أن يمرَّ بها..

- نعم.. فكرتُ بطريقةٍ أنبه بها أطفالى..

- وما هي؟

- أوقعت أبا جورة الغرفة لتحدث بعض الضوضاء فالساعة وقتئذ كانت الواحدة بعد منتصف الليل.. دعوت الرب أن يستيقظوا عليهم يأخذون حذرهم ويتمكنون من الفرار.. نظر إليّ غاضبًا وأخرج قضيبًا حديدًا من بين طيات ملابسه وضربني على رأسي حتى غبتُ عن الوعي وعن صغاري..

- أردتِ تحذير أطفالك فحرمك حتى من رؤيتهم..



هزت رأسها وقالت آسفةً:

- كنتُ حمقاء عندما حاولتُ ذلك.. كان عليّ أن أفيق من هذه الغيبوبة حتى أنقذ أطفالي.. هكذا كان لسان حالي وأنا غائبة عن الوعي.. نعم عليّ أن أنقذ أطفالي فهم أبرياء.. لا ذنب لهم حتى يموتوا..

- لكنك ذكرتِ في الصحف أن غيبوبتك لم تطل..

- نعم.. عندما عُدت إلى الوعي أول شيء شعرتُ به طعم الدم وهو يملأ فمي.. فتحت عيني بصعوبةٍ بالغةٍ ولكنني لم أستطع فالدماغ تغطي كل وجهي وتغمر الرابطة التي على فمي.. لكن حركة أطفالي من حولي هي التي جعلتني أصر على فتح عيني.. نظرتُ إليهم فوجدتهم مقيدين مثلي وعيونهم تذرف دموعًا تستغيثُ بي.. نظرتُ إليهم محاولةً أن أتفحصهم.. هل بهم شيء؟ هل هم جرحى مثلي؟ أدركت أنهم بخير.. ولكن لِمَ كل هذه الدماء التي تلطخهم؟ هل أصابهم هذا الإرهابي بسوء مثلما أصابني؟ تفحصتهم بعيني جيدًا مرةً أخرى.. لا لم يُصّبهم بسوء.. بل وجدتني أنا من أغرقتهم بدمي.. فالدماء السائلة على الأرض من أثر جرحي قد لطختهم.. حمدتُ الرب على ذلك.. لا يستطيع أحدٌ أن يقدر مشاعر الأم عندما يراودها إحساسٌ بفقدان أغلى ما لديها.. إنه إحساسٌ أشبه بالشريد المنبوذ من الحياة.. المطرود من رحمة الرب.

- ولكن الرب لم يطردكِ من رحمته..

- لا.. بل كان إلى جواربي في هذه الأوقات العصبية.. لكن أين اختفى الراغب في سرقة أرواحنا؟ أين هو؟ رددت هذا السؤال داخلي أكثر من مرة.. سمعت صوتًا قادمًا من المطبخ.. لكن ماذا يفعل؟ كانت صرخات أطفالي المكتومة تجعلني في حالة هياجٍ رغم ما أصابني من إعياء..

سألتها متعجبًا:



- ماذا كان يفعل في المطبخ؟
- لا أدري.. لكنه عاد وهو في حالة غضبٍ شديدٍ.. كنا متراصين إلى جوار بعضنا البعض ننتظر الموت.. صرخ فينا "أين خنجري؟ أين خنجري؟" أمسكني من شعري ورطم رأسي بحائط الغرفة وأعاد سؤاله مرة ثانية..
- كيف لك أن تجيبي وأنت مغلقة الفم؟
- ركلني بقدمه في بطني أكثر من مرة.. تمددت على الأرض مرة ثانيةً أما هو فخرج ليدمر باقي محتويات المنزل وهو يُردد لاهئاً "سوف أقتلكم يا أحفاد القردة والخنازير"..
- بطرف عيني لمحت ردود أفعال الجمهور المختلفة عبر الشاشات ، الدموع قد تجرّت في أعين البعض ، بينما انخرط البعض في البكاء ، البعض الآخر قد وضعوا أيديهم على أفواههم الفاغرة مانعين شهقات الأسي.
- كان هذا اختباراً إلهياً.. خصّني به كي أخوضه وحدي.. لقد كانت تجربةً مريرةً بالفعل.. لكي أتعرف على حقيقة هؤلاء الإرهابيين الذين يقتلون الأبرياء العزّل.. تجربة تجعلني على قناعةٍ تامةٍ بأنهم يستحقون ما يفعله بهم جيشنا العظيم.. تجربة جعلتني أعيد النظر فيما فعلته أثناء خدمتي في جيش الدفاع.. عندما تركت خدمتي واعترضت على القسوة التي أظهرناها في حق بعض الفلسطينيين حين كنا نخلي بعض المنازل في أورشليم لبناء مستوطنةٍ لأبنائنا..
- عن أي قسوةٍ تتحدثين؟
- كنا نضربهم ببعض الهراوات البلاستيكية.. أطلقنا عليهم بعض الكلاب لإخافتهم.. اعترضت على هذا وتركت الخدمة.. حقاً كان قلبي بريئاً لا يعرف مدى همجيتهم.. لكنني الآن عرفتُ أن جيشنا لم

يستخدم معهم القسوة الكافية كما ظننت.. بل كان عليه استخدام القوة التي يجب أن تكون..

- أتعاطفت معهم يوماً؟

- كنتُ ساذجة..

تنهدتُ لحظةً ثم ابتسمتُ قائلاً:

- هلا أكملتِ لنا..

- شيء ما لمع أمام عيني.. دققت النظر فوجدته خنجره ملقى تحت سريري ملطخاً بدمائي السائلة التي ملأت غرفة نومي.. هو الأمل وطوق النجاة الذي بعثه الرب لي.. كي أنقذ صغاري.. على الفور بدأت أحبو إلى الخنجر.. لم تكن المسافة بعيدة بيني وبين الخنجر.. كانت أقل من ثلاثة أمتار تقريباً.. لكن الدماء السائلة على الأرض كانت تُعيقني.. سمعت صوت شيء يصب على أرضية المنزل الخشبية والتي يمكنك أن تسمع أي شيء يُلقى عليها.. أمعنت التركيز مرةً أخرى في هذا الخنجر فهو الأمل الوحيد لفك قيدي.. حاولت مرةً تلو الأخرى.. الوقت كان يدهمنا.. ولكن سرعان ما أن منحني الرب فرصة كي أنقذ صغاري.. فقد أزيحت كمامة فمي أثناء حبوي نحو الخنجر..

- لقد ابتسم الرب لكِ..

- لم تكن ابتسامة.. بل كانت قبلة الحياة.. تخلصت من قيودي وحصلت على خنجره.. لكن ماذا عليّ أن أفعل؟ فكابوسي الآن في الطابق السفلي.. لا أعرف ماذا يفعل ولا أعرف ماذا أفعل أنا.. هل أصرخ حتى يسمعنا أحدٌ ويوقفنا من هذا الكابوس؟ أم أتربص له وأنه يبيدي عذابنا؟ فككت قيود الصغار وطلبت منهم التزام الهدوء.. أحضرت صاعقي الكهربائي أخفيت به بعد أن ضبطته على الحد الأقصى.. وضعت الخنجر أمامي وتمددت على الأرض مرةً أخرى.. عاد إلى الحجرة مرةً ثانيةً وفي يده وعاء تفوح منه رائحة وقود السيارات.. وصل إلى أذني همهمته وهو يقول "ذبحهم أفضل من حرقهم".. انحنى

ليلتقط الخنجر فهجمت عليه بالصاعق الكهربائي .. طرحته الصدمة  
الكهربائية أرضاً لا يقوى على الحراك .. هجمت عليه وبمساعدة ابني  
الأكبر قيدناه جيداً بينما أجهشنا كلنا في البكاء .. اتصلت بالشرطة  
التي وصلت فوراً لتحمله حيث يجب أن يكون هو ومن على شاكلته ..  
تهددت من أعماق أعماقي وبكل فخر ابتسمت ، ثم توجهت إلى  
الجمهور قائلاً:

- هذه هي المرأة الإسرائيلية الشجاعة كما يجب أن تكون .. نتمنى أن  
تصبح كل نساء إسرائيل على هذا القدر من الشجاعة .. وأن يتخذن  
من هذا المثال الحيّ قدوةً ومثلاً أعلى في الدفاع عن النفس ..  
والبيت .. والأبناء ..

ثم عاودت النظر إليها بنفس الابتسامة:

- نشكركِ شكراً جزيلاً يا ابنة صهيون الأبية ..

دوى صدى التصفيق الحار في جنبات الأستوديو ، نهضت ومعني  
نهضت كل الجماهير تحيةً لبسالتها وإصرارها وفدائيتها .

بينما انهمرت هي في حالة من البكاء المؤثر .....

مددت يدي لها مصافحاً ، وقفت لتصافحني فاحتفظت بيدها بين  
يدي وأنهيته الحلقة قائلاً:

- تمكنت من مواجهة إرهابي وأثبتت شجاعة لا يعرفها الإرهابيون  
الفلسطينيون الذين لا يجروون إلا على قتل الأطفال والنساء مقابل  
حفنة من الأموال تدفعها لهم دولّ شعارها الإرهاب .. تصبحين على  
خير يا إسرائيل .

## سفر (٢٤) "مَنْ أَجَلِكَ لِيَقِي"

سيطر مقتل "ليقي أبو طبول" على المجتمع الإسرائيلي بصفة عامة ، وعلى الوسط الرياضي بصفة خاصة ، فتح الغموض الذي يكتنف هذه القضية شهية الجميع للتكهن بأسباب هذا الحادث المفجع ، لكن كيف حال الفريق الوطني الآن ؟ لقد اقترب موعد مباراة العودة مع "هولندا" والتي إن لم نفز بها لخرج فريقنا من التصفيات ولحق بنا العار ، ترى ما الذي ستقوله عنا الدول العربية في إعلامها ؟ سيقولون إن فوزنا بكأس العالم الأخير بمحض الصدفة ، أو بالرشاوى التي أغدقنا في دفعها للحكام ولاعبى بعض الفرق ! سيتحتم علينا الانتظار أربع سنوات أخرى لنثبت للجميع أحقيتنا بالاحتفاظ بالكأس ، صحيح أننا حتى بعد فوزنا في المباراة المرتقبة لن نصعد للمونديال لأننا سنصبح ثاني المجموعة ، سيتحتم علينا أن نلعب في الملحق ثاني المجموعة التي ترأسها الآن "إنجلترا" التي ضمنت التأهل .

دخل الفريق في معسكرٍ مغلقٍ ، كنت دائم الاتصال بـ"ينون" الذي أخبرني بأن حالة الفريق النفسية يرثى لها ، وأنه يقوم مع الجهاز الفني

للفريق برفع الحالة المعنوية للفريق ، اقترح "ينون" على المدير الفني الاستعانة بطبيب نفسي للمساعدة على إخراج الفريق من هذه الحالة المزرية ، لم يكن "ليشي" لاعباً عادياً في الفريق ولكنه أحد أصدقاء "ينون" المقربين ، شعرتُ بأن "ينون" يُصرُّ على الصعود لأسبابٍ نعرفها من قبل ، فاليلي " مهرها كأس العالم في نسخته الأخيرة ، أما الآن فيعتبر "ينون" الفوز بكأس العالم هو العزاء الوحيد له لفقدانه صديقاً لازمه في الملاعب لسنواتٍ عدة .

جلالة الملكة شعرتُ بكل ذلك ، فهي متابعةٌ جيدةٌ للأخبار ، بديهياً قد شعرتُ بأنهم يحتاجونها في هذه اللحظات العصيبة ، أطلتُ عليهم فجأةً مرةً أخرى كزيارتها الأولى لهم ، الوضع هذه المرة مختلفٌ كل الاختلاف ، في المرة السابقة كانت ترى الأمل في أعينهم ، أما الآن فالحزنُ قد ملأ القلوب وسالت دموع الأعين ، طمأنتهم الملكة بأن العدالة سوف تأخذ مجراها ، وأكدت أنه لن يفلت أحدٌ من العقاب ، ظهرت ملامح الغضب على كل لاعبي الفريق ، لكن ابتسامات الملكة الساحرة خَفَّت كثيراً من وطأة الغضب والحزن داخلهم وإن لم تستطع إزالتها .

كان تشكيل الفريق سرّاً غامضاً لم يَطَّلِع عليه أحدٌ إلا قبل بداية المباراة بقليل ، حتى اللاعبين أنفسهم لم يكونوا على علمٍ بمن سيشارك ومن سيُسْتَبَعَد ، نزل لاعبو الفريقين أرض الملعب واضعين شاراتٍ سوداءٍ حداً على فقيدها الرياضية الإسرائيلية ، لكن ما أثار دهشة الجميع هو مشاركة "ينون" منذ اللحظة الأولى للمباراة ، واضعاً على ذراعه الأيسر شارة القيادة ، وعلى ذراعه الأيمن شارة الجِدَاد .

بدأت مراسم المباراة كالمعتاد ، وزينت صورة ضخمة ل"ليشي" المدرجات ، وقف الجميع عند سماع النشيد الملكي الهولندي ، ثم عند

إنشاد النشيد الملكي الإسرائيلي ظهرت "حفيت حداد" لتلهب حماس الجميع وهي تتغنى بنشيد "الأمل"، انتهى النشيد الملكي فوقف الجميع بلا استثناء، لاعبو وجماهير الفريقين دقيقة للحداد؛ على فقيد الرياضة المغدور.

ما أقسى تلك اللحظات على الجميع، وما أصعب المباراة، فلن تكون سهلةً على الإطلاق.

بدأت المباراة وكان الحماس المغلف بالحرص واضحاً على كل اللاعبين، التزم الجميع بالمهام المكلفين بها، كان التشكيل متوازناً، أعاد للذاكرة الفريق الذهبي بأسمائه اللامعة، الكابتن "ينون"، "صوان"، "مينا"، "ديفيد"، "أوسولين"، "طواطحة"، وآخرين ممن يبثون روح الأمل والطمأنينة في أنفسنا؛ بنفس القدر الذي يبثون به الرعب في أنفس المنافسين.

أثمر الضغط منذ اللحظة الأولى عن هدفٍ مبكرٍ أحرزه "مينا جوزيف" من كرة عرضيةٍ مرَّرها له "ينون" من الجبهة اليمنى بعد أن أفلتت الكرة من الدفاع الهولندي، تلقاها "مينا" بضربةٍ خلفيةٍ مزدوجةٍ أكثر من رائعةٍ لتستقر في الشباك الهولندية، وتشتعل المدرجات باللون الأسمانجوني بعد أن رفع "مينا" قميصه لتظهر صورة "ليشي" مطبوعةً على قميصه الأبيض تحت قميص المنتخب، توجه اللاعبون إليه ليحملونه حتى منتصف ملعبهم كاشفين جميعهم عن صورة "ليشي".

لم يستسلم الفريق الهولندي، بادلنا الهجمات لكن بسالة "صوان" وزملائه منعت الكرات من الوصول لحارس المرمى إلا كرة واحدة تصدَّى لها "أموس" وذاد عن مرماه بفدائيةٍ كما يزود الأسد عن عرينه، انتهى الشوط الأول بهذه النتيجة المرؤسية.

لم يختلف الشوط الثاني من المباراة كثيراً عن شوطها الأول ، في الدقيقة التاسعة والعشرين انطلق "ينون" بالكرة من الجناح الأيمن ، تكتل عليه مدافعو الفريق الهولندي ، لكن بمهاراته المعهودة تمكّن من تخطيهم ليرفع الكرة عاليةً داخل منطقة العمليات ، ثم ارتقى "ديفيد" أعلى ارتقاءً يمكن أن يتخيله أحدٌ ، وصوّب الكرة برأسه في الزاوية العكسية لحارس مرمى هولندا "چو فاندرسار" مسجلاً هدفاً آخر ، لتشتعل المدرجات بقوة مرةً أخرى ، وتعلو الصيحات داخل الملعب وخارجه ، إلا أن "ينون" قد تملّك منه الإجهاد ، خاصة في الربع ساعة الأخيرة من المباراة ، متحاملاً على نفسه ولم يطلب التغيير إلا بعدما ركع مستنداً بيديه على ركبتيه ، ونظر ناحية مدرب فريقنا القومي وأوماً برأسه ، شعر المدرب بذلك فاستجاب لطلبه ، استعد البديل ورفعت اللوحة لتعلن عن خروج "ينون" ونزول "أنيس دبور".

كان "ينون" في انتظار خروج الكرة حتى يتم تغييره عندما وصلت إليه الكرة ليبدأ هجمةً مرتدةً ، وانطلق تجاه المرمى الهولندي في سرعةٍ خاطفةٍ ، تقدّم حارس مرمى هولندا "چو فاندرسار" لمنعه ؛ لكن "ينون" راوغه بمهارةٍ وإصرارٍ ليحرز هدفاً ثالثاً للمنتخب ، تمدّد على الأرض مفارقاً بين ذراعيه وساقيه بينما قفز اللاعبون عليه مهنئين .

سَلَّم "ينون" شارة القيادة إلى "مينا" ، وخرج مُقبلاً الشارة السوداء ليتم التبديل وسط فرحةٍ يشوبها الشجن ، لم تنجح هجمات الفريق الهولندي بتعديل النتيجة ، لتنتهي المباراة وقد تأكدت مشاركتنا في مباراتنا الملحق الأوروبي إما ضد المنتخب الروسي أو المنتخب البرتغالي .

دوت صيحاتُ الجماهير بقوةٍ في كل الأرجاء ، سعدت هذه الصيحات إلى السماء ولا شك في ذلك ، وقف اللاعبون يصفقون لتحية

الجماهير الأبية ، فما كان من الجماهير إلا مبادلتهم بالمثل ، فلولا صبر هذه الجماهير وثقتها في قدرة الفريق على تحقيق المستحيل ما سعد الفريق ، فمثل هذا الفريق يستحق وفاء هذه الجماهير الأبية.

ما أروع اللون الأسمانجوني الذي زَيَّن المكان ، ذلك اللون المقدس الذي اتشح به الجميع في أبهى صورةٍ تراها الأعين.

لم تعد الطواحين تعمل بكفاءةٍ كما كانت من ذي قبل ، ولم تستطع أن تقاوم الأعاصير الأسمانجونية التي عصفت بها لتتناثر وتواری الثرى .

تحامل الجميع على أنفسهم من أجل أحدهم وارى جسده التراب لكن روحه هي من قادتهم إلى انتصارٍ لم يكونوا بالغيه وهم في أقصى حالات الاستعداد.

أبانا في السماوات قد وقف إلى جوار أبنائه الأنقياء الأطهار ، ولم يتخلَّ عنهم في محنتهم ، وكافأهم بيدٍ رحيمةٍ محمَّلةٍ بمنحة العليِّ إلى حلقة الوصل بين الأرضين وعليين.

هنيئاً لكِ أرض الجنة.

هنيئاً لبيت الرب.

هنيئاً لمملكة إسرائيل الموحدة.



## سفر (٢٥) "الإقناع"

وَجَّهْتُ إِلَى نجوم إسرائيل كلهم دعوةً مفتوحةً للحوار حتى إقناع "مهتاب" المطرب العربي الذي رُشح لخوض مسابقة يوروفيجن للأغاني (Eurovision Song Contest) لتمثيل إسرائيل بها، فقد فازت إسرائيل بهذه المسابقة منذ انطلاقتها عام (١٩٥٦) عدة مرات، أولها فاز بها المطرب "يزهار كوهين" وفرقة "ألفا بيتا" في عام (١٩٧٨)، والمرة الثانية التي فاز بها المطرب "كالي عطاري" وفرقة "مليك إند هاني" وذلك في العام (١٩٧٩)، أما المرة الثالثة والأخيرة كان عام (١٩٩٨) عندما فازت بها المطربة "دانا إنترناشيونال" عن أغنية (Diva)، ومنذ ذلك العام لم تفز إسرائيل بهذا اللقب، ونريد استعادة هذا اللقب بعد إعلاننا مملكة كبرى موحدة.

وقد اتفق الجميع على أن "مهتاب" هو أمل هذه المملكة والملك المتوج على عرش الأغنية الشرقية دون منازع، وبالفعل قُبلت الدعوة، كان أغلب الحاضرين لهم تاريخ فني طويل، "يوقال حزان" أكثر

المتحمسين لـ"مهـاب" ، ليس فقط لأنه اكتشافه ولكن لقناعته بأن "مهـاب" هو القادر على استعادة عرش الغناء بكل قوة.

أصرت الجميلة "حـفيت حداد" على الحضور لأنها ترى أن "مهـاب" فقط هو الأجدر بتمثيل المملكة أوروبياً ، بل وعالمياً.

وحضور معشوقة "مهـاب" النجمة "ياسمين نصري" ، الذي طالما حدّثني عن حبه لها وتقديره لفنها وعشقه لصوتها النادر.

وقد حضرت أيضاً الجميلة "حين پيرمن" ، بالإضافة إلى "دودو سالمون" ، وكذلك الجميلة "ماريتا" ، والنجم "جادي إريز" ، وبالفعل قد لبى الجميع دعوتي لإقناع "مهـاب" ولم يتخلف أحدٌ ، وكعادته أتى صامئاً ، لكنه ابتسم عندما نظرتُ إليه "ياسمين" وقالت :

- "مهـاب" لن يخذلني أبداً، فكما استمتعتُ بالغناء معه سيُمتعنا بحصده لقب الأغنية الأوروبية .

ابتسم "يوقال حزان" مضيئاً:

- إن "مهـاب" أفضل صوت سمعته في حياتي.. ومن أجل موهبته دعمناه في البرنامج.. لأنه يستحق هذا النجاح .

أما النجمة "حـفيت حداد" قد أضافت:

- أعدك بأنني سأقيم حفلاً على شرف فوزك بهذه الجائزة.. وسأتبرع بربع ريع الحفل لمن ترغب.

واقتربتُ منه الجميلة "حين پيرمن" وأمسكتُ بيده وهي تقول:

- يشرفني أن أغني في حفل تكون أنتِ النجم فيه.. فلا تخذلني أرجوك..

ابتسم النجم "دودو سالمون" وهو ينزع حلقة أذنه ويضعها في يد

"مهـاب" قائلاً:



- أنت الوحيد الذي يستحق هذا اللقب.. لذلك تستحق هذه الحلقة التي أعطتني إياها حبيبتي ذات يوم.. وإنه لشرفٌ لنا جميعًا أنك في يومٍ من الأيام قد تغنيت بأغانينا أفضل منا جميعًا.. أعلم أنك لن تخذلنا .

ابتسم النجم "جادي إيريز" وهو يهزُّ رأسه بإعجابٍ قبل أن يضيف:

- أقسم أنني لم أشعر بجمال أغنياتي إلا عندما تغنيت أنت بها.. وعندما سئلتُ عن رأيي في أدائك قلتُ في تصريحٍ تليفزيوني أنك غنيتها أفضل مني.. ولن يأتي في إسرائيل من هو أفضل منك.

وأخذ يغني لاستفزاز مشاعر "مهاب"، وهو يُقلده في إحدى المقاطع من أغنيته "حيفكي أوتي" كما أدّاها بالضبط.

أما "مارييتا" فلقد انطلقت مسرعةً معانقةً إياه وهي تقول:

- قبل ذهابك إلى أوروبا يشرفني أن نصنع ديو معًا لأنني أريد أن أنال هذا الشرف قبل أن تنهال عليك العروض بعد فوزك .

قام الجميع ، وصنعوا دائرةً حوله ، وهو ناظرٌ إلى الأرض وتكاد دموعه أن تنهمر من عينيه ، عانقته "ياسمين" وقالت له :

- أنا عربية ولم أتخلَّ لحظةً عن انتمائي العربي.. ولكن شاءت الظروف أن أخذ الجنسية الإسرائيلية.. وأعشق الغناء باللغة العبرية.. وكذلك فعلت أنت.. لا بد وأنك حاولت بعيدًا عن هنا ولكنك لم تجد نفسك إلا هنا.. إسرائيل هي وطنك الآن يا "مهاب" وصفوة نجوم المملكة يرجونك كي تحقق حلمهم الذي طالما حلموا به ولم يحققوه مطلقًا.. أنت أملنا الآن.. فلا تخذلنا أرجوك.

قَبَلته "ياسمين" لتنهال عليه القبلات من الباقيين وعانقه "يوقال حزان" قائلاً:

- يشرفني أنني كنتُ من أول المستمعين لصوتك.



يذهبون الواحد تلو الآخر وقبل أن يغلق أخيرهم الباب خلفه ليتركوه معي ، انتظر "دودو سالمون" وقال مبتسمًا:

- أنتَ أسطورة إسرائيل الحية يا "مهاب" .. نُحبك جميعًا ..

كفكف "مهاب" دمعته ، وجلس على المقعد أمام مكتبي فقلتُ له مَمازحًا :

- نجوم إسرائيل جميعًا ترجوك كي توافق؟! هل تريدني أن أرجوك مثلهم؟ أم أنك بالفعل وافقت.. بعد هذا السيل الجارف من القبلات لا بد أن توافق.

ثم استطردتُ بلهجةٍ حادةٍ صادقةٍ:

- لطالما تمنى معظم شباب إسرائيل أن ينظروا عن قرب فقط إلى من قَبَلوك.

ابتسم "مهاب" وقال:

- لن أوافق حتى ترجوني أنت أيضًا..

قلتُ مَمازحًا:

- أتعلم يا "مهاب" لو لم توافق.. لقبَلتكَ في فمك حتى يضيع مذاق كل من قَبَلك ..

ضحك "مهاب" ليَجبرني على الضحك مرةً أخرى بقوله :

- لا.. شكرًا فأنا أشعر بالغيثان بطبيعة الحال.. لكنني أحتاج بعض الوقت للتفكير.

- هذا من حقك بالطبع.. اعتبر هذا المكتب صومعتك.. لكنني لن أتركك تفكر منفردًا.. فهناك شخصٌ آخر يريد أن يشاركك التفكير.

- لا داعي لكل هذه الألاعيب.. فلقد حاولتُ خالتي معي كثيرًا من قبل.

ابتسمتُ مغادراً الغرفة ، كانت "إلينور" في غرفة السكرتيرة ، عدتُ معها إلى غرفة مكتبي ، دُهل "مهّاب" عندما رآها وانتفض واقفًا ، قابلني عند الباب ، صافحني ودفعني برفقٍ خارج الغرفة وأغلق الباب.

غادرتُ المكتب مستقلاً سيارتي عائداً إلى المنزل تاركاً "مهّاب" مع مجنّده ، قبل وصولي إلى المنزل كان "مهّاب" يُحدثني هاتفياً ليُخبرني بموافقته على المشاركة في المسابقة ممثلاً لإسرائيل ، لم أتمالك نفسي من الضحك الذي أصابني بهستيرياً عارمة!!!

يا لتأثير النساء!

ماذا عسانا أن نفعل من دونهن؟



## سُفْر (٢٦)

### "على صفيح ساخن"

كان من عادة "أساف" في إجازاته الطويلة التي لا تزيد على بضعة أيام يخصني بزيارة ، في الواقع هي ليست زيارةً ولكن يومٌ كاملٌ نقضيه معًا ، نتبادل أطراف الحديث طوال اليوم ، ف"أساف" لديه الكثير ليحكىه ، كانت لديه ميولٌ فنيةٌ وإن كانت قليلةً ، كما أنه محبٌ لكرة القدم ويعشق "ينون" عشقًا جمًّا ، يكاد يصل إلى حد الجنون ، وعلى الرغم من أن طبيعة عمله تحتم عليه الاعتدال ؛ إلا أنه لم يكن يخفي هذا العشق ، على الأقل أمامي .

جلسنا معًا نحتسي القهوة في مكتبي ، قال لي وهو ينفث دخان سيجارته :

- هل تعلم أن الأمور في شمال المملكة غير مطمئنة ؟
- ما الخطب ؟
- قوات المعارضة السورية والجيش السوري يهددان أمننا .

- كيف ذلك؟ لقد انتصرنا على الجيش النظامي السوري أكثر من مرة.. في عام (١٩٦٧) لم يقاوموا تقريباً وضممنا الجولان.. وفي العام العسكري استقر الجنوب السوري في قبضتنا.. وسهّل هذا كثيراً في الوصول إلى العراق.. ليقترّب تحقيق الحلم بإسرائيل الموحدة.. وتحقق الحلم في نفس العام بعد انضمام سيناء.
- كلامك صحيح.. لكن يبدو أن هناك بعض الأمور التي لم تكن في الحسبان.
- مثل ماذا؟
- صمّت "أساف" عن الكلام ونظر لي نظرةً أعرفها جيداً لطول عشريني له ، فابتسمت مطمئناً:
- أقسم لك بأن هذا الكلام لن يسمعه أحدٌ إلا أنا وهذه الجدران والأثاث.
- قذائف الهاون تتهاوى على رؤوسنا في الجولان.
- من الفاعل؟
- التحقيقات مستمرة.. لكن أغلب الظن أنها المعارضة المسلحة.. يبدو أنها غيّرت من عقيدتها القتالية.
- ماذا تقصد بتغيير عقيدتها القتالية؟
- استبدلوا قتالهم ضد القوات السورية بقتالنا نحن.
- لكن على حدّ علمي بأنكم كنتم تدعمون المعارضة قبل ذلك.
- نعم ولكن سيطرة القوى الإسلامية على الكثير من فصائل المعارضة قد يكون هو السبب.
- ألا تعتقد بأن النظام السوري مشارك في هذا الأمر؟
- ربما.. ولكنه المستفيد من هذا التغيير.

- ما حجم الخسائر؟
- ليست كثيرة.. لكن الجيش قد أغلق منطقة جبل حرمون وقرية مجدل شمس أمام الزوار.
- ثم نهض ونظر من النافذة ، طالت فترة الصمت بيننا ، فسألته:
- ما حكاية الرجل الذي حاول الانتحار هناك؟
- التفت إليّ "أساف" منزعجاً:
- أي رجل تقصد؟
- الرجل الدرزي.. قاطن بقعاثا.
- كيف عرفت؟
- لي صديقٌ بالمستشفى.. هو من أخبرني؟
- من هو؟
- مع أنني كصحفي غير مطالبٍ بالإفصاح عن مصادري لكنني سأخبرك.. أحد أصدقاء أبي كان في زيارةٍ لقريب له هناك وسمع خبر وصوله.
- ألم يخبرك بشيء آخر؟
- لا.. ليس أكثر مما قلته لك.. هل الأمر خطيرٌ حتى تنزعج هكذا؟
- نعم خطير.. فهذا الرجل كان مقاتلاً في إحدى كتائب الدروز.. أصيب بالاكْتئاب.. فأطلق النار على نفسه بعد أن اعتدى بالضرب على زوجته..
- هل تعلم لماذا اكتأب؟
- بسبب حالة الاسترخاء العسكرية في كتيبته.. لقد اعتاد على القتال ولا يريد أن يتوقف.

- أمرٌ غريبٌ أن يعشق الإنسان الحروب إلى هذا الحد! لكن هذه ليست الحالة الوحيدة في الجيش التي حاولت الانتحار.
- نعم.. يبدو أن الانتحار أصبح هو الحل الأسهل بين أفراد الجيش.
- لا بد أنك تعلم قضية برج المراقبة.
- نعم فلقد حققتُ بها.
- لقد قمْتُ بزيارة هذا الضابط الذي انتحر قبل انتحاره بيومين.
- كيف كانت حالته؟
- كان في حالة يُرثى لها.. يُعاني من الملل والاكتئاب.
- لقد تحرَّشَ بمجندةٍ وهي على برج المراقبة أثناء وريدتها ليلاً..
- لا يا صديقي.. لم يكن تحرشًا.. لقد التقيتُ بالمجندة التي أخبرتني بأنه اغتصبها على البرج.. لقد كانت عذراء.. وقد تأذت كثيراً.
- أشعل سيجارةً وأخذ ينفث دخانها بطريقةً هزليةً متقطعةً ، ثم أضاف:
- لقد كثرت حالات الانتحار والتحرش بالجيش بطريقةٍ مفرعةٍ لا يمكن وصفها.
- لم يعد التحرش والانتحار نادرًا داخل الجيش ولكنه بات ظاهرة تحتاج إلى علاج.
- لقد أدركت القيادة ذلك وجئدت أطباء نفسيين منذ سنواتٍ لعلاج هذه المشكلات.
- لكن حملة "الحارس الصامد" تُحاول منذ سنوات ولم تنجح في ذلك.. بل زادت النسبة أكثر.. وانتشر الإيدز بصورةٍ مرعبةٍ في الجيش.

- ليس الإيدز فحسب.. هناك حالاتٌ كبيرةٌ من الاغتصاب.. والشذوذ..  
والمخدرات.. والقتل.. هذا هو ما يحدث الآن داخل جيش الدفاع يا  
صديقي..

- لقد صُدِمْتُ حقيقةً.. وشعرتُ بخجلٍ غير معهودٍ عندما سمعتُ  
بتلك التقارير المخزية.. وهذا هو ما يُورق مجتمعا بعنفٍ في الآونة  
الأخيرة..

أراد "أساف" أن يغير مجرى الحديث فابتسم بخبثٍ وأردف:

- أنا جوعان.. متى أصابك البخل يا رجل؟ لم أعتد منك على ذلك!
- لا تقلق يا صاح.. أتريد الخروج وتناول الغداء في مطعم "ثيكي  
كريستينا" كعادتنا؟ أم نتصل بهم ليحضروا الطعام هنا؟
- لا أريد الخروج.

وصل الغداء سريعاً، حدثته عن التطورات الفنية، وعن جلسة  
إقناع "مهاب" للاشتراك في المسابقة، لكنه لم يقيم بأي ردة فعل عندما  
علم أن "مهاب" قد وافق بالفعل على المشاركة، عدنا إلى الحديث عن  
الجولان مرةً أخرى فسألته عن "صالح صديق"، فأجابني وهو يأكل  
الآيس كريم:

- إنه رجلٌ مشاغِبٌ.. لا يعترف بالجميل.. أفرجنا عنه على أملٍ أن يكون  
قد تعلم الدرس.. لكن يبدو أنه بليدٌ.. تزعم مجموعة من أهالي بلدته  
"عين قينية" ومنع إقامة مباراة مهمة في الدوري.. تقدم للمحاكمة  
وحُكِمَ عليه بالحبس المنزلي لمدة أربعة عشر يوماً ودفع غرامة خمسة  
آلاف شيكل كما مُنِعَ من الاقتراب من ملعب بلدته.

- لماذا يفعل كل ذلك؟

- رافض للتطبيع معنا! هل تتصور أنه لم يُدرك إلى الآن بأن بلدته  
باتت جزءاً لا يتجزأ من مملكة إسرائيل الموحدة؟

- لكل مجنونٍ منطقهُ.
- نعم.. هل تتصور أن هناك ثلاثة مجانين من إرهابيي سوريا اختبأوا في موقعٍ للجيش.
- كيف ذلك؟
- تسللوا إلى هناك وأطلقوا النيران على قوات الجيش.. أصيب على أثر الإطلاق اثنان من الجيش.. الغريب في الأمر أن صافرات الإنذار لم تنطلق في مستوطنة "كتسرين" الملاصقة للموقع العسكري.
- هل قُبض عليهم؟
- الجيش مشَّط المنطقة بمساعدة الطائرات العمودية وتم القبض عليهم.. كان أحدهم مصابًا ويبدو أنه أبطأهم في الهرب.
- وما ردُّ القيادة عن كل هذا؟
- أعلن وزير الدفاع بأن الجيش سيردُّ بكل قوةٍ على أي مصدر نيران يُعرض الإسرائيليّين للخطر أو يمسُّ بالسيادة الإسرائيلية.
- طال الحديثُ بيننا ، ثم فجأة توقف عن الحديث ، ونهض ليصافحني وخرج كعادته!

## سفر (٢٧) "الخطر"

دعتني جمعية "ساجور" من أجل رفاهية الجندي في إسرائيل بفرعها الدرزي والذي يرأسه ضابط الاحتياط "مفيد عامر" مساء أمس الخميس في قرية "ساجور" لحضور تكريم الكتيبة (حيرف ٢٩٩) الدرزية وهو تقليد سنوي يُقام بمناسبة تشكيلها.

تزامن أيضاً مع انتصارها في رد العدوان من قبل منظمة "حزب الله" الإرهابية ، حيث ردت الاعتداءات الغاشمة على حدود مملكتنا الشمالية ، كما أنها استطاعت ردع الإرهابيين الجهاديين الذين أرادوا أن يمسوا منطقة "الجولان" ، ومن المثير للإعجاب أن الكتيبة لم تستدع أيّاً من الوحدات القتالية الأخرى في جيش الدفاع ، ولم تطلب إمدادات ولا أية مساعدات إضافية ، فهي تعرف منطقة وسط الشريط الحدودي بيننا وبين "لبنان" أكثر من أية وحدة عسكرية إسرائيلية أخرى ، علماً بأن الشبان العرب الدرزي مرغمون على الخدمة العسكرية في صفوف الجيش بموجب قانون إسرائيلي ، لكن عدداً كبيراً منهم يرفض التجنيد.

شارك في هذا الاحتفال عددٌ كبيرٌ من ضباط وجنود الكتيبة ولفيفٌ من رؤساء المجالس الدرزية ، وشخصياتٍ اجتماعيةً ، وحركات الشبيبة والأهالي ، كما تفاعل عددٌ لا بأس به من أهالي المنطقة ، وجنودٌ من المواطنين اليهود.

بدأ الاحتفال بمسيرةٍ من مدخل القرية جابت شوارع القرية حاملةً الأعلام الإسرائيلية ورايات تحمل نجمة خماسية الألوان (شعار الدروز) ، في طريقهم إلى الملعب البلدي اصطفَّ الأهالي على طرفي الشارع يقدمون التضييفات للجنود.

تقدمت المسيرة فرقة كشافة "ساجور" وجنود من الكتيبة الدرزية ، رافقتها أغاني وموسيقى عبر مكبرات الصوت نُصبت على سيارات.

كان في استقبال الكتيبة في ساحة الاحتفال أقارب وممثلو العائلات الثكلى من الكتيبة ، بدأ الاحتفال بكلماتٍ للعديد من الحضور وكان من بين المتحدثين رئيس مجلس "ساجور" ، والضابط "مجيد عامر" ، ونائب رئيس الكنيست ، والقائد الحالي للكتيبة ، والميجر جنرال قائد لواء الجليل ، تولى تقديم الاحتفال المتحدث الإعلامي للجمعية ، تخلل برنامج الاحتفال العديد من الفقرات الفنية ، اعتلى المنصة قائد الكتيبة الدرزية ، الذي بادر قائلاً:

- إن الجيش اللبناني سيشارك في حربٍ مقبلةٍ في حال اندلعت الحرب بين جيش الدفاع ومنظمة "حزب الله" الإرهابية منضماً إليه.. وبطبيعة الحال لا يمكن وصف الجيش اللبناني وقتئذٍ إلا أنه عدو بالنسبة لجيش الدفاع.. في تقديرنا أن الجنود اللبنانيين الذين سيشاركون في القتال في الحرب المقبلة ليسوا إلا أعداء.

صَفَّق الحضور بحماسةٍ وهم يُرددون:

- الله محيي "تساهل" .. الله محيي بني معروف ..

واستطرد مضيئاً:

- لانية لدينا بإطلاق النار عليهم وهم يعرفون مسؤوليتهم عند الحدود.. منذ أيام حدثت انفجارات وقعت في جنوب لبنان.. وصرح "جيش الدفاع" أنها ناجمة عن تدمير مخزن أسلحة تابع لمنظمة "حزب الله" الإرهابية.. وأنه خلال الأعوام الأخيرة قد تصاعد التوتر بين "جيش الدفاع" والجيش اللبناني في أعقاب حوادث تبادل إطلاق نار قليلة بين قوات من الجيشين.. إن السيناريو المحتمل الذي نستعد لهواجهته هو تهديد التسلسل أو التهديد بالخطف.

لقد استشعرتُ من حديثه مخاوف من أسر جنود آخرين على أيدي "حزب الله" ولكنه لم يُصرح بذلك إلى الآن، ربما لأن الجنود المخطوفين هم من أبناء الكتيبة الدرزية.

وأضاف:

- إن حرب لبنان الأخيرة ردعت "حزب الله" بشكلٍ كبيرٍ.. وأميين عام "حزب الله" لا يزال يُعاني من الخوف بعد تعرضه لمحاولات الاغتيال المتعددة ويختبئ في الملاجئ كالفئران.. ومنذ أن انتهت الحرب لم يطلق "حزب الله" رصاصةً واحدةً.. مع إن الكثير من أفرادهِ لا يزالون موزعين بصورةٍ خفيةٍ عند خط التماس.

من جهةٍ ثانيةٍ كذب الأبناء التي تتحدث عن تفكيك الكتيبة الدرزية، ووصفها بأنها لا تزيد على مجرد نميمة، واعتبر أن هذه الكتيبة هي ما تجمع حولها الكثير من القرى والعائلات الدرزية، ورغم أنه يوجد اليوم جنودٌ دروزٌ في وحدات النخبة مثل سرية هيئة الأركان العامة، والكوماندوز البحري، وحتى في دورات الطيران، إلا أنه لا يوجد ما يُشبه التكتل والعائلية الموجود في الكتيبة الدرزية، وأكد على وحدة وتماسك جيش الدفاع، وعلى المساواة الكاملة بين جميع من يُحاربون تحت ظلّ العلم الإسرائيلي، وأنه لا فرق بين دينٍ

أو جنسٍ أو عرقٍ ، لذلك فإنه ليس ثمة ما يمنع درزيًا من أن يصبح رئيسًا لأركان الجيش.

وفي نهاية كلمته التفت قائد الكتيبة إلى الحضور مبتسمًا وقال:

- إخواني الموحدين.. الصامدين.. باسم جيش الدفاع وباسم كتيبتنا التي لا تقهر نُحيِّي ونُجل شيوخنا ومعلمينا ولذلك أترك الكلمة لمولانا ومعلمنا كبير "بني معروف" سماحة الشيخ "رشيد فخر الدين ناطور التنوخي" فليفضل مشكورًا.. والله محيي بني معروف.

انخرط الجميع بلا استثناء في تصفيقٍ حار حين تقدم الشيخ الهرم ذو اللحية البيضاء الكثيفة والنظارة الطبية السميقة ببطءٍ شديدٍ مع من يتكئ عليهم ، وأمسك قائد الكتيبة الدرزية يده بنفسه حتى اعتلى المنصة ، أخذ نفسًا عميقًا وبدأ في الحديث:

- نتوكل على مولانا الحاكم الأحد الفرد الصمد.. المنزه عن الأزواج والعدد.. نقر جميعًا بأننا لن نتهاون مع الأعداء ونتمسك بحماية الوطن وأمنه و متمسكون بالوصايا التوحيدية السبعة التي على كل موحّد أن يلتزم بها.. صدق اللسان.. حفظ الإخوان.. ترك عبادة العدم والبهتان.. البراءة من الأبالسة والطغيان.. التوحيد لمولانا في كل عصر وزمان.. الرضا بفعل مولانا كيف ما كان.. التسليم لأمر مولانا في السر والحدثان.. وصلى الله على السيد الهادي الإمام الأعظم والنور التمام المنتظر كنجاة الأمم القائم الهادي إليه التسليم ومنه السلام.. الهادي إلى جميع الأنام إلى طاعة الملك العلام العلي الأعلى حاكم الأحكام سبحانه وتعالى عن وصف الواصفين وإدراك الأنام وعلى حدوده.. الله محيي بني معروف..

ثم دوى ترديدُ الحاضرين بحماسة وكأنهم يزأرون :

- الله محيي بني معروف..



شعرتُ حينها أن جيش الدفاع يستشعر خطرًا حقيقياً من التوتر الخارجي أو التفكك الداخلي ، فبادر الجيش بهذه الخطوة كي يعطي الثقة لأهالي هذه الطائفة المهمة في مجتمعنا ، لأن أبناء هذه الطائفة يتميزون بالشجاعة والمثابرة والثبات والصمود من بين كل جنود جيش الدفاع.

لكن يا ترى هل الخطر المحدق بنا سيأتي فقط من الشمال ؟  
هل الجماعات الإرهابية على حدود الجولان هم من يمثلون هذا  
الخطر ؟

هل منظمة "حزب الله" الإرهابية من يُسأل عن هذه الاعتداءات  
المتكررة التي لا يُصرح بها الجيش ؟

من أين يأتي الخطر الحقيقي ؟

أهو الخطر العربي ؟

أم أن الخطر إسرائيلي داخلي ؟

أسئلة كثيرةٌ عصفت برأسي وأصابتني بالهذيان طوال الوقت!



## سفر (٢٨)

### "نضال"

عُدْتُ من الاحتفال والقلق يلازميني ، فهناك أمرٌ جللٌ يحدث في "جيش الدفاع" ، هذا الأمر بكل تأكيد سيؤثر على المملكة كلها ، نويتُ النوم مبكرًا ، لأضرب عصفورين بذات الحجر ، أولهما التغلب على القلق ، وثانيهما الاستعداد للقاء "نضال" ، حيث إنه طلب مني شخصيًا استقباله في المطار عند عودته من السويد.

سيكون في شرف استقبال "نضال" وفدٌ رسميٌّ ، قد يكون على رأسه رئيس الوزراء بنفسه ، كما أن الملكة سترسل مندوبًا عنها لاستقباله ، لكنه مُصِرٌّ على أن أنتظره ، ربما يريد أن يحكي لي عن مخاوفه التي يعيش بينها دومًا ، هذه المخاوف التي طالما صاغها في قصائده ورواياته ، مخاوفه التي جعلت منه أكبر معارضٍ في الكنيسة ، مخاوفه التي أكسبته شهرةً عالميةً جعلته يفوز بأهم وأكبر جائزة على هذا الكوكب ، الجائزة التي يحلم بها العلماء والأدباء ليتوجوا بها مسيراتهم.

إنها "نوبل" التي سعتُ إليه وكأنها تتشرفُ بأن يحملها مواطنٌ  
إسرائيلي حتى وإن كان ذا أصولٍ عربيةٍ يفتخر بها.

حاولتُ جاهداً التغلب على قلقي ولكنه دائماً وأبداً الأقوى ، فهذا هو  
ذا النوم أطارده ولكنه يُجيد التخفي والهرب ، لم أرد أن أتناول أحد  
الأقراص المنومة خوفاً من ضياع مواعيدي مع "أبوللو إسرائيل" ، كان  
تقلبي في السرير يُورق "سارة" ، وأثناء تقلبها هي الأخرى شعرتُ بصدمةٍ  
قويةٍ عندما لامس باطن قدمها قدمي وكان القطب الشمال قد تحوّل  
إلى قدمها ، وتذكرتُ قولها "الحب هو أن تتحمل برودة قدميها في  
الشتاء" ، عن أي برودة تتحدث ؟ أقل وصفٍ قد تُوصف به أنها صاعقةٌ  
كهربائيةٌ تنذر بغضب الرب!

هرعتُ إلى مكتبي ، وشرعتُ في ترتيب أوراقِي المبعثرة ما بين  
المكتب والطاولة التي توازيه ، كنت ألقى نظراتٍ سريعةً عليها لتقع  
عيني على إحدى قصائد "نضال" المكتوبة بخط يده ، وقفتُ ألقبها على  
الجموع الوهمية التي حضرت فجأةً أمامي :

سامحيني واقبلي مِبيّ اعتذاري	سَيدتي العجوزُ غُذراً
تلوح بأفق الظلام وتدحزُ كبريائي	غذري قبيح الذنب وويلتي
وبطني أنا يكون من اختياري	أُمتي ضعفتُ عقوداً
وقوتي هزلت باستيائي	بليتُ بطء السلحفاة
إليك ماضي سبل تأبى الانتهاه	سلاحفنا بطول الطريق
وطهني أرضك غايته وارتوائي	أرشف من رمل الصحارى
فيهبي الذي يأبى يبوح بأشتياقي	فالعين تدمغ والمخاط مزينٌ
قطرات دمعك يا مقدستي واحتفائي	فعظيم الشأن من يموت ويفتدي

اصمدي بعد الربيع خريفهم      أت بريح تصرصر الأشياء  
رابطي فمهديك أت من بعيد      فزيتني أبوابك وللملي الأشلاء  
أنا أبتغي وجه الكريم لأجلك      لا تسأليني عن اسمي لافرق في الأسماء

وسمعتُ التصفيق الحار يدوي في أذني ، يبدو أن قلة النوم والقلق والاشتياق لمقابلة "نضال" يمكن أن تفعل أكثر من ذلك ، وبدلاً من ذلك العبث الذي سيطر عليّ قررتُ أن أرتب معلوماتي المبعثرة عنه. بدأ "نضال خلايلي" مشواره الأدبي وهو صغيرٌ جداً ، فأول جائزة أدبية فاز بها كان وهو تلميذ في صفوفه الأولى في المدرسة عندما فاز في مسابقة في الإنشاء والتعبير على أكثر من ألفي تلميذٍ إسرائيلي كان جلهم من اليهود ، لم يكن "نضال" قد تعدى الاثنتي عشرة سنة وقتئذ.

اتجه "نضال" بعد ذلك إلى الشعر الملحمي وتميَّز فيه ، حين نشر أول ديوان له لم يكن قد بلغ عامه السابع عشر بعد ، أثارت قصائده الكثير من اللغط في الأوساط الأدبية والسياسية على المستوى العربي واليهودي ، داخل وخارج إسرائيل ، توالى أعماله الأدبية وتنوعت ما بين شعرٍ ، وقصصٍ ، ورواياتٍ تميزتُ بلغته الخاصة ، مغلفةً بمتاعب الكثير من بني جلدته ، لكن أكثر ما تميزتُ به أعماله هو حالة من القلق والتوتر المجهول لنا ، كان يصبُّ بغزارة غضبه السياسي في قصائده المكتوبة بالعبرية دون كفافٍ. ودوماً كان يحكي لي عن مأساة عائلته قائلاً: "لقد أخذ اليهود بيوتنا عنوةً واغتصبوا أرضنا، وصمت العالم خانعاً، ولم يجرؤ أحد على التفوه ببنت شفة"، وأكثر التعبيرات التي سيطرتُ على ذهني عندما قال بغضبٍ عارمٍ..

"غادر العدل دينا نا لموت الفاروق، واعتكف الرجال برحيل  
الناصر، وأصبح أولو الأمر خصيان الحرملك".

ظَلَّتْ تعبيراته تعصفُ بعقلي الباطن الذي شعر بالندم عندما  
استدعاها ، وهي ما لبثت أن داهمتني بكل قوة لتؤرقني أكثر من ذي  
قبل ، وأخضعتنني لها مستسلمًا دون أدنى مقاومةٍ مني ، حتى زالت  
وحدها.

ما أن اقتربت الساعة من الثامنة صباحًا حتى كنتُ قد تجهزتُ  
وركبتُ سيارتي متجهًا إلى مطار "بن جوريون" الدولي ، أدرتُ المذياع  
كانت كل الإذاعات العبرية تحتفل وتحتفي بنضال ، هذا المواطن  
الإسرائيلي الذي حوكم في يومٍ من الأيام على إبداعاته التي رفعت علم  
المملكة في محافل كثيرة ، أخذني حب الاستطلاع أن أعرف ما هو رأي  
الشعوب العربية المجاورة لنا ، ما هو تعليقهم على فوز "نضال" بهذه  
الجائزة العظيمة ؟

أخذتُ أبحث عن قنواتهم وأستمع ، معظم الإذاعات العربية  
تجاهلت الأمر ، بينما الإذاعة المصرية أذاعت خبر فوزه على استحياء ،  
معلّقة على أنه العربي الثاني الذي يفوز بنوبل للآداب بعد المصري  
"نجيب محفوظ" ، ليصبح بذلك المسلم الثالث الذي يفوز بهذه الجائزة  
بعد "نجيب محفوظ" عام (١٩٨٨) ، و"أورهان باموق" التركي عام  
(٢٠٠٦) ، لكنهم تناسوا القول بأنه الإسرائيلي الثاني الذي يفوز بهذه  
الجائزة للآداب بعد "شموئيل يوسف عجنون" الشهير بـ"شاي عكنون"  
في عام (١٩٦٦) مع اليهودية السويدية "بلي زاكس" ، يا لهم من قومٍ  
غير منصفين.

جلستُ منتظرًا في صالة كبار الزوار وسط الحشد الرسمي الذي  
رأسه رئيس الحكومة ، ولكنني أفضل شيئًا آخر ، فأنا أحبُّ أن أراه

وهو منتشٍ برائحة البطولة ، فكم أعشق ابتسامته التي لا تفارق وجهه ،  
تسحرنني رغم أنني رجل!

كيف يُسحَر رجلٌ برجلٍ ؟

إنه الحب يا سادة ، حب الأخ لأخيه.

كان لهذه الجائزة مذاقٌ خاص عند الشعب الإسرائيلي كله ، فها نحن ذا قد أدممنا الفوز بها ، فللعام الثاني على التوالي نفوز بنوبل ، في العام الماضي فازت بها ملكتنا التي حازت عليها في السلام ، وهي جائزةٌ للشعب الإسرائيلي وجيشه متمثلاً في ملكته ، الشعب الذي استطاع تحويل الدولة الصغيرة التي تنتهي من التجول عبرها في غضون ثماني ساعات فقط ، إلى مملكة كبرى موحدة من النيل إلى الفرات.

حاولتُ قتل الوقت بتذكر كلماته التي طالما أفحمتني ، وتعبيراته التي أعجزتني عن الحراك حيث قال لي ذات مرة: "أي تناقض في العالم شبيهه.. دولتي تقتل شعبي ..!!"

لقد عانى كثيراً ، فهو مسلمٌ فلسطيني ، رفض ترك البلاد ليجبر على شيئين أحلاهما مرٌّ "الأسرلة والعبرنة" هكذا يقول لي دومًا ، وهو يقصد الجنسية الإسرائيلية لأنه مواطنٌ يقطن في دولة إسرائيل ، واللغة العبرية الإلزامية ، لأنها لغة المؤسسات الحكومية ، لكنه تغلب على معاناته وانتصر ، وأصبح مواطنًا إسرائيليًا ، وبرلمانيًا بدرجة قديرٍ جدًا ، وبرع في العبرية كشاعر ، وأديب ، ومُفكر.

لقد فازت روايته (السلاحف على طول الطريق) بجائزة أفضل رواية في العام الماضي ، ورُشح لجائزة "نوبل" ليفوزَ بها هذا العام ، لقد حققت كتاباته أعلى نسبة مبيعات لمدّة طويلة دون منازع ، وترجمت أعماله لعدة لغاتٍ أولها "العربية ثم الإنجليزية ، والفرنسية ، الألمانية ،

الإسبانية ، الإيطالية ، التركية ، الروسية ، الهولندية ، الرومانية ،  
الدمركية ، وكذلك اليابانية ، والصينية ، والبقية تأتي .

كانت روايته (السلحف على طول الطريق) من أشهر ما كتب ،  
فقد كتب هذه الرواية منذ أكثر من ثلاث سنوات ، وبدأت تنتشر في  
جميع أرجاء العالم كما تنتشر النيران في الهشيم ، فهي تتحدث عن  
الحل السلمي لمشكلات الشرق الأوسط ، وانتقاد الحكومات التي تسير  
أبطاً من السلحف ، وهذا الحل أثار القراء ، فقد تناول "نضال" قلب  
الحدث وأمسك بالعصا من المنتصف ، وأنهى بتعبيراته القوية لغة  
القوة والعنف ، والسلاح والعنصرية .

أرهقتُ قراءتها عيني ، وكاد قلبي أن يتوقف عن النبض !

عندما أخذتُ أغوص في أعماق هذه الرواية العبقرية ، لم أشعر بمن  
حولي إلا بعدما طويتُ آخر أوراقها ، وكان آخر فصولها بمثابة المفتاح  
للذي يليها ، فكما قال أدباء عدة أن الفصل الأول من الرواية هو الذي  
يبيعها ، والفصل الأخير هو الذي يبيع الرواية التالية ، يا له من داهية !  
سأضطر لأن أحجز منه نسختي الخاصة من الرواية التالية عندما يصل .  
ها هو ذا "نضال" يعود إلى الوطن ، الوطن الذي طالما سخطنا  
عليه ، وهجرناه ، وابتعدنا عنه ، ولكن الغربية تلوّعنا ، ونبكي من ألم  
الفراق ، ونتمنى العودة إليه في أقرب رحلة .

لا أصدق نفسي ! أنا أُكذِّب عيني ، ها هو ذا آتٍ بابتسامته المعهودة  
التي وزّعها على الجميع ، هذه الابتسامة التي تستفزني ، ولكنها تعني  
لي الكثير ، فهي دلالة واضحة على أنه مُعبأ بالكثير ، يبدو أن الأمر  
سيحتاج إلى حلقة تلفزيونية بمناسبة الجائزة ، وما يخبئه هذا الخبيث  
وراء هذه الأسنان ، أقصد بين هذه الأضلع ، فهو شاعر قبل أن يكون

روائيًا ، على الرغم من أن جائزته أدبية وليست شعرية ، لكنه يفحمني دائماً بتعبيراته وشعره العمودي وقوافيه الملحمية .

أشار إليّ مُحيياً ، بنفس الابتسامة ، لم يتغير صديقي اللدود كثيراً ، نفس الشارب العظيم الذي يغطي شفته العليا ، واللحية المهملة الجذابة التي تفضلها النساء ، والشعر الأبيض الذي ينتشر متناغماً في معظم أنحاء رأسه محتلاً معظم المناطق لتصبح شعراته السوداء بينهم كمن يستغيث من الغرق ، أراه متوسط الطول وكذلك العرض ، يبدو متناسقاً تماماً ، ساحراً كعادته عندما يرتدي بزةً أبيضاً على الطراز التركي الذي يفصله كالتالي يرتديها الآن ، وإن ارتدى غير ذلك من شتى أنواع الملابس سيان ، أراه مثلاً للأناقة كما يجب أن تكون .

ثم بدأتِ المراسم الرسمية لاستقباله ، لكن وكعادتها تجلّت الملكة فجأة لتكون أول المستقبلين له ، واحتارت الكاميرات بينه وبينها ، فهي معشوقة شعبها ، وهو صاحب الحفل الذي خُدد اسمه واسم مملكته بأحرفٍ من نورٍ على صفحات التاريخ ، لكن ما إن انفض الاستقبال الرسمي حتى وجدته يلقي بنفسه بين أحضاني وهو يهمس لي بكلماته التي اعتدتُ أن أسمعها منه :

- هل نطقت الشهادتين .. أم ما زلتَ مسلماً على دين اليهودية تنقصه الشهادتان .

- لا ليس بعد أيها الأيديولوجي العنصري .. ذو القناع الدبلوماسي ..

عاد برأسه إلى الوراء وقهقهه عالياً كعادته ، فهذي إحدى دلالات انتصاره ، هو الآن متواضعٌ عند النصر ، لكن هذا لن يمنعه من القهقهة ، "نضال خلايلي" ، ابن محافظة الخليل ، يعود إلى أرض الوطن بعد طول غيابٍ ، قلتُ له وكادت دموعي أن تسيل :

- عودًا حميدًا يا صديقي اللدود.. عودتك كانت كفيلةً بإنارة إسرائيل كلها.. بعد غيابك قد أقلّ نجمها.. ولكنه عاد الآن للسطوع مرةً أخرى.

- لن أنغيّب عنها مرةً أخرى.. فالقادم أصعب بكثيرٍ يا صاح..

قالها لي وابتسامته تملأ وجهه ، إنه صديقي الصدوق ، وأخي الأكبر بلا منازع ، رغم اختلاف الدين ، أرى أننا مواطنان مخلصان ، لكنه دومًا ينفي ذلك بقوله:

- أنا فلسطيني ولن أكون غير ذلك! تذكر ذلك جيدًا يا "يائير" .. لقد ولدتُ ههنا في ظل الاحتلال.. أعيش بطبيعة الحال بمدينة مختلطة.. أعترف بأن ثقافة الآخر باتت جزءًا لا يتجزأ من حياتي.. ولزامًا عليّ أن أتعايش معه كأمر واقع.. لكنني أبدًا لن أتبنى ثقافته ما حييت.. فلسطيني أنا وسأظل.. واسمي "نضال".

عند خروجنا من المطار كان موكب الاستقبال أكثر من رائع ، السيارات السوداء الفاخرة تملأ المكان ، والسيارة التي كانت تقلنا تمشي على مهل خلف السيارة الملكية ، ومن خلفنا وأمامنا موكب سيارات المستقبلين ، وكأنه موكبُ قائدٍ منتصرٍ عاد لتوه إلى أحضان الوطن بعدما حقّق له الانتصار الذي طالما تمناه!

عودًا حميدًا أيها القائدُ البطل.

## سُفْر (٢٩) "ثلاث رصاصات"

بعدهما سافر "مهّاب" إلى "پاریس" للاشتراك في المسابقة ، جاءني "إلینور" صاحبة الفضل الأول في إقناعه بالسفر والمشاركة ، أنت دون موعدٍ مسبقٍ ، أخبرتني السكرتيرة بقدموها ، فقمْتُ على الفور أستقبلها مبتسماً ، لكنها لم تُبادلني الابتسام ، كانت حزينةً قلقةً ، سألتها عن سبب حزنها فأجابتنني بصوتٍ يملأه الفزع:

- أنا ذاهبةٌ في مهمةٍ مع كتيبتني .
- "قطط الصحراء"؟
- نعم.. بالضبط .
- هذا أمرٌ طبيعيٌّ.. وماذا في ذلك ؟ لا هي بأول مهمةٍ ولا آخر مهمةٍ .
- هو كذلك.. حاولتُ مرارًا الاتصال بمهّاب.. لكنه لم يُجبَ أيًا من اتصالاتي..
- لعلّه في ظروفٍ لا تسمح له بالردّ..
- هاتفه مغلقٌ باستمرارٍ..

- هل حاولت الوصول إليه عبر مدير أعماله ؟
- حاولت.
- .....؟!
- هو أيضًا لم يُجِبْ.. لذا جئتُ لأكلفك برسالةٍ تنقلها إلى "مهـاب".
- ما هي ؟
- أخبره أنني أحبه بحقٍ وأنتظر بفارغ الصبر عودته فائزًا بالجائزة.. وأمنيتي أن أكون في استقباله عند عودته.. وأبلغه أيضًا أنني جاهدتُ للاطمئنان عليه وإخطاره بشأن المهمة.
- هَوّني على نفسك.. لا بد أنه بخير.. وحتّمًا سيعود فائزًا باللقب وسنحتفل جميعًا به وبك.. فلن ينسى أحدٌ أنك كنتِ صاحبة الفضل في هذا الفوز.

ودّعنتني وذهبْتُ وهي مُطرقة الرأس ، لكن كلامها أقلقني ، حاولتُ الاتصال بـ"مهـاب" فوجدتُ هاتفه مغلقًا كما قالت ، أما سكرتيره فرد عليّ باقتضابٍ ، مطمئنًا إياي عليه ، استمرتِ المسابقة قرابة الأسبوعين ، ولكن "مهـاب" كان قد سافر قبلها بعشرة أيام تقريبًا ، كان كل شعبنا الأبّي يتابع المسابقة بكل شغفٍ ، والكل أعلن فخره وحبّه واعتزازه بمملكتنا بعد أن توجَّج "مهـاب" باللقب.

ظَلَّتْ معجزة صوته تُوتّي ثمارها لإسرائيل بكل ما تشتهيهِ من بطولة ، وألقاب ، وظل يهفهف بأعزب الأنغام ، ليطرب الأسماع ، فهام مَنْ هام ، وسهر مَنْ سهر ، وحلَّق من حلَّق ، نعم إنه صوت إسرائيل العذب ، وقيثارتها الذهبية ، ومزمار داوود الخالد.

لَکَم تمنيتُ بشغفٍ أن يفتح لي قلبه ولو بكلمتين فقط.. فقط كلمتين من شفّتيه ، هذا المطرب الصامت دائمًا.. ولكي يُحقّق حلم إسرائيل وشعبها أتيناه بكل نجومها ، طالبين منه التمثيل المشرف

بلده الجديد ، ولتدوين أول سطر في مطوية تاريخه التي سيسطرها بالذهب ، رجونه فقط لأجل موهبته غير الاعتيادية ، ولأجل حضوره الاستثنائي ، لقد قِيلَ وذهب..

وأخيراً..

لقد عاد بالذهب ، عاد باللقب ، عاد بالمجد لإسرائيل ، حَقَّق نبوءة النجوم أجمعين ، حَقَّق ما عجزوا عن تحقيقه لعقودٍ ، وحصل بصوته السماوي وموهبته الاستثنائية على مكانةٍ رفيعةٍ في قلوب الجميع ، شعباً ، ونجومًا ، ونقادًا!

والأدهى أنه فاز بمكانةٍ رفيعةٍ في بلاط المملكة ونال امتيازًا ملكيًا ، فقد هاتفتُه الملكة شخصيًا ، ودَعَّتْهُ إلى عشاءٍ ملكي خاص .

ذهب للقاء الملكة وسَعِدَ بذلك كثيرًا وإن لم يبدو عليه الانفعال المطلوب لمناسبة مثل هذه!

عاد ليبحثَ عن حبيبته ، سألتني عنها فأبلغتُه رسالتها ، غضب كثيرًا لفعل مدير أعماله ، فقد كان إغلاق هاتفه المحمول إحدى نصائحه ، مبررًا ذلك برغبة مدير أعماله بالتركيز في المسابقة ، لكن ها هو ذا قد عاد ولا يستطيع التواصل مع من كانت السبب في سفره ومشاركته وفوزه ، حاول كثيرًا الاتصال بها ولكن هاتفها هذه المرة هو المغلق ، ترى من نصحتها بذلك ؟

بعد عودته بثلاثة أيام عاد إليّ وفي يده نسخة من جريدة "يديعوت أحرונوت" ليضعها بعنقِ أُمّامي على المكتب ، وتساءل بعصيةٍ وقلقٍ لم أعتدهما منه:

- هل قرأتَ صحف اليوم؟

- بكل تأكيد.

- إذن لقد عرفتَ ما حدث لـ"الينور"؟

- لا.

فتح الجريدة أمامي لأجد صورةً صغيرةً لها وخبراً عنها "مجندة بجيش الدفاع تقتل شاباً من محافظة الخليل أثناء تأدية عملها، وقد حاول التحرش بها في فترة الراحة عندما ذهبت للتسوّق، أصابته بثلاث رصاصات، وقالت والدة المجندة: "أنا فخورة جداً بابنتي".

نظرتُ إليه مشدوهاً ، وتساءلتُ:

- وماذا في ذلك؟ ما الذي يزعجك الآن؟ هي بخير.. وهذا يكفيك.

- لقد قتلتُ إنساناً.

- إنه عربيٌّ حاول التحرشُ بها.

- لو كان من تحرشَ بها غير عربي.. هل سيكون هذا رد فعلها؟ هل سيكون هذا هو رد فعلك أنت؟

- لقد أخطأ ونال عقابه.

- لكن الجزء أكبر بكثيرٍ من الجرم.

- لكنها هي من تهتمك.

- هل قرأت؟ أمها فخورة بما فعلت ابنتها.

- لها أن تفخر.. فقد دافعت ابنتها عن شرف جنديتها.

- عن أيِّ شرف تتحدث يا رجل؟

- عن شرف إسرائيل الموجود في الشارات على كتفيها.. هي لم تبدأ.. بل هو البادئ وقد نال ما يستحق.. يبدو أن بعدها عنك لفترةٍ تُقارب الشهر قد أتلّف أعصابك.. اهدأ فبعد يومٍ أو يومين ستعود وتحكي لك بنفسها.. ربما هناك ما لا تريد أن تنشره على الملأ.

نظر إليّ نظرةً تمتلئ بالغضب ولا تخلو من الحقد ، وألقى بالجريدة على الأرض وخرج وهو يصرخ مرددًا:

- ثلاث رصاصات! هذا جنون.

لكنها لم تعد بعد يومين ، فكتبتُها الآن على الحدود الشمالية للمملكة ، حيث أصبح التوتر هو سيد الموقف ، كان "مهاب" قد انقطع عن الاتصال بي ، لكنني أنا من تحدثتُ إليه وأخبرته عن سفر كتيبة "قطط الصحراء" إلى الشمال لمساندة "اللواء ناحل" والكتيبة (حيرف ٢٩٩) في مهمةٍ لم يُعلن عن أهدافها بعد ، فلم يهتم وأخبرني بأن ذلك لا يهيمه ، تعجبتُ من ردة فعله ، لكن ما حدث بعد ذلك كان يفوق الخيال ، فالـ"الينور" اختطفتُ مع زميلةٍ لها برتبة "راف سيرن" (رائد) ، وأرسل شباب "أرضنا" مع أحد أفراد فرقة "المستعربين" طلبًا بالإفراج عن مائتي أسيرٍ في سجوننا ، وتم تحديد الأسماء مقابل الإفراج عن الأسيرتين وبعض "المستعربين" ، طالت المحادثات ، لتستيقظ المملكة على مقطع فيديو منقولٍ عن إحدى القنوات الفضائية الخاصة بالتنظيم الإرهابي ، يذيعون فيه تنفيذ حكم الإعدام في المجندة المختطفة وذلك لتباطؤ الحكومة الإسرائيلية في الرد.

إنها "الينور" تُقتل رميًا بالرصاص!!!

اللعنة على كل العرب ، اللعنة على المسلمين ، اللعنة على الحكومة الفاشلة ، اللعنة على كل من لا يُدرك ولا يعي من هم اليهود ، ومن لا يستطيع استيعاب من هي إسرائيل.

كان الغضبُ قد استبدَّ بي ، وتوقعْتُ كيف سيكون حال "مهاب" على فراق محبوبته ، فذهبتُ لمواساته ، ولكنني لم أرَ أو أشعر بأي مشاعر حزن أو أسى ، هل يمكن أن يكون هذا قلب فنانٍ يأسر قلوب الملايين ؟

سألته وتمنيتُ أن يخيب ظني بالإجابة:

- أَوْلَسْتَ حزينًا على "الينور"؟

- لا.

- كيف ذلك؟ ألم تكن محبوبتك؟

- كانت ذات يومٍ محبوبتي.. لكنها عندما أطلقت رصاصاتها الثلاث اغتالت بها حبي.. لقد ذهبتُ بنفسِي لزيارة عائلة القليل.. أخبرتني أمه أنه لم يتعدَّ السادسة عشرة من عمره بعد.. وقالت أيضًا إن أصدقاءه أخبروها بأنه لم يعتدي على المجندة بأي لفظٍ خادشٍ للحياء وبالتالي لم يعتدِ عليها.. بل كانت المجندة في حالة سُكر.. وكانت تطلق النيران بشكلٍ عشوائيٍ مخيفٍ.. حينها صرخَ ابني "الله أكبر" فخصَّته برصاصاتها الثلاث.

- هل رأيتَ الفيديو.

- لا.. ولن أراه.

- عجبًا لك يا صاح.. يا لسرعة العرب في تبدل مشاعرهم!

لكنه صمتَ فجأةً وعاد لشروده المعتاد! ولم يخَيِّب تلك الظنون التي تخَبَّطت داخل رأسي، لوهلةٍ شككت أنه قد تبدلت مشاعره تجاهها بالفعل.

فما كان مني إلا تركه على حاله منسحبًا في هدوء.

\*\*\*\*\*

عدتُ إلى منزلي وأنا في حيرةٍ شديدةٍ! كيف ل"مهتاب" أن تبدل مشاعره بهذه الطريقة وبذلك السرعة! ولكنني ما إن دلفتُ إلى المنزل حتى وجدتُ "سارة" تحتضن الأولاد وهي تبكي، وثلاثتهم جالسون يشاهدون التلفاز، أووووه! إنه تحليل ما بعد المباراة، يا إلهي! الليلة

كانت مباراة الذهاب مع "روسيا" بملعب "لوجنيكي" بالعاصمة الروسية "موسكو"، لست بحاجة لأن أسأل ما هي النتيجة، فلقد علمت الإجابة من حال "سارة" والأولاد، لم أتقوه بكلمة، ذهبت مباشرة إلى مكتبي، وما إن فتحت بابه حتى أتتني رسالة على هاتفي...

"هزيمة منتخبنا الوطني في مباراة ذهاب الملحق  
الأوروبي (صفر - 2) أمام نظيره الروسي في التصفيات  
المؤهلة لكأس العالم".

هكذا إذن، المصائب لا تأتي فرادى، من "مهاب" إلى "روسيا" يا قلبي لا تحزن، فعندما يخيم الحزن لا يخيم لسبب واحد، تعددت الأسباب والحزن قائم.

أعتقد أن هذا ليس الوقت المناسب لليأس، فلم يمت الحلم بعد، ما زالت الفرصة سانحةً للتعويض في مباراة العودة هنا في ملعب "رمات غان" في الأسبوع المقبل، وفريقنا يستطيع الصمود، أعتقد ذلك، ولكن إن استطاع الصمود هل يستطيع التعويض؟



## سفر (٣٠) "بشق الأنفُس"

عدتُ إلى المنزل بأقصى سرعةٍ لاصطحاب "سارة" والأولاد إلى الإستاد قبل بدء المباراة بأكثر من ثلاث ساعاتٍ ، وجدتهم ينتظرونني على أحرّ من الجمر ، والتوتر قد خيم على جميعهم ، لكن ابتسامه "موشيه" في وجهي أنستني أن أشتبك مع سارتي كالعادة فلم أستمع إلى ثرثرتها المتغطسة ، أو كلماتها التهكمية التي تُعَيء بها الأجواء .

وصلنا إلى ستاد "رمات غان" بسرعةٍ نظرًا لقرب المسافة ، فقط خمس دقائق ، أخذنا أماكننا وشاهدنا لاعبي المنتخبين يقومون بالإحماء ، ودون سابق إنذار رنّ هاتفي المحمول ، نظرتُ لأجد اسم "بيسان" ! لم أتمالك نفسي فكيف لي أن أجيب وسط ضوضاء الجماهير المتحمسة ؛ فصيحاتهم تدوي في كل الأرجاء ، مباراة اليوم هي الأمل الوحيد ، ففي المباراة الأولى تلقينا هزيمةً قاسيةً من المنتخب الروسي على أرضه بهدفين نظيفين ، يجب علينا إحراز ثلاثة أهداف للصعود ، لاسبيل لنا إلا الفوز ، استأذنتُ من "سارة" لأجيب على الهاتف ، للمرة الثانية "بيسان" تتصل بي وأنا أهرول بين المقاعد متفاديًا الأقدام

محاولاً الذهاب بعيداً قدر الإمكان لإيجاد المكان المناسب أو على الأقل المكان الأقل ضجةً للإجابة عليها.

أخذتُ أهروول ما بين الأقدام والمقاعد وما زالت "بيسان" تتصل ، لم أهدنِ إلى مكانٍ أقل ضجةً إلا خارج الإستاد تمامًا ، وما إن وصلتُ خارجه حتى وجدتها قد توقفت عن الاتصال بي للمرة الخامسة ، فاتصلتُ بها ، ليأتيني صوتها الحاني الذي افتقدته:

- أهلاً "يائير" هل أستطيع أن أراك؟
- بالطبع تستطيعين.. أين أنتِ الآن؟
- أنا في "حولون" داخل "متحف التصميم" سأنتظركَ خارجه..
- رائع.. عشر دقائق بالضبط وأكون أمامك..

انطلقتُ بسيارتي جنوبًا ، أعتقد أن عشر دقائق كافية لأصل إلى "حولون" نظرًا لفراغ الشوارع من البشر لمتابعتهم المباراة ، فالיום يوم غير عادي ، ولا مناص من الفوز بثلاثة أهداف حتى نضمن التأهل للمونديال ، تجلى أمامي برج "موشيه أيب" المهيّب أعلى مباني إسرائيل على الإطلاق ، يا لروعته ، ولكن الأروع أنني سأرى "بيسان" ، وهذا مدعاةٌ للتفاؤل والأمل.

عندما أراها تتراقص روعي ، وتنفرج أسارير عيني ، أُلّعين أسارير؟ لا يهم ، ما يهمني هو شعوري بأن روعي تتهلل وتتراقص فرحةً مع كل جوارحي ، وكل ما فيّ يبتهج برويتها ، ولا أشعر إلا بابتسامتي تحتل كامل وجهي ، وأتوقف عن التفكير في أي شيء سواها ، بعدما ألقاها وأعود إلى البيت هائمًا ، أظل أقلب على سريري طوال الليل كمراهقٍ لأمس للمرة الأولى أنامل محبوبته.

أشعر بأحاسيسَ غريبةٍ تملكني ، والأمانى الحانية تسيطر على مخيلتي ، أظل هكذا أصارع الحيرة ، والحيرة تقاتل أفكاري ، وأفكاري تعصف بعقلي ، وعقلي ملكٌ لها ، وحدها ، هي دون غيرها من النساء!  
"بيسان" ، سامريتي الساحرة.

التي حكمتُ على قلبي بالحب العذري فلا شهوة تعكر نقاءه ، ولا غطرسة عنصرية تقتل حلاوته.

هأنذا في طريقي إليها ، وكلما اقتربتُ من المكان المحدد للقاء أسمع بوضوحٍ دقات قلبي المهرولة في حيرةٍ بين أضلعي ، يكاد الشوق أن يفتك بي ، يقطّعي إربًا إربًا ، لا أقوى على التفكير في شيء سواها ، عينها العسليتين الحائيتين ، وجهها القمري الوضّاء ، وابتسامتها النقية الساحرة ، عندما ألتقيها لا يقوى حلقي على ابتلاع رضابي ، فيظلُّ جافًا قاحلاً حتى تستمع أذني إلى صوتها المنعم وهي تتفوه بكلمات الترحاب الأسرة (أهلاً ياثير) ، لحظتها فقط تعود روعي إلى جسدي مرة أخرى ، وأستطيع أن أجيها (مرحبًا بيسان) ، عندها فقط أستجمع بعضًا من بعضي ، وبعض بعضي يستدعي بعض بعض مشاعري التي تناثرت تواري الثرى ، ولكن الطامة الكبرى عندما تصافحني بيدها المنعمّة ، تشتت كل ما استطعتُ استجماعه ، بل تنثر كل ما تبقى مني! فأصبح خاويًا ، هشًّا! كهشيمٍ تدروه الرياح...!

أين لي بمشاعري الآن؟ أين أنتِ أيتها الأفكار؟ أنى لي بالقدرة على الصمود؟ أخيرًا ما يتملكني أم شرٌّ قد استعمر روعي؟

في كل مرة أراها أشعر وكأنني أراها للمرة الأولى ، بالضبط ويكأنني ضعيف النظر يرتدي نظارته الطبية لأول مرة لتجعل كل الأشياء تتكشف أمامه بوضوح تام!

أشعر بروحي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال على أنغام صوتها في  
نشوة غريبة وكأنها سيمفونية فأنجيليسية مكتملة الأوركسترا ، ويكأنني  
ظَلِيم<sup>(٢٩)</sup> عربيُّ أبله قد انقضى منذ عام (١٩١٨) يراود أنثاه المنقرضة  
عن نفسها تحت الثرى على أبيات قد ذكرت نوعهما صريحة:

(٣٠)

هيه يا غادي على شبه الظَلِيم      مقتفيه الليل حاديه الظلام  
زاد جربه يوم جا وقت العتيم      واستدار ونار في عديه وهام

أواه من عشق الروح!!! روحي مُعَذَّبَةُ الروح ، وقلبي قد انفطر على  
نفسه شَطْرَيْن ، شَطْرٌ لسامرיתי الملهمة ، والشَّطْر الآخر لإشكنازيتي  
المتغطِسة.

"لوهاي" هل لي بيدك الرحيمة لتنتشلي من ظلمائي المُوَجَّهَة  
بالعسل؟ أم أنَّه اختبارٌ قاسٍ لابنك النقيِّ البار؟ أبارُّ أنا يا ربِّ؟  
وصلتُ إلى "حولون" في عشر دقائق واقتربتُ من المتحف  
المحفوظ ، وجدتها تقف في انتظاري لتنير "حولون" وما حولها ، لو  
كنتُ مكان رئيس بلدية "حولون" وتنبأتُ بوقوف "بيسان" أمامه لكنتُ  
قد أنفقتُ أضعافاً مضاعفة من تلك السبعة عشر مليون دولار التي  
أنفقتها لإنشاء ذلك المتحف ، أي نعم إن "متحف التصميمات" بناية  
معمارية خرافية التصميم ، ولكن وقوف "بيسان" أمامه يجعله متحفاً  
مقدساً ، ولأجلها دقتُ النظر بامعانٍ في تصميم المتحف ، وواو! أيُّ  
روعة تلك؟

سلمتُ يداك "رون أراد"<sup>(٣١)\*</sup> عليك أن تتضرع للرب شاكرًا على ذلك  
الصَّيِّت العالمي الذي وهبكَ إياه ، ليس لروعة تصميمك! لا.. بل لأن  
سامرיתי قد وقفتُ أمام تصميمك الخرافي ، الذي منذ افتتاحه في عام

(٢٠١٠) وهو يلعب دوراً مركزياً مستحقاً في مشهد الثقافة الدولية ههنا ، وعن جدارة يستحق المتحف أن يكون عروس المؤسسات الثقافية الأخرى ، فلا "المعهد التكنولوجي" ولا "المديتيك" ولا "المتحف الإسرائيلي للكاريكاتور والكوميكس" نُضاهي روعة خيالك وإبداع تصميمك! فقط لأن نبراسي قد اختارت الوقوف أمام تحفتك ، تستحق احتلال الصدارة لذلك ، هنيئاً لك هذا الشرف السامري المقدس .

اقتربتُ منها وهي تنتظرنِي بتلك البسمة القاتلة! ومدتْ إليَّ يدها لتصافحني ، آه آه! يا ويلتي! كم كنتُ أخشى تلك اللحظة بالذات ، (مصافحتها) ، مجرد ملامسة يدي لراحة كفها تُجبرني على الذهاب إلى عوالم أخرى غير معلومةٍ لدينا ، ولم تُذكر في الكتب المتعارف عليها في الحياة الدنيا ، عالم "بيسان" هو عالمٌ فريدٌ من نوعه ، غير موجودٍ إلا في النظر إلى عينيها الساحرتين ، أو على أطراف أناملها الفريدة المنفردة بصدارة النعومة والدفء والحنان والبراءة ، ها قد تفوّهتُ:

- أعتذر على ما سببته لك من عناء يا "يائير" .. أنا دائماً أتعبك معي ..
- لا عليكِ "بيسان" .. إنه لمن دواعي سروري رؤيتكِ ..
- أشكركِ على قدومكِ ..
- لا داعي للشكر .. ماذا كنتِ تفعلين هنا؟ خيراً؟
- لا تقلق .. اتصلتُ بي إحدى قريباتي هنا .. لأتقدم ببعض رسوماتي وتصميماتي إلى متحف التصميم ..
- رائع .. هل انتهيتِ من تقديمها؟
- أها .. انهيتُ كل شيء قبل اتصالي بك .. هلا تمشيننا؟
- آه .. بالطبع .. تفضلي ..

تمشينا معًا على مهل ، سامرיתי إلى جوارِي! يا ربي! أشكركَ على نعمائك التي لا تُعد ولا تُحصى ، هل أظل هكذا؟ أذوب بها ولهًا ولهفة دون مصارحتها بما أكن لها بين أضلعي!

لماذا لم تضع الشريعة أكثر من زوجة كالمسلمين؟ لكم تمنيتُ أن أصبح مسلمًا منذ تعرفتُ بها ، فقط كي أستطيع أن أتزوجها.

أوه! ويلاه! اغفر لي يا رب! هذه ترهات تترنح داخل عقلي ، فلا تغضب عليّ وسامحي.

- "يائير" حقًا إنني أسفة لإجبارك على المهجيء.. لا أعلم ماذا أقول! ولكنني رغبًا عني ووجدتني أتصل بك.. وحقيقة لا أعلم لماذا أردت رؤيتك!

صدمني قولها! حقيقة أشعر بصدمةٍ أحببْتُها ، أنا أيضًا لا أعلم بماذا أجيب! لكنني أريد رؤيتها أنا الآخر ، ولا أجد قولًا يتناسب مع موقعي المرحج! ماذا أقول؟ فاهي مفتوح عن آخره ، وما من حرفٍ واحدٍ يقوى على الخروج ، أي شيء يا رب ، أمتلك كل المقومات ، لدي القدرة الفائقة على الحديث كباقي الإعلاميين إن لم أكن أفوقهم قدرةً وموهبةً ، ولكن أمامها! أشعر كأنني كالطيف ، كالظل لا يملك القدرة حتى على فراق صاحبه ، يا ويلي! هيا أيها اللسان انطق!

أوووف ، ولا كلمة؟! أطبقتُ فمي رغبًا عني ووجدتني أبتسم كالأبله! فقط أبتسم وأنا أنظر إليها ، آه ، ها هي ذي الكلمات عاودتِ الترنح بداخلي ، ولساني يتخبَّط بأسناني ، أخيرًا سأقول شيئًا:

- كيف حال الجدة؟
- هي بخير.. شكرًا للرب..
- أهَي في تحسُّن ملحوظ؟

- لا.. ولكن على الأقل حالتها مستقرة.. إلى حدٍ ما..
  - أخبار جيدة.. أشعر بكثيرٍ من الاطمئنان الآن..
  - هل لي أن أستأذنك حتى لا أتأخر عليها أكثر؟
  - لا تستأذني مني.. سأوصلك بنفسي..
  - لا أرجوك.. سأستقل تاكسي..
  - لا أبداً.. لن أسمح بذلك..
  - أرجوك لا تفعل..
  - بل سأفعل.. أرجوك "بيسان" أنا أريد ذلك..
- أوصلتها بنفسي إلى "شخيم" وحتى باب المنزل ، ودخلتُ معها لأطمئن على حال الجدة ، دخلتُ خلف "بيسان" إلى غرفة الجدة ، كنتُ أتوق شوقاً لمصافحتها والحديث إليها.
- "بيسان" .. أنتِ هنا؟
- يا لحظي إنها ليست نائمةً ، كانت تجلس على مقعدها المتحرك في غرفتها المظلمة ، أضاءتُ "بيسان" الغرفة ، كانت الجدة تحرق في ولم تلتفتُ إلى "بيسان" مطلقاً!
- نعم جدتي أنا.. ومعني..
- قاطعتهُ الجدة بصوتٍ خافتٍ متقطع:
- المزرابي المشتت.. ابن الفرات الذي يبحث عن جوهرة تحت طبقات من الوحل المتراكم..
  - جدّتي..!

قاطعُها الجِدَّةُ ثَانِيَةً بِصَوْتِ أَعْلَى ، وَهِيَ تَمُدُّ يَدَهَا عِنْدَ وَجْهِهَا وَأَعْتَقْدُ  
أَنَهَا تَمُدُّهَا إِلَيَّ :

- تَعَالَ وَقَبَّلْ تِلْكَ الْيَدَ الْمَيِّتَةَ .. وَلَا تَخْشَ تِلْكَ الرَّائِحَةَ الْكَرْبِيَةَ الَّتِي  
حَلَفْتَهَا قَسْوَةَ الْأَيَّامِ عَلَى ذَلِكَ الْجَسَدِ الْهَزِيلِ ..  
- جَدَّتِي ! !

قاطعُها الجِدَّةُ مَرَّةً ثَالِثَةً ، فَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ ذَهَبْتُ مَسْرَعًا وَأَمْسَكْتُ  
بِيَدِهَا وَقَبَّلْتُهَا ، وَهِيَ تَقُولُ :

- رُوحَكَ حَزِينَةً .. وَيَدَاكَ تَرْتَجِفَانِ مِنَ الْقَلْقِ الدَّائِمِ ..

يَا إِلَهِي ! كَيْفَ لَهَا أَنْ تَعْرِفَ مَا بَدَاخِلِي وَهِيَ فِي تِلْكَ السَّنِ ، وَبِهَذِهِ  
الْحَالِ الْمَزْرِيَّةِ ، قَلْتُ مُتَلَعِثًا :

- أَشْعُرُ بِالْحَيْرَةِ حَقًّا .. أَشْعُرُ بِالْحَيْرَةِ مِنْ أَمْرِي .. وَأَشْكُ فِي كَوْنِي مُؤْمِنًا أَمْ  
لَا .. أَشْكُ فِي الْحَقِيقَةِ .. وَأَبْحَثُ عَنْهَا قَدْرَ الْإِمْكَانِ وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى ..  
- تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغَيِّرَ عَالَمَكَ بِنَفْسِكَ .. بِمَقْدُورِكَ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ الشَّخْصَ  
الَّذِي تَرُغِبُ بِهِ ..  
- حَقًّا ؟

- غَيَّرْ مَا هَيْتِكَ .. وَلَسَوْفَ تَكْتَشِفُ حَقِيقَتَكَ بِنَفْسِكَ ..  
- كَيْفَ لِي ذَلِكَ جَدَّتِي ؟ أَنَا لَسْتُ قَانِعًا بِمَا هَيْتِي .. أَنَا أَبْحَثُ عَنِ حَقِيقَةِ  
لَا وَجُودِ لَهَا .. أَشْعُرُ بِشَتَاتٍ أَقْسَى مِنَ الَّذِي كَانَ بِهِ أَجْدَادِي الْأَوَائِلِ ..  
- فَلْتَنَسَ كَوْنَكَ تَائِهًا .. سَوْفَ تَجِدُ الطَّرِيقَ الَّذِي تَبْحَثُ عَنْهُ .. يَجِبُ أَنْ  
تُؤْمِنَ بِأَنَّكَ شَخْصٌ لَمْ تُخْلَقْ لِتَكُونَ كِبَاقِي الْبَشَرِ ..  
- ك.. كَيْفَ .. كَيْفَ تَعْلِمِينَ كُلَّ ذَلِكَ !

- دَفءَ يَدِكَ قَدْ نَقَلَ إِلَيَّ كُلَّ مَا يَكْمُنُ دَاخِلَ نَفْسِكَ .. لِمَاذَا تَكْرَهُ  
الظَّلَامَ ؟

- لأنه يجعل كل شيء مستحيلًا..
- لا يوجد شيء اسمه مستحيل.. الكلمة غير مقنعة بالمرة.. طالما تتنفس إذن تستطيع..
- أخبريني جدتي.. ماذا علي أن أفعل؟
- افعل ما لم تتوقع فعله.. واذهب حيث لا تريد..
- لم أفهم.. ما الذي تريدني قوله؟
- "إذا كسفت الشمس وخسفت القمر، ستقتات الغقبان على الأسود، ويحلّق الغقاب العظيم بين الشرق والغرب، فيملاً ظهر السلخفاة بعدالته، ليرتضي بحكمه أهل الأرض والسّماء".
- ماذا؟ أنا لا أفهم شيئاً! ماذا علي أن أفعل؟
- عندما يأتيك خبره فلا تتردد في أن تستظل بجناحيه.. فلا نجاة إلا به..

وأخذت تسعل بصورةٍ مرعبةٍ ، منذ ثانيةٍ واحدةٍ كانت في حالةٍ جيدةٍ إلى حدٍ كبيرٍ! وكالمرّة الأولى حملتها ووضعتها على سريرها ، وأعطتها "بيسان" الدواء ، وراحت في سباتٍ عميقٍ ، عميقٍ إلى حدٍ أصابني بالهلع!

\*\*\*

ودعتُ "بيسان" وأنا في حالةٍ يرثى لها من الحيرة والشتات ، والحنين والشوق ، والمعقول واللامعقول! تعلقت عيني بيدها التي لوحت بها لوداعي ، وأنا ما بين عالمتنا الواقعي وتلك اللوغريتمات التي قالتها الجدّة!

انطلقتُ بسيارتي على مهلٍ لا أفكر إلا بها حتَّى رنَّ هاتفي ، لأجد "سارة" تتصل بي! أووووووه! المباراة! أعتقد أن شوطها الأول قد انتهى ، أدعو الرب أن أصل قبل انتهاء شوطها الثاني ، فتحتُ الإذاعة كي أتابع تحليل الشوط الأول ، يا إلهي النتيجة التعادل السلبي! أي مصيبةٍ قد تحل بنا لو انتهتِ المباراة بهذه النتيجة ؟

إن "مائير جيلاد" هو من يُعلق على المباراة في الإذاعة ، مميّزٌ حقًا ، وله أسلوبه الخاص ، ولكنني لم أنتبه لما يقول ، فلقد عصفتُ بعقلي مقولات الجدة التي كانت محاطةً بهالةٍ عظيمةٍ من اللوغريتمات التي يصعب تفسيرها ، فما أنا بخبيرٍ في اللاهوت ، ولا أعلم لم خصّنتني بقولها "أنت لستَ كباقي البشر" وكيف لها أن تعلم بماً أكنه بداخلي ؟ أو درايتها بما أشعر به ؟ حيرتني تكاد تصعقني بسكتةٍ دماغيةٍ .

أوف! أخيرًا!

ها قد وصلتُ "رمات غان" مرةً أخرى.....

اتجهتُ إلى داخل الإستاد مسرعًا على صوت انفجار تهليل الجماهير! صعدتُ المدرجات بسرعةٍ كي أذهب إلى "سارة" والأولاد ، وجدتُ اللون السماونجوني يحتل العالم من حولي ، وأعلام المملكة ترفرف عاليًا حتى السماء ، لم أطق صبرًا حتى الوصول إلى أسرتي الصغيرة فسألتُ أقرب شخصٍ إلى جوارِي :

- ماذا هناك ؟
- إنه الوقت الضائع..
- حقًا.. كم النتيجة الآن ؟
- إنه الهدف الثالث لصالحنا.. أحرزه "ينون" المنقذ.. لقد فزنا بشقّ الأنفس..

- شكرًا للرب.. أخيرًا..

هذه النتيجة كفيلاً بصعودنا ، ثلاثة أهداف مقابل لا شيء ، هذه هي النتيجة المطلوبة لإرضاء الجماهير وكل شعب المملكة ، لنبداً رحلةً أخرى للحفاظ على اللقب ، بعدما انتهينا من مشوار الصعود بشقّ الأنفس!

صح لسانك "مايا أنجيلو" فعلاً "كل الأعمال العظيمة تحتاج إلى كثيرٍ من الوقت" ، لتثبتي بنفسك قول "أودري هيبورن" <sup>(٣٢)</sup> "لا شيء مستحيل ، حتى الكلمة نفسها تقول لك بأنني ممكن".

نحتاج إلى الوقت لننجز أي شيء وإن قالوا عنه مستحيل.

نعم.. حقاً لا يوجد مستحيل...

لأن كل شيء من الممكن أن نحققه حتى وإن كان بشقّ الأنفس.



## سفر (٣١) "العشاء المرير"

الليلة الجميلة المقمرة ، وانتشار النجوم المتراقصة حول بهاء القمر ، وصفاء سماء إسرائيل وخلوها من الغيوم والسحب ، وصعود المنتخب للنهائيات ، وفوز "مهَاب" بجائزة الأغنية الأوربية... ما الذي يمنع "ينون" من أن يدعونا إلى عشاء خاص في المكان الذي يختاره "مهَاب" بنفسه؟ إجتماع هذه المناسبات في توقيت واحدٍ يستحق ذلك وأكثر.

نظر إليّ "مهَاب" وقال:

- إلى أين تريدون الذهاب؟

فأجبتُ فوراً:

- أنا مثلاً دائم التردد على "فيكي كريستينا" بـ"تل أفيف" حيث يُقدم التاباس والنبيد.. هذا لو تُحبون تناول العشاء في مكانٍ معيّن.. ثم بعد ذلك نذهب لمكانٍ خاص لتناول الشراب.. مهمم.. مثلاً

"واينبيرج" يقدم أكثر من ستين نوعًا من النبيذ.. ويوجد به أيضًا مطعم للمأكولات البحرية الطازجة..

- لا أعتقد أنني أفضل هذه الفكرة..

هكذا أجابني "مهاب".. فأضفتُ:

- أتودون الذهاب إلى "هيرمانوس" في "بتاح تكفا".. تاباس أيضًا..

المكان الرائع لأشهى الأطعمة الإسبانية.. الخضراوات واللحوم والفاكهة والمعجنات والحلويات الملكية الإسبانية.. أسعار مريحة..

وهو يُقدم أيضًا للزبائن المعتادين مثلي البيرة الإسبانية فوق الوجبة.. والسنجاريا والنبيذ الإسباني..

- أنا لا أفضل "هيرمانوس" إطلاقًا..

كان هذا هو جواب "ينون". ما الذي يفضّلونه إذن؟

فقلتُ له:

- لماذا؟ إنها أفضل تجربةٍ إسبانية هنا..

- هيا إليك بمكانٍ آخر.. ها..

هذا هو "ينون" اللفظ الذي أعرفه ، لا يفضّل أي شيءٍ أفضله!

بادرتُ بقولي:

- إذا كنتم تريدون مكانًا يجمع بين الطعام الشهي ومزيج من أجود

أنواع النبيذ حتى تصبح ليلتنا راقية وعشاؤنا أنيقًا.. فلا بد لنا من الذهاب إلى أفضل "تاباس بار شرقي" في إسرائيل.. هيا بنا إلى مطعم

"ليلي مراد".

وهنا قال "مهاب" بلهفة:

- نعم هيا بنا إلى مطعم "ليلي مراد".. هيا بنا..

تهكّم "ينون":



- ما هذه اللفظة التي غمرتكَ عندما سمعتَ هذا الاسم العربي.. أتشعر  
بالغربة في أرض الجنة! كيف لآدمي أن يشعر بالغربة في قطعة من  
النعيم؟

التفتَ "مهّاب" إلى "ينون"، وابتسم مستنكراً:

- الشوارع العربية بالقدس كشارع "السلطان سليمان العثماني" وشارع  
"صلاح الدين" أطول شوارع الشرق الأوسط والممتد من "غزة" حتى  
"البنان".. ومقاهي وشوارع تحمل اسم "أم كلثوم".. ومطعم "تاباس  
شرقي" باسم "ليلي مراد" في "تل الربيع".. وغيرها بالطبع الكثير  
والكثير من الأسماء العربية.. أكبر دليل قاطع على عروبة الأرض  
وشرقيتها.. وغناء أغاني "أم كلثوم" في الكنيس اليهودي هنا.. ومدى  
تأثركم بحضارتنا.. نحن الشعب العربي المُعلم.. الذي صدر كل شيء  
وفي كل مجال لكل الدنيا.. نحن المصدر مهما حدث.. لن أنسى أنني  
عربي..

قهقه "ينون" وقال:

- تحدث عن حقبةٍ سحيقةٍ لن تتكرر.. أين العرب على الخريطة  
العالمية حالياً؟ أنا ناغمٌ على الحكومة الإسرائيلية.. لا أنكر ذلك..  
ولكن إسرائيل هي الأعظم.. وستظل القوة الخارقة التي تفعل ما لا  
تستطع أمةٌ مجرد التفكير في أن تحلم به..

يُجيبه "مهّاب":

- بالطبع.. أنا أنفق معك تمامًا في كل ما نقول.. لا تستطع أمةٌ أن  
تغتصب أرضًا ليست أرضها.. وتُشرد آلاف العائلات.. وأن تقوم  
بعمليات التطهير العرقي لبشرٍ مثلهم.. وتقوم بإطلاق الحيوانات  
والطيور آكلي الجيف لتلتهم جثث الشهداء.. بدلًا من أن يقوموا  
بدفنهم لتكريمهم كأموالٍ.. لا تستطيع أمةٌ أن تعتمد على أمواتها

أكثر من الأحياء منها.. وأن تعتمد على آراء العجائز المتعنفين الذين يعبدون الشيطان ويُظهرون اليهودية.

تدخلتُ محاولاً فضَّ النزاع الوشيك:

- هيا بنا يا أصدقاء إلى مطعم "ليلي مراد".. فالحوار لن يُجدي نفعًا هنا..

قررتُ اصطحابهما إلى سيارتي ، ولكن "ينون" قال:

- لا.. سنستقل سيارتي أنا..

وهكذا ركبنا سيارة "ينون" الأسطورية فائقة السرعة ، والتي أكاد أجزم أنها تحمل مُحرِّكًا لطائرة نفاثة ، لقد صنعوها خصيصًا له ، سأظلُّ أعتبرها تحفةً فنيةً لن تتكرر.

ها نحن أولاء قد وصلنا أخيرًا أمام مطعم "ليلي مراد".. شارع "هرتسل" رقم (٤).

يصدح المطعم بأغنيات "ليلي مراد" دائمًا ؛ فتنبعث الحياة بكل تلك الذكريات الرائعة ويتجدد الشوق لذلك الماضي الجميل ، دخلنا فاستقبلنا الجميع بالتصفيق الحار ، والترحاب الأكثر من المعتاد ، واستقبلتنا الأنغام الرائعة والصوت العذب ، حيث كانت إحدى المغنيات تشدو متغنيةً بأغنية "أنا قلبي دليلي" لـ"قيثارة المغني العربي" ، الجميع هنا يأكلون بالطابق الأول ، ويستمعون لأجمل الأغنيات الشرقية.

يا لها من مساحةٍ رائعةٍ ، ينتشر الجميع هنا في مساحةٍ تصل إلى مائة وسبعين مترًا ، اصطحبنا النادل إلى سلم كبار الزوار وابتسم قائلاً:

- إلى طابق كبار الزوار..

ولكن "مهتاب" هزَّ رأسه نافياً وقال:



- سأجلس بين الناس..

رَحَّبَ النادل بذلك وهو يُقدم إلى "مهَاب" التهاني الخاصة على إنجازهِ الرائع ، جلسنا على طاولةٍ عاديةٍ والناس العاديون من حولنا ، قدّم لنا النادل قائمة الأَصناف ، وبدأ كلُّ منا ينظر في قائمته ، لكن لأنني دائم الحضور هنا قررتُ قائلاً:

- سأتناول "سمك السلمون المشوي" مع "الفاصوليا".. وصلصة "الكسكس المغربي".. ومشروب "سنجارية الكنتالوب" بدون القرفة فأنا لا أحبها..

قال "ينون":

- أريد طبق "كعكات السمك" مع صلصة "الكسكس المغربي".. و"شاورما أرچنتينا" مع البيرة الإسبانية.

قال النادل إلى "مهَاب" وهو يتسم:

- ونجمنا المحبوب ماذا يُفضل؟

ابتسم "مهَاب" للنادل وقال بلطفٍ:

- "نقانق مغربية" مع الطحينّة و"شاورما".. ومشروب "سنجارية إسباني" مع شرائح البرتقال و"العنب الخليلي" بدون عسل وبدون غليان..

أنهى النادل تدوين طلباتنا ، ثم ابتسم قائلاً:

- سنحاول قدر الإمكان أن تكون الأطباق الطازجة جاهزة أمام حضراتكم في أسرع وقتٍ..

ثم التفت نحو "مهَاب" وقال بابتسامته:

- وخصوصًا النجم العالمي.. مزمار داوود الذهبي.. وشرف إسرائيل كلها.. بإذنكم..

قال "ينون" بلكنةٍ لا تخلو من التهكم:

- أووه.. لقد حصدت الشهرة هنا بعد صعلكتك في أمريكا.. لو علموا أنك عربي القلب والهوى ما استقبلوك بهذا الترحاب..

أجابه "مهاب" بثقة واضحة:

- أنت مخطئ في هذا يا صاح.. لو عرفوا بذلك لقابلوني بترحيبٍ أشد.. ولجعلوا فاتورة هذه الوجبات على حساب المطعم هنا..

أجاب "ينون" حانقًا:

- يا للثقة.. ولماذا قبلت إذن بالجنسية الإسرائيلية.. وتمثيل إسرائيل.. بالرغم من أننا نعرف حقيقة أمرك؟!

هنا تحدثت مقاطعًا هذا الحوار الذي كاد أن يتحول إلى مشادة ، وحوّلتُ دفة الحوار:

- إنه مكانٌ مفعّم بالحيوية.. والموسيقى تبعث على الإثارة والمتعة.. والواو.. والمغنية صوتها رائع.. ما رأيك يا "مهاب"؟

- بالفعل صوتها رائع.. والمطعم أكثر روعةً..

لم يكن على السنة الناس الجالسين بجوارنا إلا ذكر "مهاب" نجم الساعة ، أما بالنسبة لفريق عمل المكان فقد كان بالقرب منا بطريقة مهذبة ، ولياقة أنيقة ، أعتقد أن وجود "مهاب" معنا هو سبب ذلك الاهتمام لسببين ، أولهما إنجازه التاريخي الحديث جدًّا لإسرائيل ، وثانيهما والأهم شعبيته الجارفة ، وحب الناس لصوته الرائع.

قبل إحضار الطعام أتى فريق العمل هنا بزجاجةٍ من النبيذ الأحمر الإسرائيلي المصنوع من العنب الخلييِّ المعتمق..

قال "مهاب":

- مطعمٌ رائعٌ بالفعل.. والخدمة هنا غايةً في الرقي..

أضفتُ مؤكدًا:



- بالطبع.. وأهم ما في الأمر أن الأسعار مناسبة للجميع.. والجو رائع  
كما ترى بنفسك..

ثم أضاف "ينون":

- الجو يُصبح هنا خياليًا بعد منتصف الليل.. حيث الموسيقى الغربية  
الخلّابة.. فضلًا عن معظم الأطباق المتعددة الجوانب.. حيث  
يعطونك فرصة أكثر للاستمتاع.. ونسيان بعض أعباء الحياة على  
أنغام الموسيقى الرومانسية.

وعلى ذكر الرومانسية، رأيته يدخل من الباب يتقدم نحونا،  
"أساف"، صديقي الرائع وفخر إسرائيل، فهو من أقدر رجال "الشاباك"  
إن لم يكن أقدريهم. أعتقد أنها ستكون مفاجأة مدوية لـ"إيني" و"مهاب"  
فأنا لم أخبرهما أنه قادم، أمام نظراتهما الذاهلة نحوه، لم أستطع  
أن أتمالك نفسي من الضحك، هي بالفعل مفاجأة صادمة إلى حدٍ  
كبير، ابتسم "أساف" كعادته محاولاً فكّ جبينه القاطب، وقال بصوته  
الجذاب:

- مساء الخير يا سادة.. أتمنى ألا أكون ضيفًا ثقيلًا..

قال "ينون" بثقته المعتادة:

- كيف تكون ثقيلًا وأنت ممن اختارهم الرب نخبة للشعب المختار..  
هذا إن كان هناك رب؟!

ضحك "أساف" متهمكًا وأضاف:

- على الأقل أو من بوجود رب.. فلا تشغل بالك بهذه الأشياء التي لن  
تضيف إليك شيئًا..

وما إن جلس "أساف" واعتدل في جلسته حتّى ظهر من خلفه  
مباشرة وعلى مسافة قريبة جدًا "نضال" فقد استطعتُ أخيرًا أن أجمع  
هؤلاء النخبة المختارة بالفعل وعلى مائدة واحدة، فهؤلاء هم من

يرفعون من شأن إسرائيل ، أصحاب الذهب ، ومن يسطرون التاريخ من أجل إسرائيل ، "ينون" جوهرة إسرائيل الزرقاء وصاحب السعادة الكروية ، و"مهاب" صاحب جائزة الأغنية الأوربية وأحدث النجوم ، و"نضال" صاحب جائزة "نوبل" في الأدب ؛ والذي يقترب وهو يمشي الهُوِيَّتًا برشاقتة المعتادة ، في نفس اللحظة التي ابتسم فيها "أساف" قائلاً لـ"مهاب" بنعمة تهكُّمِيَّة:

- كيف حالك يا رجل ؟

أجابه "مهاب" بابتسامة يشوبها الاصفرار:

- الحمد لله.. بخير.

قال "أساف":

- حتَّى الآن.. سأصل إلى الحقيقة عما قريبٍ.. هكذا العرب دائماً بارعون في الاحتيال والتدليس.. ولكن ليس معنا..

هنا كان "نضال" يقف مباشرةً خلف كرسي "أساف" ، تحدّث "نضال" بصوتٍ خافتٍ في أذن "أساف" حتى لا ينتبه إلينا من حولنا من الناس:

- أما بالنسبة للإشكنازيم.. فهم خير من يحفظ الحقوق للشعب.. وخير من يشاطرون السفارديم والمزراحيم الحياة بعدلٍ بالغٍ ولا يتعاملون بعنصريةٍ وأئفةٍ مع أحدٍ.. وهم ليسوا بالطبقة المقيتة إطلاقاً.. ولم يتسببوا في التناحر الحزبي لا من قريبٍ أو بعيدٍ.. وخير من يعبدون "الرب" بإخلاص ولا يعرفون شيئاً عن عبادة "إبليس".. وخير من اختارهم الرب نخبه لشعبه.. فكانت هذه هي جائزة يهوديسي أوروبا التي حصلوا عليها بعد سبعة عشر عامًا من إنشاء الصهيونية كدفعة أولى لتنفيذ المخطط الماسوني.. وبعد ذلك كانوا مستعدين جيداً للخطوة الثانية في العام (١٩١٤) حيث الهجوم الفلسفي والسياسي تمهيداً للهجوم الحربي الفعلي..

جحظت عينا "أساف" وشهق غير مصدقٍ وجود "نضال" حيث  
اصطنع ابتسامَةً قائلاً:

- صاحب نوبل!!! من قام بنصب هذا الفخ لي؟  
أجابه "نضال":
- بالطبع "يائير".. فهذه ليست إلا أفعال اليهود..  
ضحك الجميع، أما أنا فقد استطعتُ أن أمنع قهقهتي بصعوبة..  
جلس "نضال" على مقعده وهو ينظر بتحدٍ إلى "أساف" وقال للنادل  
الذي اقترب منا مباشرةً فور جلوسه:
- فيليه لحم بقري مع الطحينية الحارة.. مع سنجاريا الكنتالوب..  
وأضاف "أساف" وهو ينظر بتحدٍ في عيني "نضال":
- البوري الأحمر المقلي مع الطحينية والليمون المخلل.. والبيرة  
الإسبانية..  
ابتسم النادل مدوناً ثم ذهب..  
نظر "أساف" إلى "نضال":
- ليلتك سيئة أيها العربي..  
ابتسم "نضال" مجيباً:
- لياليك القادمة أشد ظلمةً أيها اليهودي..  
زفر "أساف" زفيراً تهكمياً:
- متى تكفون عن أساليبكم القذرة.. وطرقكم الملتوية.. هذه الأرض لن  
تكون لكم يوماً..
- أنت تعلم أنها لن تكون إلا لنا.. توراتكم تقرر ذلك.

- بالطبع ولكن لن تكون لهؤلاء المسلمين الذين أنت منهم.. كذلك  
لسنا اليهود الذين سيستسلمون لكم.. أعتقد أن ذلك موجوداً فقط  
في أحلامكم..

- رحم الله القائل "إنَّ اليهود هم اليهود.. فلا صقور ولا حمام" .. لن  
تتغيروا.. أما نحن فلن نتركها لكم ما حيننا.. فلتنظر إلى تاريخكم..  
لم تكونوا في حِقْبَةٍ من أحقاب تاريخكم رأسًا في قضية.. بل أنتم  
كالشجرة الطفيلية التي لا تنمو إلا على ساقٍ غيرها.. وهكذا تظنون..  
ضحك "أساف" بصوتٍ مسموعٍ للجميع قائلاً:

- ثهللون وثكبرون وتقولون إن الله معكم.. يجب أن تبحثوا عن إلهٍ آخر  
يستجيب لكم..

- ومَن يستجيبُ لكم؟

- نحن من نُجيب.. فانظر إلى غيرك من العرب هنا.. من أراد منهم  
المال أعطيناه إياه.. ونوفر لهم الشهرة إن أرادوها.. فبالشهرة يُجنى  
المال وتحل المواطنة والعمل والتضحية لأجل إسرائيل..

- وماذا عن الجنس؟ ما بعد المال والشهرة توفرون الجنس لكي  
يُستنزف فيه.. ينقذون أوامرهم مقابل السيدات الجميلات والسيارات  
الفارهة والمزيد من أمور الترف واللهو الأخرى.. فتستقربون باليسرى  
ما أعطيتهم باليمنى وبأقوى وأقدر أسلحتكم.. النساء..

- استخدموا نساءكم إن استطعتم..

- نحن لسنا مثلكم.. ولن نصبح هكذا أبدًا.. فإن الدماء الحرة التي  
تجري في عروق الإنسان الحرّ لا تسمح له في التفكير بمثل هذه  
القاذورات.. وبما أنكم لا تستطيعون كتابة التاريخ لأنفسكم إستعنتم  
بمن لديه تاريخ وخبرة مديدة في كتابته.. فغيبتم عقول الكثيرين من  
العرب ليسطروا التاريخ من أجل إسرائيل..

- العرب ديدان وأفاعٍ قذرة لا تستحق الحياة.. ويجب علينا أن نسحقهم ونمحو آثارهم العفنة من الوجود..
- ضحك "نضال" واتسعت عيناه من فرط الثقة قائلاً:
- عندما تجتمع الأفاعي على اختلاف ألوانها وأشكالها لا بد أن يذوق بعضها سم بعض..
- ماذا تقصد؟
- لا شيء.. أتعرف بمَ تُذكرني؟
- بمَ.. يا.. عربي..
- بابنة هولاءكو.. أتعرفها؟
- لا أعرفها.. ولكنني أعرف هولاءكو..
- لقد ذكّرنتي بأحد المتشدددين "الأرثوذكس" الذي قال لي ما قلته تماماً، فسألته كما سألتك، فأجاب مثلك، فأجبتُه بما سأجيبك به الآن (ابنة "هولاءكو" كانت تطوف في بغداد فوجدتُ جمعاً من الناس يلتفون حول رجلٍ منهم فسألْتُ عن هذا الرجل ، فإذا هو عالمٌ من علماء المسلمين فأمرتُ بإحضاره ، فلما أحضره ، سألتُه: أَلستمُ المؤمنين بالله؟ قال: بلي ، قالت: أَلَا تزعمون أن الله يؤيدكم بنصره ، قال: بلي ، قالت: أَلَمْ ننتصر عليكم؟ قال: بلي ، قالت: فنحن أحب إلى الله منكم! قال: لا ، قالت: لِمَ؟! قال: أتعرفين راعي الغنم؟ قالت: نعم ، قال: أليس معه في قطيعه كلاب؟ قالت: بلي ، قال: ماذا يفعل الراعي عندما يشرد منه قطيعه؟ قالت: يرسل عليهم كلابه! قال: إلى متى؟ قالت: حتى يعود القطيع! قال: فأنتم كلاب الله؛ أرسلكم علينا طالما بقينا شاردين عن دينه حتى نعود إليه!) إنها الحقيقة يا هذا.. الحقيقة التي لا جدال فيها.. لكن ما يجب أن تعرفه أننا نصبر كما لم نصبرُ أمةً قط.. فصبرنا يعجز الصبر عن صبره..

إستشاط "أساف" غيظًا وشعرتُ أنا أيضًا بإحراجٍ شديدٍ وتمنيتُ لو أن تبتلعني الأرض ، لماذا يتحدث "نضال" بكل هذه الثقة المرعبة ؟

ولماذا يعتقدون جميعًا كمسلمين نفس الاعتقاد ؟

ولماذا لم يستطع أي يهودي أن يُجابه "نضال" في مناظرة ؟

لماذا دائمًا يُفحم الجميع رغم تكراره لنفس الحُجج ؟

أهو على حق ؟

كشّر "أساف" عن أنيابه وقال له:

- أتقصد أننا كلاب؟!!

يُومئ "نضال" مبتسمًا:

- ربما أنتم أقرب إليها من أن تكونوا شعب الله المختار.. أمل أن

تسامحني الكلاب على هذا. الشيطان في انتظاركم يا أصدقائي.. أودُّ

أن أوجّه رسالة للشعب اليهودي بحق وهي نفس الرسالة التي وجهها

لهم من قبل الكاتب والصحفي الأمريكي "بنيامين فولفورد"<sup>(٣٣)</sup>.. من

كان منكم يخاف الله فليحذر من تلك العصابات العابدة للشيطان

التي تحكمكم.. من منكم يستطيع أن يُخبرني لماذا تُوجد النجمة

السداسية على علمكم بدلًا من "المينوراه" أقدس رمزٍ يهودي ؟

بُهتنا جميعًا ولم يستطع أحدٌ منا أن يتفوّه ببيت شفةٍ واحتل

الصمت العشاء فسألته:

- لماذا يا "نضال" ؟

نظر إليّ وقد ابتسم متهمًا وأجابني:

- لأنها رمز شيطاني وليست رمزًا يهوديًا.. فعائلة "روتشيلد" التي خلقت

إسرائيل تعبد "لوسيفر" (إبليس).. هم لا يعبدون "يَهُوَه" فهم ليسوا

يهودًا حقيقيين.. اسمهم الحقيقي هو "پاور".. يقومون باستغلالكم..

وأنتم تجعلون من أنفسكم أغبياء عندما يجعلونكم تسيرون وفقًا لخططهم المجنونة.. أسرعوا وقوموا بالقبض على هؤلاء المجرمين الذين قاموا باحتلال كل المراكز القيادية هنا.. هذه ليست دُعابة.. هناك ما يكفي من الأدلة لكي يعرف كل واحدٍ أن هذا حقيقي..

سألته بلهفة:

- وما الحل الذي تقترحه لإقامة السلام بيننا على هذه الأرض؟
- بعيدًا عن كلمة هذه الأرض.. يجب أن تتخلصوا من المخطط (الصهيوماسوني) الذي كان سببًا في الحرب العالمية الأولى والثانية.. والمحركة النازية وقتل القادة عبر العالم فإنهم أسوأ نموذج للعصابات والمجرمين.. لقد امتد المخطط وجعل أمريكا تمر بأزمة اقتصادية كبرى لن تستفيق منها أبدًا.. واستطاعوا تحويل أوروبا إلى ديكتاتورية فاشية منقسمة على نفسها.. هم يقومون بهجومٍ فلسفي سياسي على قلوبكم وعقولكم كما يفعلون مع العرب.. والفرق أنهم يستخدمونكم للهجوم العسكري على العرب.. وسيأتي دوركم ويُسجرون من يقومون بالهجوم العسكري عليكم.. وإن لم تنصتوا إليّ وتصدقوا ما أقول.. فلن يحلّ السلام على هذه الأرض أبدًا وأبشروا بحربٍ عالميةٍ ثالثةٍ بعد دماركم على هذه الأرض..

نهره "أساف" بعصبيةٍ بالغةٍ ولكنه مُتحمك في طبقة صوته الخافتة حتى لا يلاحظنا الناس:

- هذه هي أرضنا التاريخية كما ذكر في التوراة والتلمود وستظل لنا إلى يوم الدينونة..

يُجيبه "نضال" بكل ثقة:

- هذا الكلام كذبٌ على الرغم من وجوده في كتبكم.. لقد أعاد حاخاماتكم كتابة التوراة وأضافوا إليها التلمود بأيديهم وهي أن الأرض المقدسة تمتد من نهر النيل بمصر وحتى نهر الفرات في العراق..

أكل هذه المساحة هي الأرض المقدسة! هذا افتراءٌ وتحريفٌ وتدليسٌ واضحٌ ولا ريب في ذلك..

عَنَّقَه "أساف" بشدةٍ قائلاً:

- لقد فقدت عقلك أيها العربي الحَرْف.. من أين لك بهذه الثِّرِهَات.. هل أتلفت "نوبل" خلايا عقلك الضئيل وأصابتك بالغرور! لماذا يحرف حاخامتنا العظام الناموس؟

- لتشتروا به ثمناً قليلاً.

- عن أي ثمنٍ تتحدث يا هذا؟

- قبل أن أجيبك عن هذا السؤال قل لي أولاً.. لماذا هناك أسفارٌ أخرى كثيرةٌ عندكم لم تدخل ضمن الأسفار القانونية التي يتكوّن منها تلمودكم.. وإن كنتم تُحيطون تلك الأسفار غير المعترف بها وتدعوها بـ"الكتب غير القانونية" أو "الأبوكريفا"<sup>(٣٤)</sup> بكثيرٍ من العناية والاهتمام وتجعلونها استمراراً لتاريخكم.. ونضع بين الأقواس (الأسود الدامي).

- هذا ازدراءٌ لديني أيها الأحمق..

- سأعتبرني أحمق كما تقول.. ولكن حتى نعرف من هو الأحمق أجبني إن استطعت.. "الأبوكريفا" كتبكم غير القانونية أو المخفية التي لم تُقبل عندما تقرر تسجيل أسفار العهد القديم في وضعها كأجزاء معتمدة من كتابكم المقدس.. ويسمّيها بعض باحثكم اليهود (الكتابات الخارجة)، ولكن بأية سلطةٍ وبناءً على أي مقياسٍ أُخرجت هذه النصوص؟! ها.. هل تستطيع أن تجيب؟

نظرتُ إلى "أساف" المحمّر الوجه وعينيه جاحظتين وهو فاغر الفاه لا يقوى على الإجابة، وأنا أيضاً لا أقوى أن أتقوه بشيء فأنا حقيقة لا أعرف الإجابة، فاستكمل "نضال" وهو يبتسم:

- سأجيبك أنا بالطبع لأنكما لن تستطيعا الإجابة.. بعض هذه الأسفار الخفية غير مقدّس ولا مُعتمد في نظر اليهود، بينما بعضها الآخر مُقدس أي معترف بأنه مُوحى به ومُعتمد في نظرهم، ولكن رأى أبحارهم وجوب إخفائه وقرروا أنه لا يجوز أن يقف عليه الجمهور ولا أن يُدرج في أسفار العهد القديم.. (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٣٥).

صرخ "أساف" في وجهه:

- تَبًّا لَكَ..

- ولكَ مثلها قلت.. سأعود بك مرةً أخرى.. هل تستطيع أن تُجيبني إذن لماذا الذراع العسكرية للصهيونية المدعو بـ"الناطو" يحتل العراق بفراثة ولو استطعتم أن تتخطوا أكثر من ذلك لفعلتم ولكن ذعركم من "إيران" يمنعكم.. ها؟

سألته بلهفتي المعتادة:

- لماذا؟

- لأن مخطط دجّالكم يجب أن تكون إسرائيل على كل هذه المساحة التي تحتوي على أهم مناطق النفط في المنطقة وأكثرها غزارة العراق والكويت والجزيرة العربية.. لهذا تتقدم إسرائيل حسب المخطط خطوةً بخطوة.. لذلك تعتبر أن لديها الحق في شن الحروب على الآخرين بدون وجه حق..

استشاط "أساف" غيظًا وأخذ يصيحُ في "نضال" و"مهاب" بالتبادل:

- هكذا أنتم أيها العرب تبدّلون الحقائق وتزيّفون التاريخ.. فمنذ قيام الحركة القومية اليهودية الإسرائيلية في أرضنا التي تُعد إرثًا يهوديًا خالصًا.. وعودة الشعب اليهودي ليكون سيّدًا على أرضه وحصوله على حق الاستقلال عام (١٩٤٨).. بدأت دولكم العربية بمهاجمة

كياننا العبري على كافة الأصعدة.. سوريا والأردن ومصر وبعض الدول المجاورة.. هاجمونا لانتزاع الأرض من أصحابها.. ولم تكتف أنظمة تلك الدول بفتح الجبهات مع دولتنا ومهاجمتها عسكرياً.. براً وجوراً.. بل اعتمدوا أيضاً على الحرب النفسية كمحاولة لإعطاء هجومكم المتكرر ومعاداتكم لنا تحت غطاء عقائدي وديني.. هذه إحدى أساليبكم القذرة ولا تزال الدعايات التي تثيرها أنظمتكم للثئيل من حقيقة إسرائيل كمملكة تريد الوجود على أنقاض دول وشعوب أخرى عبر احتلال الشرق الأوسط.. وأبرز افتراءاتكم ما تسمونه (دولة إسرائيل الكبرى) التي تمتد من النيل إلى الفرات.. تلك البدعة أثّرت على عقول الشعوب العربية التي تفتقد الثقافة بهذا الموضوع.. ولا يزال العديد منكم يؤمن بها..

أطلق "أساف" زفيراً تهكمياً واستطرد:

- لقد سيطرت الأنظمة العربية على كافة الوسائل الإعلامية في دولكم من صحفٍ وكتبٍ وصولاً إلى التلفاز والراديو.. وتحكمتكم بها واعتمدتموها من قبل حكامكم وسيلةً لنشر الأكاذيب والخرافات والافتراءات وتحريض الشعوب ضد إسرائيل وزرع الخوف والترهيب من الشعب اليهودي.. إستخدم حكامكم هذه الأساليب لإلهاء الشعب العربي عن مشاكله الداخلية التي لن تنتهي وقد أحكموا السيطرة على الشارع بقبضة ديكتاتورية.. ولعل إسرائيل كانت السبب المباشر لهؤلاء في الحفاظ على كراسيهم لسنواتٍ طوالٍ.. على الرغم من فسادهم واستهتارهم بحقوق شعوبهم.. وذلك من خلال إيهام المواطنين بأن هناك مارداً يُهدد وجودهم.. قل لي هل كان هناك من يجروء على معارضة زعيمه في زمن الحروب؟

نظر "أساف" إلى "نضال" المبتسم، ثم إلى "مهتاب" القاطب الجبين، وأكمل:

- بالطبع لا.. لذلك استطاعت الأنظمة العربية على مدى عقودٍ خلث بعد قيام دولتنا من تهيج شعوبها وإثارة الحقد في الشارع العربي ضد إسرائيل وشعبها الأبوي.. مما أدى إلى استمرار الحروب التي أوجدت الإرهاب وحصدت العديد من الأرواح والضحايا من كلا الجانبين.. والسبب الرئيسي إدامة السيطرة والدكتاتورية في هذه الدول.. من ذا الذي ابتدع ما يُسمى بإسرائيل الكبرى؟ هو ناصركم غير المنصور الذي كان مصابًا بجنون العظمة.. والتي دغدغت مخيلته إقامة إمبراطورية إسلامية في الشرق الأوسط تحت راية العروبة الموحدة.. ضاربًا بفرض الحائط حقوق الشعوب اللامسلمة واللاعربية التي وُجدت في هذه المنطقة قبل ظهور الإسلام على أراضٍ خارج حدود الجزيرة العربية موطن الإسلام والعرب الأصليين.. وهكذا بعد فشله في تحقيق مبتغاه استبدل الدولة العربية الكبرى ببدعة دولة إسرائيل الكبرى للترهيب من وجود الدولة العبرية.. لم يهتم الشعب الإسرائيلي يومًا باحتلال أراضٍ لا تعود له.. ولم يفكر أبدًا بإقامة دولةٍ على امتداد الشرق الأوسط كما يزعم العرب.. جُل ما أرادَه هو استعادة سيادته على أرضه التي تمتد من نهر الأردن حتى البحر المتوسط فقط لا غير.. لم يقتصر الوجود اليهودي في منطقة الشرق الأوسط على أرض إسرائيل فقط.. بل عاش العديد من أبناء يعقوب في دولٍ عديدة.. أذكر لكم منها على سبيل المثال لا الحصر.. المغرب.. بابل - العراق.. ومصر.. مقدمين لهذه الدول الكثير في سبيل تقدمها ونموها.. إلا أنهم لم يفكروا ألبتة في السيطرة عليها وإقامة دولةٍ لهم على أنقاض سيادتها.. رغم أنهم شكلوا جزءًا كبيرًا من السكان.. والسبب يعود إلى اعترافهم بإسرائيل.. فقط لا غير.. وطنًا تاريخيًا لأبناء شعب إسرائيل العظيم..

ونظر إلى "مهاب" قائلًا:

- وعندما يسألون هذا العربي في وسائل الإعلام يجيبهم بكل برودٍ  
ظاهراً ما لا يبطنه: "جئتُ من أجل تحقيق السلام" .. عن أي سلام  
تتحدثُ يا هذا؟!!!

ثم رمق "نضال" بنظرةٍ حادة:

- والبلستيني الآخر صاحب نوبل يقول دائماً "الن يهدأ لي بالّ قبل  
تحرير فلسطين.. وما زال يُطارِدنا حلم العودة" عن أي عودةٍ تتحدث..  
عن أي فلسطين هذه.. أنتم لا تُريدون سلاماً معنا ولا تُدافعون عن  
العدل والإنسانية كما تدّعون لقد جئتم بشعارٍ فارغٍ من العدل  
والحق.. اتركوا السلام لأصحابه..

وعاد يتحدث إلى "مهّاب" قائلاً:

- شكراً لأنكم جئتم أرضنا.. شكراً لأنكم ما زلتم تعملون معنا في أرضنا..  
لأنكم لولا إيمانكم بها كدولةٍ ديمقراطيةٍ تحترم حقوق الإنسان لما  
فكرتم أن تظّلوا فيها.. نصيحة اتركوا السلام لأهله وأبنائه الحقيقيين  
لأنكم في الحقيقة لستم إلا حفنةً من شاهدي الزور.. لأنكم لا ترون  
إرادة الفعل الإسرائيلية في الدفاع عن شعبها ولم تروا الهمجية  
الفلسطينية في قتل الإسرائيليين الأبرياء.. ترون هذا لأنكم غير  
عادلين ولا تعرفون للإنسانية معنى.. وحتى تعرفوا قيمة حياتكم  
معنا هنا.. أنصحكم برحلةٍ إلى سوريا والبلدان العربية المجاورة  
حيث الإنسان مقموع.. مذلول.. مهمش.. لا كرامة له.. وشكراً جزيلاً  
لكم لأنكم تتغنون بتحرير فلسطين.. ولكن لا حاجة لذلك الآن فإن  
فلسطين حُررت منذ زمنٍ وهي تُدعى اليوم إسرائيل..

صقّ "نضال" بحرارةٍ متهكماً ثم سأله:

- هل أنهيتَ المونولوج؟

أجابه "أساف" بعصبية:

- أنهيتهُ أيها العربي..



قال "نضال" بسخرية:

- يبدو أنك أنهكت نفسك لتحفظه وتؤديه بهذه الطريقة حتى نهايته.
- أجابه "أساف" ماطاً شفتيه بامتعاض:
- أنظني مثلكم؟

ابتسم "نضال" وفتح جهازه اللوحي الهولوغرامي ، وقال بثقة:

- بالتأكيد لست مثلنا.. ولن تكون. بكل بساطة أيها الإشكنازي المتغطرس.. أنتم تستندون بإيمانكم على ما تنصه عليكم كتبكم المقدسة.. حيث ادعى حاخاماتكم أنه جاء في التوراة: "الأرض الممتدة من الفرات إلى النيل هي معدة لكل ذرية إبراهيم وليس فقط لأبناء يعقوب".. وفي سفر (التكوين) ورد في الفقرة الثامنة عشرة: فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلًا: "لِنَسْلِكَ أُعْطِيَ هَذِهِ الْأَرْضَ، مِنْ نَهْرٍ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ".. وقد نصت التوراة وكتب التراث الإسرائيلي أن الأرض التي سيطرت عليها ذرية "كنعان بن حام" أرض كنعان هي أرض أبناء "يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الذي ينتهي نسبه إلى سام بن نوح" وهي ليست بأرضهم حيث جاء في سفر (العدد) الإصحاح الثالث والثلاثين من الفقرة رقم (خمسين) إلى الفقرة السادسة والخمسين: "(٥٠) وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى فِي عَرَبَاتِ مَوَّابَ عَلَى أَرْضِ أَرِيحَا قَائِلًا: (٥١) "كَلِّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّكُمْ عَابِرُونَ الْأَرْضَ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، (٥٢) فَتَطْرُدُونَ كُلَّ سُكَّانِ الْأَرْضِ مِنْ أَمَامِكُمْ، وَتَمْحُونَ جَمِيعَ تِصَاوِيرِهِمْ. وَتُبِيدُونَ كُلَّ أَصْنَامِهِمْ الْمَسْبُوكَةِ وَتُخْرِبُونَ جَمِيعَ مُزْتَعَاتِهِمْ. (٥٣) تَمْلِكُونَ الْأَرْضَ وَتَسْكُنُونَ فِيهَا لِأَنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ الْأَرْضَ لِكَيْ تَمْلِكُوهَا، (٥٤) وَتَقْتَسِمُونَ الْأَرْضَ بِالْفُرْعَةِ حَسَبَ عَشَائِرِكُمْ. الْكَثِيرُ تَكْثُرُونَ لَهُ نَصِيبُهُ وَالْقَلِيلُ ثَقِيلُونَ لَهُ نَصِيبُهُ. حَيْثُ حَرَجَتْ لَهُ الْفُرْعَةُ فَهُنَاكَ يَكُونُ لَهُ. حَسَبَ أَسْبَاطِ آبَائِكُمْ تَقْتَسِمُونَ. (٥٥) وَإِنْ لَمْ تَطْرُدُوا سُكَّانَ الْأَرْضِ مِنْ أَمَامِكُمْ يَكُونُ الَّذِينَ تَسْتَبْثُونَ مِنْهُمْ أَشْوَكَاءَ فِي أَعْيُنِكُمْ، وَمَنَاحِسَ

في جَوَانِبِكُمْ، وَبُضَايِفُونَكُمْ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ سَاكِنُونَ فِيهَا. (٥٦)  
فَيَكُونُ أَبِي أَفْعَلَ بِكُمْ كَمَا هَمَمْتُ أَنْ أَفْعَلَ بِهِمْ" .. ولهذا تقولون دائماً  
منطقة كنعان هي أرض إسرائيل التاريخية..

أكد "أساف" قائلاً:

- وهذه هي الحقيقة كما جاء في التناخ..
- التناخ.. هلموا بنا إلى التناخ.. (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ..
- ماذا تقصد؟
- ما نطالبكم به.. أولاً النسخة الأصلية للتوراة التي كتبها "موسى" (عليه السلام) أو أملاها على غيره.. وكذلك النسخ الأصلية لأسفاركم الأخرى..
- ثانيًا؟
- ثانيًا السند المتصل المتواتر الذي يُثبت سلامة النص الحالي لأسفاركم من التحريف والتبديل.. وتأتي الإجابة لطلبنا من أحباركم وحاخاماتكم وباحثيكم بأنهم لا يملكون النسخ الأصلية للتوراة أو غيرها من الأسفار.. وإن أقدم مخطوطة لديهم لأسفاركم تعود إلى القرن الرابع الميلادي.. علمًا بأن "موسى" (عليه السلام) قد عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد على الأرجح.. وآخر نبي من أنبيائكم في العهد القديم عاش في القرن الرابع قبل الميلاد.
- لكن لا توجد لدينا الآن هذه المخطوطات الأصلية التي دونها كتبة الأسفار المقدسة..
- هذا ما قد قاله مؤلفو قاموس الكتاب المقدس..
- فقدان النسخ والسند لكتبنا المقدسة لكثرة حوادث الاضطهاد والنكبات التي نزلت بنا خلال تاريخنا الطويل.. كالغزو الآشوري في سنة (٧٢٢) قبل الميلاد..

- ثم الغزو البابلي الشهير سنة (٥٨٦) قبل الميلاد.. ونتج عنه تدمير الهيكل وأخذ بني إسرائيل سبيًا إلى بابل.. ثم الاضطهاد اليوناني..  
 - وأيضًا الاضطهاد الروماني الذي استمر لعدة قرون.. وقد نتج عن هذه الاضطهادات إحراق أسفارنا وإتلافها ومنع قراءتها وقتل أبنائنا وعلمائنا الكبار.

- نضيف سببًا آخر مهمًا لضياع أسفاركم وانقطاع أسانيدكم..

قال "أساف" متهمكًا:

- ما هو أيها الفيلسوف؟

- كثرة حوادث الردة والشرك في بني إسرائيل وكفرهم بالله تعالى.. وإهمالهم للتوراة وغيرها.. وهي مذكورة في أسفاركم المقدسة.. ومنها ما ورد في سفر (القضاة) الإصحاح الثاني من الفقرة الحادية عشرة إلى الخامسة عشرة: " (١١) وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبُغْلِيمَ. (١٢) وَتَرَكُوا الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِهِمُ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَسَارُوا وَرَاءَ إِلَهَةٍ أُخْرَى مِنْ إِلَهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ، وَسَجَدُوا لَهَا وَأَغَاظُوا الرَّبَّ. (١٣) تَرَكُوا الرَّبَّ وَعَبَدُوا الْبُغْلَ وَعَشْتَارُوثَ. (١٤) فَحَمِي عَضْبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ، فَدَفَعَهُمْ بِأَيْدِي نَاهِسِينَ نَهَبُوهُمْ، وَبَاعَهُمْ بِيَدِ أَعْدَائِهِمْ حَوْلَهُمْ، وَلَمْ يَقْدِرُوا بَعْدَ عَلَى الْوُفُوفِ أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ. (١٥) حَيْثُمَا حَرَجُوا كَانَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ لِلشَّرِّ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ وَكَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ لَهُمْ. فَصَاقَ بِهِمُ الْأَمْرُ جِدًّا.. ولقد تكررت الردة والشرك بالله من بني إسرائيل مراتٍ عديدةً في عهد القضاة.

- ما هذا الهراء الذي تقول.. من أين لك بهذا؟

ابتسم "نضال" متهمكًا وأخذ يكمل غير مكترثٍ بسؤال "أساف":

- ثم تكرر ذلك في عهد الملوك، فقد ورد في سفر (الملوك الأول) الإصحاح الثاني عشر من الفقرة الثامنة والعشرين إلى الثالثة والثلاثين: (أن "يُرْبَعَامُ" استشار الملك وعمل عِجْلِي ذهب.. وقال

لهم: "كثيْرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا إِلَهْتُكَ يَا إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَصْعَدُوكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ"، وَوَضَعَ وَاحِدًا فِي بَيْتِ إِيْلَ، وَجَعَلَ الْآخَرَ فِي دَانَ، وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ خَطِيئَةً. وَكَانَ الشَّعْبُ يَذْهَبُونَ إِلَى أَمَامِ أَحَدِهِمَا حَتَّى إِلَى دَانَ<sup>(٣٦)</sup>.. ما ذكرته الآن يجب أن يجعل كل عاقلٍ منصفٍ منكم يرتاب ويشك في صحة نسبة التوراة الحالية إلى "موسى" (عليه السلام) وسلامتها من التحريف والتبديل..

إنهال "أساف" بقبضته على المائدة لتصدر صوتًا قويًا، إلتفت حولنا لنجد أن بعض الموجودين قد لاحظوا ذلك، تنحنحت بصوتٍ خافتٍ ولكن "أساف" استطرد:

- لقد تناولت أكثر مما ينبغي..
- تلك الأسباب وغيرها قد دفعت بالكثيرين من محققكم إلى الاعتراف بأن أسفار العهد القديم مشكوكٌ في أمر مؤلفيها.. وإليك مختصر لما يقوله محررو طبعة سنة (١٩٧١) الإنجليزية من كتابكم المقدس، وهي آخر طبعة معدلة من كتابكم وآخر طبعة حتى الآن..
- سأل "أساف" متعجبًا:
- عن أي محررين تتحدث؟
- فابتسم "نضال" مؤكدًا:
- محرريكم ومحققكم.. عليك أن تقرأ كثيرًا حول ذلك.. فإن معلوماتك حول دينك متواضعة جدًا..
- ابتسم "أساف" متهكمًا وقال:
- عليك أنت أن تقرأ يا هذا.. فكل ما تقرأه ما هي أكاذيب وتلفيقات..
- ابتسم "نضال" ولم يترك الفرصة لـ"أساف" بأن يهيمن على الوضع، فسأله مباشرةً:

- قل لي من مؤلف الناموس..
- الناموس؟
- أها.. الناموس.. أي (سفر التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية)؟
- مؤلفه "موسى" على الأغلب.
- على الأغلب ها.. ليس مؤكداً.. وماذا عن سفر "يشوع"؟
- مؤلفه "يشوع"..
- بل قال محرروكم ومحققوكم معظمه منسوب إلى "يشوع".. وماذا عن سفر القضاة؟
- مؤلفه "صموئيل"..
- ليس مؤكداً أيضاً.. بل قالوا محتملاً أن يكون مؤلفه "صموئيل".. ماذا عن سفر "راعوث"؟
- مؤلفه "صموئيل"..
- أشاح "نضال" برأسه نافيًا:
- لا بل قالوا مؤلفه غير محدد.. ولكن ربما يكون "صموئيل".. ربما.
- ثم استطرد بثقة:
- أيضاً سفر "صموئيل" الأول والثاني المؤلف مجهول.. وسفر الملوك الأول والثاني المؤلف مجهول.. وسفر "يونان" وسفر "إستير" المؤلف مجهول.. أما سفر أخبار الأيام الأول والثاني فالمؤلف أيضاً مجهول.. ولكن ربما جمعهما وحرّرها "عزرا".. وسفر "عزرا"؟
- كتبه "عزرا" بالتأكيد..
- لا أيها الواثق.. بل قالوا من المحتمل أن "عزرا" كتبه أو حرّره.. وسفر المزمير؟

- كتبه "داوود" طبعًا.. فهذا معروفٌ..

ابتسم "نضال" قائلاً:

- لا بل قالوا المؤلف الرئيسي "داوود".. لكنَّ معه آخرين وبعضهم مجهولون.. وسفر الأمثال والجامعة ونشيد الإنشاد المؤلف مجهولٌ.. ولكنها عادةً تُنسب إلى "سليمان".. أما سفر "أشعيا" ينسب معظمه إلى "أشعيا".. ولكن بعضه من المحتمل أن يكون قد كتبه آخرون.. وإليك بهذه..

- ماذا؟

- سفر "حَبَقُوق" .. لا يُعرف شيء عن مكان أو زمان ولادته.. وبعد هذه الاعترافات فإن الأمر لا يحتاج إلى زيادة تعليقٍ من باحثينا.. أتريد المزيد؟

فأجبتُه أنا قبل أن يتفوه "أساف":

- نعم.. ماذا أيضًا؟

لم أتدخَّل في أغلب الحوار مكتفيًا بالاستماع إليه بانتباهٍ، ولذا أجاب "نضال" وهو يبتسم ابتسامة النصر وهو يهزُّ جهازه اللوحي الهولوغرامي ببطءٍ ويتحسس به شاربه الغليظ:

- من الأدلة على عدم الوثوق بالتوراة الحالية أنها قد ضاعت من بني إسرائيل عدة مراتٍ لسنواتٍ عديدةٍ.. كذلك فُقدت في الغزو البابلي وحوادث الحروب الأخرى.. وهناك أيضًا أدلةٌ قاطعةٌ على عدم صحة نسبة التوراة الحالية إلى "موسى" (عليه السلام)..

هنا ما كان مني إلا أني تساءلتُ بقلبي:

- ما هي؟

ابتسم "نضال" وهو ينظر إليَّ:



- نصوص التوراة نفسها.. إليكم بعضها..

وأخذ يقرأ من جهازه اللوحي:

- خاتمة التوراة في سفر (التثنية) الإصحاح الرابع والثلاثين بداية من الفقرة الخامسة وحتى الفقرة الثانية عشرة " (٥) فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوَابَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. (٦) وَدَفَنَهُ فِي الْجَوَاءِ فِي أَرْضِ مُوَابَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَعُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. (٧) وَكَانَ مُوسَى ابْنَ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ، وَلَمْ تَكِلْ عَيْنُهُ وَلَا ذَهَبَتْ نَصَارَتُهُ. (٨) فَبَكَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى فِي عَرَبَاتِ مُوَابَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا. فَكَمَلْتُ أَيَّامَ بُكَاءِ مَنَاحَةِ مُوسَى. (٩) وَيَشُوعُ بْنُ نُونٍ كَانَ قَدْ امْتَلَأَ رُوحَ حِكْمَةٍ، إِذْ وَضَعَ مُوسَى عَلَيْهِ يَدَيْهِ، فَسَمِعَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَعَمِلُوا كَمَا أَوْصَى الرَّبُّ مُوسَى. (١٠) وَلَمْ يَثْمُ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لَوَجْهِهِ، (١١) فِي جَمِيعِ الْآيَاتِ وَالْعَجَائِبِ الَّتِي أَرْسَلَهُ الرَّبُّ لِيَعْمَلَهَا فِي أَرْضِ مِصْرَ بِفِرْعَوْنَ وَبِجَمِيعِ عِبِيدِهِ وَكُلِّ أَرْضِهِ، (١٢) وَفِي كُلِّ الْيَدِ الشَّدِيدَةِ وَكُلِّ الْمَخَاوِفِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي صَنَعَهَا مُوسَى أَمَامَ أَعْيُنِ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ". وبذلك ينتهي كتاب التوراة.. ولا أعتقد أن عاقلاً يجروا على القول أن كاتب هذا الكلام هو "موسى" (عليه السلام)..

سأله "أساف" بلهجة حادة، ولكن هذه المرة بنغمة خافتة:

- من هذا الأحق الذي حَقَّق في ذلك؟

فأجاب "نضال" وهو يتسم:

- ليس أحق بالطبع.. تلك بعض الملاحظات التي جعلت فيلسوفكم الهمام "باروخ سبنوزا" يُعلن صراحة قوله: "من هذه الملاحظات كلها يظهر واضحًا وضوح النهار أن "موسى" لم يكتب الأسفار الخمسة.. بل كتبها شخص آخر عاش بعد "موسى" بقرون عديدة.."



فجأةً خيم الصمت لمجرد رؤية النادل وخلفه حاملي الطعام ،  
وضعت الأطباق كل أمامه ما طلب.

نظرتُ إلى أصدقائي أستشفُّ ما بداخلهم ، فوجدتهم جميعًا بلا  
استثناء يرسمون ابتساماتٍ مصطنعةً لوجود عمَّال المطعم ، ولكن ما  
بداخلهم أقل بكثيرٍ مما حدث بين "نضال" و"أساف" ، ابتعد العمال  
عنَّا بضعة أمتار قليلة تاركينا نأكل على راحتنا ، ولأنهم سيظلون بالقرب  
إذا احتجنا شيئاً ، إمتنعنا عن الحديث الذي إذا فُتح مرةً أخرى لن  
ينتهي إلا بكارثةٍ حقيقيةٍ ، كارثةٍ لن نستطيع أحدٌ أن يتحمل عواقبها ،  
حتى ولو بعد حين.

تناولنا الطعام بنهمٍ متصنَّعٍ وحذرٍ حقيقيٍّ ؛ النظرات التي كانت بين  
"أساف" و"نضال" أكثر حدةً من الصراع الإسرائيلي - العربي ، إذا نظر  
"نضال" إلى "مهتاب" ابتسم من أعماق أعماقه ، أما "ينون" فلا يشغل  
باله بمثل هذه الترهات كما يدعوها هو ، فهو أشهر ملحدٍ في إسرائيل  
على الإطلاق!

لا أدري لماذا سيطر عليَّ شعورٌ في تلك اللحظات أنني مخنث  
الفكر ، تائهٌ في برائن الأفكار المتناحرة ، غارقٌ في هوة التناقضات  
وويلات الشكوك!

تَبَّأ.

## سفر (٣٢) "اللا سامية"

"لأنك شعبٌ مُقدّسٌ للرب إلهك.. وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض" (٣٧)

\*\*\*

"أنا الرب إلهكم الذي ميّزكم من الشعوب.. وتكونون لي قديسين لأنني قدوس أنا الرب.. وقد ميّزتكم من الشعوب لتكونوا لي" (٣٨)

\*\*\*

حقاً أشفق على أولئك العرب ؛ ليس لأن أصولي ترجع إليهم ، بل لأنهم بالفعل يستحقون الشفقة ، هم مثالٌ للمذلة بعد العزة ، مثالٌ لليأس بعد الأمل .

العرب..

لماذا يريدون طردنا من أرضنا؟

لماذا يريدون هدم ما بنيناه؟



لماذا يحبّون الهدم والتدمير؟ لظالما كان الهدم أيسر من البناء.  
ألهذه الدرجة يحقدون علينا؟ لماذا يُكنون لنا كل هذه الضغائن؟  
لماذا ينعتوننا بأحفاد القردة والخنازير؟

ليس هذا فقط؛ بل يحرض قرآنهم على ذلك ويدعو إليه.

لا لشيء إلا لأننا يهود!!

نعم نحن اليهود.

أولسنا بشراً؟

نؤمن بعقيدتنا، ونقدس أنبياءنا، قد نختلف فيما بيننا، وقد نُخطئ أحياناً، لكننا نظلُّ بشراً مثلهم، بل أفضل منهم، فهم مثالٌ للمفلس الفاشل، عندما لا يجد ما يصنع يبحث في أوراقه القديمة عن أي شيء، ولا يجد ما يفعله إلا أن يعلّق الأخطاء على أكتاف الآخرين، أو يلفقها لبعضهم، نحن لن نتنازل عن شبرٍ واحدٍ من أراضي المملكة!

"عندما نتقبل حدودنا، سنمضي عمرنا نصارع خلفها"

صدق "اينشتاين"، نحن الآن نسعى للسلام، وهم من يسعون إلى الحرب، لقد استعدنا ما لنا، أخذنا أرضنا التاريخية ولن نفرط فيها أبداً مهما كلفنا الأمر، حتى لو بُذلت آخر قطرة دماء في جسد آخر يهودي في المملكة، سنظل ندافع عنها ما حيننا من النهر إلى النهر، ومن البحر إلى البحر.

سيناء الحبيبة التي احتلّها المصريون قد رُدَّت إلينا، أرض طورنا الذي تنزّلت على قَمْتِه ألواح "موسى"، ومدفنه بعدما مات فيها، وقاعدة انطلاق "يشوع" ليكمل ما بدأه "موسى" ويفتح الأرض المقدسة، وليهبه الرب معجزةً لم يهبها لأحدٍ غيره من الأنبياء، فقد أحرَّ الرب له غروب الشمس أثناء فتحه لأورشليم حتى تم الفتح.

لن نضيع شقاء الملوك الذين حكموا المملكة عبر العصور ، مطلقاً ،  
فنحن أبناء الرب وأحباؤه وخلفاؤه على ظهر الأرض .

لن نفرط في "الفرات" أو أي شبر من أراضينا ، التي اغتصبها من  
قبل الآشوريون والبابليون وشردونا في أرضنا التي رُدَّتْ إلينا في نهاية  
الأمر .

أتعجب من أفعال هؤلاء العرب الذين يطالبون بحقهم الوهمي في  
أرض إسرائيل !

أقرب موعد الذكرى ، وبقربه أقوم بطقوسي التقليدية المعتادة ،  
أقوم بالولوج إلى الموقع الرسمي لمؤسسة "ياد فاشيم" على الإنترنت  
لمتابعة آخر التحديثات التي قامت بها المؤسسة عن ذكرى مأساة  
أسلافنا الغربيين ، بشغفٍ أتبع وأتابع ، أستعيد وأتذكر ، وأقرأ بعين  
دامعةٍ وقلبٍ يتألم ؛ حتى لا يتمكن النسيان من محو مرارة الذكرى من  
قلبي وعقلي .

ذكرى الهولوكوست (٣٩) .

وعلى الفور أصدر عقلي الباطن اسمًا يجعلني أشعر بالغيثان لتذكره ،  
قرأتُ عن كراهيته الشديدة لليهود ومعارضته المطلقة للصهيونية ، وهو  
مثالٌ للعربي المسلم السادي ، الذي يبحث عن أي مبرر يمكنه من  
التخريب ، من أجل العنصرية اللاسامية غير المبررة ، "أمين الحسيني" ،  
الملقَّب بالحاج ، وبالزعيم الفلسطيني ، ذلك المسلم الفاشي ، الذي  
شغل منصب مفتي القدس إبان فترة الانتداب البريطاني ، وفي فترة  
الثورة العربية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) وقد شغل منصب رئيس الهيئة  
العربية العليا طيلة الجزء الأكبر من عمره .

وفي عام (١٩٣٧) هرب من البلاد إلى العراق. وبعد فشل "ثورة رشيد علي" سنة (١٩٤١)، هرب من العراق أيضاً ، ليستقر به المقام في ألمانيا ، ليشارك في جرائم الإبادة ضد يهود أوروبا في نطاق ما سُمي بالقسم اليهودي تحت قيادة الدموي "أدولف آيخمان" رئيس القسم المكلف من قِبَل الجستابو الألماني بـ"الحل النهائي للمسألة اليهودية" ، فالنازيون أكثرها من استخدام الكلمات الملقطة وقتئذ لإخفاء الطبيعة الحقيقية لجرائمهم ، ثم أشرف على عمليات إرسال اليهود من مختلف الدول الأوروبية إلى معسكرات الإبادة ، وعند انتهاء الحرب فرَّ "آيخمان" إلى الأرجنتين مستعيئاً بالقاتيكان ، لكن رجال الموساد قد ألقوا القبض عليه في شهر مايو/ أيار عام (١٩٦٠) واصطحبوه إلى إسرائيل ، وجرت محاكمته في أورشليم خلال عامي (١٩٦١ - ١٩٦٢) ليتم بعدها تنفيذ حكم الإعدام به.

لقد أمل الحاج "أمين" في أن يتقدم الجيش الألماني ، بعد النجاحات الملموسة التي حققها في شمال إفريقيا ، إلى جهة الشرق (مصر وأرض إسرائيل).

وخلال اجتماعه بالنازي المتعفن "أدولف هتلر" في الثامن والعشرين من نوفمبر تشرين الثاني عام (١٩٤١) تلقى منه وعداً بأنه حين يتم احتلال الشرق الأوسط سيقضى على اليهود القاطنين فيه. وقد ألحَّ الحاج "أمين" على المسلمين في الالتحاق بوحدة تابعة لـ(إس إس) (شوتزشتافل - الوحدة الوقائية) في منطقة البلقان وساعد على إنشاء وحدة عسكرية ضُمَّت بعض المسلمين من البوسنة ، وقد أطلق على تلك الوحدة اسم "العرب الأحرار" وساهمت في قتل أعداد كبيرة من اليهود في البلقان.

لقد خاب ظنك يا حاج "أمين" حين اعتمدت على الفاشل الآخر الذي تدبو في وريده العنصرية بدلاً من الدم الإنساني ، الديكتاتور الكَلْبِي القدرة الذي حكم ألمانيا النازية في فترة ما بين (١٩٣٣-١٩٤٥) والذي قضى عليه جنون العظمة والشهرة ، لينتهي به المصير منتحرًا في مقر قيادته في ملجأ في مدينة برلين .  
"هتلر".

ذلك المعتوه! كيف تمكّن من إقناع شعبه بأنه زعيمٌ كاريزميٌّ! وشيئاً فشيئاً أصبح النازيون تحت قيادته أكبر حزبٍ في ألمانيا ، ذلك الحزب النازي<sup>(٤٠)</sup> ذو الأيدولوجية العنصرية التي تقوم على القومية الألمانية المتمزّمة والعنصرية اللاسامية على وجه الخصوص ، تلك الأيدولوجية التي تضمنت رؤيةً عنصريةً بحتةً تتمثل في تفوق بعض العناصر البشرية على غيرها دون مبررٍ ، ولم تكتفِ بذلك لكنها سعت لقمع العناصر الدنيا بل وإبادتها ، إضافة إلى نقاوة العناصر العليا! ثم ناهض النازيون الديمقراطية والليبرالية والشيوعية بضراوة ، ليتكفروا من إيجاد أساسٍ قوي قامت عليه سياستهم المريضة واحتلوا الكثير من المناطق لتقع تحت سيطرة ألمانيا البلد المتعزز المتجدد.

أدّت الممارسات العنصرية للحزب النازي بعد وصوله للحكم سنة (١٩٣٣) إلى نشوب الحرب العالمية الثانية في وقتٍ لاحقٍ ومحرقه يهود القارة العجوز "الهولوكوست" دون ذنبٍ يُذكر ، تلك المأساة الإنسانية التي تُلطخ جبين البشرية ولن تمحوها أي تعويضات مهما بلغت ضخامتها.

في الثلاثين من كانون الثاني عام (١٩٣٣) وبدعمٍ من رجال اليمين والمحافظين تم تعيين المجنون النازي مستشاراً لألمانيا ، وبعد وفاة الرئيس الألماني "هندنبورغ" عام (١٩٣٤) أصبح طريق الحكم ممهداً

أمامه دون منازع وجميع السلطات في يده ، فقام بإنشاء "الرايخ الثالث" الذي مثل دولةً شموليةً تعتمد على جهازٍ قمعيٍّ إرهابيٍّ ضخمٍ ، وتُطبق سياسةً مناهضةً لليهود تقوم على العنف اللاأدبي واللاسامي .

غزا المحببول النازي بولندا في أيلول / سبتمبر (١٩٣٩) ليشعل بذلك الشرارة الأولى لأكبر حربٍ عالميةٍ في تاريخ البشرية ، ولم يكتفِ بذلك ، بل قام بأكبر مجزرةٍ عرفتها الإنسانية وإبادة ستة ملايين من اليهود والقتل المتعمد للملايين من الأبرياء غيرهم ، ليصبح ذاك الديكتاتور السيكوباتي المسئول عن سياسة القتل الجماعي الممنهج لليهود الذين وقعوا في برائنه ، ولأن القاتل يُقتل ولو بعد حين انتحروا المحنون في الأول من أيار عام (١٩٤٥) بعد استسلام ألمانيا نهائيًا للحلفاء .

كانت الإبادة الجماعية لليهود تتويجًا لعقدٍ كاملٍ من الزمن تزايد فيه بجنون استخدام آليات التمييز ضد اليهود ، واللاسامية التي لم ننجوا منها إلى الآن ؛ فكثيرًا ما تُطاردنا نظرات الكراهية ، أو التحرش اللفظي علنًا أو على مواقع التواصل الاجتماعي ، إضافةً إلى العمليات الانتحارية التي تستهدف أفرادًا من اليهود مدنيين كانوا أو عسكريين ، وتدمير ممتلكاتهم ، ومؤسسات الجاليات اليهودية ومراكزها الدينية .

لماذا يُنظر إلى مملكتنا على أنها كيانٌ يهودي جماعي؟ ولم لا يستطيعون استيعاب أننا نُكوّن مزيجًا متناسقًا من أعراقٍ مختلفةٍ؟ فنحن وإن تنوّعت بيننا الديانات المختلفة يحتويونا كيانٌ واحدٌ لنشكل وحدةً واحدةً موحدةً على أرض الرب .

واللاساميين لا يتوقفون عن محاربتنا بشتى الوسائل ، فكثيرًا ما يُوجهون إلينا كيهودٍ تهمة التآمر على إيذاء الإنسانية! ويعبرون عن

مشاعرهم الكريهة بأبشع الأوصاف ويحملوننا مسئولية فساد وإفساد العالم.

وهذا لا يحتاج إلى دليلٍ فذلك واضحٌ وضوح الشمس في كبد السماء ، وهو موجودٌ في الحياة العامة ووسائل الإعلام والفن والمدارس وأماكن العمل والمشهد الديني في بلدانٍ كثيرةٍ حول العالم ليس فقط في البلدان العربية والإسلامية المجاورة.

والأمثلة على ذلك لا تُعد ولا تُحصى بدايةً من الدعوة إلى قتل اليهود أو المشاركة الفعلية في قتلهم ، أو تبرير قتلهم وإيذائهم باسم أيديولوجية راديكالية أو وجهة نظر دينية متشددة ، إلى إطلاق النكات السخيفة وتشوية معتقداتنا ، كما يُثيرون مزاعم نمطيةً كاذبةً تنطوي على شيطنة اليهود ووصفهم بأوصافٍ لا إنسانيةٍ ، وتلفيق الأسطورة التي تدورُ حول مؤامرةٍ عالميةٍ يهوديةٍ مزعومةٍ ، وسيطرة اليهود على وسائل الإعلام والاقتصاد والحكم ، واتهام الشعب اليهودي بمسئولية ظلم حقيقي أو ملفقٍ ارتكبه فردٌ أو جماعةٌ من اليهود أو حتى أفراد من غير اليهود.

هؤلاء المهرطقون قد نفوا حقيقة وقوع إبادة الشعب اليهودي على أيدي الحزب النازي ومؤيديه وشركائه خلال الحرب العالمية الثانية ، كما نفوا أبعاد الهولوكوست الحقيقية وآلياته وكونه عملاً مدبراً متعمداً ضد الشعب اليهودي ، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا باتهام اليهود بعد ذلك بأنهم اختلقوا الهولوكوست وقاموا بتضخيم أبعاده ، كما اتهموا المواطنين اليهود بأنهم أكثر ولاءً لإسرائيل أو للأولويات المزعومة لليهود على مستوى العالم منهم لمصالح بلدانهم!

لصالح من يستخدمون الرموز والصور التي كانت تستخدمها اللاسامية الكلاسيكية وادعاء بأن اليهود قتلة المسيح؟

أيعقل أن يقتل اليهود مسيحيهم المنتظر؟

على كل حال مسيحننا المنتظر لم يظهر بعد ، وحال ظهوره لن نقتله ، بل سنؤمن به جميعًا.

أشاعوا أيضًا أن اليهود يقتلون الأطفال المسيحيين لاستخدام دمائهم في طقوسهم الدينية وما إلى ذلك من خرافاتٍ لا أساس لها! بأي حقٍ يكيلون بمكيالين ، فيطالبون إسرائيل بسلوكٍ لا يتوقعه أحدٌ ولا تطالب به أي دولة ديمقراطية أخرى؟ كيف لهم أن ينفوا حق الشعب اليهودي في تقرير مصيره بادِّعاء أن مملكتنا الفتية مشروعٌ عنصريٌّ؟ إسرائيل أيها الحاقدون الفشلة على حدِّ تعبير غير اليهود هي مجمعٌ للأديان السماوية وكيانٌ بشريٌّ متناغمٌ رغم كيد الكائدين.

هل قصُّوا عليكم ما قد حدث في "ليلة الزجاج المحطم"؟

تلك الاعتداءات المنظمة غير المبررة التي اجتاحت ألمانيا والنمسا ليلة التاسع والعاشر من نوفمبر تشرين الثاني عام (١٩٣٨) ، وكانت حصيلتها حرق وهدم نحو ألف معبدٍ يهودي في أنحاء الرايخ ، وتدمير ونهب ما يزيد على ثمانمائة محل تجاري ، وهدم وإلحاق الضرر بمئات المنازل ، ولكثرة الزجاج المحطم في المعابد والمحلات اليهودية سميت "ليلة الزجاج المحطم" ، وبلغ عدد المغدور بهم من اليهود واحدًا وتسعين شخصًا في حين تم اعتقال نحو ثلاثين ألفًا منهم ، ومن ثم ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال النازية لمجرد كونهم يهودًا! وبعد انتهاء الاعتداءات الغاشمة فُرضت على اليهود غرامة بمبلغ مليار مارك وطولبوا بإصلاح الأضرار اللاحقة بممتلكاتهم على نفقتهم الخاصة!

لماذا تمَّت كل هذه الاعتداءات؟

ما من عاقل يعقل أنها تمَّت كردة فعل طبيعية على اغتيال السكرتير الثالث في سفارة ألمانيا بباريس "إرنست فون رات" على يد "هيرتسل

غرينشبان" الذي كان تم ترحيل والديه إلى مدينة زبونشين ، ولكنها العنصرية التي تجري في عروقتهم مجرى الدم هي السبب بكل تأكيد. هل سمعتم بمعسكر "مايدانك" لإبادة أعداء الرايخ الثالث والمساهمة في إبادة اليهود وعمليات الترحيل وإعادة التوطين التي جرى تنفيذها بحق البولنديين القاطنين في منطقة "زاموشتش"؟ هل تستطيعون رؤية ثلاثمائة وستين ألف ضحية هلكوا في ذلك المعسكر؟ أستمطيعون حصرهم؟

هل تقبلون أن تكونوا بين ربع مليون شخصٍ قد أُرغموا على السير على أقدامهم تحت حراسةٍ مُشددةٍ لمسافاتٍ كبيرةٍ في ظروفٍ لا إنسانيةٍ وقد قُتلوا أو ماتوا خلال مسيرات الموت من صيف عام (١٩٤٤) حتى نهاية الحرب العالمية الثانية؟

عليك أن تتخيل كيف كان يعذب الحراس المعتقلين ويقتلون أعدادًا كبيرةً منهم ، هكذا كان يُخلي الألمان معتقلاتهم النازية ، وهكذا استمروا في إخلاء معسكراتهم حتى آخر يوم من عهد الرايخ الثالث ، وهذه هي المعاملة التي كان يتلقاها المعتقلون اليهود.

تصوّر أنك تعيش في أحد المعسكرات الانتقالية التي يتم تجميع اليهود بها إلى أن يتم إرسالهم بالقطارات إلى معسكرات الإبادة في بولندا بغير إدراكٍ منهم لتعرف مدى المعاناة التي عاشها أسلافنا.

لا تتناسوا معسكري "فستربورك" و"ميخلن" بهولندا ، ومعسكر "درانسي" بفرنسا ، وإن تناسيتم فلا تناسوا المعسكرات الانتقالية في وسط وغرب أوروبا لإبعاد عملية تجميع اليهود وحبسهم عن أعين الناس ، خلافاً للسياسة التي اتبعتها أوروبا الشرقية حيث تم اعتقال اليهود في الغيتوات داخل المدن والقرى.

كان الهدفُ الوحيدُ من إنشاء معسكرات الإبادة النازية في بولندا المحتلة هو القتل العمد لنا ؛ لليهود!

حين بدأ النازيون في القتل الجماعي الممنهج لليهود بعد غزوهم الاتحاد السوفييتي في شهر حزيران يونيو (١٩٤١) بدأت تجارب استخدام الغاز السام في "أوشفيتس" وغيره من معسكرات الإبادة كمعسكر "بيلجيتس" و"خيلمنو" و"مايدانك" و"سوبيبور" و"تربلينكا" ، لقد قاموا بإنشاء هذه المعسكرات خصيصًا لقتل اليهود بطريقةٍ جماعيةٍ غير آدميةٍ باستخدام الغاز السام.

هل يُعقل أن تتحمل الإنسانية إنكار كارثة إبادة نحو ثلاثة ملايين ونصف المليون شخصٍ من مجموع اليهود الذين تمّت إبادتهم في معسكرات الإبادة كجزء من الحل النهائي النازي؟

عند انتهاء الحرب العالمية الثانية كان في أوروبا حوالي خمسة عشر مليون نازحٍ من أبناء شعوبٍ شتى ، أُعيد معظمهم إلى أوطانهم ، فيما تم تعريفُ الباقين والبالغ عددهم نحو مليوني شخصٍ بالنازحين ، حيث خُصصت لهم معسكراتٌ وقعت تحت مسؤولية سلطات احتلال الحلفاء على أراضي ألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وقد تم إنشاء بعضها في معسكراتٍ نازيةٍ سابقةٍ مثل "بيرغن بيلزن" و"بوخنفالد" وغيرهما ، ولا يُعرف العدد الدقيق للنازحين اليهود الذين أقاموا في هذه المعسكرات ، ولكنه يُقدر بنحو مائتين وثلاثين ألف نسمة ، وقد مكث الناجون اليهود في المعسكرات لمددٍ تراوحت بين بضعة أشهر وبضع سنوات ، وكان البريطانيون في تلك الحقبة يمنعون هجرة اليهود إلى أرض إسرائيل ، مما ألزمهم بالبقاء في المعسكرات لوقتٍ طويلٍ .

كانت الحياة في تلك المعسكرات صعبةً ، وكان الغذاء شحيحًا ، ولم تكن فرص الخروج منها والعودة للحياة الطبيعية كبيرةً ، ولكن

اليهود سعوا لإدارة حياةٍ مفعمةٍ بالنشاط داخل المعسكرات ، حيث أنشأوا أجهزةً تعليميةً وتأهيليةً بالإضافة إلى عقد مؤتمراتٍ لحركات الشبيبة والأحزاب ، وإقامة الاحتفالات والحفلات الفنية الثقافية ، وذلك في محاولةٍ حثيثةٍ للعودة إلى الحياة الطبيعية ، وقد استمر نشاط معسكرات النازحين حتى إغلاقها بين عامي (١٩٥٣ - ١٩٥٤).

لن يتمكن الفشلة والمجدفون من تزوير التاريخ لصالحهم ، فالشعب اليهودي قد قُتل غدرًا ، قُتل عمدًا ، قُتل حرقًا ، احترق ليصبح رمادًا لكن الرياح لم تجرؤ على أن تذروه ، مُنح حياةٌ جديدةٌ ليخرج مرةً أخرى من الرماد كعنقاء جديدة ، قوية ، فتية ، شعبًا جديدًا نهض من محنته ليثبت للعالم أن الروح البشرية لا تُقهر ، جابه الصعاب وقاوم الضغائن ، وأصبح يملك السيادة على أرضه التاريخية ، أنشأ دولته وأسس ملكه على أسسٍ حضاريةٍ بين التجديد والتجدد ، وأصبح الوحيد الذي له حق تقرير مصيره دون التدخل من أحدٍ ، ولا أحد يملك الحق في ذلك ، اليهود من لهم كل الحق في بناء أرضهم ، والنهوض بمجتمعهم ليواكب ركب العصر والتقدم والتطور والرقي لخدمة شعبه الأبوي ، بل وخدمة الإنسانية كلها.

لقد ظللنا نحلم لعقودٍ وعقودٍ باستعادة حياتنا الطبيعية ، واستدعاء أمجادنا ، حلمنا لم يضع بعدُ ، الحلم عمره أكثر من ألفي عامٍ ، طالما تكمن بالقلب نفس يهودية تشتاق للنظر نحو الشرق ، للنظر نحو أورشليم ، للنظر إلى جبل صهيون ، لنصبح أمةً حرةً واحدةً موحدةً على أرضنا ، أمة لا تتنافر فصائلها وإن اختلفنا..

فنحن أمةٌ عظيمةٌ شامخةٌ على أرضنا ، أرض الميعاد...  
بيت الرب.



## سفر (٣٣) "يَدُ قَاشِيم"

في إحدى ليالي "الأحد" من شهر نيسان / إبريل ، وفي تمام الساعة (١٩:٠٠) ، تعالتُ صرخاتُ الشوفار متتاليةً منذرةً ومذكرةً ، الموسيقى الحزينة تصدح من كل الأنحاء لتُعم الأرجاء ، الإذاعة تُذع علينا آلام الذكرى المريرة ، والتلفزيون يبث كل ما هو أليم ، تصرخ الحناجر بأهاتٍ مستغيثةً ، تعلو تارةً وتهبط أخرى وتأبى تارةً أن تخرج ، تذكّرنا بآلام الكارثة ومأساة أسلافنا الغربيين في مثل هذه الليلة قبل عقود ؛ تحت وطأة النازيين ومن عاونهم وتجبرهم ، إنها ذكرى الهولوكوست .

اشتعلت شموع المينوراه ، وقف الجميع في منازلهم ، كحال كل الإسرائيليين وقفْتُ أنا وزوجتي وأولادي دقيقة للحداد ، ففي هذه اللحظة في كل منزلٍ إسرائيلي الجميع يفعل ما نفعل ، كل المحلات قد أغلقت تمامًا ، الحزن يُخيم على الجميع ؛ بلا استثناء ، فعلى الكل أن يحزن ، فلا يحق لنا أن ننسى ، فكيف يتسنى لنا نسيان ما يجب أن يتذكره العالم ؟

وفي صباح اليوم التالي "الإثنين" نقف جميعًا دقيقتين للحداد ،  
لننطلق بعد ذلك لزيارة المقابر وإشعال الشموع تائبًا لذكرى أكبر  
مأساة حلّت بالشعب اليهودي على مدى تاريخه ، بل أكبر كارثة  
ومذبحة عرقية في تاريخ البشرية كلها ، ومن هناك توجهنا إلى متحف  
تاريخ الهولوكوست بأورشليم ، ذلك المتحف الذي استغرق إنشاؤه  
عقدًا من السنين ، ليجمع أفضل ما تملكه مؤسسة "ياد فاشيم" من  
خبرة وموارد ومعروضات غاية في الحداثة ، للانتقال بذكرى المحرقة  
اليهودية إلى القرن الحادي والعشرين ؛ لتبقى شهادةً على الظلم البين  
الذي تعرضنا إليه على يد أعداء الإنسانية.

قد تبهرك المساحة الضخمة للمتحف ولكن المأساة تستحق أكثر  
من أربعة آلاف ومائتي متر مربع ، معظم هذه المساحة تحت سطح  
الأرض ، ولكونه متعدد ومتكامل التخصصات في آنٍ واحدٍ ؛ فهو  
يعرض تلك المأساة من وجهة نظر يهودية فريدة من نوعها ، مشددًا  
على تجارب الضحايا كأفراد من خلال المصنوعات اليدوية الأصيلة ،  
وشهادات الناجين ، والممتلكات الشخصية لهم.

بنية المتحف الخطية تحمل شكل السهم ، وتبلغ من الطول مائة  
وثمانين مترًا تخترق الجبل لتنتهي إلى منور ناتئ من طرف الجبل ،  
ويتفرع من هذا الممر الأشبه بالسهم معارض تُصور تعقيد الحالة  
اليهودية خلال تلك السنوات الرهيبة ، فيما تبرز فتحة الخروج بشكلٍ  
درامي من جانب الجبل ، لتسمح بإلقاء نظرة على الوادي الممتد من  
أسفل ، ويعمل المحيط والخلفية والفضاءات متباينة الأطوال ودرجات  
الإضاءة المتغيرة على إبراز النقاط للرواية التاريخية الحزينة التي تسرد  
وقائعها الواحدة تلو الأخرى.

وعند نهاية الرواية التاريخية تنجلي "قاعة الأسماء" ؛ وهي المكان الذي أودعت فيه "وثائق الشهادة" لملايين من ضحايا الهولوكوست ، وتمثل مكاناً لتخليد ذكرى الذين هلكوا فيه .

ومن "قاعة الأسماء" يواصل زوار المتحف طريقهم إلى نقطة النهاية ، ومن ثم إلى الشرفة التي تطل على مشهد بانورامي ساحر لمدينة أورشليم الخالدة .

هذا ما يراه الجميع ، وما تُحاول مؤسسة "ياد فاشيم" أن توصله للجميع وكل من يفكر في زيارة المتحف ، وما تجعله متاحاً للمعرفة على موقعها الرسمي على الإنترنت .

كنا نتجوّل أنا و"سارة" والأولاد حين التقيتُ صدفةً برئيس مجلس الإدارة الذي رحّب بي ، كما رحّب بزوجتي والولدين :

- آدون يائير.. يا لها من صدفةٍ رائعةٍ.. اليوم ازددنا شرقاً بوجودك.. هل تفضلون معي لتناول مشروبٍ بمكتبي ؟

فأجاب "يوسي" :

- أبي نريد أن نكمل التجول بالمتحف..

فابتسمتُ "سارة" قائلةً :

- يمكنكُ الذهاب.. سأكمل التجول أنا والأولاد..

توجهتُ مع رئيس مجلس الإدارة إلى مكتبه ، وعلى الفور قد جاء المشروب ، أشعل سيجارته وبدأ في شرحه المستفيض حول مجمع المتحف وما يحتويه ، لو لم يبدأ هو لبادرته بالأسئلة ، فما أحوجني لمعرفة ذلك منه شخصياً :

- يُعتبر متحف فن الهولوكوست أكبر وأشمل مجموعة للأعمال الفنية على مستوى العالم في مجال الهولوكوست.. إذ يحوي نحو عشرة آلاف

عمل فني.. يعود معظمها إلى حقبة الهولوكوست نفسها.. وكما تعلم آدون "يانير" أن الفن يوقر وجهة نظر مختلفة إلى الهولوكوست.. وهي وجهة نظر الفرد.. كما أنه أداة لا تستهدف العقل وحده.. وإنما تدخل وتتسلل إلى القلب مباشرة..

ثم أخذ ينفث دخان سيجارته وهو يستمر في الشرح:

- يستقبل الزائر لمتحف الهولوكوست جداراً منحنيّ تُعرض عليه مختارات من المجموعة.. قام بإبداعها فنانون مختلفون.. أما في فضاءاته الأخرى.. فقد تم تنظيم المعرض بحسب المواضيع.
- في الواقع إنني لاحظت أنه يُركز على صورة الإنسان والمناظر.. ومنها مناظر الغيتو والمعسكر من الداخل والخارج.
- بالطبع.. فقد حُصص حيزٌ شخصي لكل من الفنانة شارلوتا سلومون والفنان كارل دويتش.
- لكن تفكيري يقف عند هذه النقطة.. كيف يستطيع الفنان أن يُبدع وهو في هذه الحالة من الخوف والقلق.
- لا يخفى على أحد أن القيام بالإبداع الفني إبان فترة الهولوكوست يُمثل مخاطرةً كبيرةً ومجازفةً بالحياة؟
- بالتأكيد.
- لذا قام الفنانون بإنتاج أعمالهم من مواد كادت تكون غير متوافرة.. وفي فترة قصيرةٍ وضمن ظروفٍ معيشيةٍ صعبةٍ للغاية.. وقد بقيت مثل هذه الأعمال.. ولكن الفنانين الذين أبدوها لم يبقوا على قيد الحياة.. وقد تم إنتاج معظم الأعمال على قصاصات من الورق رقيقة متفتتة.. تحتاج إلى العناية الشديدة.. لذلك لن تبقى معروضات المتحف معروضةً دائماً.. بل سيتم تغييرها كل بضعة شهور.. لإعادة المواد التي تعرّضت للضوء حين عرضها في المتحف إلى الظلام..

ويتيح هذا التغيير الدائم عرض عددٍ أكبر من الأعمال الفنية في المتحف..

- شيء رائع حقًا..
- ليس هذا فحسب.. بل تنتظر زوارَ المعرض تجربةً فريدةً سواء من حيث موضوع الهولوكوست.. أو من حيث الفن.. ذلك أن الأعمال ليست مجرد توثيق.. إذ تعبر هذه القصص من ورقٍ عن قوة إبداعية مذهلة.. حيث كان الفنان المبدع الذي صنعها يعرف أنها فرصةٌ وحيدةٌ نادرةٌ قد لا تُتاح له مرةً أخرى.. فعبرَ من خلال تلك الخطوط القليلة المرسومة على الورقة عن كل ما عنده.. أتمنع بأن نأخذ جولةً معًا؟
- لا مانع بالطبع..

انتقلنا معًا إلى جناح المعارض ، وهو مقومٌ كبيرٌ من مقومات مجمع المتحف ، يحتوي على معارض كبيرة متعددة المجالات ويعرض أعمالاً فنيةً كبيرة الحجم وتماثيل ونماذج لمنشآت ، فاستمر وهو يُبين لي كل شيء بدقة:

- مساحة جناح المعارض تبلغ سبعمائة متر مربع.. يتضمن تشكيلةً واسعةً من المعارض التاريخية والموضوعية والفنية.. تفتح نوافذ فريدةً على العوالم الخارجية والداخلية لضحايا الهولوكوست.
- رائع.. هذا يُضيف أيضًا منظوراتٍ فريدةً إلى المحاولات المتواصلة لفهم مغزى الهولوكوست.
- إن مؤسستنا تتعامل دائمًا مع التحدي الرئيسي الكامن في كيفية جعل ذكرى الهولوكوست ذات شأن بالنسبة للشباب.. وللاحتفاظ بجمهورنا الذي يضم ملايين الشباب.. علينا أن نكون ديناميين.. وهو ما تسمح لنا به معارض الجناح..

- جهد رائع يستحق الثناء..

اصطحبني بعدها إلى "مركز الموارد المرئية"، ذلك المركز الرائع الذي يجمع تشكيلةً من الأفلام التي تتناول موضوع الهولوكوست من نواحٍ متعددة، قال وهو يتقدم أمامي:

- الهدف الأول من هذا المركز يتمثل في إنشاء البوابة الرائدة التي تقدم للعلماء والطلاب وصانعي الأفلام والجمهور العام إمكانية مشاهدة الأفلام التي تدور حول الهولوكوست والحصول على معلوماتٍ كافيةٍ عنها..

- هذا يدعوني للإعجاب الشديد.

- تضم المجموعة أفلامًا امتلكتها مؤسستنا على مرّ السنين من أجل المشاهدة والدراسة.. ولا ينشغل مركز المواد المرئية في جمع أفلامٍ إضافيةٍ وحل المشاكل المتعلقة بالملكية الفكرية فحسب.. ولكن في تنمية قاعدة بياناته للحصول على معلوماتٍ مفصّلةٍ حول جميع الأفلام التي تم إنتاجها حول الهولوكوست.. بالإضافة إلى شهادات الناجين.. وتضم قاعدة البيانات هذه آلاف الأفلام التي تمت فهرستها.. حيث أصبح الآن ما يزيد على نصف هذه الأفلام قابلاً للمشاهدة في المركز نفسه.. كما يمكن مشاهدة جميع شهادات الناجين البالغ عددها اثنين وخمسين ألف شهادة..

- واو.. يا للمجهود الخرافي..

- ليس هذا فحسب.. بل هذه الشهادات مسجلةً من قبل معهد صندوق الهولوكوست التابع لجامعة جنوب كاليفورنيا (USC) بالإضافة إلى ما يُقارب عشرة آلاف شهادة للناجين من الهولوكوست تابعة لـ"ياد فاشيم" نفسها.

- حقًا إنه لشيءٌ مُذهلٌ.. ولكن كيف للمشاهدين أن يختاروا من بين هذا الكم الهائل؟

- يستطيع زوار مركز المواد المرئية مشاهدة الأفلام بنقرة واحدة على أي من الحواسيب المنتشرة ههنا.. إما عبر اختيار الأفلام الأكثر شعبية التي يقترحها طاقم العاملين في المركز.. وإما من خلال البحث عن أفلام حسب النوع أو الموضوع أو معايير أكثر تحديداً.. كما يتم العرض الجماعي لأفلام المركز في قاعة مصممة خصيصاً لهذا الغرض.. وذلك عند انعقاد مؤتمرات وندوات علمية وتعليمية حول موضوع الهولوكوست والسينما.

انتقلنا بعدها إلى مركز التعلم ، استوقفني لوحة معلقة فأخذتُ أقرأ محتواها:

"أصبح واضحاً أن هذا التحدي الكامن في عملية حفظ الذكرى ونقلها إلى أجيال المستقبل لا يمكن الارتقاء إليه عبر كتابة التاريخ وحدها.. فهناك حاجة إلى وسائل أخرى لإنجاز هذه المهمة الضخمة.. فبالإضافة إلى تساؤلات تاريخية مثل "ماذا حدث؟" و"كيف حدث ذلك؟" و"لماذا حدث؟"، علينا توجيه سؤال آخر الآن.. وهو "كيف كان يجب أن يكون؟".. إذ لا يجوز لنا ترك الهولوكوست يبقى في عالم الأعداد الكبيرة والتصريحات العامة".

البروفسور "أهارون أبلفلد"، الكاتب والناجي من الهولوكوست، مؤسسة ياد فاشيم، عشية ذكرى الهولوكوست، سنة (١٩٩٧).

نظر رئيسُ مجلس الإدارة أرضاً وهو يعدل من وضع نظارته ، وقال بنغمة حزينية:

- من المرجح أن يواجه زوار متحف تاريخ الهولوكوست الجديد عدداً من المعضلات الأخلاقية والتربوية واللاهوتية والفلسفية.. بالإضافة إلى بعض القضايا المؤرقة التي تتجاوز مجرد سرد الأحداث التاريخية.. كيف أصبح شعبٌ مثقفٌ في أوروبا الوسطى في القرن العشرين

مرتكبًا للإبادة الجماعية؟ ما الذي يجعل الهولوكوست حدثًا فريدًا من نوعه؟ ماذا حل بمفهومَي الخير والشر بعد الهولوكوست؟ كيف صاغت صدمة الهولوكوست طبيعة العالم والهوية اليهودية والإسرائيلية؟ كيف يمكننا طبع ذكرى الهولوكوست في أذهان الأجيال المستقبلية؟ كيف يمكن الاستفادة مما حدث حتى لا يتكرر مرةً أخرى؟

- كيف؟

- للإجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نتعرف على مركز التعلم الجديد الذي تم إنشاؤه بفضل الدعم السخي والتعاون مع ستيفلا وسام سكورا من الفرع الآخر بالولايات المتحدة.. يساعد المركز الزائر على التعامل مع مثل هذه المسائل والمهموم.. من خلال إرشاده إلى تدارس الجوانب المختلفة لهذه القضايا.

حقًا إنها تساؤلاتٌ منطقيةٌ ، وعلى الجميع أن يبحث عن إجاباتٍ منطقيةٍ ، وأعتقد أن من يبحث عن إجاباتٍ لن يجدها إلا هنا ، واستمر قائلاً:

- إن مركز التعلم.. أو مركز التعامل مع المسائل الكبرى التي يثيرها "الهولوكوست" ليس مركزًا عاديًا محوسبًا للمعلومات.. بل قد تم تصميمه من أجل تمكين الزائر من الخروج في رحلة استكشافيةٍ شخصيةٍ.. ففي مدخل المركز يقوم شعاع من الضوء تدريجيًا بإسقاط التساؤلات التي تُشبه نقاط الماء على وسط الأرضية.. ثم تلتقي التساؤلات لتحيط بالغرفة كأموحٍ من الماء.. وهو ما يعكس فكرة أن التساؤل الواحد ليس سوى نقطةٍ في بحر.. ولكنه قادرٌ على توليد أمواج وأمواج من التساؤلات الأخرى أثناء تحركه.

تغيرت نغمته الحزينة إلى النغمة الإرشادية وهو يقول:

- ويعرض المركز ما بين عشرة وعشرين سؤالاً أساسياً يتطلب دراسةً جادةً متعمقةً.. وتسمح منطقة في وسط الغرفة للمجموعات بدراسة ومناقشة بعض هذه التساؤلات عبر عددٍ كبيرٍ من العروض التقديمية المتعددة الوسائط.. حيث يرافقها مربون مدربون من الهيئة التدريسية للمدرسة الدولية لدراسات الهولوكوست.. وتم تزويد الدائرة الخارجية المحيطة بمنطقة عقد اللقاءات التي تتوسط الغرفة بالحواسيب والسماعات التي تسمح بالدراسة الفردية أو الثنائية.. حيث يشاهد الزائر ويسمع ويقراً الآراء التي يُعبر عنها حول "المسائل الكبرى" الناجون من الهولوكوست والقادة الروحيون والمفكرون والكتاب والفنانون والمؤرخون وكبار الباحثين.. ويضم الباحثين كبار مؤرخي مؤسستنا.. والأساتذة الجامعيين الأجلاء.. لن يُسعفنا الوقت في ذكر أسمائهم.. أما الذين يريدون المزيد من التعمق في هذه المسائل.. فإن مؤسستنا تضع بتصرفهم قواعد البيانات والأدوات التعليمية في مركز التعلم.

ثم أضاف مبتسماً:

- قام بتصميم مركز التعلم الذي تأسس كمشروعٍ مشتركٍ بين دائرة تدريب المعلمين ودائرة الإرشاد وتطوير المناهج الدراسية في المدرسة الدولية لدراسات الهولوكوست.. ستوديو "مولي بن ساسون".

انتهت جولتنا هنا لننتقل إلى الكنيس الموجود بجمع المتحف ، لتنتابني القشعريرة ، وهو يُضيف:

- إن هذا الكنيس يعرض أدوات العبادة اليهودية من كنس في أوروبا.. أما الكنيس الآخر الذي قام بتصميمه المعماري "موشيه سافدي" وقامت على تصميمه الداخلي شركة "تموز".. به مكانٌ يستطيع فيه الزوار تلاوة صلاة "الكاديش" على أرواح ضحايا الهولوكوست من أبناء عائلاتهم.. والصلاة على انفراد أو جماعة في الجو الجماعي الذي يوحي به الكنيس.

- إذن هذا الكنيس يُعتبر كمنصبٍ تذكاري.
- هذا هو الهدف من إنشائه.. فهو بمثابة المنصب التذكاري للكنس الأوروبية المدمرة.. ويبلغ عددُ المعروضات في الكنيس واحدًا وثلاثين بما فيها أربعة توابيت خاصة بلقائف التوراة وغيرها من أدوات العبادة والصلاة التي جمعت من بعض الكنيس في مختلف أنحاء أوروبا.

ثم توقف لحظاتٍ ليتنهد تنهيدةً طويلةً ليكمل بعدها:

- لقد تم جلب جميع توابيت التوراة من رومانيا.. وذلك بمساعدة المرحوم البروفسور "نيكولاي كاجال".. الرئيس السابق لاتحاد الطوائف اليهودية في "رومانيا".. وبدعم من الحكومة الرومانية.. وكانت مديرة المتاحف "يهوديت عنبار" و"حافيفا بيلد-كارميلي" كبيرة أمناء المصنوعات اليدوية.

لقد بذلتا مجهودًا رائعًا.

- بالفعل فقد تجولتا في جميع أنحاء رومانيا للبحث عما تبقى من اللوازم اليهودية للطائفة اليهودية الرومانية التي كانت من الطوائف اليهودية المزدهرة.. وكان من بين ما اكتشفته تابوتٌ لللقائف التوراة.. وذلك في منزل أحد المواطنين الرومانيين والذي كان يستخدمه خزانة للملابس.

أحقًا ما تقول؟

- نعم إن هذا كلام موثَّق.. ستجده مكتوبًا بالنص في موقعنا الرسمي على الإنترنت.. ليس لدينا ما نخفيه.. بل نبذل قصارى جهدنا كي نجعل العالم يعرف الحقيقة كاملة كما يجب.. وهذا هو دورنا..

رائع جدًا.. هل عثرتا على شيء آخر هناك؟

- بالطبع.. لقد عثرتا على تابوت للقائف التوراة الذي تبقى من كنيس اتحاد تجار التفاح في مدينة لاسي الرومانية.. وستار لتابوت من

مدينة كلوج.. أما تابوت التوراة الأهم.. فقد تم العثور على واجهته في "بارلاد".. كما يحوي الكنيس في المتحف بعض لوازم العبادة من "بولندا" و"اليونان" و"ترانسنيستريا" و"ألمانيا" و"سلوفاكيا".

وقال بنغمة دراماتيكية حزينة:

- سأردد ما رددته من قبل "أفنيير شاليف" رئيس مجلس إدارة مؤسستنا سابقاً: "سيبقى كنيس ياد فاشيم بمثابة النصب التذكري لأماكن العبادة المدمرة ليهود أوروبا.. حيث سيكون شاهداً على الإيمان غير القابل للاجتثاث وثراء العالم الروحي لليهود الأوروبيين والرغبة الاستثنائية للشعب اليهودي في البقاء والتذكر وإعادة البناء.."

ثم نظر إليّ مبتسماً وهو يُحاول إخفاء دموعه حاولت التسلل خارج عينيه قائلاً:

- هنا قد انتهت جولتنا.. هل من شيء آخر تريد معرفته آدون "يائير"؟
- أشكركَ جزيل الشكر.. فلولاك ما تسّى لي كل هذه المعرفة القيمة.. لقد سعدتُ بصحبتك كثيراً..
- هذا شرفٌ كبيرٌ لي.. أتمنى أن نلتقي ثانية..
- بالتأكيد.. هذا يشرفني.. فقد تكون ضيفاً على برنامجي.. كما أنني أفكر جدياً في أن تبني القناة مشروع فيلم تسجيلي عن المتحف.. شكراً جزيلاً لك..

تصافحنا ثم انصرفتُ واصطحبتُ "سارة" والأولاد للعودة إلى المنزل مرة أخرى ، لقد استمتعتُ حقاً بهذه الجولة القيمة رغم الآلام التي شعرتُ بها ، وأتمنى أن تكون "سارة" قد استمتعتُ هي الأخرى.

كنتُ طوال الطريق صامتاً ، فالיום علمتُ أكثرَ لِمَ يجب على كثيرين إنكار هذه المأساة ، بل وإنكار حجمها الذي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار ، والذي يجب أن يلقي تسليط الضوء الإعلامي العادل

على مقدارها ، إن إبادة ستة ملايين من أبناء الشعب اليهودي ليس بالعدد القليل على الإطلاق ، والأمر لا يتوقف على العدد فقط فهم كانوا يمثلون ثلث اليهود في العالم أجمع! لقد شهدت المحرقة الغاشمة البربرية القضاء على الآلاف والآلاف من الطوائف والمهاجر والمجتمعات اليهودية بكل ثرواتها المادية والروحية ناهجين سياسةً نازيةً لاساميةً متمثلةً في ألمانيا وكل الدول التي دارت في فلكها ضاربةً بحقوق الإنسان وحقوق المواطنة عرض الحائط ، لقد كانت جريمةً ممنهجةً ؛ لا تهدف لقتل اليهود لكنها تسعى لإبادة اليهودية كدين .

نعم لقد تمت إبادة اليهود في أوروبا المحتلة بشكلٍ شبه كامل ، لتصبح أكبر مأساةٍ من الممكن أن يتعرَّض لها بشرٌ ، ولن ينسى التاريخ هذه الجريمة التي لا تمّت للإنسانية بأدنى صلة .

ولكن هل هذه هي آخر فاجعة قد يتعرَّض لها أبناء الشعب اليهودي؟ يا ترى هل هناك من لا يزال يؤمن بالعقيدة النازية اللا سامية؟ أهنالك من لا يزال يُنكر إبادة ثلث الشعب اليهودي ويستطيع أن يصف نفسه بأدمي؟

ألا يزال هناك من يرى أنه لا محل لليهود في المجتمع البشري؟

## سفر (٣٤) "مُصْرَائِيلُ"

لم تكن نظراتُ "أساف" إلى "مهَاب" محملةً بأي مودةٍ أو ترحيبٍ بالمرّة ليلتها، لقد كان النقاش بين "أساف" و"نضال" حقًّا لاذعًا، لكن كان الحقد واضحًا بيّنًا على "أساف" تجاه "مهَاب" الذي لم يحدث بينهما أي نقاشٍ بالمرّة! ثرى ما السبب وراء هذا الكُره العميق تجاه "مهَاب"؟ بالتأكيد ليست الغيرة من نجومية "مهَاب" وشهرته، لا بد أن هناك سرًّا عظيمًا يعرفه "أساف" عن "مهَاب"، لا أستطيع أن أسأل "أساف" عن ذلك، لكنني بدأت أتذكر عدم حماسه عندما أخبرته بموافقة "مهَاب" على تمثيل إسرائيل في مسابقة الغناء الأوروبية، هكذا بدأت الأمور تتضح لي، لكن هناك جزءًا ناقصًا لتكتمل الأحجية، هذا الجزء لا يعرفه إلا ثلاث، "مهَاب" و"أساف"؛ وبديهيًّا "مور".

أخذ مني التفكير مأخذه في هذا الأمر محاولًا التوصل لحل هذا اللغز، لكن جرس هاتفي بصوته الناعم أخرجني من هذه الدوامة الفكرية التي أمرُّ خلالها، إنه "مهَاب" على الطرف الآخر من المكالمة

يريد زيارتي بالمنزل ، رحبتُ بذلك ، سعدتُ "سارة" هي الأخرى بهذه الزيارة ، بينما أعد "موشيه" و"يوسي" كاميراتهما الخاصة لأخذ بعض الصور التذكارية مع نجم المملكة الأول ومزمارها الذهبي.

أخيراً وصل "مهّاب" إلى منزلنا ، فاستقبله الولدان استقبالاً أحرّ من استقبالنا له في المطار بعد الفوز بالجائزة ، فابتسم "مهّاب" من أعماق أعماقه ، كان الولدان يطوفانه وأجبروا "سارة" أن تلتقط لهما الصور معه ، ثم أجبرتني "سارة" أن ألتقط صورها معهم تارةً ، ثم معه تارةً أخرى .

وما أن انتهى حفل الصور التذكارية حتى ذهبت "سارة" لإحضار الضيافة التي تقننت في إعدادها ، لقد أحضرت كل ما تشتهي الأنفس من الحلويات الشرقية والغربية ، ومشروب "السنجارية" التي أخبرتها سابقاً أنه يُحبه ، كان كل شيء طازجاً كما عودتنا "سارة" هنا في البيت ، جلسنا معاً جلسةً عائليةً افتقدتها منذ زمنٍ بعيدٍ ، كنت أشعرُ بالألفة والمودة ، شعرتُ أن قلوبنا جميعاً تتعانقُ بشفافيةٍ وحب ، شعرتُ بنبضات قلب "مهّاب" تُهرول في سعادةٍ غامرةٍ ، ولكنَّ عينيه كانتا تشعان بالشجن المغلف بالدموع ، كنت أتمنى ألا تنتهي جلستنا العائلية لكنه عندما بدأ يشرد منا تارةً ويعود إلينا تارةً أخرى ، قررتُ أن أرفع هذه الجلسة العائلية التي إن طالت لتحوّل الأمر إلى حُكمٍ غير عادلٍ بالمرّة .

نهضتُ واصطحبته إلى غرفة مكثبي ، وأنا أعلم العواقب عندما يذهب "مهّاب" ستغثالني "سارة" بعد أن نتقاتل أنا و"موشيه" و"يوسي" ، ولكن كان لا بد من اتخاذ مثل هذا القرار الذي لا بديلٍ سواه في مثل هذه الحالات ، شعرتُ أن "مهّاب" لديه الكثير لقوله ، وربما فتح لي قلبه ، وقصَّ ما يؤرقه .

وأخيراً قرر "مهّاب" أن يفتح لي قلبه ويقصُّ عليّ ما لم ينبث بينت شفةً به لأحدٍ على وجه الأرض ، نعم فقط أنا ، ولا أحد سواي ، بدأ يقص ، والدموع تملأ عينيه وتأبى ألا تتساقط!

نعم بدأ بالنطق أخيراً بشيءٍ غير الغناء ، نعم إنه يتحدثُ بمشاعر الإنسان ، لكنه طلب مني ألا أقاطعه مطلقاً ، وأخيراً تجرَّد من شخصية الفنان:

- أبي قتله الكبد الذي تفشى في الشعب المصري ، وأمّي مرضت بالسرطان وأجبرتني الظروف أن أتحمّل مسؤولية أمّي وأسرّتي الصغيرة ، المكونة من ثلاثة أولادٍ غيري وبنّت في العقد الأول من العمر ، فكنت أعمل إلى جانب الدراسة وبعدما تخرجتُ متفوقاً على كل أقراني وكنت أول دفعتي بجدارةٍ ولأنني فقير ابن فقير لم أأخذ مكاني الطبيعي بين زملائي المعيّدين في الجامعة وبالتالي فقد عملت في أكثر من وظيفةٍ ليل نهار ، حتى وصلت أيام لم أكن أستطيع النوم أكثر من ساعتين ، حتى أستطيع أن أوفق بين العمل ، ولكن لضيق الحال توفيت أمّي متأثرةً بمرضها ، لأنني لم أستطع أن أوفر المبلغ المطلوب لعلاجها ، رغم أنني لم أكلّ أو أمّل من العمل ، أو أشتكي لبشرٍ عن معاناتي ، ومعاناة أسرتي ، ظللت على عهدي أن أتكفل بإخوتي الملتزمين مني ، وأن أسترهم بكرامة ، والتزامي بتحمّل كل المصروفات الكفيلة بتعليمهم ونفقات دروسهم ، بخلاف الطعام والشراب والسكن الكريم ، لم يتحمّل أخي الذي أكبره بخمس سنوات تعبي ونصبي فقرّر أن يعمل كي يساعدني على هذه المسؤولية فقرّر الهجرة إلى إيطاليا لتغرق عبّارته بالبحر ليموت هو وكل من معه فيها ، لم يكتمل مسلسل الحزن بهذا فقط ، فقد اكتمل بأن يأخذ معه أخويّ الاثنتين التوأم أثناء ذهابهما إلى المدرسة في الأوتوبيس الخاص بهما ليصدمه قطار ، ويقطف الموت وروداً في مستقبل العمر..

نظرتُ إليه لأرى الدموع تنهمرُ من عينيه بلا توقّفٍ ، ورغم ذلك واصل حديثه عن حياته الممزقة التي أصابتنى بصمتٍ قاتلٍ قد تملّك من كل جوارحي بلا استثناء:

- لم يتبقّ لي إلا الأخت الأصغر "نونا" .. التي كانت تتمنى أن أصبح أفضل مطربٍ في مصر ، تحققتُ أمنيتها وأصبحتُ أفضل مطربٍ لكن في إسرائيل .. برأيك .. هل تعتقد أن إسرائيل تستحق أن أفضلها على "نونا"؟

نظرتُ إليه ولم أستطع الإجابة فاستطرد:

- أعتقد أن الإجابة باتت واضحةً .. وأخذتُ قراري بالفعل وتركتُ "نونا" عند خالتي وعقدت العزم على السفر مع "طارق" لإسرائيل ، وعندما منعنا السلطات المصرية من السفر لإسرائيل .. وهددونا بالاعتقال حال إصرارنا على ذلك أو المحاولة مرةً أخرى .. اضطررنا إلى عبور الأنفاق التي دُمّر معظمها في عام (٢٠١٣) عقب الثلاثين من يونيوه وأثناء عبورنا التقينا بأفارقة كانوا يحاولون الهرب ، ولكنهم كانوا مدججين بالسلاح .. واشتبكوا مع قوات الأمن المصري على الحدود قبل دخولهم الحدود الإسرائيلية .. نعم شاهدنا الموت بأبمّ أعيننا .. حقيقة طعم الخطر مُرٌّ .. وحبس الأنفاس أهم مميزاتة .. نعم رأينا الاشتباكات ضاريةً .. داميةً .. تطايرت الأشلاء بالقرب من أقدامنا .. ولطخت وجوهنا الدماء ..

شعرتُ باللهفة ولم أستطع الانتظار فسألته:

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

- في النهاية عبرنا .. نعم أخيراً عبرنا إلى داخل إسرائيل .. ذاك الحلم الذي تحقّق أخيراً .. وخطوتُ أولى خطواتي إلى داخل الأرض الخضراء التي طالما حلمتُ أن أدخلها وكادت تكون الأخيرة .. ولكن شاء الله أن أدخلها بسلام .. وحملتُ على عاتقي أحلاماً لا تُعد ولا تُحصى ..

وبالفعل مع أول اختبارٍ حقيقي لم أجد "طارق" صديقي بجانبني ولا ما وعدني به قد أوفاه.. وعند أول كمينٍ مرَّ هو لأن والدته تحمل الجنسية الإسرائيلية.. أما أنا فكدتُ ألقى مصير السجن لولا الحظ.. وبالفعل استطعتُ المرور ولم أجد "طارق" بعد.. أين سأذهب؟ وكيف سأعيش؟ ومن أين سأكل؟

وبنفس اللهفة عاودتُ السؤال:

- وماذا فعلت؟

- جُبْتُ الشوارع.. ونمْتُ على الطرقات حتى اهتديتُ إلى محطةٍ للوقود.. وطلبتُ من صاحبها العمل وبعد عدة محاولاتٍ وافق على الطلب.. كنتُ أعمل بالوردية الليلية حتى أضمن مكانًا للمبيت.. وفي إحدى الليالي المظلمة.. المعتمة.. التي لم يكن فيها قمرٌ على الإطلاق.. ضرب رأسي الهواء.. وشعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في الغناء.. غنيتُ وكما لم أعنٍ من قبل.. حتى إنني كنتُ أسمع صدى صوتي قد وصل أبعد مداه.. وعندما انتهيتُ من الغناء وفتحْتُ عيني فوجئتُ بوجه امرأةٍ جميلةٍ كوجه القمر الغائب في تلك الليلة.. وهي تبتسم بأعجابٍ.. كانت في أواخر العقد الرابع من العمر على حسب اعتقادي.. طلبتُ مني أن أركب إلى جوارها.. فترددتُ.. فقالت: "لا تخف فأنا لا أكل البشر.. أنا نباتية مثل الحاخام كوك".. كانت تبتسم ولكنني لم أشعر بذلك.. لم تكن لديَّ رغبةٌ في الابتسام.. لم أستطع أن أرفض طلبها عندما طلبتُ مني ذلك مرتين أخريين.. جلستُ إلى جوارها وقالت لي: "منذ متى وأنت تغني؟".. فقلتُ لها: منذ متى وأنت تستمعين؟ فقالت: "منذ أن قررتُ أن تغمض عينيك وترفع صوتك.. لقد أتى بي من بعيدٍ.. ثم استطرذتُ: "هذا أعذب وأنقى وأغرب صوت سمعته في حياتي.. قل لي ماذا تفعل هنا؟ ليس هذا بالمكان المناسب لك.. سأخذك معي حيث يجب أن تكون".. فقلتُ لها: وأين سأعيش؟ وماذا سأعمل حتى أجد قوتَ يومي؟ فقالت: "لا عليك.. دعك من كل هذا..

سأدبر لك كل شيء هنا.. وسأجعلك في المكان المناسب".. وأدارت  
مُحرك السيارة وقالت: "هيا انزل أخبرهم أنك ذاهب ولن تعود"..  
لا أعلم لماذا أسأل كثيرًا ، كان عليّ أن أدعه يستطرد وحده ، ولكنني  
سألته:

- ونزلت؟

- نعم.. ذهبتُ إلى زميلي في العمل الذي كان غارقًا في نومه وأخبرته..  
ثم عدتُ إليها وانطلقنا.. استضافتني عندها في المنزل وأكرمتني..  
وأخبرتني أنها يهودية لبنانية الأصل.. تركت لبنان وهي في السادسة  
من عمرها قادمةً مع أمها اليهودية إلى إسرائيل وتزوجت من مسيحي  
من عرب الداخل وانفصلا منذ ستة أشهر.. وهي تعمل مديرة  
مركز تجميل بـ"تل أفيث".. وقالت لي إنها تود أن تساعدني بسبب  
موهبتني.. وقالت إن صوتي أجمل وأعذب صوتٍ قد وصل إلى أذنيها..  
وغير ذلك من المجاملات على حدّ قولها.. لم أصدق بالطبع أنها  
تساعدني لا لشيء إلا لموهبتي.. ولكنني مع مرور الوقت أثبتتُ لي  
حسن نواياها.. وكانت معي خطوةً بخطوة.. حتى اشتركتُ في مسابقة  
(كوخفيه هاشير).. وأنت من ساعدها في هذا الأمر..

- "مور"؟

سألتُ والبلاهة تُحيطني ، لم أكن أستطيع الاستيعاب ، وأكمل  
حديثه الذي شعرتُ أنه قد يُصبح فيلمًا سينمائيًا مهمًا ، أو قد تكون  
روايةً ستحقق أعلى المبيعات:

- نعم.. كانت قد أعدتُ كل شيء حتى أحقق حلمي.. أما هي فقد كان  
حلمها أن أحقق ما أتمناه.. وبالفعل عندما بدأنا المراحل المهمة لم  
أكن أتوقع أن ألتقي بـ"طارق".. كانت أسوأ وأصعب مواجهة فلقد  
ذهله وجودي ليس فقط بالمسابقة.. ولكن لبقائي في إسرائيل حتى  
الآن.. أو بالأحرى صعقته المفاجأة.. لكن الآن التوقيت لا يسمح بأن

يُحاول أذيتي أو يُصيبني بسوء.. أو يُمارس موهبته القذرة في اللعب  
بمشاعر الآخرين.. ومضايقتهم بشتى الطرق.. ولأنه في وضع حساسٍ  
لا يسمح إلا أن يكون إنسانًا مثاليًا.. فقد قام بصنع معروف لي.. وهو  
أنه تظاهر بأنه لا يعرفني تمامًا.. وقبلت معروفه ولم يظهر أي شيء  
تجاهي وُفمت معه بالمثل.. حتى بدأت الأدوار النهائية ووصول كل  
منا إلى النهائية.. حتى فوجئت بأنني في المرحلة النهائية معه هو  
وفتاة إسرائيلية رائعة الصوت.. وبالفعل كانت التوقعات ليست في  
صالحِي.. لأنني توقعت أن يشي بي أحدٌ ممن يعرفهم "طارق" لأنني  
لستُ إسرائيليًا فتوقعت خروجي من المنافسة تمامًا.. وكانت عناوين  
المانشيتات: عربيان يُحاصران بنت إسرائيل في مسابقة "كوخفيه  
هاشير" وغير ذلك من عناوين مثيرة من أجل لفت الانتباه.. كانت  
نظرات "طارق" تقلقني فلطالما كان إنسانًا غير مريحٍ وغير شفافٍ منذ  
كنا طالبين.. وعلى عكس المتوقع مرّت الأمور بسلامٍ.. ومرّت الحلقة  
الأخيرة ونسبة تصويت الجمهور تزايدت بغرابةٍ أذهلتني.. وفي حلقة  
النتائج تعجبت كثيرًا من نسبة التصويت لصالحِي.. لكن "يوقال"  
أعلن فوزي بعد معاناةٍ شديدةٍ.. لقد نطق باسمي.. لم أكن أشعر  
بشيء، شعرت وكأنني أترنح وبعد لحظاتٍ سأسقط أرضًا.. لكنني  
وجدتني فجأة أعلى من الجميع فقد حملني شخصٌ ما على الأكتاف..  
وصرخات الجماهير أصمتني.. أفقدتني حاسة السمع تمامًا.. والأضواء  
تسطع من حولي لتفقدني أعلى الحواس على الإطلاق وتضحيني  
أعمى.. أهذا حلمٌ؟ أكابوسٌ هو؟

نظرتُ إليه وقلتُ مؤكدًا:

- لا بل كانت حقيقةً.. حقيقة حاقت محاقها.. وأنا أشهد على تلك  
اللحظات.. لقد حصدت القلب.. وتوجت ملكًا على جميع المواهب..  
هكذا قال "يوقال حزان" وأضحى يناديك بألقاب عدة..

- ليس هو فقط من كان يقول هذا.. هو وغيره.. ومطربتي الحبيبة "ياسمين نصري" وغيرها مما تشتهي الأنفس سماعهم.. وتشتاق الأعين لرؤياهم.. وتشتاق الحواس لهلامستهم.. وبعد هذا اللقب.. أخذت لقب أفضل مطرب غناء شرقي في إسرائيل.. وكذلك لقب نجم إسرائيل الأول.. وبعد ذلك لعبت أنت دورًا كبيرًا لأشارك في مسابقة الغناء (يوروفيجن) للأغاني بعد صدور أول ألبوم خاص بي.. وما بين هذه الأحداث وبعد رفضي لتمثيل إسرائيل في هذه المسابقة أقمت إحدى الحفلات مع النجمة "حين بيرمن" في أحد معسكرات الجيش الإسرائيلي الموجودة على الحدود.. وهناك تعرفت عليها..

قلتُ وأنا أثق في إجابتي التساؤلية:

- "الينور"؟

فأكد على قولي بإجابة قاطعة واستطرد:

- نعم "الينور".. التي قالت لهم: "يجب أن ألتقيه وألتقط معه صورًا للذكرى".. فوافقت عندما ارتطمت عينها بعيني لتحكم عليّ بالحب.. ولكن الأمر لم يكن هكذا فقط بل صارحتني بأعجابها الشديد بي وبصوتي.. وأنها لم تكن تحلم بهذه اللحظة فلطالما تمنيت أن تلمسني في أحلامها.. وبالفعل قبلت أن أخرج معها وأقبل دعوتها على العشاء في مطعم "ليلي مراد" ب"تل أفيف" وصارحتني بحبها بعد المرة الثالثة على لقاءاتنا.. وقد فاجأتني حقًا.. وبعدما قرّرت أن أفتح لها قلبي المغلق.. استخدمتها أنت لتقنعني بأن أمثل إسرائيل في المسابقة المقامة في فرنسا وكان لك الدور الأكبر في هذا.. وبالفعل قرّرت ساعتها أن آخذ الأمر على محمل الجد.. فقط لأجلها.. لأنها الوحيدة التي استطاعت فتح قلبي الموصد.. فلقد فتح لها قلبي أبوابه على مصراعيها.. شعرت بقلبي يخفق حبًا أكثر من المرات التي خفق فيها لحظة سماع النتيجة بصوت "يوقال حزان".. وكنا على

موعِدٍ في نفس المكان بأحد المطاعم الجميلة بـ"تل أقيف".. لكنها لم تأتِ وأنت تعلم الباقي جيدًا.

- أنت مصري؟ مسلم؟

- نعم.. و"أساف" هو من ساعد "مور" في إعداد الأوراق الرسمية لي.

- هل هدّدك بشيء؟

- صراحةً لا.. لكن ضمنيًا أعتقد أنك رأيت ما حدث بالأمس.

- هل أنت خائفٌ منه؟

- بكل تأكيد.. فأنت تعلم مركزه وقوته.

تساءلتُ وأنا لا أدري ما الذي عليّ أن أفعل حقيقة:

- وماذا تريد مني أن أفعل؟

- أبعده عني.. فوجودي الآن هنا أمرٌ واقعٌ.. لقد تحرّى عني بطريقته

الخاصة في مصر قبل أن يساعد "مور" في استخراج الأوراق.. واطمأن

أنني لا أتبع أي حزبٍ أو جماعةٍ.. ولا علاقة لي بالمخابرات المصرية لا

من قريبٍ أو بعيدٍ.. أنا إنسانٌ يئس من معيشته في مصر فذهب إلى

دولةٍ مجاورةٍ.. ماذا في ذلك؟

- لكنك هنا بطريقةٍ غير شرعية.

- وجودي هنا الآن أكثر من شرعي.. فأنا قدّمت لهذه المملكة ما لم

يُقدّمه الكثيرٌ من أبنائها الذين يدعون حبهم وإخلاصهم لها.. قد لا

أكون مقتنعًا بالكثير من الأفكار هنا.. لكنني مواطنٌ أعيش هنا ولي

حقوقٌ وعليّ واجباتٌ وأنا أؤديها كاملة.. وهذا ما يهم.

- دعني أفكر وسأخبرك بقراري.

- لك هذا.. لكن لي رجاءين..

قلّت له بطيب خاطر:

- قل ما تشاء..
- الأول أن يبقى ما قلته لك سرًا..
- والثاني؟
- أن تخبرني بأي خطوة قبل أن تخطوها.. واعلم أن هناك حياة إنسان على المحك.
- لك هذا.

وقف ومدّ يده ليصافحني ، مددتُ يدي تلقائيًا ، لكن أين الدفء الذي كان موجودًا بيننا عند دخوله البيت منذ ساعاتٍ قليلةٍ؟

على الفور اتصلت بـ"أساف" ورجوته بالابتعاد عن "مهّاب" ، وأخبرته بالحديث الذي دار بيننا ، تملّمل "أساف" وتمتم بالكلمات ، وافق أخيرًا ، ولكن على مضضٍ ، ثم أخبرني بأن "مهّاب" سيبقى تحت المراقبة ، سعدت بتقبله لمطلبي الذي سيسعد "مهّاب" لسماعه ، وإن كنت بدأت أتخوف وأتشكك في كل من حولي.

الشك لعنةٌ قد تقتل صاحبها ، فلا تضرع إلا أصحابها ، فما أنا بمستعدٍّ لأن أُقتل حاليًا ، ولا أنا بأهلٍ للمصاحبة!

## سفر (٣٥) "العملية ينون"

لا يزال كما هو دائم التمرد ، يرفض كل ما تنصحه به أمه ، يبغض القيود ويعتف الحرس الخاص الذي يتبع أمه نائبة رئيس الكنيسة ، يعترض كثيراً على إجراءات الأمن على القصر الذي يعيش فيه معها ، وها هي ذي النتيجة ، تتصل بي السيدة "روتشيلد" لتوقظني في الساعة الخامسة صباحاً بعد خلودي للنوم بنصف ساعة تقريباً ، كان صوتها يملأه الهلع ، لم أفهم كثيراً مما قالته إلا أن "ينون" لم يعد إلى المنزل حتى الآن ، وأنها قلقة جداً عليه ، حيث إنه لم يعتد على الغياب خارج القصر إلى هذه الفترة المتأخرة ، خاصة بعد عودته لليالي والملاعب ، حاولت جاهداً بث روح الطمأنينة فيها ، لكن هذا أمرٌ مستحيلٌ ، فالساسة عندما يضعون شيئاً في رؤوسهم من سابع المستحيالات أن يتخلوا عنه ، أو عله قلب الأم الذي يعيش في حالة من القلق الدائم على الأبناء ، فما بالنا إذا كان ابنها الوحيد.

طار النوم من عيني ، وبدأت أفكر ملياً في الأماكن المحتمل وجوده فيها ، اتصلت على مطعم "ليلي مراد" حيث يُفضل قضاء سهراته ،

لكنهم أخبروني بأنه غادر المطعم في الساعة الواحدة تقريبًا ، هل هام شوقًا بليلي فذهب ليغازلها على طريقة روميو؟ نعم إنه مجنون ولكن ليس لهذا الحد ، اتصلت بـ"ليلي" ، ليؤكد لي والدها بأنها ليست موجودة في المملكة ، وأنها في صحبة الملكة في جولة أوروبية.

إذن أين ذلك الشخص؟ لم يكن هناك بدُّ من تشغيل التلفزيون ، لتطل عليَّ بصوتها النحاسي ، ولكنها الإشكينية ، بالله عليك لا داعي لذلك في هذا الصباح الباكر ، كان الاضطراب يبدو على ملامحها وصوتها وهي تقول:

- أعلنت منذ قليل المنظمة الإرهابية "أرضنا" مسؤوليتها الكاملة عن اختطاف لاعب كرة القدم الدولي "ينون" .. تمت عملية الخطف أثناء عودة الفتى الذهبي إلى منزله من أحد المطاعم الشهيرة في "تل أقيف" .. أكد شباب "أرضنا" على أن طلباته لو لم يستجب لها خلال مدةٍ وجيزة فإنه سيلاقي مصير المجنونة "الينور" .. علمًا بأن شباب "أرضنا" لم يحدد بالتفصيل طلباته .. كما أنه أكد بأن قائمة بأسماء المطلوب الإفراج عنهم من السجون الإسرائيلية سوف يذيعها في تمام الثانية عشرة من ظهر اليوم على موقعه الرسمي على الشبكة الدولية .. نتمنى لكم صباحًا طيبًا.

- أيُّ طيب أيتها البلهاء.. لعنة الرب عليك وعلى هؤلاء الشباب الموتورين وعلى كل العرب الإرهابيين.

أسرعتُ إلى الهاتف لمحادثة السيدة "روتشيلد" ، كلمتني صارخةً:

- هل سمعت ما فعلوه مع ابني؟ الويل لهم.. من يعتقدون أنفسهم؟ إنهم يختطفون "ينون" .. فتى إسرائيل الذهبي.

ثم انخرطت في بكاءٍ حارٍّ وهي تُكمل عويلها:

- إنه "ينون" .. ولدي .. وحيدى .. لن أَدْعُهُم يُصِيبُونَهُ بِسَوْءٍ مَهْمَا كَلَفَنِي الأَمْرَ.
  - هَلَا هَدَأَتْ قَلِيلًا.
  - كَيْفَ لَكَ أَنْ تَطْلُبَ مِثْلَ هَذَا الطَّلَبِ ؟
  - هَلْ سَتَعْتَزِمُ الحُكُومَةَ التَّسْلِيمَ بِطَلَبَاتِ هَؤُلَاءِ المُوْتُورِينَ .
  - لَا أَدْرِي .. لَكِنِّي سَأَبْذُلُ قِصَارَى جِهْدِي وَكُلَّ مَا فِي وَسْعِي لِإِنْقَادِ وَحِيدِي .. هَلْ تَقْهَمُ ذَلِكَ ؟
  - نَعَمْ أَفْهَمُ .
  - أَرْجُوكِ أَغْلِقِي الآنَ فَهَنَّاكَ الكَثِيرَ يَجِبُ أَنْ أَقُومَ بِهِ .. مَعَ السَّلَامَةِ .
- لَمْ تُعْطِنِي فَرْصَةَ لِرَدِّ سَلَامَتِهَا حَيْثُ كَانَ الخَطُّ قَدْ انْقَطَعَ ، هَلْ تَعْلَمُ الحُكُومَةَ قِيَمَةَ مَا يَسَاوِمُونَ عَلَيْهِ ؟ إِنَّهُ أَمَلُ المَمْلَكَةِ فِي المُونْدِيَالِ ، هُوَ مِنْ أَعَادِ الرُّوحِ فِي الفَرِيقِ الأَسْمَانِجُونِيِّ ، إِذَا حَدَثَ مَكْرُوهٌ لَهُ فَالشَّعْبُ لَنْ يَرْحَمَ هَذِهِ الحُكُومَةَ الضَّعِيفَةَ الفَاشِلَةَ .
- فِي السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ اتَّصَلْتُ بِبِي النُّجْمَةِ "يَاسْمِينَ نَصْرِي" وَأَخْبَرْتَنِي بِأَنَّ الفَنَانِينَ وَالإِعْلَامِيِّينَ اتَّفَقُوا عَلَى مَسِيرَةِ تَبْدَأُ مِنْ عِنْدِ "مِيدَانِ رَايِينِ" بِ"تَلِّ أَقِيْفَ" ، وَتَنْتَهِي لِتَعْتَصِمَ أَمَامَ مَجْلِسِ الوُزَرَاءِ حَتَّى الإِفْرَاجِ عَنِ "يُنُونِ" سَالِمًا ، أَكَّدْتُ لِي بِأَنَّ الرِّيَاضِيِّينَ وَمَشْجَعِي كِرَةَ القَدَمِ نَظَمُوا مَسِيرَةً أُخْرَى فِي نَفْسِ التَّوْقِيتِ تَلْتَقِي مَعَ مَسِيرَةِ الفَنَانِينَ عِنْدَ مَجْلِسِ الوُزَرَاءِ ، كَمَا أَنَّ الرِّيَاضِيِّينَ سَيَدْخُلُونَ مَعْنَا فِي اعْتِصَامٍ مُفْتَوِّحٍ حَتَّى عَوْدَةِ "يُنُونِ" .
- عَلَى التَّلْفَازِ كَانَتْ أَخْبَارُ المَسِيرَاتِ فِي كُلِّ مَدَنِ المَمْلَكَةِ لَا تَتَوَقَّفُ ، كَانِ المَتَظَاهِرُونَ رَافِعِينَ لِأَفْتَاتٍ تَنْدُدُ بِمَا حَدَثَ وَمَطَالِبِينَ بِعَوْدَةِ الفَتَى

الذهبي سالماً مهما تكلف الأمر ، أصبحت صورة "ينون" الآن مقترنةً بعلم المملكة ، يا لك من شعبٍ وفي .

انضمتُ إلى مسيرة الفنانين والإعلاميين ، ووقفنا أمام مجلس الوزراء ، في تمام الساعة الثانية ظهراً خرج المتحدث الرسمي باسم الحكومة ليعلن بأن الحكومة تدرس طلبات شباب "أرضنا" ، المتمثلة في الإفراج عن أربعة آلاف سجين قد حدّدوا أسماءهم ، وعلّق المتحدث الرسمي بأن بعض هذه الأسماء محكوم عليهم بالإعدام بعد إثبات تورطهم في جرائم إرهاب ضد المجتمع الإسرائيلي ، تعالت صيحات وصراخ المتظاهرين بكلمتين "العودة لِنون".

لم يعطِ الشباب فرصةً للحكومة ، فهو لم يمهلها أكثر من ثماني ساعاتٍ للرد ، مرت منها ساعتان إلى الآن ، يا لهم من قومٍ انتهازيون حقاً ، المهلة تنتهي في العاشرة مساءً ، لكن قبل انتهاء الفترة المحددة أعلن المتحدث الرسمي موافقة الحكومة على طلباتهم ، وأنهم في دور إعداد وتنسيق عملية التبادل ، حيث سيتم الإفراج عن الأربعة آلاف سجين مقابل عودة "ينون" والضابط المختطف مع "إلنور" واثنين من المستعربين قد تم خطفهما في (العملية إلنور) كما سماها الإعلام هنا.

تعالت الصيحات وبدأ الجميع في الغناء وإنشاد الأهازيج ، انصرف معظم من شارك في التظاهر وإن بقي بعض المئات رمزاً للاعتصام ؛ إذا ما تخاذلت الحكومة فسيكونون نواةً للاعتصامِ ضخمٍ لم ترَ البلاد مثله من قبل .

وفي سرعةٍ غريبةٍ تم ترتيب كل شيء مع قوات حفظ السلام الموجودين بالشمال على الشريط الحدودي هناك ، حيث تسلمت قوات حفظ السلام المفرج عنهم وراجعت أسماءهم ونقلتهم في حافلاتٍ خاصة قد أعدت من قبل ، وعلى الطرف الآخر تم تسليم

المخطوفين الأربعة ، تم التبادل في الساعة السادسة صباحًا من اليوم التالي ، عمّ الفرح كل المملكة ، وازداد الغضب والسخط على هذه الحكومة العجوز ، فالبلاذ قد تكون على شفا الانفجار ، ولكن ما أن أُعلن خبر الإفراج عن "ينون" والمخطوفين حتى تحوّل الاعتصام إلى احتفالٍ هائلٍ ، وصدحت الحناجر بأهات الفرح لتعم الأرجاء.

في نفس يوم الإفراج عن "ينون" جهزت السيدة "روتشيلد" حفلًا ضخماً ، صاخبًا ، في قصرها ، وجهت دعواتها لأعضاء الكنيست ، ورؤساء الأحزاب ، والحكومة ، ونجوم الرياضة والفن ، كان هذا الحفل الكبير مفاجأة لِينون ، أعدته له أمه احتفالاً بعودته سالمًا ، وقد هانفتني وأخبرتني ألا أخبر "ينون" بأي شيء حتى تكتمل أركان المفاجأة ، فليس هناك من يعرفه أكثر مني ، نائر كالثور ، متفجر كالبركان.



## سفر (٣٦) "المائدة"

السيدة "روتشيلد" الموقرة دعّني شخصياً لحضور حفل عودة "ينون" وما إن أغلقت هاتفي حتى تجهزت وارتديتُ أفخم الثياب الكلاسيكية ، بزة على الطراز الإيطالي الذي أفضله ، تطيّبتُ بأكثر العطور الفرنسية سحرًا ، وعلى الفور اتجهتُ مباشرة إلى منتزه "تل أفيث" حيث يبعد عن بيتي مسافة خمس دقائق ، ومنه مباشرة إلى مركز "تل أفيث" حيث شارع "روتشيلد" ، والذي يُعد من أفخم وأجمل شوارع مملكتنا على الإطلاق ، الذي يمتد ملتويًا عبر "تل أفيث" ، تحفُّ به المباني الفارحة ، ومكاتب أهم الشركات ، والشقق الفخمة ، كل شيء على الجانبين أنيق ، بلا استثناء ، كالعادة جذب ناظري "مركز أعمال روتشيلد" المكون من "أربعة وعشرين طابقًا" صُممت على أحدث طراز ، باحته تتوسطها فسيفساء من الجرانيت الأبيض تتراقص مياه نافورتها على صوتٍ مستمرٍ لسلام إسرائيل الملكي ، وليلاً تتناغم معها الأضواء ، حولها طريقٌ مرصوفٌ بالبازلت مستوٍ تمامًا ، على جانبيه صفوفٌ من الأزهار كل هذا مُسيَّج بسور أعمدته من النحاس الأحمر ،

يا له من تصميمٍ مرموقٍ. الأشجار تزين جنبات الطريق الملتوي ، سرتُ مسافةً قصيرةً ، حتى وصلتُ إلى طريقٍ مستقيمٍ منتهاه هو قصر "روتشيلد" ، الذي يُطل على أحد الشواطئ البديعة.

القصر له قبة كبرى كقبة "ضريح الباب" الذي يزين حدائق حيفا البهائية ، والألوان البرتقالية الذهبية التي تُزين هذه القبة الكبرى ، وكذلك القباب الصغرى المجاورة الموجودة أعلى القصر الجميل ، له بوابة كبيرة وكأنها بوابة "صهيون" ، تفتح إلكترونيًا وهناك حراسٌ كثيرون متفرقون في الداخل والخارج ، وهناك حارسان عليها مباشرة ، واحدٌ ناحية اليمين وآخر ناحية اليسار ، مسلحان بأكثر الأسلحة فتكًا ومدرعان بأكثرها أمانًا ، بعد فتح البوابة تجد أمامك آليًا ومعه آلة ليزر تكشف عما إذا كنتَ تمتلك سلاحًا أو ما شابه من آلات حادة ، بالنسبة للزوار العاديين لا يسمح لهم باستقلال سياراتهم للدخول فتأتي سيارة خاصة تقلّهم إلى باب القصر تجنبًا لأي احتمال تفخيخ سيارة الزائر وبالطبع لا يتم هذا مع كبار الضيوف. ليس هذا فقط لأن من يعيش بالداخل "ينون" ؛ ولكن لأن والدته هي إحدى سليلات عائلة "روتشيلد" العريقة ، وصاحبة الفضل الأول في إنشاء دولة إسرائيل الحديثة ، وكذلك هي أشهر المسيحيين الذين اعتنقوا اليهودية ، ولأنها أيضًا نائب رئيس الكنيست ، ومعها حقيبة وزارة المالية.

عندما يسمح لنا الآلي بالمرور هناك ممرٌ واسعٌ ذو حارتين ، تتسع كل حارة إلى مرور سيارتين كبيرتين.

تنتشر كاميرات المراقبة في كل ركنٍ من أركان القصر ، بالخارج ، وعند بوابته ، وعند المدخل ، وعند الدرج ، وفي كل طابق من طوابقه ، الكاميرات تلتقط كل من هو بالخارج أو بالداخل! وكل شيء يتم تسجيله ، وهناك غرفة تحكّم بها أمهر التقنيين ، كلُّ له دوامه ، وفترة

الدوام هي أربع ساعات ، ومن ثم يتم تبديل الطاقم ليحل محله طاقمٌ بديلٌ ، والمثير للدهشة أن الكاميرات شديدة الحساسية فعندما تنظر إليها تتوقف عندك مباشرة! وعندما أدلف إلى هذا القصر تحديداً أشعر بالقلق من شدة التأمين!

ممراتُ أرض الحديقة مصنوعةٌ من البلاط العربي ، وهي عبارةٌ عن صخورٍ مكعبة الشكل يسميها العرب "كُحلة البلاط العربي" ، مصنوعة من الأحجار ، تمامًا كما أرضيات شوارع البلدة القديمة بأورشليم ، ليكون متماسكًا ، صلْبًا ، متناسقًا ، دقيقًا.

عندما دخلتُ هنا أول مرة شعرتُ كأنني داخل محميةٍ طبيعيةٍ ، على الجانبين يوجد قفصان ، الأول على اليمين لأسدٍ إفريقي قوي ، ممشوق القوام ، ذي لبدة كثيفة الشعر حول رأسه تضي عليه مهابة ملك الغابة ، عندما تنظر إلى مخالفه الحادة وعينيه البرّاقتين يملك منك الخوف ، والثاني على اليسار لكلبٍ من نوع "بيت بول" الشرس ، وكما قالوا عنه "وُلِدَ فقط للقتال" ، فهو ممتلئ الجسم والعضلات ، يتميز بقوةٍ وشراسةٍ ، بعدما تمرُّ على هذين القفصين تجد فناءً لزرافتين إفريقيتين جميلتين ، دائماً ما يهتم بهما "ينون" شخصياً ، أما الثاني فهو فناءً شاسعٌ ، به مجموعةٌ من الخيول الإنجليزية الهجينة من نوع "ثوروبريد" مهجئاً مع أنواعٍ أخرى من الخيول العربية ، وتُعد من أفضل أنواع خيول السباق الأصيلة ، تجمع هذه الخيول بين قوة الخيول الإنجليزية وسرعة الخيول العربية ، والفناء الأخير يوجد به مجموعة من النعام الإفريقي مختلف الألوان ، تعدو الإناث وخلفها يعدو الذكر ذو الريش الأسود وذيله الأبيض الذي يميزه.

كما انتشرت المجاري المائية والبرك الزاخرة بالطيور تظللها الجسور الحجرية التي صُممت على الطرز العريقة ، وتتناثر البرجولات الخشبية

في أنحاء الحديقة بين صفوف الصوبات التي أعتقد أنها لم تغفل نوعًا واحدًا من أنواع الزهور ، ذلك بخلاف تماثيل الممرر المنتشرة والتي أخذت أشكالاً عدة كثيرٌ منها مستوحى من التراث الإنساني ، فبعضها فرعوني وروماني ويوناني وآشوري وغيره. ومن بعيد ينعكس على عينيك ضوء مصدره مزل زجاجي تحب السيدة "روتشيلد" الجلوس فيه أثناء الشتاء وهي تستمع للموسيقى. عندما ينتهي الممر الذي لا تود أن ينتهي ، تجد نفسك أمام سلمٍ رخامي يعكس ضوء الشمس ليعمي عينيك نهارًا ، أما ليلاً فضاء القمر يظهره وكأنه أمواج تتلاطم ، وعلى الجانبين أعمدة فرعونية ، وكأنها لقصر "فرعون".

أما بالنسبة لواجهة القصر واضح جدًا أنها مستوحاة من "معبد أبو سنبل" وإذا أمعنت النظر تجد أن التمثالين اللذين يتوسطهما الباب ما هما إلا وجهان لروتشيلد ولهرتزل. بجوارهما أعمدة شاهقة زينت زهرة اللوتس قممها مجسمة ببروزاتها الزخرفية عالية الدقة وضعت كقاعدة ، كل زهرة شكّلت قاعدة لـ"ميجان ديفيد" ، وعندما تصعد الدرجات تشعر وكأنك تصعد مدرجات ستاد "بن جوريون" .. حقًا إنها لمساحة شاسعة ، تتسع لمئات الأفراد الصاعدين لتلك الدرجات والتي على جانبيها سوران لا أعرف مما صُنعا لكنهما بديعان. عندما تصعد آخر درجة تجد أمامك بهوًا خارجيًا فسيحًا آخره تماثلان جالسان شامخين بينهما بابٌ زجاجي ، يأخذك إلى البهو الداخلي الخيالي وكأنه "صرح شلومه الملك" زينت أرضيته بالبورسلين ، أو بالأحرى بالقوارير الفضية ، لمجرد وقوع نظرك عليه تعتقد أنه ماءٌ عذب ، وستقع حتمًا فيما وقعت فيه "ملكة شفا" (بلكيس) ، ستنتظر مركبًا شرعياً ، أو زورقًا ، أو أحد مراكب الشمس ، للعبور بك إلى الجانب الآخر من الصالة الفاخرة ، الشاسعة ، العميقة ، الملكية ، التي أعجز عن وصفها إلى الآن ربما لاحقًا حين أستطيع الاستيعاب. وعندما تقع عينك على النجفة المقدسة التي صُممت على

شكل "ميجان ديقيد" التي تزين سماء القاعة وتتوسطها بدقة هندسية ، متدلية لمسافة كبيرة ، متعلقة بسلاسل ذهبية متينة ، مثبتة بقوة في سقف القصر الخرافي لسوف تعجز عن الكلام. لكن الشيء الذي أستطيع وصفه الآن هو تلك البرودة التي داهمتني وارتجف لها بدني .

كل شيء بالقصر عالي التقنية بشكلٍ مرعبٍ ، فلقد صمّمه مصممون متخصصون من معظم أنحاء العالم ، ولا يحق لأحد أن يُقلد نسخةً منه إلا بعد عشر سنوات ، كل شيء يستطيع "ينون" تشغيله ببصمة صوته دون أن يُحرك ساكنًا ، يتحكم في نوع الموسيقى الذي يريد ، ويستطيع تغيير محطات التلفاز كيفما شاء ، وأن يتحكم في درجة الإضاءة يجعلها خافتةً أو عاليةً أو ، أو ، أو على حسب حالته النفسية والمزاجية .

هنا يوجد كل ما تشتهي الأنفس ، كل وسائل الترفيه تصبح بين يدي زائرهِ ، يوجد أسفل القصر سرداب نبض مُعتق منذ قرون! أرضية القصر دافئة في الشتاء القارس ، وهو من يُحدد درجة الحرارة التي يبتغيها ، أما في الصيف باردة لطيفة .

أما حمّامه الخرافي فلا أريد أن أكون مبالعًا هو أكبر من منزلي كله ، وُضعت أمام المرحاض شاشات هولوغرامية لألعاب فيديو جيم لِيُسَلِّي نفسه عندما يتغوط! أما بالنسبة للدُّش فهو يتحكم متى يريد الماء ومتى يريد البخار! وحوض الاستحمام به تدليك دوري ، أما إذا أراد أن يستجم فتتحول الشاشات الهولوغرامية إلى مناظر طبيعية خلابة أيضًا على حسب حالته المزاجية .

أما عن الأَسِرَّة الموجودة بغرف النوم الأسطورية فهي بيت القصيد لم أحصل في حياتي قط على مكانٍ أفضل منها للنوم ، ماذا تنتظر من سريرٍ وسادته صُنعت من ريش النعام؟ لا بد أن تُلقي بنفسك عليه دون تردد ، وتستسلم تمامًا للنوم متمنيًا ألا تصحو أبدًا!

في بهو القصر الكبير، حيث تجلس السيدة "روتشيلد" على المائدة الفخمة حيث وضع الخدم عليها كل ما لذ وطاب مما تشتهي الأنفس، ولا يزالون يضعون، حيث يلتف حول هذه المائدة الفخمة أهم السياسيين في مملكة إسرائيل الكبرى، تتأس من ناحية الجنوب الأم السيدة "كارميلا روتشيلد" نائبة رئيس اللوبي البرلماني ونائبة رئيس الحكومة.

ومن ناحية الشمال يرأس الجمع على المائدة رئيس البرلمان والحكومة "يسرائيل يتسحاق" يضحكون ويهللون فرحين متفاخرين بإنجازاتهم لمملكتنا الكبرى، وقريباً سيكتمل تحقيق حلم "هرتزل" كاملاً عندما تنضم بابل ويثرب إلى مملكة إسرائيل العظمى.

تلاطمت في أجساد الجميع أمواجٌ نائرةٌ من التوتر والقلق ناجمةً عن العنف المفاجئ، عندما دفع "ينون" الباب وهو يصرخ بحنقٍ، دافعاً الخادم الزنجي الأول، متجهاً نحو المائدة مباشرةً، وبدا التوتر شديداً عندما بدأ يتحدث بعد أن أطاح بالصينية من يد الخادم الإفريقي الثاني لتصطدم بالخادمة السوداء القادمة خلفه لتسقط أرضاً مصابةً،  
قائلاً:

- ما كان عليك أن تتبعي هذه الطرق الملتوية الشهيرة بها حكومتكم..  
ألم تجدي أقدر من تلك الطريقة؟

ثم ضرب رأسه بيده، وعقد حاجبيه بشدة وهو يكشر عن أنيابه،  
قائلاً:

- أقسم بالشیطان.. أنني لا أفهم شيئاً..

نهض جميع الحاضرين من صفوة الشعب المختار.. متابعين في صمتٍ.. بينما الأم في ذهول تام من هول صدمة حوار الابن.. الذي يستطرد قائلاً:

- أخفيت عني هويتي العربية وأصولي المصرية.. قلت لنفسي أنها خرافات إعلامية ولم أتحدث عن هذا.. لفقت لي هويتك الإشكينية اللعينة.. وقبلت دون أن أنتبه لمشاكلكم مع السفارديم البريين من خطاياكم.. تعلمت في أقذر مدارس الحاخامات.. الذين لا يفقهون ثقافة في العالم إلا الصهيونية والجنس والدعارة.. وإباحة قتل الأغيار وإصدار فتاوى تُبيح الجنس من أجل إسقاط الأعداء.. وكتمت في نفسي.. أما الشيء الأشد إيلاًما هو أنكم يا صفوة أبناء الرب الأنقياء الأطهار.. تخفون نجاساتكم وقذارتكم في تشريد أطفال لا قبل لهم بدنسكم.. وتعاملون أصحاب الأرض كأسرى حرب حينما يقعون في أيديكم المندسة.. من أين تستمدون هذه الوقاحة؟!

انتفخت العروق في عنقه ، وعقد حاجبيه أكثر عندما تساقطت الدموع مهولةً على خديه ، ونال منه الغضب ما نال ، قبل أن يستطرد قائلاً :

- لن أعود لكرة القدم من أجل إسرائيل اللعينة.. ولا من أجل أمي السيدة السياسية الثانية في إسرائيل.. ولا من أجل الاحتفاظ باللقب الهلامي.. ولكن من أجل العرب الذين راحوا ضحاياكم في الغارات التي قُتل فيها طياروكم النساء والأطفال والرضع بلا تمييز.. سأعود للعب من أجل من قُتلوا بالنايالم القذر لاجئين في مخيماتهم.. وأنتم تفعلون ذلك عن اقتناع تام وكأن لكم كل الحق في فعل ذلك..

ارتعشت يده واحمرَّ وجهه من شدة الغضب ، وصرخ محتدًا :

- أي تناقض في العالم شبيه.. دولة تقتل شعبها!!

وأخذ يصيح في جميع الحاضرين وقد تناثر من فمه الرذاذ عندما قرروا المغادرة ، منعمهم ، فتوقفوا رغماً عنهم ، وما كان منهم إلا أن انتظروا حتى يُنهي الفارس ثورته :

- اجلسوا جميعًا.. لم أنته بعد.. كذلك أنتم لم تنهوا عشاءكم الأخير في هذا المنزل.. لماذا تهربون دائمًا من المواجهة.. لماذا لا تواجهون من هو أقوى منكم.. لماذا لا تستطيعون التحكم في حرب الشوارع الضاربة في الخارج؟ لماذا لا تجرؤون على الإيقاع بعائلات "أبو طبول" الإجرامية المتحكمين باقتصاد أجمل مدينة في إسرائيل (نتانيا)؟ لماذا لا تستطيعون تصفية المافيا الروسية؟ لماذا لا تمنعون من يعيشون في الأرض فسادًا وتكتفون بالمشاهدة عن بُعد خوفًا من أن يضيروكم؟ لماذا لا تمنعون تجارة الجنس وبيع الرقيق؟ لماذا تتزايد أعداد المصابين بالأمراض الجنسية؟ لماذا تتجسسون على جيشكم وتدسّون بينهم نساء الموساد الباغيات؟ أي تناقض في العالم شبيه.. ألم تشعب بطونكم جميعًا.. بما أنكم جميعًا قد صرتم خبثًا فلا تشعرون برائحة نجاساتكم وباقتراب يوم الدينونة.. وستسحقون جميعًا تحت أجنحة جنود ربكم.. الويل كل الويل لكم.. العار عليكم جميعًا..

كان القصر على اتساعه وكثرة الموجودين به أشبه ما يكون بفرغ فسيحٍ ينطلق فيه "ينون" وحده في سباقٍ مع الزمن ومع ذاته ، وكما دخل عليهم بسرعةٍ خاطفةٍ كالبرق ، وكما صرخ فيهم كهزيم الرعد ، أدار ظهره وانصرف كأنه جان أو دخان قد تبخّر من بين الجدران .

## سُفْر (٣٧) "الْحَلْمُ الْمُسْتَحِيلُ"

في ساعة متأخرة من الليل أصابني التوتر الشديد عندما قرع أذني رنين تليفوني وازداد ارتباكي عندما رأيتُ اسم "ينون" ، أه يا "ينون" في هذه الساعة المتأخرة! ضغطت على الزر لفتح الخط ، وقبل أن أقول (ألو) ، باغتني صديقي نجم النجوم بقوله:

- إنني أنتظرك في القصر.. تعالَ بأقصى سرعةٍ لديك..

وقبل أن أجيب ، ماذا بك ، أو خيرًا ، أو حتى ok ، أغلق "ينون" الخط بالفعل! أصابني بشللٍ نصفي ، فكيف لي أن أذهب إليه بالسرعة المطلوبة؟ على العموم أستطيع أن ارتدي ملابسني وحدي ، لم يكن أمامي خيارٌ آخر ، سأذهب إليه بالفعل في هذه الأجواء السيئة ، فالصديق الحقيقي هو من يجدك في الوقت المناسب الذي يحتاج إليك فيه .

عندما وصلت إلى "ينون" وجدته في غاية الحزن والأسى ، واكتظت عيناه بالدمع الذي يأبى أن يتساقط مهوئًا ، رأيت كمًا لم أر مثيله في

حياتي من زجاجات الخمر الفارغة ، عندما رأيت احتسَى الكأس التي بيده عن آخرها ثم ألقى بها على الأرض لتفتت ، فرأيت كميّاتٍ هائلةً من الزجاج المكسور على الأرض من كثرة الكؤوس التي دمرها "ينون" ، ومن دون أي مقدماتٍ نظر إليّ قائلاً:

- أنا .. لستُ أنا ..

لم أكن أمتلك سوى أن أهز رأسي مُحاطًا بعلامات الاستفهام ، صامتًا دون أن أتقوه ، فقد بدا لي أنه لن ينتظر مني أسئلةً ليسترسل:

- أنا لستُ ابن الضابط الشهيد الذي كان مجندًا في أقوى جيوش العالم.. فأبي لم يكن بإسرائيلي ولا يهودي.. لقد أخفتُ أمي عني كل شيء.. أخفت الحقيقة كلها.. حتى حانت اللحظة المناسبة.. عندما اختطفني قوات المقاومة بالتنسيق مع الموساد..

أخذتني مفاجأة نسب "ينون" الجديد ، حاولتُ إقناع نفسي بأنها مجرد أوهام أو أن السُّكر قد أثر على عقله ، وقبل أن أنتقل إلى مرحلة إقناعه بذلك ؛ انتبهتُ فجأةً لمفاجأةٍ أخرى صادمة:

- بالتنسيق مع الموساد؟ أنت تقول بالتنسيق؟ كيف هذا؟! وكيف ينسق جهازٌ قائمٌ على حماية إسرائيل مع مجموعةٍ من القتلة الذين يعملون ضد مملكتنا؟ ولماذا يستعيدك إذن؟ أنا لا أفهمك! أو أنت لا تقصد ما قلت..

نظر إليّ مبتسمًا:

- الموساد يظن أنه أذكى من الجميع.. يريد إسقاط الحكومة بتشويهها أمام الشعب.. وإظهارها في ثوب الضعيف العاجز.. وفي نفس الوقت يربح جولةً إعلاميةً ضد شباب "أرضنا"... فقام من خلال بعض رجاله الذين يزرعهم هناك بتسهيل عملية اختطافي..

أردتُ أن أتحدث محاولاً قدر الإمكان توضيح أي شيء بهذا الصدد ،  
لكنه لم يمنحني الفرصة وأكمل:

- قال لي الشباب إنهم كانوا يعلمون بذلك.. ويعرفون رجال الموساد بينهم.. وقد أوهموهم أنهم قد ابتلعوا الطعام لأنهم رأوا في حضوري إليهم مصلحة أكبر مما يُحاول الموساد تحقيقه من مكاسب على حسابهم.. إنهم يتلاعبون برجال الموساد.. إنهم أذكى من الموساد يا رجل..

ابتسم "ينون" في وجهي متهمكماً أثناء عبارته الأخيرة ، ثم تحركَ بضع خطوات أشاح بوجهه عني أخذًا نفسًا عميقًا سمعته بوضوح ، وسمعتُ زفرته ثم استدار لي:

- أهداني الشباب صورةً في نفس مرحلتي العبرية هذه.. الرجل يُشبهني كثيرًا لدرجةٍ أرعبتني وجعلت جسدي يقشعر.. أو بالأحرى أنا الذي أشبهه.. وقالوا لي: "أتعرف من هذا يا فتى؟".. فأشحت برأسي نافيًا.. فقال لي: "هذا والدك، إن والدك ليس بإسرائيلي، ولا يهودي، بل مصري، كان من أفضل الشباب الطموح بين أقرانه وأكثرهم نشاطًا، استدرجته أمك، وأوقعته في شباك غرامها، حتى تزوجا؛ بجواز سفرها الأمريكي وليس الإسرائيلي، اعتقد والدك أنها أمريكية.. تزوجا وعاشا معًا حياةً قصيرةً جميلةً، حتى جئت أنت.. وهذا ما كانت تريده أمك فحسب.. كانت تُريد ابنًا من أبٍ مصري.. ثم تخلّصت هي من أبيك فيما بعد بأن وضعتُ له سمًّا في الطعام... كان المخطط أن ينشر الموساد العديد والعديد من الإسرائيليات الحسنات في سيناء.. وأن يتم الزواج بينهما وبين الشباب المصري بأوراق سفرٍ مزيفة الهوية.. يتم تعديلها فيما بعد حسب مصالحهم.. وبعد الإنجاب يُصبح لدى إسرائيل أعدادٌ كبيرة من أبنائها المصريين فتتمكن أمام القانون الدولي من المطالبة بحق أبنائها في الأراضي المصرية".. وهذا ما حدث معي.

كانت المفاجأة مدويةً ، لكنني هممتُ سائلًا:

- وهل تلك الصورة دليلٌ كافٍ على ما ادعى ؟
- لا ليست بالدليل الكافي.. لكنه أراني جواز سفر أُمي الأمريكي.. وعقد زواجهما.. إنهم لا يكذبون ويعلمون جيدًا ماذا يفعلون.. إنهم ليسوا بربزًا ولا هيجًا كما يصورهم لنا إعلامنا.
- هل تحدثت مع السيدة "روتشيلد" في هذا الأمر ؟
- لا..

- لماذا؟ فهي والدتك بكل تأكيد كما أظهرت الأوراق التي رأيتها.

- كيف أتحدث مع امرأةٍ قتلت أبي؟ أنا الآن لا أستطيع أن أرى صورتها أمامي فكيف لي أن أناقشها فيما فعلت.. سننكر بكل تأكيد.. سحفًا لكل الكاذبين.. هل تعرف كيف عاملوني وأنا في الأسر؟ هل تود أن تعرف؟

- هم قوم غلاظ القلب.

- على العكس تمامًا.. لقد قال لي زعيمهم: "أنت هنا في أمان، لا تخف، نحن لن نفعل بك ما يفعله اليهود بأسرانا، أنت هنا من أجل إتمام صفقة بيننا وبين الموساد، فأنت هنا في هذا التوقيت بالذات؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يخوضوا كأس العالم من دونك، وسوف يستمر ضغطنا على الحكومة الإسرائيلية من أجل الإفراج عن العدد الذي نريد من المعتقلين، لا تخف نحن لن نوذيك حتى لو لم يُحققوا مطالبنا، هذا هو الشق الخاص بنا.. أما ضغط الموساد على حكومتكم فهو من أجل إزاحة الملكة عن طريقهم، فهم يفعلون ما يستطيعون من أجل إفشال الحكومة الحالية، وتنحي الملكة عن منصبها.."

ثم نظر إليّ "ينون" نظرةً عميقةً وقال بعد تنهيدةٍ طويلةٍ:

- أتعلم كم كنتُ أساوي عددًا من الأسرى؟



أوماتُ برأسي وأنا أُجيب:

- نعم.. ما يقرب من أربعة آلاف ما بين أسيرٍ، ومعتقلٍ، وسجينٍ،  
ومتسللٍ..

نظر إليّ والدموع تنهمرُ على خديهِ بغزارةٍ، وأكمل وهو مرتعشٌ  
الشفيتين:

- السفلة.. يتلاعبون إعلاميًا بكل شيء كيفما شاءوا.. أنا عزيزٌ عليهم؟  
نعم عزيز عليهم لدرجة أنهم سهّلوا عملية اختطافي لأغراضٍ سياسيةٍ  
قذرة.. ثم يُظهرون مدى حبهم الكاذب لي أمام الشعب بأن يُبادلوني  
بهذا العدد.. كان عليّ أن أدمر المائدة بمن عليها، لا إهانتهم فحسب..  
لذلك سأعود إلى الفريق من أجل حاجةٍ في نفسي لا من أجلهم..

طال الصمت بيننا وكفنا عن الكلام، لكن دموع "ينون" الذي  
جلس على مقعدٍ مجاورٍ واضعًا رأسه بين كفيه وبكاؤه الصامت لم  
يتوقف، كان حزنه عميقًا، فكل شيء تغير أمام ناظره، أمه سيدة  
المجتمع وصاحبة الرأي والشورى، أصبحت قاتلةً، والعرب الذين كانوا  
همجًا وبربرًا ولا أمان لهم، أصبح ينتمي إليهم، ما أقسى ما تُعاني يا  
صديقي، نظرتُ له نظرةً لم يلحظها، كانت مليئةً بالشفقة، لكنه فجأة  
التفت إليّ وقال:

- "أليساندرو".. حلمٌ ظل يُراودني.. أن أجاوره فقط في التهرب.. في  
التغطية.. أن أحمل معه كأس إيطاليا.. أو درع الدوري.. أو كأس  
أبطال أوروبا.. لم أستطع أن أنسى عندما صافحني وقال لي: "حان  
وقت الاحتراف يا "ينون".. هذا هو وقتك".. وابتسم وبدلَ معي  
قميصه.. لم أستطع ليلتها النوم من فرط السعادة التي غمرتني..  
"أليساندرو".. القيصر الذي لا يُنسى.. ظل حلم ارتدائي قميص السيدة  
العجوز حلمي الوحيد منذ أن تركت نادي "مكابي حيفا".. حاملاً كل  
أحلامي في كفة.. وطموحي في اللعب إلى جوار "أليساندرو" في

صفوف السيدة العجوز بالكفة الأخرى.. أحلامي بأن أكون أفضل لاعبي العالم.. الحذاء الذهبي.. الجناح الماسي.. فلاش.. أحسن لاعب في أوروبا.. الظهير التاريخي.. ملك الخط.. أحسن لاعب بالدوري الإسرائيلي والألماني والإنجليزي والإيطالي.. أول إسرائيلي في التاريخ يحمل كأس العالم ويحصل مثل هذه الألقاب.. ولم أَلعب في النادي المفضل لدي.. "يوفى".. "أه.. كان هو الحلم المستحيل..

قلت له وأنا لا أصدق أنه رغم كل هذه الألقاب والإنجازات لم يُحقق حلمه بعد:

- ولماذا كان حلمًا مستحيلًا؟!؟
- أجنبي و قد ارتسمت على وجهه ابتسامةً تهكميةً:
- "اليوفى" لا يقبل اليهود يا صاح..
- لذلك لعبت للأفاعي؟
- نعم.. ولكن بقي مجرد اقترابي من السيدة العجوز حلمًا من المستحيل تحقيقه.. تمسكت باللعب في الدوري الإيطالي لأطول مدة حتى يمكنني أن أحتك باليوفى.. كم أعشق هذا الاسم..
- أتعجب لأمرِكَ يا صديقي! لم يُخلق إنسانٌ قد فعل ما فعلت.. جوائز.. شهرة.. نسب.. مال.. جاه.. ماذا ينقصك؟
- "عندما تفقد الثروة فلا شيء يُفقد، وعندما تفقد الصحة فالبعض قد يفقد، وعندما تفقد ذاتك فكل شيء قد فُقد".. هذا المعتوه "بيلي غراهام" صادق في كل كلمة.. أنا أفتقد ذاتي يا هذا.. أين لي بها؟
- ابحث عن شيء آخر واشغل به تفكيرك.. فأنا أرى أنك تحت تأثير الخمر التي غيّبتك عن كل نجاحاتك وانتصاراتك.

ضحك مني ساخرًا! واستطرد:

- خمر!! أنتعتقد أن ما بي هو من تأثير الخمر؟ إذن إليك بعضًا منها..



أشحتُ برأسي نافيًا ، فابتسم واستكمل :

- أتدري من قابلتُ هناك ؟

هياتُ نفسي لسماع أغرب الأسماء التي لم أتوقعها ، ورغم ذلك نزل الاسم عليَّ كالصاعقة التي لم تمهلني لحظاتٍ لفهم ما يحدث .

- "إلينور" ..

لم يتوقف "ينون" كثيرًا لينظر مدى تأثير وقع كلماته عليَّ وكأنه عرف أنني لن أستطيع مجاراته فيما يُقدمه اليوم من مفاجآتٍ ، فاستطرد :

- نعم.. "إلينور" لم تمت.. وهؤلاء الشباب ليسوا بالقتلة الذين تُعرِّفنا بهم وسائلنا الإعلامية ليل نهار.. ولا هم على هذه الصورة التي يُصدرها لنا إعلامنا.. لقد قتلت "إلينور" شابًا لم يفعل شيئًا سوى أنه اعترض على بعض ممارسات جنودنا تجاههم.. ثم ألصقت به وسائلنا الإعلامية تهمة العربي الهمجي المتخلف الذي تحرَّش بمجندةٍ إسرائيليةٍ وحاول اغتصابها..

قفز إلى عقلي كلام "مهاب" كلُّه دفعةً واحدةً وكأنني لم أستوعبه وقتها ، استمر "ينون" في انفعالاته وكلامه الصاعق ، واستمررتُ أنا في النظر إليه بعينين زائغتين من هول المفاجآت .

- لقد أخبرني الشباب أنهم يُريدون إيصال رسالةٍ للمجتمع الإسرائيلي وللجنود على الأخص بأن من قتل نفسًا بغير ذنبٍ فلينتظر نفس المصير.. وذلك حتى يحدِّوا أو يُقللوا قدر المستطاع من تجاوزات جنودنا ضد الأبرياء العزل.. فاختطفوها وأعلنوا قتلها.. لكنها في الحقيقة ما زالت حيةً بينهم.. نُعامل معاملةً طيبةً.. هل تنتظر المزيد من المفاجآت ؟

في الحقيقة أخبرني جسدي الضعيف أنه لم يعد بمقدوره تحمُّل  
المزيد من الصدمات ، وأنه على وشك الانهيار ، ولكن عقلي كان يعلم  
أن عليَّ استقبال المزيد منها.  
- أعتقد أن إينور صارت واحدةً منهم.

قال جملته الأخيرة ، وأشاح بوجهه عني ثم أغمض عينيه وراح في  
نوبة شخير عارمة ، وغط في سباتٍ لا أعلم أكان حقيقياً من فرط ما  
يُعانیه من إرهاقٍ ، أم مصطنعاً لينهي الحديث!

أين أذهب ؟ هل أعود إلى المنزل ؟ أم أستلقي هنا على تلك الأريكة ؟  
أو أدخل إلى إحدى الغرف وأنام كبشريٍ طبيعيٍّ على أحد الأسرّة الفخمة  
التي لا توجد في مكانٍ آخر إلا هنا ؟

وقبلما يسرّب لي عقلي الباطن أي إجابة ، شعرتُ بترنحٍ غريبٍ  
يجتاح رأسي كله!

هذا الترنح العينويّ غير طبيعي! هذي الغفلات اللحظية أغرب  
وأغرب! هل نال مني النعاس بالفعل ؟ علّه على وشك..

## سفر (٣٨) "القلم والنيزك"

عندما أقتربُ من حاسوبي المحمول كي أكتب شيئاً ما ، أجدني أفقد القلم والأوراق ، آتي بهما وأبعثر أكبر كمٍّ من الأوراق على مكثبي ، حتى أملاً كل فراغ أمامي ، فهذا الجو المستفز يجعلني أُخرج ما بداخلي من قوةٍ كامنةٍ ، أمسك القلم بإرادتي ، وأتركه بإرادته ، أحكم إبهامي وسبابتي وأثبتته بإحكام بالوسطى ، يهرول القلم وخلفه كل عضلات ساعدي ، ومعظم الأوقات يُصيب عيني بالحوّل المؤقت ، الذي أدعو الرب ألا يدوم ، فأضطر إلى ارتداء نظارتي الطبية ، تظل مشاعري تلهث مهرولةً خلف القلم ، فلا أدري إلى أين يأخذنا جميعاً ، وفي النهاية سنتعرف على كل شيء من خلال الطريق الذي خطه القلم على أسطر الأوراق ، فالأوراق هي من توشي دائماً بأسراره. والقلم سلاحٌ من هو مثلي ، وأوقات أخرى يكون العدو نفسه.

مقهيّ ،

وأنتَ مع الجريدة جالسٌ في الركن منسيًا ،  
فلا أحدٌ يهين مزاجك الصافي ،  
ولا أحدٌ يفكر باغتياك ،  
كم أنت منسيٌّ وحرٌّ في خيالك

مع أروعك يا "درويش" ، معظم ما خطّه قلمك أشعر وكأنك قد  
كتبته من أجلي .

في هذه الليلة الغريبة قررت أن أدون كل شيء في بردياتٍ مخطوطةٍ  
بالقلم الحبر ، لن أدون شيئاً في الحاسوب مرةً أخرى ، هذا الشيء  
الغبي ، العقيم ، الذي لا أمان له ، قبل أن أنزل إلى الشارع في هذه  
الساعة المتأخرة ، سمعت صوتاً قوياً بعد ارتطامه بالأرض ، اهتز كل  
كياني وكأنه ارتطم به ، وشعرت بتوترٍ شديدٍ ؛ ورعشة دبّت في أوصالي  
بلا هوادة ، انفجار قوي! نعم هذا صوت انفجار ، يا لها من ليلةٍ حالكة  
السواد ، هل فعلها العرب؟ هل قرروا استرداد ما أخذ بالقوة؟

هرولت أقدامي وحدها إلى الشارع ، ورأسي ناظرٌ إلى السماء ، نيرانٌ  
تُحيل الليل إلى نهار ، أحمر اللون ، احمرّت السماء بألوان الدماء ، ولا  
غير الدماء بديل ، أعتقد أن هذا ليس من فعل العرب ، هذا من فعل  
الطبيعة ، رغم فرحي لأن العرب ما زالوا نائمين فهم يشتهرون ب(الأمة  
النائمة) ، إلا أنني ما زلت خائفاً ، فغضب العرب أهون من غضب  
الطبيعة ، إن غضب العرب نستطيع ردعهم ، هم وكل من والاهم ، أما  
الطبيعة فما من رادعٍ لها ؛ غير إرادة الرب ، لأنها جندٌ من جنوده .

أهذا نيزك؟ أجرم سماوي مُلتهبٌ ، بغيضٌ ، يريد بعثرة الجمال  
الكامن في مملكتنا ، أيًا كان ما هو هذا الشيء ، من أين أتى؟ وبماذا  
ينذر؟

أسئلة كثيرة تدور بخلي ، ومع تكالب الأسئلة الكثيفة على ناصيتي الضعيفة واقتيادها لي دون إرادة مني! لم أستطع استيعاب أي شيء ولم أستطع استنتاج أي شيء ، اختفى توهج الجسم السماوي ، وغُدت إلى منزلي مرةً أخرى .

فتحت التلفاز لكي أتأكد من هوية الزائر الجديد الذي زار أرض إسرائيل من دون إذنٍ أو تصريح ، قالت المذيعة صاحبة أكبر عدد من الأخبار السيئة في العالم:

- خبرٌ عاجلٌ.. سقوط أجزاء من كوكب "نيبيرو" على الأرض. تفاصيل الخبر.. بعد منتصف الليل بنصف الساعة انفصلت بعض من الشهب المصاحبة لمذنب "هالي" واصطدمت بكوكب "نيبيرو" ، أسفر عن ذلك انفصال أطنانٍ من مادة الكوكب وسباحتها في الفضاء نحو كوكب الأرض ، وعلى الرغم من تبخر معظم مادة الكوكب في غلافنا الجوي ، إلا أن بعض تلك النيازك استطاعت الوصول لقشرة الأرض وارتطمت بها في أماكن عديدة منها مملكتنا ، وتقول المصادر الجيوفيزيكية إن من المحتمل أن تكون تلك الأجزاء حجرية عالية الكثافة ، أو حديدية ، سقطت بسرعة خمسين / كم في الثانية ، ومن المناطق المتضررة في المملكة بحيرة "طبرية" وقد أدى سقوط النيازك إلى انخفاض منسوب الماء بها بدرجة كبيرة ، وتدمير ما يقرب من ستين منزلاً مجاوراً للمنطقة ، كما رصد العلماء الروس سقوط أجزاء أخرى هناك ، وهذا دليل على أن "كوكب نيبيرو" اقترب من الاصطدام بالأرض ، ولكنه كاد أن يصطدم بالمذنب "هالي" قبل أن يكمل دورة كاملة حول الشمس ، والتي هي من المقرر إتمامها في العام القادم ، ونتيجة هذا الاصطدام تكوّنت غيمةٌ إشعاعيةٌ رصدت بالعين المجردة على هيئة ضوء ساطع أزعج كل من رآه ، ومن المرجح اجتياح تلك الغيمة لغلافنا الجوي في خلال ساعات ، والجدير بالذكر أن أجزاء من "موسكو" ، و"أوهايو" بالولايات المتحدة الأمريكية ،

والعديد من بلدان العالم قد تعرّضت لتلك النيازك في نفس الوقت!  
فلنتضرع جميعنا إلى الرب ليحمي مملكتنا من الخطر المحدق، شكرًا  
لمتابعتكم ونوافيكم بتفاصيل أكثر بعد قليل.

تفاصيل! عن أي تفاصيل أكثر تتحدث هذه المجنونة! أهناك تفاصيل  
أكثر من هذه؟ أتريد أن تذكر اسم النيزك رباعيًا! وتأتينا بمعلومات أكثر  
عن عائلته وأقاربه وجيرانه! إنها بوادر ثورة الطبيعة، الطبيعة بدأت  
ثورتها، ولن تكون بوادر خير أبدًا، فالطبيعة لا تعرف المزاح، هل  
ستكون ثورة الطبيعة وما تركته من آثار مقدمة لثورة البشر؟ فالشارع  
الإسرائيلي في حالة من الغليان نتيجة لسوء إدارة الحكومة، ولانتشار  
الجريمة المنظمة في شوارع المملكة، لذلك الكثير من المسيرات  
والمظاهرات ترصد بشكل أسبوعي على الأقل.

ماذا سيحدث لو ثار الإسرائيليون كما ثارت الطبيعة اليوم؟ ماذا  
سيفعل العرب حينها؟ إن الثورات في واقع أمرها نارٌ مُوقدة، نارٌ قد  
تُخلص الذهب من الخبث الذي التصق به أو تكون حريقًا هائلًا يلتهم  
كل ما يقابلها في الطريق.

## سفر (٣٩) "على شفا الانهيار"

العالم يبدو على شفا الانهيار ، الطبيعة تُكشر عن أنيابها ، الكوارث تُحيط بنا وبحلفائنا من كل صوب ، هذه إشارات تنبأ بها "نضال" من قبل ، وأعلن أكثر من مرة أن نهاية العالم قد اقتربت ، كان دائماً ما يقدم هذه النبوءات على أنها بشارات ، هل أصبح ذا مزاجٍ سوداويٍّ إلى هذه الدرجة!

أم أن له وجهة نظر مغايرةً ، ربما يكون على صواب ، لكن عندما أعلم أن إعصاراً أودى بحياة أكثر من ستة آلاف شخص بالفلبين ، كان الإعصار مصحوباً برياح تجاوزت سرعتها القياسية ثلاثمائة كيلومتر / ساعة ، ما أسفر عن (٢٠٢٢) حالة وفاة ، وبقاء (١٩٤٨) في عداد المفقودين ، كما شرد (أربعة ملايين) شخص ، وها هي ذي "أمريكا" حليفنا الأول والدائم تشرب من نفس الكأس بعد تعرضها لعاصفة ، وأدّت العاصفة "زيوس" إلى خللٍ في حركة قطارات السكك الحديدية ، والطرق البرية ، كما أجبرت السلطات المحلية على إلغاء آلاف رحلات الطيران ، لقد كانت كارثةً بمعنى الكلمة.

بلغ عدد الولايات التي تشهد هذا الطقس المميت ثلاثاً وعشرين ولاية من بينها "واشنطن" و"نيويورك" ، و"نيوجيرسي" ، و"أوهايو" ، لقد وصلت البرودة إلى حدودها القصوى ، حيث انخفضت درجات الحرارة في بعض المناطق إلى ثلاثين درجةً مئويةً تحت الصفر بفعل تلك العاصفة ، التي تسببت في حدوث تسعة وستين حالة وفاة كان بعضها بسبب التجمد الناتج عن الظروف المناخية السيئة.

يأتي ذلك في الوقت الذي وصلت فيه درجات الحرارة في ولاية "داكوتا" الشمالية إلى أربعين درجةً تحت الصفر ، وفي "شيكاغو" وصلت درجة الحرارة إلى تسعٍ وعشرين درجة تحت الصفر ، وفي "نيويورك" إلى ست عشرة تحت الصفر وذلك بسبب اختراق كتلٍ هوائيةٍ شديدة البرودة القادمة من القارة القطبية التي تُعرف باسم (دوامة ميدوسا القطبية) ، وأكد خبراء أرساد جوية في مدينة "سانت لويس" بولاية "ميسوري" في وصفهم لموجة الصقيع المتوقعة "أن الشخص الذي لا يرتدى الملابس الملائمة الكافية لهذا الطقس يمكن أن يلقى حتفه بسهولة!"

أما أقرب الكوارث إلينا كانت هزةً أرضيةً بقوة (٥,١) درجة ، التي وقعت بمنطقة "تبوك" شمال غرب الجزيرة العربية ، وقال مدير عام المركز الوطني للزلازل في السعودية ، في بيان مساء اليوم ، إن الهزة بلغت قوتها (٥,١) ، وكانت على عمق عشرة كيلومترات ، وعلى بعد خمسين كيلومتراً شمال شرق على الحدود مع "الأردن" ، صحيح أن هذه الهزة لم ينتج عنها خسائر ، كما أننا لم نتأثر بها مطلقاً ، لدرجة أن الكثير لم يشعر بها ، إلا أنها مع الهزة الأرضية التي حدثت (١٩٩٢) والتي وقعت في "مصر" ليؤكد صحة القول بأن المنطقة الآن باتت في حزام الزلازل.

هل اقتربت نهاية العالم فعلاً كما يعتقد "نضال"؟  
هل ستكون النهاية بهذا الشكل المريع؟  
كيف لهذه الحضارة أن تُهدم بفعل الطبيعة العمياء؟  
لا ، لا يمكن ذلك ، لا يمكن أن تكون هذه إرادة الرب!  
لكن لماذا تنبأ "نضال" بهذا؟  
ولماذا يعتبرها بشارات؟  
ما هو تفسيره لكل ما يحدث؟  
لا أجد إجاباتٍ عن كل هذه الأسئلة ، فهو الوحيد الذي يمكنه أن  
يُجيبني على كل هذه التساؤلات!  
"نضال".



## سفر (٤٠)

### "الوفاء"

عدتُ إلى منزلي أترنِّح ما بين الأفكار والتساؤلات ، فتحتُ الباب ، زوجتي ما زالت نائمةً ، وكذلك الطفلان ، التلفاز مفتوحٌ ، عالي الصوت ، لقد رأيتها كالعادة ، لقد مللت النظر إليها لقد أغمضتُ عينيّ وتركت العنان لصوتها متسللاً إلى داخل أذني حيث اخترق طبلتها قولها :

- أبشع جرائم هذا الأسبوع مقتل ملكة الإباحية "موغان خاييم" ، حيث وُجد رأسها معلقا على أحد أغصان الأشجار بشوارع مدينة "نتانيا" منذ ثلاثة أيام ووجد الجسد على بعد اثنين كيلو متر خارج المدينة..

وهذا إن دَلَّ فإنما يدل على..... لا أريد أن أفكر ، هذه المرة قد يأخذني تفكيري إلى السجن ، أو أحد المعتقلات السياسية التي لا يسمع عنها الكثيرون ، وأكملت الإشكنازية صاحبة الأخبار السيئة أخبارها :

- ومن المواقف المؤثرة التي أعقبت هذه الجنازة أن هناك أحد الكلاب ظل يتتبع بحاسة شمه المقابر حتى استقر عند قبرها وظل عليه راقداً والحزن يُخيم عليه ، فهذا هو اليوم الثالث على وفاتها وقد اعتاد

الكلب على القдом إلى مقبرتها في الساعة السادسة مساءً لينام على قبرها، أعتقد أن وفاء الكلب قد انتصر على وفاء بعض البشر.

كنت واثقًا من إخلاصها لكلبها، فهي لم تخنه قط، ولا هو كذلك، لأنني لا أعتقد أنها ستفتح له الباب، وتعطيه الفرصة لفعل ذلك، يا له من وفاء، كما قالت تمامًا، لكن ليس كما قالت إنه أوفى من الإنسان، وفيّ هو، ولكن لها، يظل الإنسان إنسانًا، والحيوان حيوانًا.

لقد انتشرت هذه النوعية من الجرائم في الفترة الأخيرة، الغريب في الأمر أن التحقيقات دائمًا تصل إلى لا شيء، إنها المافيا التي شاعت هذه الأيام، يُرجعها علماء الاجتماع في وزارة الاستيعاب الإسرائيلية التي تتولى عملية استقبال المهاجرين الجدد: "هناك الكثير من الأسباب التي تؤهل المهاجرين الروس بشكل خاص للانضمام لعصابات الإجرام المنظم، وذلك لفشل الدولة في حل مشكلة البطالة التي يُعاني منها معظم هؤلاء المهاجرين الذين يُعاني معظمهم صدماتٍ نفسيةً نتيجة لخيبة الأمل التي يعيشونها، حيث إن (٩٥٪) من هؤلاء المهاجرين هم من المؤهلين أكاديميًا ومع ذلك فإن من يجد عملاً منهم لا يستوعب إلا في مجال العمل اليدوي وخارج نطاق تخصصاتهم الأكاديمية".

وتوقعوا أن تتفاقم مشكلة المافيا الروسية في حال عدم تخصيص الحكومة الإسرائيلية الميزانيات اللازمة لحل مشكلة البطالة في أوساط الروس، ولذلك لم تنجح الشرطة الإسرائيلية في القيام بخطواتٍ جادةٍ من أجل ردع عناصر هذه العصابات.

ويُشار في هذا السياق إلى أن الترابط بين عالم السياسة وعالم الإجرام في إسرائيل اتسع بشكلٍ كبيرٍ بعد حملة الهجرة من الاتحاد السوفييتي، وأبرزها أن زعيم أحد الأحزاب كانت له علاقاتٌ قويةٌ مع رجال أعمال روسيّ الأصل وملاحقين من الحكومة الروسية ومطلوبين للمحاكمة في أكثر من دولةٍ منها "فرنسا".

الانفجارات الهائلة التي تتسبب فيها العصابات الإسرائيلية وذئب  
المافيا الذي هرب من السجن ، والحروب الرهيبة بينه وبين المافيا  
وعائلات "أبو طبول" الإجرامية ، ومحاولات الأخذ بالثأر وفرض  
السيطرة ، كل ذلك يؤهل هذه المملكة لأن تكون أرضاً خصبةً لهذا  
النشاط الإجرامي.

حقاً إنها حكومة فاشلةٌ ، وإن من يدفع ثمن هذا الفشل هو الشعب  
الأبى.



## سفر (٤١) "النَّوَاة"

كنتُ متجهًا إلى عملي في العاصمة الاقتصادية "تل أفيث"، ودائمًا قبل ذلك تأتيني بعض التقارير على هاتفي المحمول، وعادة ما أذهب إلى "أساف" قبل الذهاب إلى التصوير والانتقال على الهواء مباشرةً مع برنامجي لأنه عادة ما يكون متأخرًا، ودائمًا ما أستمع إلى الإذاعة الإسرائيلية وأنا أقود سيارتي حتى أصبح على علم بما يجري في البلاد، عاجلاً أو آجلاً سأعرف من الأصدقاء في الأستوديو ولكنني دائماً فضوليُّ تجاه الأخبار، لكن سمعت هذا الخبر:

- ما يقرب من خمسة آلاف مواطن إسرائيلي اشتركوا في المظاهرات التي شملت معظم المدن الإسرائيلية، والعاصمة الاقتصادية "تل أفيث"، للمطالبة بخفض أسعار السلع المعيشية، وخفض أسعار السكن، وللمطالبة بتحقيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين الإسرائيليين دون عنصرية أو تفريق في المعاملة، والقضاء على المافيا.

أدهشني الأمر وهو أن يخرج الآلاف من مواطني المملكة بهذا الكم غير المسبوق، ولم أكمل الحديث مع نفسي حتى شاهدتُ المظاهرات

العارمة بعيني تجتاح شوارع "تل أفيث" بعدما نظم الآلاف من المواطنين الإسرائيليين مظاهرات احتجاجية ضد حكومة رئيس الوزراء الإسرائيلي، اعتراضاً منهم على ارتفاع الأسعار في مملكة إسرائيل بشكل عام، وارتفاع أسعار السكن بشكل خاص، وعدم توافر الأمن.

بدأت أهدى من سرعة سيارتي، وسمعتُ المذيع يستطردُ قائلاً:

- حاول جندي إسرائيلي يخدم في قسم التنصت الإلكتروني اليوم الأحد إضرام النار في نفسه أثناء تواجده في مقر القيادة العسكري "كرياه" وسط "تل أفيث" لكن صديقه وقائده المباشِر سيطرا عليه ومنعاه من تنفيذ مخططه وفقاً لما تناقلته المواقع الإخبارية الإلكترونية..

صدمني الخبر وقررتُ الذهاب إلى "أساف"، وبالفعل غيرتُ اتجاهي وحتى لا تؤخِرنِي التظاهرات، أفضل أن أضيع الوقت في أخبارٍ مهمةٍ مع صديقي خير من التأخر في التظاهرات التي لن تستجِب لها الحكومة الفاشلة..

وبالفعل وصلتُ إلى "أساف" الذي كان يبدو عليه أنه ينتظرنِي بالفعل، استقبلني قائلاً:

- كنت أنتظرك.. مؤخراً قامت قواتٌ من شرطة "تل أفيث" - منطقة اليركون باعتقال مشتبهٍ فلسطيني من سكان بلدة الخضر - غرب مدينة بيت لحم.. يبلغ من العمر حوالي (٤١) عاماً.. بعد أن قام الأخير بالتعريف عن نفسه، بواسطة إبراز بطاقة هوية زرقاء مزيفة ومع إحالته للتحقيقات في مركز الشرطة تبين أيضاً ووفقاً للشبهات، على أنه قام قبل فترةٍ وجيزةٍ من الزمن بالاحتيال على عجوزٍ من الوسط اليهودي، من سكان منطقة "تل أفيث"، بمبالغ تقدر بعشرات الآلاف من الشواكل، واعدًا إياها بترميم شقتها ومن ثم مختفياً مع المبلغ الذي استلمه من العجوز.. هذا وتم لاحقاً تقديم تصريح مدعٍ بحق

المشتبه، ومن المزمع أن يتم أيضاً في ساعات نهار اليوم بمحكمة الصلح في مدينة "تل أفيث" تقديم لائحة اتهام بحقه..

سألته :

- ماذا عن الجندي الذي حاول إحراق نفسه صباح اليوم؟
- لقد حاول الجندي سكب مادة مشتعلة على جسده لكنه لم ينجح وخلال محاولة السيطرة عليه سكب قليلاً من هذه المادة على يده ولم يصب بأذى كما أنه لم يُحاول إيذاء قائده ولكن يبقى الحادث خطيراً خاصة أن الحديث يدور عن جندي على أبواب التسريح من الخدمة العسكرية ..
- ألا توجد تفاصيل أدق؟
- التفاصيل.. وصل الجندي صباح اليوم إلى مكتب قائده في مقر القيادة وسط "تل أفيث" لإجراء محادثة شخصية حيث اشتكى الجندي من عدم الاستجابة للشكاوى التي قدّمها حول شروط وظروف خدمته العسكرية، وبدأ يهدد ويتوعد وردّد عباراتٍ استنكاريةً وهجوميةً ضد قائده الذي لم يستجب له ..
- وماذا عن رد فعل الشرطة مع المتظاهرين؟
- لقد تجاوز المتظاهرون حدهم في التظاهر السلمي، وتسببوا في انتشار أعمال العنف كالقاء القنابل الدخانية والمسيلة للدموع، وقطع الطرق في بعض المدن.. مثل "أشكلون" و"بئر سبع" و"حيفا" و"أشدود" و"كربات شمونيه" و"تل أفيث" و"أورشليم" العاصمة، مما اضطر الشرطة إلى التدخل واعتقال الكثير من المتظاهرين.
- وما رد الحكومة على كل هذا؟
- طالب نائب رئيس الوزراء، حزب "كاديما" بالانضمام إلى الحكومة للعمل معاً من أجل إحداث تغيير جذري لحل مشكلات السكن وغلاء المعيشة.

- هل سيكون ذلك كافياً؟
- بالطبع لا.. فمن خلال دراستي للثورات في مختلف بقاع العالم.. ما يحدث الآن هو نواة لثورة كبيرة.
- هل رأيت هذه الأوراق؟
- مددتُ يدي إليه ببعض الأوراق التي كانت تُوزع في المظاهرات ، وقبل أن يتناولها سألتني:
- ما هذا؟
- إنها نماذج من الأوراق التي توزعها حركة "الأمهات الأربع" لجمع توقيعات من المواطنين لإقالة الحكومة الفاشلة.
- وما هي تكهناتك؟
- أعتقد أنهم سينجحون.. وكما ذكرت أنت أن ما يحدث الآن هو نواة لثورة كبيرة إن لم تكن هناك إجراءات حاسمة.
- هزَّ "أساف" رأسه موافقاً وكاد أن يفتح فمه ليؤكد على قولي لولا رنين هاتف مكتبه ، فاستأذن مني لانشغاله باجتماع مهم.
- من أين لي بقوة للسيطرة على أعصابي ، أو على الأقل بمنع الأفكار من التصارع بداخلي.
- أشعر بكل ما حولي يموج بما حولي ، ولا حول لي بقوة لكل ما حولي!

## سفر (٤٢) "البداية"

يبدو أن "أساف" قد أصاب كبد الحقيقة عندما تنبأ بأن الثورة قادمة، فها هي ذي الشوارع والميادين قد امتلأت عن آخرها بملايين المتظاهرين، لم يطاوعني قلبي أن أدعوهم بالشوار، ليس لحبي أو انتمائي لحكومة فاشلة تسببت في نزول هؤلاء بهذه الأعداد إلى الشوارع، ولكن خوفاً من الوجه الآخر للثورات، يتسلق المتملقون على أكتافها ويعرقلون تحقيق أهدافها، فتكون النتيجة انحدار البلاد في مستنقع من الفوضى المختلفة، يتمادون، يُماطلون، يُبررون، فلا ترى أهداف الثورة النور، ولا يجني الشعب أي ثمارٍ لها، أتمنى ألا تكون ثورتنا مجرد سخط على النظام القائم ونسعد لمجرد الإطاحة برأس النظام، أخشى أن تطول هذه الفتره الزمنية فتؤخر تحقيق حلم الشعب الأبوي في استرجاع كامل أراضي مملكة إسرائيل الموحدة.

بالفعل قامت الثورة الإسرائيلية الكبرى وازدحمت الشوارع بالناس، وتقدمت "حركة الأمهات الأربع" الصفوف الأولى هي وبعض الحركات السياسية المعارضة، فما كان من الجماهير اليهودية إلا رفع العلم

الجديد للمملكة الخالي من "ميجان ديقيد" ، ورفعوا على العَلم شعار "المينوراه" أقدس وأقدم رمزٍ يهودي ، فهذا هو ذا الرمز اليهودي الحق وتخلوا عن الرمز الآخر ، هذه ليست هي المرة الأولى التي يرفعون فيها هذا العَلم الذي يُمثل الدولة اليهودية الخالية من الصهيونية والقائمة على اليهودية ..

وطالبت الجماهير بمحاكمة العجائز ، ورموز الفساد وأتباع إبليس وعلى رأسهم رئيس الوزراء السابق أحد أذرع الماسونية العالمية ، لو حدث ذلك لسوف تصبح محاكمةً تاريخيةً ؛ ذات مغزى شعبي كبير ، وذلك لأنه كان يجهر باليهودية ويبطن عبادة الشيطان ، هو وباقي شركاء النظام ، وغيرهم من القادة الإشكنازيم الذين تسببوا في انتشار التمييز العنصري ، وإفساد الحياة السياسية ، ونشر وترويج لمبادئ تخالف الشريعة اليهودية ، والتسبب في إلحاد أكثر من (٢٥ ٪) من يهود إسرائيل ، والترويج لدينٍ عالمي جديدٍ ، لا يؤمن بالأنبياء ولا بالخالق .

انتفض الشعب الإسرائيلي بكل طوائفه ضد ممارسات الحكومة الإسرائيلية تجاه الدول المجاورة من المنطقة العربية خاصة ومنطقة الشرق الأوسط عامة ، أصبح للشعب موقف تجاه السياسة النازية التي تنتهجها الحكومة الحالية ، وكالعادة خرجت حركة "الأمهات الأربع" متقدمة كل التنظيمات والمسيرات التي تجوب شوارع المملكة ؛ من أرقى وأفخم شوارعها إلى أضيقت وأفقر أزقتها ، لعلّ وعسى أن تشعر الحكومة بحتمية الرحيل .

أخيراً ثار الشعب الإسرائيلي بجميع أطيافه ومختلف أعراقه في هذه اللحظات التاريخية ضد عدو واحدٍ ؛ هو الحكومة الإسرائيلية ، ونادراً ما يحدث هذا الاتحاد بهذه الصورة .

لقد أدت ممارسات الحكومة غير الآدمية إلى تحوُّل التظاهر إلى الانتفاض مرةً واحدةً ولأول مرةٍ في التاريخ ضد ممارسات حكومته. أصبح قمع الحريات ممارساتٍ يوميةً، استخدمت الحكومة كل أدواتها الفاسدة من الشرطة ووسائل الإعلام المختلفة المضللة، والمستعربين الخونة الذين يؤدون دور الشبيحة لأي نظامٍ، وتمادت في الاعتقالات غير المبررة لبعض القادة السياسيين من العرب واليهود سواء.

ولأول مرةٍ في تاريخنا يقف السفاردي إلى جوار الإشكنازي وإلى جوارهم عرب إسرائيل مسلمين كانوا أو مسيحيين، بهائيين كانوا أو دروزاً.

انتفض شعب الرب أخيراً، وسرنا جميعاً نتظاهر بسلمية، الجميع سواء، الكل اتحد على قدمٍ وساقٍ، لا نأبه للألوان ولا الأعراق ولا الديانات ولا التوجهات، فقط مصلحة الوطن، من أجل عيون جنة الرب على أرضه، من أجل عيون آخر الممالك الفتية العفية، من أجل عيون أغلى الأوطان، من أجل أم البدايات، ولأجل أم النهايات. لأجلك أنت يا إسرائيل.

لا تستهينوا بالشعب الإسرائيلي الأبوي، لقد صبرنا كثيراً سنواتٍ وسنواتٍ من أجل أن نحول هزيمتنا إلى نصر، لقد تحملنا من الإهانات والانتقادات ما يكفي لقسم الظهر، وشق الصف، ولكننا صمدنا وعبرنا من النفق المظلم إلى برِّ الأمان، فقد تحمّلنا من الضغط ما لا تستطيع أن تتحمّله جبالٌ، من أجل إنشاء وطننا القومي على أرضنا التاريخية، من أجل إنشاء جيشٍ قوي يحمي مكتسبات استقلالنا، من أجل الحفاظ على التراث اليهودي في العالم، من أجل الحفاظ على قوميةٍ

واحدة لا تضاهيها قومية ، من أجل أرض إسرائيل ، ولأجل نسلك يا إسرائيل .

كنتُ هناك آنذاك ، كان تظاهرننا سلمياً ، وتعالَت هتافاتنا "الشعب يريد إسقاط النظام" ، وهتفنا بالكثير من الهتافات ، وفجأة وبدون سابق إنذار انقضت علينا الشرطة وحاصرتنا من جميع الجهات ، وبدأت قواتُ الخيالة بالهجوم ومن خلفهم قوات "اليسام" والمستعربين الخاصة ، وقاموا بإطلاق القنابل الغازية علينا ، تعالت الصرخاتُ من حولي ، وتفرقتُ الجميع بعشوائيةٍ في محاولةٍ للإفلات من الرصاص المنهمر فوق رؤوسنا بغزارة .

في هذا التوقيت العصيب ، وعلى الرغم من ملاحقة الشرطة لنا بالخيول حدث شيء غريبٌ ، لقد تحوّل الخوف بداخلنا إلى جراءةٍ منقطعة النظير ، فقد سمعتُ إحداهن تقول: "أطلقوا نيرانكم أكثر فأنا لن أبرح مكاني" ، وآخر يقول: "لن أعود إلى منزلي حتى لو قُلتُ ههنا" ، وثالث يصرخ: "لن نتخلى عن مطالبنا مهما كان الثمن" .

لم أصدق ما حدث! أهذه الدرجة من الوقاحة قد وصلت بهم الجراءة لقتل العزّل؟ أمن الممكن أن يقتلونا؟! أمن المعقول أن يُطلقوا رصاصاً حياً؟ ، أفقتُ من أفكاري على صوت الرصاص المنهمر ، إحدى هذه الرصاصات أصابت فتاةً كانت إلى جوارى مباشرةً وأردتها قتيلةً في الحال! لكن لماذا أشعر بارتفاع في درجة حرارة جسمي؟ أصابني شيء؟ لا أدري ، لكنني وجدتُ قدمي تهزول هرباً للنجاة بحياتي!

عندما ابتعدتُ عن منطقة إطلاق النار ، نظرتُ حولي لأجد مأساةً ، فتاةً مصابةً في كتفها تنتحب ألماً ، وأخرى فقدتُ ساقها ، وشاب يصرخ على جثة صديقه الغارق في دمائه ، الجميع مُلطخون بالدماء ، يا لها من لوحةٍ دمويةٍ .

مادت الأرض من حولي ، ووجدتني أسقطت في هوةٍ سحيقةٍ ، لم أدر كم لبثت على هذه الحالة ، أفقت على صوت أحدهم يقول "ما زال حيًا" ، سمعتُ صوته وكأنه آتٍ من مكانٍ بعيدٍ ، حاولتُ النهوض ، لكن منعني ثقل جسمي ، لاحظتُ وجود الدماء تُلطخ قميصي ، ولفافةً طبيّةً على عنقي ، أخبرني أحدهم وهو يُعطيني قلادتي الذهبية التي حفرتُ عليها "المينوراه" أنني قد أصبتُ برصاصة في عنقي وأني غبتُ عن الوعي لبضع دقائق.

كنتُ أسمع دومًا عن وحشية الشرطة مع المتظاهرين ، لم أكن أصدق ذلك ، ولكنني تيقنتُ الآن ، لقد صدق عرب الداخل في وصف همجيتهم ولا مجال لتكذيبهم بعد تجربتي الشخصية.

لقد سقط قناع الديمقراطية الزائف.

لفتُ انتباهي ارتفاع أعداد الشباب المتحمس المصّر على تحقيق مطالبه ، من اليهود وغير اليهود ، لم تُدرك الدولة أن استعمالها لسياسة التهيب لن تثني الجيل الجديد عمّا يريد ، بل ستزيده عنادًا وإصرارًا وتنمّي معنى الثورة في داخله.

ورغم كل الصعاب التي مررنا بها ، إلا أننا ازددنا رغبةً في الاستمرار ، كان الهدف هو الوصول إلى ميدان "ديزنجوف" ، وأخيرًا وبعد الكثير من الجرحى والقتلى وصلنا إلى هناك ، وأعلنًا اعتصامنا المفتوح ، كانت النية معلومةً ، فلا نقاش ولا حوار ولا محادثاتٍ مع الحكومة ، يجب أن تنفذ طلباتنا قبل كل شيء .

يجب إسقاط الحكومة ، ومحاكمتها ، مهما كان الثمن .

يجب تنفيذ إرادة شعب الرب .



## سفر (٤٣) "بداية أخرى"

استمرّ اعتصامنا في الشوارع ، فكلما مرّت لحظةٌ كلما ازدادت أعداد المتظاهرين ، بدا لي أن كل شعب إسرائيل قد شارك في هذه الثورة ، أنا متأكدٌ من أن البيوت باتت خاويةً ، فجُلّ الشعب هنا إن لم يكن كله ، الجميع يرفع علم "المينوراه" ، كالأسود زائرَيْن بأقصى قوةٍ ، ولا بديل إلا بالإجابة والاستجابة لمطالبنا.

في اليوم التاسع للاعتصام ، قررتُ الذهاب للتضرع أمام الحائط الغربي ، لعل الرب يُنجدنا مما نحن فيه ، كما أنقذ "موسى" من "فرعون" وبطشه وشق له البحر ، لنعبر سالمين .

للمرة الأولى أشعر ببهاء الهيكل وزينته ، والحليات المذهبة التي تغشي الأبصار عند معانقتها لأشعة الشمس ، وجدتُ الحائط ينضح بالمتضرعين ، حاولتُ أن أتمس لنفسي الطريق نحوه ولكن الازدحام كان غير معقولٍ ، وأخيراً استطعتُ الوصول ، مددتُ يدي لملامسة الحائط ولكنني لم أستطع من شدة الزحام ، فقط بضعة سنتيمترات هي

التي تفصلني عنه! قاومتُ محاولاً إزاحة من هُم أمامي بلطفٍ ولكنني لم أستطع ، وكان من كانوا حولي هم من جمّدوني حتى لا الأمس الحائط! قاومتُ بعنفٍ وكدتُ الأمسه ولكنه انفجر وانهاه ساقطاً على رؤوس الجميع من حولي ، لم تُصنبي أية أحجار ، فقط بعض الأوراق المطوية بين أحجاره ، الصراخ والعيول أفقدني السمع ، وضوء الشمس أغشى بصري ، صرتُ لا أرى ولا أسمع ، حاولتُ الصراخ ولكن لم تُطاوعني أحبالي الصوتية ، بدأ يتسرب صوتٌ آتٍ من بعيدٍ إلى داخل أذني ، بدأتُ تحديد ما يقوله الصوت ، بدأ يتضح شيئاً فشيئاً:

- بابا.. استيقظ.. هل أنت بخير؟

إنه صوتٌ "موشيه" ، نعم هو ، بدأتُ أراه تدريجياً ولكن صورته ما زالت غير مستقرّة أمامي ، وكأنه يموج يميناً تارةً ، ويساراً تارةً أخرى ، حتى استقرتُ ببطء ، ورأيتُه بأمّ عيني:

- "موشيه" .. نعم حبيبي.. أنا بخير.. هذه أضغاث أحلام.. أين "إيما" و"يوسي"؟

- ذهاباً معاً لزيارة الهيكل.. وقالت إيما أنها ستعلّم "يوسيه" كيف يتضرع أمام الحائط.

- الحائط.. لا.

هكذا صرختُ ناهضاً عن فراشي ، أخذتُ "موشيه" معي ، متجهين نحو العاصمة "أورشليم" ، حاولتُ طرد الأفكار السيئة التي رأيته في كابوسي عن عقلي ونحن في طريقنا ، كنتُ أقود سيارتي بسرعةٍ رهيبه ، كمجنونٍ يتعلم قيادة السيارات لتوه!

بالفعل وصلنا في زمنٍ قياسي ، وحال وصولنا شاهدتُ ما لم أكن أتمنى مشاهدته ، صدمتني الرؤية ، نفس الجموع التي كانت معي

في الكابوس ، بل تكاد تفوقها عددًا ، ولم نستطع أن نرى "سارة" أو "يوسي" ، كان ضوء الشمس يُعيقني عن الرؤية تمامًا!

بدأت الشمس تدنو قليلاً من الرؤوس ، وعلى حين غرة من المتضرعين انفجر الحائط كما شاهدتُ في كابوسي اللعين ، وتشققت الأرض مبتلعةً كل الموجودين ، مبتلعةً حتى هيكلنا المقدس عن آخره ، ليتصد من باطن الأرض بهوادة "قبة الصخرة الذهبية" مستقرًا مكانه ، وانعكست أشعة القبة على عيني بضاروةٍ ، فأغمضتُ عيني هذه المرة بقوةٍ حتى لا تتأثر عيني بأشعتها الحارقة ، حاولتُ فتح عيني هذه المرة ولكن قد أصابني ما كان سيصيبني لو تركتُ عيني مفتوحتين ، ليتني ما أغلقتهما بهذه القوة ، لقد أصابني العمى ، لم أعد أرى أو أسمع شيئاً ، هذه المرة حقيقة لا محالة ، ناديتُ على "موشيه" ولكن صوتي لم يخرج! كيف؟ تألمتُ ولكن دون ألمٍ ، كيف!

فجأة سمعتُ صرخاتٍ تختلطُ مع رفرفة أجنحةٍ قويةٍ منبسطةٍ تضرب الرياح وتتصاعد كأنها رعدٌ يزمر ، ونعيقًا و صفيرًا قويًا يتعالى ، وزئيرًا أقوى يتصاعد ، تتبعثُ مصدر الصوت لأرى بعد ذلك أن عُقابًا ضخماً يُصارع أسدًا قويًا على قمة جبل الهيكل ، ولكنني رأيتُ الغلبة للعُقاب الذي أصاب الأسد الجريح ، لقد بدأ الأسد يترنح ، ثم ينعق العُقاب غاضبًا ويحمل الأسد بين مخالبه ويطيّر به عاليًا لمسافةٍ شاهقة الارتفاع ، وفجأة يتركه ليهوي مرتطمًا بقوةٍ على الأرض ، صريعًا ، ظل العُقاب يُحلق أعلى وأعلى ، ثم توقف باسطًا جناحيه ، ناظرًا نحو الأسد الصريع ، ومن هذه المسافة الشاهقة الارتفاع ينقض العُقاب مباشرةً بسرعةٍ هائلةٍ نحو الأسد ، يرتطم به برشاقةٍ غريبةٍ ليهبط به مسافةً عميقةً حتى يصل به قاع جبل الهيكل ، ظل العُقاب يحفر بمخالبه على جسد الأسد حتى اسودَّ جسده تمامًا كالمتفحم ، رأيتُ ضوءًا شديد السطوع يخرج من على جلد الأسد الصريع المتفحم يصعد إلى السماء

كالدخان ، يعلو صفير العُقاب رافعًا رأسه نحو السماء معلنًا انتصاره على الأسد ، ثم ينظر نحونا فجأةً وهو ينهض مبتعدًا عن الأسد بهوادةٍ مرفقًا بجناحيه عاليًا حاجبًا الضوء عن أعيننا ، اتجه نحونا مباشرةً ، يختطف "موشيه" محلقًا به في السماء ، حاولتُ الصراخ لكن لم يُجد ذلك نفعًا ، شاهدتُ عنان السماء مغطًى بالضوء الذي خرج من جسد الأسد كالدخان ، يتشكل الضوء الدخاني متجمعًا مكونًا كلمة.....

### אין אלוהים מבבלעדי אללה ומוחמד הוא שליחו של אללה

وبدلاً من أن أصرخ "موشيه" وجدتني أصرخ ناطقًا هذه الجملة رغمًا عني ، حاولتُ مرارًا منعها من الخروج ، لكنها خرجتُ رغمًا عن أحبالي الصوتية وحنجرتي ، رحمتُ أرددها كثيرًا ، حتى انهالت عليّ الضربات لا أدري من أين تأتي ، ضربات وركلات قوية متتالية ، وأنا أردد:

- "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله"!!!

لطمةٌ قويةٌ استقرتُ على خدي الأيمن ، كانت كفيفةً لإيقاظي من هذا الكابوس الرهيب ، فتحتُ عيني اليمنى بصعوبةٍ بالغه من أثر اللطمه ، لأن خدي الأيسر كله كان غائصًا في الأرض ، وجدتني منبطحًا أرضًا هائمًا على بطني لا أقوى على الحراك ، و"نضال" يهزّني بعنفٍ وهو يصرخ:

- فَمَ يا رجل.. أنتَ هنا لتنام؟

- لماذا الهيكل؟ ولماذا قبة الصخرة؟ ولماذا جبل الهيكل؟ وعلام يدل الغقاب؟ وعلام يدل الأسد؟ وكيف ينتصر الغقاب على الأسد!

- ما هذا الهذيان؟ ألم تُفق بعد؟

- "نضال"! أشكركَ لأنك أيقظتني.

- فَمَ واستمع للأخبار الجديدة.

- ماذا هنالك ؟
- الملكة بحقها الدستوري أقالت الحكومة وأصدرت قرارًا ملكيًا بمحاكمة الحكومة المخلوعة أمام محكمةٍ ثورية.. كما أنها وعدت الشعب بتشكيل حكومةٍ مؤقتةٍ.. ثرى من سيكونها؟
- لا أعرف.. لكنه لا بد وأن يكون شخصيةً عامةً يتوافق عليها الجميع.
- من تظن ؟
- هناك الكثير من الأسماء يمكن تخمينها.
- لا يهم ذلك الآن.. فمُ وابتهج معنا.

كانت صرخات الفرح تهبُّ على أذاننا كأنها نسيمٌ عليلٌ في ليلة صيف حارة ، ارتفعت الأهازيج والأغاني ، الأفراح قد غمرت الأجمعين ، الجميع يتبادلون التهاني في سعادةٍ لم أرَ مثلها من قبل ، والألعاب النارية قد أنارت السماء الحالكة ، بينما كانت المفرقات تشدو في كل مكان على الأرض من حولي ، مصدرهٌ ضجيجًا مدويًا تستعذبه المسامع ، سعدت الصواريخ الملونة إلى السماء ، لترسم زنابق بكل الألوان في قبة السماء السوداء ، كانت صيحات الفرح تملأ المكان وكأنها أوركسترا تعزف مقطوعات "موتزارت" العبقريّة ، صرخات الإعجاب بدت وكأنها ترنيمات أوبراليةٍ شجيةً.

ها هو ذا شعب الرب يعود إلى الرب مرةً أخرى.

لقد صدق القائل: "ليس خطأك أن تولد وأنت لست من أبناء إسرائيل، ولكن! خطأك أن تموت ولم تكسب صداقة أحدهم".



## سُفْر (٤٤) "العَرَضُ والمناظرة"

أخيراً ذهبت الحكومة إلى طريق اللا عودة.

عندما تكاثرت الأقاويل حول إقالة الحكومة جبرياً بقرار ملكي حاسم قد اتخذته الملكة ، لأسبابٍ أهمها أن رئيس الحكومة رفض الرضوخ لرغبة الشعب الأبيي ، فتزايدت المظاهرات ، وأجبرت جلاله الملكة إلى الرضوخ لرغبة الشعب ، وأقالت الحكومة بنفسها.

استدعاني "نضال" هاتفيًا لأمرٍ استشعرتُ أهميته ، فأنا أعلم ما يشعر به إذا تحدّث ، نعمة صوته تنقل إليّ ما تستشعره روحه ، توجهتُ على وجه السرعة إلى مكتبه ، عندما وصلتُ إلى هناك رأيتُه على حالٍ لم أعهدُه بها من قبل ، كان القلقُ مرسومًا على مُحياه مغلفًا بهالةٍ من الحيرة ، سألتُه:

- ماذا بك ؟

- الملكة اتصلتُ بي.

مرّت لحظاتٍ حاولتُ فيها فهم هذه الكلمات الثلاث.. الملكة!  
اتصلتُ به! ب"نضال"؟! يبدو أنّ ثمةً أمراً جليلاً على وشك أن يطرق  
مسامعي.. تظاهرتُ بالتماسك وسألته:

- أهدأ سبب حيرتك؟

- لا.. لكن حيرتي من موقفها.

- وكيف ذلك؟

- لقد عرضتُ عليّ تشكيل الحكومة.

أخذتني المفاجأة.. هذا جنون! هذا هو الأمر الجلل كأفزع ما يكون.  
كيف يمكن أن يكون على رأس الحكومة رجلٌ مسلمٌ مهما بلغت  
نزاهته ، ومهما كان ولاؤه لإسرائيل؟ هل حقاً فكرتِ الملكة بذلك؟!

- أنت يا صديقي شهد على نزاهتك كل أعضاء الكنيست من كل  
الأطياف.. يهود..عرب.. حتى الملحدون أثنوا عليك. ولكن ألا ترى  
معي أن هذا شيء جنوني.. أنت....

ارتجفتُ شفتاي وترددتُ قليلاً ، فنظر إليّ "نضال" مبتسماً وهو يهزُّ  
لي رأسه كي أكمل الكلمة التي توقفتُ عنها..

- أنت مسلم!!

ظَلَّ "نضال" على ابتسامته والتي شعرتُ فيها بشيء من السخرية..

- إنكم تفرقون يا رجل.. أما أنا فالملكة تأمرني بأن ألقى بنفسي في  
الجحيم.

- بالتأكيد لديها مسوّغاتها.. هي تثق بك وتعلم أنك على قدر  
المسؤولية.. الجميع هنا يعلم ذلك.. ولكن القرار أصعب من هلاك  
إسرائيل نفسها.. سيكون له مردودٌ عنيفٌ لدى الشباب والمتعصبين.

قَطَب "نضال" جبينه قائلاً:



- ومن قال لك إنني سأقبل؟ لقد أملت عليها شروطي.
- شروطك! وما هي؟
- همومي المعتادة كما تعلم.. عودة كل اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيهم.. وقف الحفريات وبناء الأنفاق تحت الأقصى.. العرب مواطنون درجة أولى متساوون في الحقوق والواجبات مع اليهود.
- لا يمكن أن توافق الملكة على هذا. إذا عاد العرب كما تريد لأصبح عددهم أكثر من نصف عدد السكان.. وبالتالي سيسيطرون على كل مؤسسات الدولة.
- لن يُسيطروا على كل مؤسسات الدولة.. لكننا سنتشارك جميعًا.
- لا.. بل جشعهم سيجعلهم يُحاولون فرض إرادتهم علينا.. هذا سيؤدي في النهاية إلى حربٍ أهليةٍ.
- ليس جشعهم يا صديقي. ليتك لا تكون مثلهم في الغطرسة والعناد والعنصرية المفرطة التي يميزون بها. ومع ذلك فأنا أعلم أنها لن تقبل وهذا بالتحديد ما أردت.
- أراك تتكلم وكأنك لستَ بإسرائيلي.
- أنا عربي مسلم في المقام الأول.. مهما كانت جنسيتي فهذا هو ديني وهويتي.. أمثالي ينتظرون قدوم جيش الرايات السود من الشرق لينضمُّوا إليه كأَي مؤمنٍ بمحمد.
- ماذا تعني يا "نضال"؟ أنا لا أفهم شيئاً إطلاقاً!!!
- الحربُ قادمةٌ يا صاح.. سيجتمع المسلمون جميعًا تحت رايةٍ واحدةٍ.. لهم قائدٌ واحدٌ.. يهتفون بصيحةٍ واحدةٍ.. ولن يستطيع أحدٌ مهما كان أن يوقف زحفهم.. فلتسأل كبار حاخاماتكم فهم يعلمون ذلك جيدًا.. وجميعهم يسعون لتأخير هذه اللحظة.. ولا يخفون الأمر. لكن اللحظة قادمة.. وهناك الكثير من العلامات التي ظهرت للعارفين..

سيكون هذا موضوع ندوتي في أشهر قناة إخبارية عربية قريبًا.. تابع هذه الندوة وستعلم ماذا أقصد.

أخذت نفسًا عميقًا وزفرته في حنقٍ شديدٍ تمهيدًا للهاث بدأ يقطع كلماتي:

- أتابع؟! أتابع ماذا؟! هذا كثيرٌ.. دماغي سينفجر.. لم تعد لدي أية قدرة على الاحتمال.. شعرةٌ نحيلةٌ هي التي تكاد تفصل بين الشك والإلحاد.. وأنا على مشارف الإلحاد.. أنا وأنت من أعز الأصدقاء.. نتفق في أشياء كثيرة.. ونختلف في الدين الذي سيأتي اليوم الذي تقتلني فيه أو أقتلك لأننا مختلفان فيه.. هل تعتقد أن من خلقك هو من خلقتني؟ هو من خلق النصرانيين وغيرهم.. لا أعتقد ذلك.. إنها حربُ آلهةٍ يا صاح.. هم يتسامرون وبهازون بعضهم بعضًا.. ويُفزعون كؤوسهم.. ويُفقهون من فرط ثمالتهم.. ويدحروننا نحن من أجل إثبات مَنْ الأقوى.. لماذا لم نخلق جميعًا على ملةٍ واحدةٍ؟ أو على لسانٍ واحدٍ؟! لماذا لا نعيش في سلامٍ مع بعضنا البعض؟! وأنا أحبك وأنت تحبني ونبتغي الأمان والسلام لكل منا.. كل إليه خلق مخلوقاته وأعطاهم لغته.. ولكن من يُحاسب بعد الدينونة هو إلهٌ واحدٌ حسب المعتقد الإسلامي.. إذن هل تستطيع إقناعي أن الحساب يكون بلغةٍ واحدةٍ.. وكيف ستقنعني بأن هذا الرب يتحدث كل اللغات.. مع العلم أنه لم يكن هناك قبل خلق المخلوقات مراكز تعليم لغات لتعليم الآلهة..

ابتسم "نضال" وظلت عيناه تتفحصاني قليلاً في صمتٍ، ثم قال:

- لقد كُنّا أمةً واحدةً ولساناً واحداً قبل أن يقتل قابيل أخاه هابيل.. لكن لا تخف فإن أطل الله عمري لأشهد هذه المعركة لن أقتلك.. لأننا لن نقاتل اليهود أمثالك.. فقط اليهود الظالمين.. الذين يُظهرون اليهودية ويُبتنون عبادتهم لإبليس.. كمن يحكمون إسرائيل الآن.. أو

بالأحرى من كانوا يحكمونها بالأمس وغلّوا بقرار ملكي.. هكذا أمرنا ديننا.. ليس كل اليهود.

- لماذا كل هذا العداة؟

- صديقي..... اليهود أعداؤنا ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.. إلى أن تقوم الساعة.

تساءلت متعجبًا:

- ألهذه الدرجة! لماذا يا نضال؟ لماذا؟!

- عندما بُعث نبينا "محمد" (صلى الله عليه وسلم) سارع اليهود إلى تكذيبه وإنكار رسالته.. مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.. بل قالوا إن قريش عُباد الأصنام أهدى سبيلًا منه.. وحاربوه بشتى الوسائل..

- حاربوه!

فأجاب مؤكدًا:

- نعم حاربوه بالشبهات والشكوك والكيد والدسائس والنفاق.. والاعتقال والقتال والسحر والسم.

- آه.. وحاضرًا أنا أعرفها.. في اعتقادكم أننا نحتل أرضكم..

- هي أرضنا بالطبع.. أولى القبلتين ومسرى رسولنا الكريم.. وثالث المساجد التي تشد الرحال إليها.. سفكتم دماءنا وشردتمونا منها وأجبرتمونا على الأسرّة والعبرّة.

- ومستقبلًا؟

- أخبرنا نبينا بأن المسيح الدجال سيتبعه عند خروجه سبعون ألفًا من يهود أصفهان.. فهم جند الدجال وأعوانه.. حتى تقوم المعركة التي تخشاها.

حاولتُ أن أستفزه بسؤالِي:

- وما موقفكم من النصارى؟

لكنه قد فهم ذلك! وأجاب مبتسمًا:

- لا تستدرجني إلى تلك المنطقة يا "يائير".. ليس كل اليهود وليس كل النصارى.. فقط الذين هم يتولون بعضهم بعضًا حاليًا.

- لا أفهم!

- سأحاول أن أبسط لك الأمر.. على سبيل المثال "حلف الناتو".. منذ متى واليهود والنصارى حلفاء؟

- منذ متى؟

- فقط هذه المرة..

- وهي المرة الأولى والأخيرة التي ستحدث في التاريخ.. قبل نهاية التاريخ الذي أوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.. فالأحداث متلاحقة يا صديقي.. وبالكدأ أصبحتم تمتلكون كيانًا دوليًا قويًا لتظاهوا أعظم دول العالم.. هل تُنكر أن حُكمانا.. قد تسببوا في خساراتٍ فادحةٍ لأميركا؟

- لا أنكر..

- ولولا رجال الأعمال اليهود لانهيار الاقتصاد الأميركي.. وتسوّل معظم الأميركيان.. لذلك تنازلت أميركا عن كل قواعدها ل"تساهل".. في السر.. كانوا يعملون من أجل إسرائيل في الخفاء.. وأمام العلن هم المسئولون..

- لا شك في صحة ما تقول.. ولكن ماذا عن المعركة.. وقائدكم..

ابتسم وهو ينظر إليّ، وظل هكذا فترةً حتى استفزني بابتسامته،

حتى صحتُ قائلاً:



- أجبني يا "نضال" ..

قال وهو لا يزال مبتسمًا:

- سأخبرك عن شيء ما كنتُ لأخبره لأحدٍ.. وليس لكونك يهوديًا  
سأخبرك به.. ولكنني أجرد الاختلاف بيننا.. فقط لأنك صديقي  
سأخبرك.

- أثرت فضولي.. تكلم يا "نضال" بالله عليك..

- هناك أحلامٌ ورؤى أناس صالحين عن إمامنا وقرب ظهوره.. الفتى  
المنتظر الذي يُرعب اليهود جميعًا ظهوره.. قد يبدو هذا عجيبًا  
لبعض الناس ممن يرفضون مجرد قبول فكرة أننا في الأيام القلائل  
الآخيرة التي تسبق الملاحم التي أخبر عنها رسولنا الكريم.. وحسبي  
أن أروي ما سمعتُ من أحلامٍ ورؤى لأناسٍ نحسبهم صالحين ولا  
نزيهم على الله.. فمنهم مشايخ معروفون ومجاهدون وإخوة من  
طلبة العلم المعروف عنهم صدق أحلامهم وانطباق الواقع عليها..  
وهناك ممن شاهد قد قبض عليهم في بلاد الحرمين.. وتم تعذيبهم  
بشتى أنواع العذاب التي ربما فاقت شدة تعذيب محاكم التفتيش  
الصليبية لمسلمي الأندلس الضائع.. ولكنني سأخبرك عما شاهدته  
أنا في منامي.. وهي رؤيا صادقة لأن رسولنا لا يستطيع الشيطان أن  
يتجسد في صورته..

- ماذا رأيت؟

فقال بخشوعٍ بعد تنهيدةٍ طويلةٍ يغمرها الإحساس العميق:

- لقد أتاني رسولنا الكريم في المنام بينما كنتُ مصابًا والدماء تنزف  
من جسدي اقترب مني ومسح بيديه الشريفتين على رأسي وقال: «إن  
إمامكم حيٌّ يرزق وهو يُقاتل في إحدى جبهات الجهاد الآن..  
فلا تتعاس في تبليغ رسالتك».. قمتُ لحظتها من نومي على  
الفور.. لهذا السبب ذهبْتُ إلى "أفغانستان"، أرض "خراسان".. ولم

أخبر أحدًا في الكون سواك.. ورأيت ما يفعله المجاهدون هناك..  
واستبسالهم في الجهاد أمام المغتصبين الذين يقاتلونهم تحت (٨٠)  
راية.. ولكن راية الحق هي من ستنتصر.

جال "نضال" بناظره هنا وهناك، ونهض عن مقعده، ونظر إليّ  
مبتسمًا ثم قال:

- لن أبخل عليك بالمزيد من الرؤى حول الأمر.. فأنتم قومٌ تعشقون  
الرؤى وتقدسون الأساطير.. قال لي أحد المجاهدين لا داعي لذكر  
اسمه: "رأيتُ فلانًا في ززانية جالسًا، ثم كأنه يخرج من ززانيته فيسجد  
له الفرس واليهود! فسألته: هل أنت "الإمام"؟ فتبسم ومضى"..  
وهناك آخر من شمال الجزيرة العربية.. ويرجع نسبه بزعم البعض  
إلى الأشراف الهاشميين الذين دخلوا في بعض القبائل البدوية..  
وأغلب تلاميذه من الشباب الجهادي.. يقول هؤلاء الإخوة: كل  
صفات "الإمام" التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم منطبقة  
عليه أشد انطباق! بل حتى كبار السن عندنا في بلدتنا كانوا يظنون  
"الإمام".. فلما ذهب إلى "الشيشان" للجهاد صاروا يجزمون بذلك.  
- ولماذا يجزمون بذلك؟

- لأن إمامنا يأتي من قِبَل المشرق.. وهو يغضب جدًّا عندما يسمع أن  
أحدهم ذكر أنه هو "الإمام".. وهذه أيضًا من علامات إمامنا كما ذكر  
عنه في أحد الأحاديث: "يُصلحه الله في يوم وليلة".. وللعلم فقط فإن  
تلاميذه الذين كانوا يجلسون إليه الآن مطلوبون للقبض عليهم في  
بلاد الحرمين.. لا لشيء غير أنهم من أصحابه.. ومعلوم رعب الأنظمة  
الحاكمة ممن يثار حولهم مثل هذا الكلام.. وهم الآن مُطاردون في  
الأرض.. وهو اليوم المسئول الشرعي للمجاهدين الشيشان.. على  
الرغم من أن البعض أكد أنه ينتسب لبني تميم وليس للهاشميين..  
واعلم يا صديقي أن الخوارج ينضم آخرهم للدجال.. فلا تفرح بزيادة

التحالفات وتطور الأسلحة.. فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرةً بإذن الله.

- إذن قد رفضتُ الملكة.

- نعم رفضتُ شروطي.

- أتقصد؟

- نعم.. رفضتُ عرضها.

كيف له أن يفعل هذا! حتى الآن أنا لستُ مستوعبًا، علني أفهم كل شيء في وقتٍ قريبٍ، همتُ بالمغادرة متحاملًا على حيرتي، لكن استوقفني سؤالٌ عليّ أن أسأله إياه:

- قل لي يا "نضال".. ماذا تصدقون عندنا؟

- هناك في كتبكم أنواعٌ.. تُصدق بعضها وهو ما جاء موافقًا لها في شرعنا.. فلا يجوز العمل بأي حكمٍ من أحكام الكتب السماوية إلا ما أقره منها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

- والنوع الآخر؟

- نوع يحرم روايته وهو ما جاء في كتبكم مخالفًا لها في شرعنا.

- من أين لك بكل تلك المعرفة؟

- أنت تعلم يا صديقي على كل من يهتم بالأدب أن يقرأ أكثر مما يكتب.. كي يستطيع أن يُنمي قدراته المعرفية وتوسيع نطاق ثقافته.. لذا كان عليّ أن أقرأ أكثر في مقارنة الأديان.. لكوني شريكًا في الحياة الاجتماعية مع أناسٍ على غير ديني.. فإذا كان قصدي معرفة ما في كتبكم من الشر لتوقيه وتحذير الناس منه.. فهذا جائزٌ.. كما فعل أئمتنا في النقل من كتب أهل الكتاب.. ولولا اعتقاد الأئمة جواز النظر فيها لما فعلوه وتواردوا عليه.

- كيف لك أن تُفنعني؟

- عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى نبينا (صلى الله عليه وسلم) بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي فغضب، فقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فنكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن "موسى" كان حيًّا ما وسعته إلا أن يتبعني).

- لماذا قلت ليلتها "لا أعتقد أن عاقلاً يجروء على القول أن كاتب هذا الكلام هو موسى!"؟

قبل أن يجيبني على هذا السؤال ابتسم ابتسامته المعهودة وقال وهو يفتح جهازه اللوحي الهولوجرامي ليريني بعض الأدلة، وأنا ما كان مني إلا أن تابعته بكل شغفٍ وهو يشرح بدقة:

- إن بعض نصوص التوراة تتحدث عن "موسى" (عليه السلام) بضمير الغائب.. وبصيغة لا يمكن التصديق بأن كاتبها هو "موسى".. ومن تلك النصوص: (تحدث الله مع موسى) (وكان الله مع موسى وجهًا لوجه) (وكان موسى رجلًا حليمًا جدًا أكثر من جميع الناس).. (فسخط موسى على وكلاء الجيش).. (موسى رجل الله).. ونحو ذلك.. فلو كان "موسى" كاتب تلك النصوص لقال مثلاً: (كلمني الرب)، (تحدثت مع الله).. ونحوه.

- من الممكن أن يكون الرب قد أملى عليه بهذه الطريقة..

- اللغات والأساليب التي كتبت بها التوراة وما تشتمل عليها من موضوعاتٍ وتشريعاتٍ وبيئاتٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ وجغرافيةٍ تنعكس فيها.. تظهر أنها قد ألفت في عصورٍ لاحقةٍ لعصر "موسى".. مما يثبت أن هذه الأسفار قد كتبت بأقلام اليهود التي تعكس أفكارهم ونظمهم المتعددة في مختلف أدوار تاريخهم الطويل.

- من أين لك بهذا النقد؟



- كثيرون فعلوا ذلك.. ولكن كان الأقرب لها في نفسي هو نقد الدكتور "محمود عبد الرحمن قدح" <sup>(٤١)</sup>.. جزاه الله عنا كل الخير..

- وما هي أمثله على ما قلت؟

- قال في بحثه بعنوان (الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في انحرافهم - عرض ونقد) ورد في التوراة في (سفر التكوين) الإصحاح الرابع عشر في الفقرة الرابعة عشرة أن "إبراهيم" (عليه السلام) تتبع أعداءه إلى "دان". وهي اسم مدينة لم تُسمَّ بهذا الاسم إلا بعد موت "يوشع" بعد دخول بني إسرائيل "فلسطين" واستقرارهم بها.. فقد ورد في (سفر القضاة) الإصحاح الثامن عشر في الفقرة التاسعة والعشرين " (٢٩) وَدَعَوْا اسْمَ الْمَدِينَةِ "دَانَ" بِاسْمِ دَانَ أَبِيهِمْ الَّذِي وُلِدَ لِإِسْرَائِيلَ. وَلَكِنَّ اسْمَ الْمَدِينَةِ أَوْلًا "الأيث" ... وكان اسم المدينة قبل ذلك "لايش".

- حقًا.. كيف يذكر "موسى" وهو يقص قصة "إبراهيم" اسم مدينة لم تسمَّ بهذا الاسم إلا من بعده بزمنٍ طويلٍ جدًّا؟!!

ضحك "نضال" متهكمًا ثم قال:

- عليك أن تسأل حاخاماتكم العظام هذا السؤال المهم.

- لذلك تعتقد أن "سبينوزا" على حق؟

- على حق في قوله: (إن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة.. بل كتبها شخصٌ آخر عاش بعد موسى بقرونٍ عديدة).

- وما الذي يؤكد صحة قولك؟

- اختلاف فرق اليهود في قبول ورفض بعض أسفار العهد القديم.. فطائفة "السامرة" لا تعترف إلا بالتوراة ذات الخمسة الأسفار وتنكر ما عداها من الأسفار.. وتقبل منها سفري "يوشع" و"القضاة" باعتبارهما سفرين تاريخيين فقط.. ويخالفها جمهور اليهود الذين يقبلون أسفار العهد القديم المذكورة.. ويختلف مع اليهود أيضًا طائفة الكاثوليك من النصارى في قبول ورفض بعض أسفار العهد القديم.

- "نضال" هل لي أن أسألك سؤالاً يشغلني..
- بالطبع.. فلتسأل..
- لماذا تتقون كمسلمين كل هذه الثقة في أن قرآنكم من عند الرب وأنه هو الكتاب المقدس الصحيح وغير محرفٍ؟
- ابتسم "نضال" ثم قال خاشعًا:
- قال الله عز وجل في سورة (النساء) الآية الثانية والثمانين: (أَقْلًا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)..
- القرآن نسخة واحدة.. منذ أنزله الله على رسولنا الكريم إلى وقتنا هذا.. وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..
- هل لك أن تبين لي بعض مواطن الاختلاف والتناقض والباطل الذي يدل على وقوع التحريف والتزوير في أسفارنا؟
- سأكتفي بذكر بعضها.. من أين تحب أن نبدأ؟
- الاختلاف بين نسخ التوراة المختلفة..
- هل لك أن تجيبني.. التوراة الحالية.. أهي نسخة واحدة يُجمع عليها اليهود؟
- لا بل نسخٌ مختلفة..
- نعم.. ثلاث نسخ مختلفة.. هل تستطيع أن تذكرها؟
- التوراة العبرية.. والتوراة السامرية.. والثالثة.. أعتقد أنها اليونانية..
- بالضبط.. التوراة العبرية يعترف بها جمهور اليهود.. وفرقة البروتستانت من النصارى.. وبالطبع إن التوراة السامرية يؤمن بها السامرة.. أما التوراة اليونانية تعترف بها فرقة الكاثوليك من النصارى.. وكل فرقة لا تعترف بالنسخ الأخرى.. أليس كذلك؟
- نعم.. كذلك..

- كذلك توجد اختلافات جوهرية وتناقضات صريحة بين النسخ الثلاث.. أتريد أمثلة على ذلك؟
- وهل يوجد؟
- ابْتَسِم "نضال" واثقًا وقال:
- الكثير.. أين تقع قبلة اليهود ومكان بناء مذبح الرب.. ها.. أجبني؟
- قبلتنا جبل "عيبال" بأورشليم..
- وما دليلك؟
- ما ذكر في التوراة العبرية في سفر التثنية..
- بالضبط ويتفق معكم في ذلك التوراة اليونانية في سفر (التثنية) الإصحاح السابع والعشرين في الفقرة الرابعة والخامسة.. "حِينَ تَعْبُرُونَ الْأَرْضَ، تُقِيمُونَ هَذِهِ الْحِجَارَةَ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا الْيَوْمَ فِي جَبَلِ عَيْبَالٍ، وَتُكَلِّسُهَا بِالْكَلْسِيِّ. وَتَبْنِي هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ إِلَهِكْ، مَذْبَحًا مِنْ حِجَارَةٍ لَا تَرْفَعُ عَلَيْهَا حَدِيدًا"...
- تقريبًا..
- قَطَّبَ "نضال" جبينه وأرغمني على النظر إلى جهازه اللوحي الهولوجرامي حيث رأيتُ النصوص أمامي، وقال بلهجة غاضبة:
- لا نقل تقريبًا.. ها هي ذي النصوص أمامك.. انظر وقارن..
- نظرتُ إلى النصوص لأجده على صوابٍ، فأوماتُ برأسي متفقًا معه:
- نعم.. هذا صحيح..
- أما التوراة السامرية فتختلف مع التوراة العبرية واليونانية حول القبلة وبالتالي مذبح الرب.. قبلتهم جبل "جرزيم" بنابلس.. ورد ذلك في سفر (التثنية) الإصحاح السابع والعشرين في الفقرة الرابعة والخامسة كما رأيت.. هذه واحدة..

- والثانية؟
- يا صديقي إن الذبيح ليس بإسحق..
- نعلم أنكم تقولون إن الذبيح هو "إسماعيل" .. كما ورد في قرآنكم..
- إليك بالثالثة.. التقريب لم يكن لإسحق.. لذا لم يكن بعبال.. ولا جرزيم..
- أين كان إذن؟
- أحد الوديان القريبة من "جمرة العقبة" بين جبل "عرفات" و"مئى" ..
- ولكن..
- قاطعني "نضال" قائلاً:
- أعلم ما تريد قوله.. أنتم لا تعترفون بنبوة "إسماعيل" ..
- ليس هذا فحسب.. إنه ليس ابناً شرعياً لأبينا "أفراهام" .. هو ابن "هاجر" جارية أمنا "سارة" ..
- لن أعترض على ما قلت.. مؤقتاً.. ولكن إن جئتُك بأدلةٍ من توراتكم أتعدني أن تعترف بأن "إسماعيل" ابنٌ شرعيٌّ لأبينا "إبراهيم"؟
- هذا يتوقف على ما ستأتي به من أدلة..
- ابتسم نفس الابتسامة وهو يقرأ عليّ:
- تقول النصوص عن "سارة" في سفر (التكوين) الإصحاح السادس عشر الفقرة الثانية.. "فَقَالَتْ سَارَايُ لِأَبْرَامَ: "هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَني عَنِ الْوِلَادَةِ. ادْخُلْ عَلَيَّ جَارِيَتِي لَعَلِّي أَرْزُقُ مِنْهَا بَنِينَ". فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ.. "وقيل أيضاً في نفس السفر الفقرة رقم (٣) "فَأَحَدَتْ سَارَايُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشْرِ سِنِينَ لِإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كِنَعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لِأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ. " .. ها.. أهي الآن زوجته أم لا.. حسب نصوص التوراة؟

- زوجته..
- إذن هذه الزوجة عندما تُنجب يكون ابنها ابنًا شرعيًا أم لا؟
- يكون ابنًا شرعيًا..
- نأتي لموضع آخر.. تقول توراتكم في سفر (أخبار الأيام الأول) في الإصحاح الأول.. من الفقرة الثامنة والعشرين إلى الحادية والثلاثين: "إِبْنَا إِبْرَاهِيمَ: إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ. هَذِهِ مَوَالِيدُهُمْ. بَكَرُ إِسْمَاعِيلَ: نَبَايُوثُ، وَقِيدَارُ وَأَدْبَيْيْلُ وَمِبْسَامُ. وَمِشْمَاعُ وَدُومَةُ وَمَسَا وَحَدَدُ وَتَيْمَاءُ. وَيَطُورُ وَنَافِيثُ وَقَدَمَةُ. هَؤُلَاءِ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ.".. ثم ورد في سفر (التكوين) في الإصحاح الخامس والعشرين بالفقرة التاسعة "وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَعَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ فِي حَقْلِ عَفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ الْجِثِّيِّ الَّذِي أَمَامَ مَمْرًا،".. هنا اعتراف صريح بأن "إسماعيل" ابنٌ شرعيٌّ..
- نعم.. صحيح..
- إليك بسؤالٍ مهم.. لماذا تعترفون بأبناء الجوارى أنهم أبناءٌ شرعيون ولا تعترفون بأبينا "إسماعيل" ابنًا شرعيًا؟
- أبناء الجوارى! من تقصد؟
- أقصد "جاد" و"دان" و"نفتالي" و"أشير".. وهم أربعة أسباط من الأسباط الإثني عشر أبناء "يعقوب" وهم أولاد جوارٍ.. وذلك مذكورٌ في سفر (التكوين) الإصحاح الثلاثين بداية من الفقرة الثالثة إلى الفقرة الثالثة عشرة.. أتريد أن أقرأ عليك؟ أو تقرأ أنت بنفسك؟
- لا.. كفي..
- ها.. أتريدني أن أخبرك من هو الابن المحبوب المنتظر؟
- من؟
- أعلم أنك تنتظرني أن أقول إنه "إسحق".. لكن ليس هو بالطبع..

- ولماذا ليس هو؟
- هذه المرة ستقرأ الفقرة بنفسك..
- ثم وضع شاشة جهازه اللوحي أمام عينيَّ وأخذتُ أقرأ:
- (فَقَالَتْ سَارَايُ لِأَبْرَامَ: "هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَ بِي عَنِ الْوِلَادَةِ. ادْخُلْ عَلَيَّ جَارِيَّتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ". فَسَمِعَ أBRAMُ لِقَوْلِ سَارَايَ)..
- ثم نَحَاهُ جَانِبًا وَابْتَسَمَ مَدَاعِبًا:
- فتح الرب عليك يا صديقي.. هنا نسبتُ "سارة" المولود إليها قبل أن يُولد.. على الرغم من أنه ابن "هاجر".. ولكن لاشتياق "سارة" وحبها للأطفال نسبتُه إليها.. أي أنها كانت تُحبه وتنتظرُ ولادته..
- وما دليلك على أن "إسحق" ليس الذبيح؟
- الدليل من التوراة بالطبع.. يجب أن يكون القربان أو الذبيحة من الأَبكار.. في (سِفْرُ الْعُدُدِ) الإصحاح الثامن.. من الفقرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة: "(١٧) لِأَنَّ لِي كُلَّ بَكْرٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الْبَهَائِمِ. يَوْمَ صَرَبْتُ كُلَّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَدَسْتُهُمْ لِي. (١٨) فَاتَّخَذْتُ الْوَلَدَيْنِ بَدَلَ كُلِّ بَكْرٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ..". وقيل أيضًا في (سِفْرُ الْخُرُوجِ) الإصحاح الثالث عشر في الفقرة الأولى والثانية "(١) وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: (٢) "قَدِسْ لِي كُلَّ بَكْرٍ، كُلَّ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِنْ النَّاسِ وَمِنَ الْبَهَائِمِ. إِنَّهُ لِي".
- لكن أينا "إسحق" فاتح رحم أمنا "سارة"..
- أتفق معك تمامًا.. لكنه ليس بكر أبيه "إبراهيم".. بل "إسماعيل" هو ابنه البكر.. فالنص يقول: (خُذْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ الَّذِي تُحِبُّهُ)..
- و"إسماعيل" وقتها كان الوحيد والمحبوب وهو البكر.. وهو فاتح الرحم بالنسبة لهاجر.. عندما وُلِدَ "إسماعيل" كان أبوه "إبراهيم" ابن ستِّ وثمانين سنة.. وعندما وُلِدَ "إسحق" كان أبوه ابن مائة سنة.. أي

أن الفارق بين "إسماعيل" و"إسحق" أربع عشرة سنة.. ولكن هيهات.. كل شيء مُحرف.. في خمسة أسفار فقط تختلفون مع السامرة سبعة آلاف اختلاف! وهناك اختلافات أخرى كثيرة من حيث الألفاظ والإملاء والقواعد النحوية وغيرها.. فما حال باقي الأسفار يا صاح؟

- ما هي الاختلافات بين أسفار التوراة بعضها ببعض وبين الأسفار الأخرى؟

- أولاً قبل الأمثلة إليك بهذه.. ورد أن مجموع الأعمار (الفترة الزمنية) من عهد أبينا "آدم" إلى أبينا "إبراهيم" عليهما الصلاة والسلام في التوراة العبرية يبلغ (٢٠٢٣) سنة.. وفي التوراة السامرية يبلغ مجموع الأعمار (٢٣٢٤) سنة.. أما في التوراة اليونانية يبلغ (٢٢٠٠) سنة!

- سمعتُ بذلك من قبل..

- إليك بالأمثلة يا صديقي..

أخذ يمرر إصبعه على شاشة جهازه اللوحي الهولوغرامي ، ثم قال:

- ورد في سفر (التكوين) الإصحاح السادس في الفقرة الثالثة أن الله غضب على البشر لطغيانهم في عصر نوح عليه السلام ف قضى بأن عمر الإنسان لا يتجاوز مائةً وعشرين سنة كما ورد في النص " (٣) فَقَالَ الرَّبُّ: "لَا يَدِينُ رُوحِي فِي الْإِنْسَانِ إِلَى الْأَبَدِ، لِيَزَيِّعَانِي، هُوَ بَشَرٌ. وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً"... وهذا النص يختلف مع ما ورد في التوراة أيضاً في سفر (التكوين) الإصحاح الحادي عشر.. بداية من الفقرة العاشرة وحتى الثانية والثلاثين من أن "سام" بن نوح عاش ستمائة سنة.. وابنه "أَرْفَكَشَاد" عاش أربعمائة وثمانية وثلاثين سنة.. و"شالْح" عاش أربعمائة وثلاثة وثلاثين سنة.. و"عابِر" عاش أربعمائة وأربعمائة وستين سنة.. وغيرهم الكثير ممن تجاوزت أعمارهم مائةً وعشرين سنة!

- وماذا أيضاً؟

- ورد في سفر (التكوين) الإصحاح السابع في الفقرة الثانية عشرة أن طوفان نوح عليه السلام استمر مدة أربعين يوماً و ليلة " (١٢) وَكَانَ الْمَطَرُ عَلَى الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. .." ولكن ينقضه ما ورد في نفس السفر والإصحاح في الفقرة الرابعة والعشرين أن الطوفان استمر مدة مائة وخمسين يوماً كما ورد في النص " (٢٤) وَتَغَاطَمَتِ الْمِيَاهُ عَلَى الْأَرْضِ مِائَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا. !!" ورد أيضاً في سفر (التكوين) الإصحاح الثامن في الفقرة الرابعة والخامسة " (٤) وَاسْتَقَرَّ الْفُلُكُ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ، فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، عَلَى جِبَالِ أَرَارَاتٍ. (٥) وَكَانَتْ الْمِيَاهُ تَنْقُصُ تَنْقُصًا مُتَوَالِيًا إِلَى الشَّهْرِ الْعَاشِرِ. وَفِي الْعَاشِرِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، ظَهَرَتْ رُؤُوسُ الْجِبَالِ. .." وفي هذا اختلاف واضح.. لأنه إذا ظهرت رؤوس الجبال في الشهر العاشر فكيف تكون سفينة نوح قد استقرت على جبال أراراط (أرمينيا) في الشهر السابع.. أي قبل شهرين ونصف من ظهور رؤوس الجبال؟! أتريد المزيد؟

- نعم..

- ورد في سفر (التكوين) الإصحاح السادس والأربعين في الفقرة الحادية والعشرين أن أبناء بنيامين بن يعقوب عددهم عشرة أبناء " (٢١) وَبَنُو بَنِيَامِينَ: بَالَعُ وَبَاكْرُ وَأَشْبِيلُ وَجِيرَا وَنَعْمَانُ وَإِيحِي وَرُوشُ وَمُقِيمُ وَخَفِيمُ وَأَرْدُ. .." ولكن ورد في سفر (أخبار الأيام الأول) الإصحاح السابع في الفقرة السادسة أن أبناء بنيامين ثلاثة " (٦) لِبَنِيَامِينَ: بَالَعُ وَبَاكْرُ وَيَدِيعَيْلُ. ثَلَاثَةٌ. " وفي نفس السفر الإصحاح الثامن في الفقرة الأولى والثانية أن أبناء بنيامين خمسة فقط " (١) وَبَنِيَامِينَ وَلَدَ: بَالَعُ بِكْرَهُ، وَأَشْبِيلُ الثَّانِي، وَأَخْرَحَ الثَّلَاثُ، (٢) وَثُوْحَةَ الرَّابِعَ، وَرَافَاَ الْخَامِسَ. !!! ثم ورد في سفر (صموئيل الثاني) الإصحاح الرابع والعشرين في الفقرة الثالثة عشرة " (١٣) فَأَتَى جَادُ إِلَى دَاوُدَ وَأَخْبَرَهُ وَقَالَ لَهُ: "أَتَأْتِي عَلَيْكَ سَبْعُ سِنِي جُوعٍ فِي أَرْضِكَ، أَمْ تَهْرُبُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ أَمَامَ أَعْدَائِكَ وَهُمْ يَتَّبِعُونَكَ، أَمْ يَكُونُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَبَأَ فِي أَرْضِكَ؟ فَالآنَ اعْرِفْ وَانظُرْ مَاذَا أَرُدُّ جَوَابًا عَلَى مُرْسَلِي ..." ويناقضه

ما ورد في سفر (أخبار الأيام الأول) الإصحاح الحادي والعشرين في  
 الفقرة الحادية عشرة والثانية عشرة " (١١) فَجَاءَ جَادُ إِلَى دَاوُدَ وَقَالَ  
 لَهُ: "هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: اقْبَلْ لِنَفْسِكَ: (١٢) إِمَّا ثَلَاثَ سِنِينَ جُوعٌ، أَوْ  
 ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ هَلَكَ أَمَامَ مُضَايِقِيكَ وَسَيْفُ أَعْدَائِكَ يُدْرِكُكَ، أَوْ ثَلَاثَةَ  
 أَيَّامٍ يَكُونُ فِيهَا سَيْفُ الرَّبِّ وَوَبَأٌ فِي الْأَرْضِ، وَمَلَكَ الرَّبِّ يَعْثُو فِي  
 كُلِّ نَحْوَمِ إِسْرَائِيلَ. فَانظُرِ الْآنَ مَاذَا أَرُدُّ جَوَابًا لِمُرْسَلِي". .. أهي سبع  
 سنوات جوعًا أم ثلاث سنوات؟!

- لا أدري..

- ابتسم متهكمًا وهو يقول:

- وأنا أيضًا..

- ابتسمتُ على استحياءٍ ، واستطرد قائلاً:

- ورد في سفر (الملوك الأول) الإصحاح الرابع في الفقرة السادسة  
 والعشرين " (٢٦) وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ أَرْبَعُونَ أَلْفَ مِذْوَدٍ لِحَيْلٍ مَرْكَبَاتِهِ،  
 وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ. .. ولكن تكرر الخبر في سفر (أخبار الأيام  
 الثاني) الإصحاح التاسع في الفقرة الخامسة والعشرين كالآتي: " (٢٥)  
 وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ أَرْبَعَةُ أَلْفِ مِذْوَدٍ حَيْلٍ وَمَرْكَبَاتٍ، وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفَ  
 فَارِسٍ، فَجَعَلَهَا فِي مِذْنِ الْمَرْكَبَاتِ وَمَعَ الْمَلِكِ فِي أُورُشَلِيمَ. .. يكفي  
 إلى هذا الحد؟

- يكفي..

- أتريد أن تعرف بعض الاختلاف مع الحقائق العلمية والتاريخية.

- أهنك؟

- بالطبع.. وإلا لما سألتك..

- مثل ماذا؟

- ورد في سفر (التكوين) الإصحاح الأول من الفقرة السادسة إلى الفقرة الثامنة " (٦) وَقَالَ اللَّهُ: "لْيَكُنْ جِلْدٌ فِي وَسْطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فاصلاً بَيْنَ مِيَاهِ وَمِيَاهٍ". (٧) فَعَمِلَ اللَّهُ الْجِلْدَ، وَقَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجِلْدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجِلْدِ. وَكَانَ كَذَلِكَ. (٨) وَدَعَا اللَّهُ الْجِلْدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءً وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا. ". يقول "موريس بوكاي" (٤٢): أسطورة المياه هنا تستمر بانفصالها إلى طبقتين بواسطة الجلد الذي سيجعل الطبقة العليا عند الطوفان تنفذ من خلاله لتنصب على الأرض.. إن صورة انقسام المياه هذه إلى كتلتين غير مقبولة علمياً.. ها.. أتريد أن تعرف المدة التي أقامها بنو إسرائيل في مصر؟

تفاعلت أكثر وتساءلتُ:

- كم المدة؟

- ورد في سفر (التكوين) الإصحاح الخامس عشر في الفقرة الثالثة عشرة أن مدة إقامة بني إسرائيل في مصر ستكون أربعمئة سنة " (١٣) فَقَالَ لِأَبْرَامَ: "اعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ عَرَبِيًّا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ. فَيَذَلُّونَهُمْ أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ. .."

- نعم هذا صحيح..

- لا ليس صحيحًا يا صديقي..

- لماذا؟

- لأنه ورد في سفر (الخروج) الإصحاح الثاني عشر في الفقرة رقم أربعين أن مدة إقامة بني إسرائيل في مصر كانت أربعمئة وثلاثين سنة.. كما يقول النص " (٤٠) وَأَمَّا إِقَامَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَقَامُوهَا فِي مِصْرَ فَكَانَتْ أَرْبَعِمِائَةَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً. ". وكلا التاريخين يختلفان مع الحقيقة التاريخية التي اعترف بها الأبحارُ ومفسرو الأسفار من أن مدة إقامة بني إسرائيل في مصر لا تزيد على مائتين وخمسة عشرة سنة..

سألته متعجبًا:

- كيف ذلك؟
- بدليل حساب عمر إسرائيل "يعقوب" عليه السلام عند دخوله مع بنيه أرض مصر.. ثم أعمار الأجيال إلى زمن خروج بني إسرائيل من مصر مع "موسى" عليه السلام..
- أهذا صحيح؟
- هذا ما قد اعترف به أحباركم ومفسروكم..
- قلتُ أسفًا:
- إنها بالفعل تناقضاتٌ غايةً في الصعوبة..
- تنهَّد ثم قال بنعمةٍ عميقةٍ الحزن والأسف:
- الأصعب من ذلك يا صديقي وجود الأقوال القبيحة والتهم الشنيعة والأوامر الباطلة والتعاليم الفاسدة والقصص البذيئة في هذه الأسفار والتي تستحيل أن تكون وحيًا من عند الله عز وجل.
- حقًا؟
- ليس حقًا ولكن هذا ما ورد في أسفاركم..
- أي أسفار؟
- ورد في سفر (التكوين) الإصحاح الثاني في الفقرة الثانية والثالثة أن الله - سبحانه وتعالى - لما خلق الخلق في ستة أيام فإنه تعب واستراح في اليوم السابع.. كما قيل " (٢) وَفَرَّغَ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ وَقَدَّسَهُ، لِأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللَّهُ خَالِقًا.. كيف لخالق الكون القادر المقتدر أن يتعب؟

أجبتَه في ثباتٍ:

- كيف؟ لا يُعقل أن يشعر البارئ بالتعب.
- صديقي.. إن كان ربكم يتعب ويستريح.. فإن عين ربنا لا تغفل ولا تنام..

نظرتُ إليه في خجلٍ ولا أدري ماذا عساي أن أقول ، ولكنه لم يتركني على هذه الحال ، فابتسمَ وهو ينظر إلى النصوص قائلًا:

- نأتي لها ورد في سفر (التكوين) الإصحاح التاسع من الفقرة العشرين إلى السابعة والعشرين وصف نبي الله "نوح" عليه السلام بأنه شرب الخمر حتى سكر وتعرّى في خبائه وأبصر ابنه الأصغر حام عورته.. ثم ورد في سفر (التكوين) الإصحاح التاسع عشر من الفقرة الثلاثين إلى التاسعة والثلاثين كذف نبي الله "لوط" عليه السلام بالزنا.. حيث زعم المحرّفون لعنهم الله أن ابنتيه سقتاه خمراً وضاجعتاه حتى يُولد منهما نسلًا والعياذ بالله من هذا الكفر..
- هذا مبالغٌ فيه بالطبع.. ولا يقبله منطقٌ..

- ليس هذا فقط.. ورد أيضًا في سفر (التكوين) الإصحاح السابع والعشرين بداية من الفقرة الأولى وحتى الفقرة الثلاثين وصف "يعقوب" عليه السلام بأنه خدع أباه "إسحق" عليه السلام واحتال وكذب عليه حتى ينال دعوته وبركته قبل أخيه "عميصو".. وورد في سفر (الخروج) الإصحاح الثاني والثلاثين وصف "هارون" عليه السلام بأنه صنع العجل لبني إسرائيل وأمرهم بعبادته.. أيُعقل أن يقوم نبي بهذا الفعل؟

- لا يُعقل..
- إليك ما ورد في سفر "يَشوع" الإصحاح السادس في الفقرة الحادية والعشرين أن الله أمر "يَشوع بن نون" (عليه السلام) عند استيلائه على مدينة "أريحا" أن يقتل في المدينة كل رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ وشيخٍ

حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف! وقد فعل يشوع ذلك حسب النص " (٢١) وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلِ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْحَمِيرِ بِحَدِّ السَّيْفِ.. "

- هذا صحيح ..

هزّ "نضال" رأسه أسفاً ثم قال:

- ليس صحيحاً يا صديقي ..

- لماذا وقد ذكرته التوراة ؟

- لأن الله عز وجل منزّه عن ذلك .. لأنه تعالى يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن البغي.

- أتعني أن "يشوع" لم يفعل ذلك!

- ليس "يشوع" فحسب .. فهناك الكثير من الأنبياء قد اتهمتهم وهم بهتاناً .. انظر معي .. قد ورد أيضاً في سفر (صموئيل الثاني) الإصحاح الحادي عشر وصف "داوود" عليه السلام بأنه زنا بزوجة "أوريا الحثيّي" الذي كان قائداً في جيش "داوود" كما قيل في الفقرة الثانية وحتى الرابعة " (٢) وَكَانَ فِي وَفْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةً الْمَنْظَرِ جِدًّا. (٣) فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: "أَلَيْسَتْ هَذِهِ بِنَثَبَعِ بِنْتِ أَلِيغَامَ امْرَأَةِ أُورِيَا الْحِثِّيِّ؟". (٤) فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلًا وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاصْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمَئِثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. " وباقي الفقرات تؤكد أن المرأة حملت وأرسلت تُخبر "داوود" بذلك .. فأخذ "داوود" يُفكر في حيلةٍ يقتل بها "أوريا" لكي يتزوج بزوجه من بعده .. فأمر أن يوضع "أوريا" في المقدمة في مكانٍ من الجيش يعرض فيه للموت عندما كان الجيش يُحاصر ربةً عمون .. وبالفعل قُتل "أوريا" .. أُنْعَقَلْ أَنْ نَبِيًّا قد يفعل ذلك ؟

- لا يُعقل..

- وإليك ما ورد في سفر (الملوك الأول) الإصحاح الحادي عشر من الفقرة الأولى إلى الثامنة وصف "سليمان" عليه السلام بأنه تزوج نساءً وثنياتٍ.. وبأن نساءه أضلننه حتى أشرك بالله وعبد أصنام نساءه الوثنيات في شيخوخته.. وما ورد في سفر نشيد الأناشيد المنسوب إلى "سليمان" عليه السلام من شِعر جنسيٍّ وغزلٍ فاحشي وكلامٍ غير مقبولٍ أستحي من ذكره إليك.. انظرُ واقرأ بنفسك.. دعك من الفقرة الثانية التي بالإصحاح الأول " (٢) لِيُقْبَلْنِي بِثُبَلَاتٍ فِيهِ، لِأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الحَمْرِ .. أو التي تليها.. اقرأ من الفقرة الأولى بالإصحاح السابع حتى تكتفي..

نظرتُ وأخذتُ أقرأ بداية من الفقرة الأولى بالإصحاح السابع دون صوتٍ ، " (١) مَا أَجْمَلَ رَجُلِيكَ بِالتَّعْلِينِ يَا بِنْتَ الكَرِيمِ! دَوَائِرُ فَحْدَيْكَ مِثْلُ الحَلِيِّ، صَنْعَةَ يَدَي صَنَاعِ. (٢) سُرْتُكَ كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، لَا يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مَمْرُوجٌ. بِطُنُوكِ صُبْرَةٌ حِنْطَةٌ مُسَيِّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ. (٣) ثُدْيَاكَ كَحَشَفَتَيْنِ، تَوَامِي ظَبِيَّةٍ."

ولإحقاق الحق خجلتُ من أن أكمل باقي الفقرات ، وأشحتُ بوجهي بعيداً ، فاستكمل "نضال" حديثه:

- ثم ما ورد في سفر (حزقيال) الإصحاح الثالث والعشرين بأكمله قصة زنا "أهولة" و"أهولبية" وفجورهما بأسلوبٍ جنسي فاضحٍ قبيحٍ.. أما اللا معقول ما ورد في سفر (هُوشع) الإصحاح الأول بداية من الفقرة الثانية أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه "هُوشع" أن يأخذ لنفسه امرأةً زانيةً ويُنجب منها أولاد زنى! كما ورد في النص " (٢) أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: "أذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةً زَنَى وَأَوْلَادَ زَنَى، لِأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زَنَى تَارِكَةً الرَّبَّ"... تعالى الله عز وجل عما يقول الكافرون علواً كبيراً.. وتَنَزَّهَ اللهُ عز وجل عن هذا الكفر.. فإن الله

يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.. هل من عاقل يعقل أن يقبل مجرد التفكير بأن الله قد يأمر أي بشرٍ أيًا كان بمثل هذا الفعل؟

نظرتُ إليه وشعرتُ بشعيرية قوية تدبو في أوصالي وأنا أجيبه:

- لا..

تنهّد تنهيدةً طويلةً ، ثم نظر إليّ مبتسمًا ، وربتَ على كتفي قائلاً:

- سأكتفي بهذا القدر اليسير جدًا من الأمثلة الكثيرة التي لن نستطيع أن نحصيها عددًا.. فلا عجب أن يكون حال محققكم ومفكركم كما وصفهم الله عز وجل بقوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ) (٤٣).. لذا لن أتحدث بالطبع عن الاختلافات بين جماراً بابل (٤٤) وجمارا أورشليم (٤٥).. وبالتالي لن أتحدث عن التلمود البابلي أو الأورشليمي..

نظرتُ إليه مُتَعَجِّبًا! أبعد كل هذا النقد اللاذع لن يكمل؟ ما ينقصه أن يكفرني صراحةً ، ولكنه أسمى من أن يفعل هذا.. على الأقل كلانا بات يعرفُ هذه الحقيقة.

فسألته بجديّة:

- ما المانع؟

ابتسم وهو يُغلق جهازه اللوحي وقال بثقة:

- يكفي اعتراف "شاهين مَكَارِيُوس" (٤٦) بوقوع التحريف حتى في التلمود المختلق.

نظرتُ أرضًا لا أستطع أن أنقوه ، فلو أمكنني ذلك لفعلتُ ، ولكن كان حوارهُ أقرب إلى مناظرةٍ وديةٍ انزلتُ إليها ، وقد انتصر فيها بلا أدنى شك كما حدث في تلك الليلة مع "أساف" ، فلقد جعلنا نتمنى

لو أن تبتلعنا الأرض جميعاً ، ولو كان موجوداً بيننا كبير حاخامات السفارديم والإشكنازيم وطائفة اليمَن ليلتها لشعروا بنفس الشعور ، ولخرج "نضال" منتصراً كعادته ، ولكنني سألتُ وما كان لي أن أسأل:

- "نضال" أنتم تقولون إن الإسلام أخذ الأفضل من كل الأديان السماوية.. على الرغم من أن هناك آياتٍ في قرآنكم تقول فيما معناه أن التوراة فيها هُدىً ونور.. ما الغرض من هذا القول؟

ابتسم "نضال" ونظر إليّ نظرةً أعرف مغزاها وأجاب:

- إن الإسلام هو الدين الحق منذ خلق الله آدم.. لقوله تعالى: (إن

الدين عند الله الإسلام).. والآية التي تقصدها في قوله تعالى في سورة (المائدة): (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرِّبَّانِيُّونَ وَالْأَجْبَارُ بِمَا اسْتَحَفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخِشُوا اللَّهَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ).. أي عندما أنزل الله التوراة

كانت كذلك.. هذا قبل التحريف الذي حدث.. وفي نفس السورة قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَنكُم شُرْعَةً وَمَنهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ \* وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لِفَاسِقُونَ \* أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمِنْ أَحْسَنِ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (٤٧).. لا قول يُقال بعد قول المولى عز

وجل في هذا الموضوع.. أليس كذلك يا صديقي؟

أجبتُه مؤكِّدًا:

- هو كذلك.
- ولو أمعنت النظر في كيفية الطهارة عند السامرة.. وطريقة صلاتهم.. لوجدتَ التشابه الكبير بيننا كمسلمين وبينهم.. ولكن الفرق في الكتاب الذي نقدس ونؤمن.. واللغة التي تُقام بها شعائر الصلاة.. وهم يقولون إنهم بقايا بني إسرائيل الحقيقيين.. ولم تستطيعوا أنتم إنكار ذلك.. بدليل أنكم لم تستطيعوا أن تأتوا بنسخة من التوراة مشابهة لها في أيديهم.. ولو استطعتم لفعلتم.. أما بخصوص أساس التدين اليهودي نفسه.. وهو الصلاة الموسوية الموصوفة في كتب الشريعة اليهودية.. لا تمت إلى ما كان من طقوس الصلاة الموسوية.. فأراد باحثونا ومفكروننا أن يسيروا أيضًا إلى أن الأعياد الدينية الإسرائيلية ضعيفة الصلة هي كذلك بموسى وشريعته.. بل إن كثيرًا منها يرجع إلى مناسباتٍ وذكرياتٍ تاريخها متأخرٌ عن سيدنا "موسى" (عليه السلام) بكثيرٍ.

- مثل؟

ابتسم ابتسامته المعهودة وهو يتحسس شاربه ، وقال وما زال يبتسم :

- تلك الأعياد اليهودية المحدثّة عيد "الپوريم" أو عيد النصيب.. ويسميه الكتّاب العرب "عيد المساخر".. والسبب في ذلك ما جرت به بعض التقاليد اليهودية الشعبية في هذا العيد من إسرافٍ في شرب الخمر.. ولبس الأفعنة والملابس التنكرية على الطريقة الكرنفالية.. هل تنكر ذلك؟

- لا..

- أو كى..

- من الواضح أن الاختلافات بيننا وبينكم كثيرة.. فعلامٌ نتفق إذن؟

- نهاية العالم.. هذا هو ما تتفق عليه جميع الديانات الإبراهيمية..

- ماذا تقصد؟

- نتفق معكم على أحداث اليوم الأخير.. أو يوم الدينونة.. يوم القيامة عندنا.. الإسخاتولوجي والأبوكاليس عندكم يرتبطان بنهايةٍ عنيفةٍ للعالم.. أي نهاية الزمن لاكتمال حكمة خلق الله للعالم.. فلكل بدايةٍ نهايةٍ..

أصابني بالذهول قول "نضال" .. لا أصدق إفكلامه ليس كما يُفسر لنا حاخاماتنا عن قرآن المسلمين الذي يُحرض على الدماء والسلب والنهب فقط.. لقد عبأونا بالحقد والكراهية تجاههم.. وها هو ذا "نضال" مسلمٌ من أعز أصدقائي إن لم يكن أعزهم بالفعل ، وهو ليس بيهوديٍّ مثلي.. وقد تعلمتُ منه كيفية المعاملة.. والرقى في كل شيء..

ابتسم "نضال" وهو ينظر إلى عيني مباشرةً وقال:

- عزيزي "يائير" إذا انجلت لنا ماهية اليهود سثدكُ كل الحبايا كما دُكُ الجبل أمام "موسى" عندما تجلّى له الرب..

لقد أفحمني بهذا القول كما جرتُ عادته ، لم أتقوه بكلمةٍ ولن أتقوه أبدًا ، فهو لم يُخطئ فيما قال ، تَبًّا للحيرة ، خاصة إن كانت في أمورٍ شائكةٍ تُحيط بها هالةٌ من الأسرار وأعدادٌ لا حصر لها من علامات الاستفهام.

حقًا ما نحن إلا قطعٌ على لوحة الشطرنج الكونية ، ومن يحركنا إلا أولئك الذين يأمرهم إبليس بفعل ذلك.

وهل يأمر إبليس إلا الطبقة الحاكمة للعالم!

## سفر (٤٥) "ليلة مكبلة"

دخلتُ إلى منزلنا في ليلةٍ غاب عنها القمر ، حالكة الظلام ، شديدة البرودة ، وجدتهُ على غير العادة ، الطقس الرومانسي طاغٍ ، وجدتُ الدفء يستقبلني لأول مرة بعد ليلة الزفاف!

الموسيقى الشاعرية الهادئة تغلّف الأجواء عامةً ، والمينوراه المطلّي بماء الذهب تزيّنه الشموع على تلك المائدة المُعدّة التي تملأها كل ما تشتهي الأنفس من طعامٍ وشرابٍ ، والأضواء جميعها خافتةً..

شعرتُ بالقلق والريبة! أهذا منزلنا؟ هل أخطأتُ العنوان؟ نظرتُ إلى المفتاح الذي في يدي.. هو المفتاح التي تزيّنه قلادة مذهبة على شكلٍ زخرفي باسمينا "سارة" وأنا ، فلقد أعطتني إياها لتبعثني على التفاؤل لذلك دائماً ما أحملها.

أين أنا؟

عدتُ بخطواتي إلى الورااء وخرجتُ من المنزل مرةً أخرى.. نظرتُ جيداً.. هي نفسها واجهة منزلي بألوانها التي اخترتها بنفسي... أو بالأحرى.. التي اختارتها "سارة" بنفسها ..

دخلتُ مرةً أخرى.. لكن هذه المرة.. ازداد المشهد ريبهً.. تهادى إلى مسامعي موسيقى جميلة رومانسية أعشقها.. وشخصٌ واحدٌ فقط هو الذي يعرف أنها تسحرني وتسيطر على وجداني.. إنها "إشكنازيتي" زوجتي الجميلة "سارة".. لكنني لم أطمئن.. بالعكس.. سرتِ القشعريرة في جسدي.. لماذا هذه الرومانسية التي على غير العادة! هل جئتُ هذه الأوروبية؟ أعتقد ذلك ..

هذا الهدوء وهذا الجو الشعاري.. وهذه الموسيقى التي تأسرني.. سر ضعفي ..

يا إلهي.. هل تُذكّرني ما سبب كل هذا؟ هل جئتُ زوجتي؟ لأنني لو قلتُ قد عادت إلى صوابها لكانت أكثر جنوناً من عاداتها ..

قلتُ في نفسي "أيُّ ليلة غريبة تلك ، لقد تشاجرتُ مع إشكينازيتي في الصباح"!!..

وصرختُ بوجهها: "سأربي أبنائي على المنهج الديني السفاردي الذي أعتنقه".

حقاً ما قلتُ يا "ستريندبرج"<sup>(٤٨)</sup>: "إن مخ المرأة ما هو إلا جهازٌ ساذجٌ تُحركه آلةٌ معطوبةٌ اسمها الأهواء ولذا فهو جامد التفكير.. ميكانيكي.. أوتوماتيكي.. أما رأيتِ امرأةً عاربهً قط؟! إنها شاب له ثديان على صدره.. رجل دون النضج.. طفلاً حبيسٌ لم يكتمل نموه.. مصابةٌ بفقر الدم المزمن ، يتعاقب عليها النزيف بانتظام ثلاث عشرة مرة في السنة.. فماذا تنتظر من مثل هذا المخلوق؟".

لا يا "ستريندبرج" ، مع احترامي الكامل لك ، واتفاقي معك في الكثير من الأفكار ؛ في معظم الأحيان ، إلا أن هذا المخلوق الذي نتحدث عنه بهذا الشكل لا تصلح الحياة من دونه ، ولا نستطيع أن نشعر بكوننا ذكوراً من دون أن نصارع ما يدور بداخل هذا الجهاز الساذج الجامد التفكير ، فلولا وجود هذه الآلة المعطوبة التي تحركها الأهواء ؛ لما سامحونا كثيراً وغفروا لنا موبقاتنا التي تُرنخنا من منبت شعرنا إلى أخص أصدامنا ، ولم تكن قد ربّتنا أمهاتنا وما تحملنا صغاراً ، ولم نكن لنشعر بدفء أحضان أخواتنا أو صديقاتنا وما خفّفوا عنا الكثير من متاعب الدنيا ، بل نحن ننتظر الكثير والكثير من مثل هذا المخلوق.

أواه! لقد اتشحت ليلتك بالسواد يا "ياأير" بعدما كسّتها زوجتك بالحمرة المفرطة.. ماذا تخبي لك إشكنازيتك المعطوبة التفكير.. هيا تقدّم وعُد إلى الداخل مرةً أخرى ؛ إن كنت مزراحياً ابن مزراحٍ سفارديّ العقيدة.. سامريّ القلب والانتماء.. يهوديّ الهوية.

ناديتُ بصوتٍ خافتٍ والقلق يملكني خوفاً من أن أكون قد أخطأتُ تقدير الوقت :

- "سارة" .. إشكنازيتي.. أنتِ هنا؟ سارتي؟

رأيتها قادمةً من البهو في ثيابٍ ولا أروع ، حاملةً في يديها كأسين من النبيذ الأحمر ، كانت وفّقتها بهذه الطريقة وبهذه الثياب والكأسان في يديها ، وكأنها لوحةً من القرن الخامس عشر رسمها أحد عمالقة عصر النهضة ، ولكنها أقرب إلى إبداعات "دافنشي" الذي تفوّق على الجميع وأصبح هو الرمز الأصلح لرجل ذاك العصر دون منازع ، أجابتنني بكلّ رومانسية :

- حبيبي.. هل تُناديني؟

نظرتُ حولي ، وخلفي ، ثم عاودتُ النظر إليها متسائلاً :

- أنا! هل تتحدثين إليّ؟!!

- وهل لي حبيبٌ غيرك! يا عمري؟

أجابتنني ليقشعراً بدني قللاً..

بعد ذلك تسرّب إليّ إحساسٌ بأنني في موقفٍ لا أحسد عليه! هذه المودّة المفاجئة من زوجتي هي كالأعياد.. ولكنني أعتبر هذا التودد كعيد الفصح..

لكن حقيقة لا أتذكر أي مناسبة تلك التي تستعد لها زوجتي لتفاجئني بها!

أشعر وكأنني كالطفل الصغير الذي فعل شيئاً لم ترغب به الأم.. ولكن الأم اليوم ليست كأي أم.. لم تكن قريبة الشبه بالبارحة.. هذه الفرصة لن تُعوّض.. ولكنني أعتقد أنني سأضيعها خلال ثوانٍ معدوداتٍ ، وإن طال الأمر سيطول لدقائق قليلاتٍ.. ها هي ذي تبتم أكثر وتبدو اليوم أجمل بكثيرٍ منذ أربعة عشر عاماً مضت على زواجنا.. أي.. أعتقد أن هذه هي المناسبة.. عيد زواجنا!!!

يا إلهيم ارحم ابنك المخطئ.. لقد أصابني داء النسيان في وقتٍ غير مناسبٍ بالمرّة.. ولكنها مشيئتكَ.. فنجّ ابنك الأبله.

اقتربتُ مني بلطفٍ لتعطيني قبلةً لطيفةً جداً على خدي الأيسر ، فأدرتُ لها خدي الأيمن ، فقبّلته ، وأسقتني بيدها ، وأعطتني الكأس الأخرى لكي أسقيها.. ولكنني تسمرتُ في مكاني أحاول أن أجابه العاصفة الإشكنازية التي على وشك أن تعصف بي بعد لحظاتٍ ، وقلبي الصغير لن يحتمل هذه الأعاصير الكامنة بداخل امرأةٍ إشكنازيةٍ قَبِلتُ بمزاحي يتبع المذهب الديني السفاردي ، ولكنه أشهر إعلامي

في إسرائيل كلها.. لكن هيهات! فاليوم لا عاصم لي من إرادتها ، لن  
تفنعني شهرتي وما من سبيلٍ للندم ، فها أنذا قد وقعتُ في شركها ،  
ولن أستطيع أن أعود بالزمن إلى الوراء لأتذكر موعد زفافنا ، لأشتري  
هديةً تليق بجميلتي البركانية قبل عودتي إلى المنزل ..

أبعدا احمرتِ الليلة واتشحتُ بثياب الرومانسية والشاعرية  
والهدوء ؛ ستتشح بالسواد الحالك الذي لا مفرَّ منه بعد هنيهات ؟  
يجب أن أخرج من هذا الفخ بأي طريقةٍ .. لكن كيف ؟ يا للمصيبة!  
ها قد فرغ كأسِي ، وها هي ذي تنتظرني أن أسقيها من الكأس الأخرى ،  
تحدّثت إليها بصوتٍ خافتٍ :

- أين الولدان ؟

نظرتُ إليّ نظرةً باردةً ورفعتُ يدي بالكأس لكي أسقيها.. ولكنني  
ناديتُ بأعلى صوتٍ :

- "يوسي" .. "موشيه" .. أين أنتما أيها المشاغبان ؟

وضعتُ يدها على فمي حتى لا يسمعي أحدٌ ، وقالت وهي تُحاول  
أن تتمالك نفسها :

- لا تقلقْ .. لقد أعددتُ كل شيء بدقّةٍ في هذه الليلة السعيدة.. الليلة  
هي ليلتنا أنا وأنت فقط.. بعد طول انقطاع.. قررتُ أن نحتفل في  
هذه الليلة بأجمل مناسبات العمر على الإطلاق.. أجمل الذكريات..  
قصة حب عاصفة تُوجتُ بزواجٍ مقدسٍ.. أتذكر يا حبيبي حينما  
اعترض والدي عليك لأنك سفاردي.. وقال لي: "ألم تجدي غير هذا  
السفاردي الحقير!"..

رحمك "آدوناي" الرحيم ، حتى في لحظاتها الرومانسية لا تستطيع  
أن تتناسى إشكنازيتها! تَبَّ!

- ولكنني حبيبي قد وقفتُ ضد العائلة كلها من أجل حبي لك.. فقط لأنني شعرتُ بأن حبك كان صادقاً.. وشعرتُ بأنني أذوب عشقاً.. لقد اختطفتك من بين كل الفتيات اللاتي كُنَّ يُحَلِّقن حولك منذ أكثر من أربعة عشر عاماً.. واخترتني أنا.. لأنني كنتُ الأَجْمَلُ.. وما زلتُ جميلةً رشيقةً محتفظةً بأنوثتي كاملةً من أجلك أنت..

طبعْتُ قبلةً حارةً ، طويلةً ، لذيدةً على شفتيّ ، ثم تنهدتُ وقالت بتحنانٍ أذابني :

- سَليخاه أهوفي.. حقاً أنا آسفة على كل السنوات العجاف السابقة التي عكَّرتُ فيها صفوك.. إنني أشعر بالغيرة عليك من نفسك.. حتى من الكاميرات التي تصورك.. لنبدأ صفحةً جديدةً.. ببيضاء.. لا لا.. بل ناصعة البياض.. أكثر بياضاً من الثلج.. هيا لنستعدّ ذكريات الحب الخالد الذي لا مثيل له.. هل تقبل أن نبدأ..

نظرتُ إليها وقد شعرتُ برعشةٍ قويةٍ تدبُّ في أوصالي ، أهي بالفعل تُكِنُّ لي كل هذه المشاعر ؛ التي لو كانت لحجرٍ لتحدث وظل الليل كله يرقص التانجو مع أقرب صخرة يلتقي بها في الصحراء الجرداء.. ولكن ماذا بي ؟ هل لي أن أجبر الليلة على أن تصبح سوداء بدلاً من أن تكون حمراء ؟ أيقق لي ؟

لن أخشى شيئاً ، أخذتُ نفساً عميقاً وضممتُها بقوةٍ إليّ وقد أراحت رأسها على كتفي ، مسحتُ بيدي على شعرها الحريري وقبَّلتُ رأسها وقلتُ لها:

- كل عام ونحن زوجان حبيبان.. سعيدان.. يا حبيبتي.. أنتِ من تسببتِ في انقطاع هذا الاحتفال وليس أنا.. ولكن اليوم أقبل عرضك المغري حول الصفحة الجديدة الناصعة البياض.. كبياض الثلج.. أنا أعشق الثلج.. هذه كلهاتك.. أتذكرين حين كنتِ تتركين المدفأة وتخرجين لمشاهدة الثلج المتساقط.. وكنتِ تقولين "ما أجمل الثلج

في يروشلايم" .. وكنْتُ دائماً أحتضنكِ رغم أنني كنتُ أتجهد من  
البرد.. لأنني أكره الصقيع.. وكنْتُ دائماً تهرولين راکضةً على الثلج..  
وتصنعين كوراً صغيرةً وتلقينها عليّ ..

نظرتُ لي نظرةً حانيةً وهي على وضعها ، وتنهدتُ بتحنانٍ غير  
مسبوقٍ ، وقد شعرتُ بضربات قلبي تتزايد بصورةٍ غير طبيعيةٍ ، فما  
أصعب أن يعشق المدخن فالقلب هو المظلوم دائماً ، وكذلك التنفس  
يصبح أصعب ، يا للتدخين أعشقه ، فما أجمل أن تخرج ما بداخلك  
من مشاعر مكبوتةٍ دون أن تؤذي أحداً ، فقط تؤذي نفسك ، لقد صدق  
القائل: "ما أشد علاقة السجّارة بمدخنها، أقوى علاقة حميمية بين  
عاشقين ، هي تحترق من أجله وهو يموت بسببها!"

لكن الأولاد لم يعتادوا النوم مبكراً ، أين هما الآن ؟ علّهما بخير..  
أجلستُها برفقٍ على الأريكة ، فجلستُ واضعةً إحدى ساقيها على متكأ  
الأريكة لتجبرَ لعابي أن يسيل بغزارةٍ ، كاشفةً عن ساقتها المرمرية ، يا  
للهور! حبيبتي في هذه الليلة هي المعنى الحقيقي للجمال ، الجاذبية ،  
الفتنة ، الإغراء ، يجب أن أعترف بأنني أشتهيها بقدر ما تُحاول إغوائي..  
عذراً "مارلين مونرو" أنتِ لاشيء إذا ما قورنتِ بسارتي الحسنة..

بدلالٍ نادتني حبيبتي:

- تعالِ حبيبي.. اقترب أكثر وقبّلني.. فُبلاتك يا حياتي أطيب من  
الخمير..

كالهأخوذ ، كالمجذوب ، كالمسحور ، على عجلٍ ذهبْتُ إليها ،  
جذبنتي وطوّقتُ عُنقي بكلتا يديها ، قبّلتنِي وتنشّقتُ عطري ، وهي  
تقول بولّه:

- اشتقتُ لرائحةِ أدهانك.. وجسدي يتوق شوقاً لقطرات عرقك الندي..  
ما أجمل خديك المتأججين بالدفء.. آه من عُنقك الطويل الذي

يُهَيِّجُ شَفْتِي شَوْقًا.. مَا أَشْهَى شَفْتِيكَ.. أَشْتَاقُ لِمَبِيتِ رَأْسِكَ بَيْنَ  
نَهْدِيَّ.. تَعَالَى يَا حَبِيبِي.. أَنْتَ لِي وَحْدِي.. وَأَنَا لَكَ وَحْدَكَ..

- أَوَاهُ حَبِيبَةُ قَلْبِي.. بَلَغْتُ مِنِّي أَشْوَاقِي إِلَيْكَ مَبْلَغَهَا.. أَعَانِي لَوَاعَاتِ  
نَزْوَعِ النَّفْسِ إِلَيْكَ.. أَتَلَهَّفُ لِلذُّوبَانِ فِي عَطْرِ جَسَدِكَ الْمَرْمَرِيِّ.. اسْقِنِي  
مَنْ شَهِدَ شَفْتِيكَ يَا أَجْمَلَ نِسَاءِ الْكُونِ.. ظَمَأَنَ أَنَا..

- اشْتَاقُ فِرَاشِي لِدَفْءِ جَسَدِكَ.. اسْتَلَّ سَيْفَكَ وَعَلَّمَنِي كَيْفَ يَكُونُ  
النِّزَالُ.. نَازِلْنِي يَا جَبَّارَ جَبَابِرَةِ إِسْرَائِيلَ.. هَلُمَّ مَعِيَ إِلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ  
الْحَرِيرِيَّةِ.. غَمَدِي يَشْتَاقُ لِصَلِيلِ سَيْفِكَ.. لَا تَكْفُفْ حَتَّى تَخُورَ قَوَاكُ.. لَا  
تَتْرَكْنِي حَتَّى أَهْلِكَ..

انْهَالَتْ عَلَيَّ بَوَابِلُ مِنَ الْقُبَلَاتِ النَّارِيَّةِ ، دَاهَمْتَنِي مَلِيكْتِي بِقُوَّةٍ  
لَمْ أَعْهَدْهَا مِنْ قَبْلُ ، سَيَّلُ جَارِفٌ مِنَ الْقُبَلَاتِ كَسِيولَ لُبْنَانَ يَجْتَاجُ  
شَفْتِيَّ ، هَبَّتْ عَلَيَّ نَسَمَاتُ رِيَا حَنِينَهَا لِتَوْقِظَ رِيحَ الشَّمَالِ ، وَاسْتَدْعَتْ  
رِيحَ الْجَنُوبِ ، تَجْتَمِعُ كُلُّهَا لِتَهَبَّ عَلَيَّ جَنَّتِي فَتَقَطُرُ أَطْيَابَهَا لِتُسْكِرَنِي ،  
أَدْخَلْتَنِي جَنَّتِي الْمَفْقُودَةَ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ ، قَطَفْتُ مَرِّي مَعَ طَيْبِي ، أَكَلْتُ  
شَهْدِي مَعَ عَسَلِي ، شَرِبْتُ خَمْرِي مَعَ لَبْنِي .

وَيُكَانُ رَأْسِي قَدْ امْتَلَأَ مِنَ الطَّلِّ ، أَنْفَاسِي الْمَنْهَكَةُ لَمْ تَسْتَطِعْ مَجَارَاةَ  
أَنْفَاسِهَا ، تَعْدُو هِيَ وَأَنَا أَلْهَثُ ! تَيْنُ وَأَنَا أَنْقَدُ كَجَمْرَاتِ اللَّهَبِ ، مُلَهَّبٌ أَنَا !  
كُلَّمَا تَأَوَّهَتْ تَتَأَجَّجُ نِيرَانُ اللَّذَاتِ بِجَوَارِحِي ، أَنْفَاسُهَا كَاللَّهْيَبِ يَنْتَفِضُ  
لِهَا كِيَانِي ، لِهَيْبِهَا جَحِيمٌ يَسْتَعْرِ ، جَسَدُهَا يَحْرِقُنِي بِنِيرَانِهِ كُلَّمَا لَامَسَ  
جَسَدِي الْمُعْدَبَ ، لَكُمْ كُنْتُ فِي احْتِيَاجٍ مَسِيْسٍ لِفَعْلِ ذَلِكَ ، أَفْتَقِدُ  
ذَلِكَ بِشَدَّةٍ ، أَوَاهُ مِنْ طَعْنَاتِ الشَّوْقِ....

سَأَلْتُ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ خَشِيَّةٍ أَنْ يُفَاجِئَنَا الْوِلْدَانُ :

- أَيْنَ الطِّفْلَانِ ؟



لم تهتم وواصلت تقبيلي برغبة أكثر ، وبسرعة تبعث على الجنون ،  
يا "أدوناى" لماذا لا أستطيع الاستمتاع دوماً بلحظات كتلك التي لا  
تتكرر إلا إذا وافق ذلك تقويم رغبات إشكنازيتي؟!

دفعتها بعيداً عني قليلاً:

- أهوقاتي.. جميلتي وساحرتي.. مهلاً.. عليّ أن أتأكد من سلامة الولدين..

- لا.. دعك منهما الآن.. يا حبيبي..

طاوعتها وعاودت عناقها وتقبيلها ، لكن القلق داخلي يتزايد ،  
فدفعتها عني برفق مرةً أخرى ، وهمستُ في أذنها:

- دقيقة وأعود إليك حبيبتي..

وعلى عَجَلٍ أسرعْتُ إلى حجرة الولدين ، هناك ما يريبني في  
اختفائهما غير المبرر هذا ، ليس طفلاي من يخلدان للنوم مبكراً هكذا..

أسرعتُ بفتح باب الغرفة ، لأجدهما طريحي الفراش على سريريهما  
كصخرتين! شعرتُ بقبضة ألمت قلبي ، هرعتُ إليهما أتفحصهما ، أوه  
"إلوقيم" هما لا يتنفسان! اقتربتُ بأذني أكثر من صدر "موشي" ، إنه  
يتنفس ببطء! كذلك حال "يوسي"! هزتهما بشدة فلم يستجيبا إليّ ،  
لماذا لا يُصدران أي رد فعل؟ كانت "سارة" قد جاءت ورمقتني بغيظٍ  
مكتومٍ وهي تستند بظهرها إلى باب الغرفة..

وجهتُ إليها كلماتي دون أن تُعيرني أدنى اهتمامٍ ، ولم تُجبني أية  
إجابةٍ تثلج بها صدري! تصارعتِ التساؤلات تعصفُ برأسي:

- ماذا حدث؟ هل أكلتا طعاماً فاسداً؟ هل تناولا من أقراصى المهدئة؟

ظلت على حالها ولم تُجبني ، فصرختُ بوجهها:

- "سارة" أسرعى بطلب النجدة.. هيا فوراً..

لم تتحرك من مكانها ، وقالت ببرود:



- هما بخير..
- بخير كيف! الأترين حالهما! لم أنتِ باردةً متبلدة المشاعر هكذا؟  
هما ولَدَاكِ أَيْضًا.. هيا أحضري الهاتف كي أتصل بالطبيب..
- قلتُ لكِ هما بخير.. لا داعي لكل هذا..
- أنتِ على درايةِ إذن بما حدث لهما!
- ناخون.. بالضبط.. لقد وضعتُ لهما مُنومًا في العصور.. حتى لا يزعجنا شيء في ليلتنا يا حبيبي..
- اقتربتُ مني لإغرائي لكنني دفعْتُها بعيدًا عني ، أمسكتُ ذراعها بقوةٍ وجذبْتُها بعنفٍ إلى خارجِ الغرفة بعدما أَلقيتُ عليهما نظرةَ إشفاقٍ وكاد الدمع ينهمرُ من عيني لولا الغضب ، لم أغضب في حياتي هكذا من قبل ، صرختُ في وجهها..
- أيتها السادية المتوحشة.. ألم تتوقعي أية أضرار قد تحدث لهما بسبب هذا الفعل الأرعن؟ ألا تفكرين إلا في متعتك! وعلى حساب مَنْ.. أولادك.. تبًا لتلك الليلة..
- ثم تركتها تنفث غضبها في تحطيم الأطباق والكؤوس وهي تصرخ كعادة الإشكيناز المتغطرسين ، اتصلتُ بالطبيب ، ثم عدتُ إلى الأولاد ، حملتُ "يوسي" إلى سرير أخيه واحتضنتُهما بقوةٍ في انتظار وصول الطبيب.
- شعرتُ أنني أغوص في هوةٍ سحيقةٍ ، وأخذتني الأفكار السوداء بعيدًا..  
حقًا لقد آمنتُ بذلك القول...
- "لا تتحدى أنثى ليس لديها ما تخسره، وتحديدًا إن كان أكثر شيء تهتم به هو كبرياءها".
- اللعنة على كبرياء النساء.

## سفر (٤٦) "المحمديون"

دائمًا ما كنا نُبدع ، فيقلدوننا ، في الفن والآداب وفي فنون الحرب. حتى في الموضة ، دائميًا نحن السبّاقون وهم من ورائنا ، لكن تقليدهم ما هو إلا مسخٌ مُشوه لإبداعاتنا ، ولأننا تُرنا ، ثاروا.

ثارت الكثير من الدول العربية والإسلامية حولنا ، هذه ليست مرّتهم الأولى ، لطالما كانت ثوراتهم فرصًا لنا لنثبّت أقدامنا في أراضيها ، وليمتد نفوذنا في أراضيهم وحيواتهم أكثر وأكثر ، وها هي ذي الفرصة تعودُ لنا مرةً أخرى لنعلو في الأرض أكثر. هكذا تحدّث وزير الدفاع أثناء اجتماعنا بالكنيسة لمناقشة الأوضاع الحالية التي تمرُّ بها البلاد.

قبل ساعاتٍ شاهدت مقطعًا مرئيًا لرجلٍ في أواخر العقد الرابع ، وقف يهتف في الجماهير المحتشدة في عاصمة إحدى الدول العربية:

- هذه الثورة من أجل العدالة.. لإعطاء الملايين من المسلمين الذين يتضورون جوعًا؛ رجالًا ونساءً وأطفالًا؛ فرصة أكثر من العيش وإنهاء الفتن الطائفية والحروب الأهلية.

تعلقت عيناى على وجه الرجل وهو يُلقى بهذه الكلمات فتُلهب حماس الجموع ، ما هذا الرجل ؟ ومن أين له بهذه القوة ؟ هل هذا هو قائد لإحدى الجماعات الإرهابية كما نعرفه ؟ أم هو قائد ثورة حقيقية كما تنقل الصورة إلى عقلي ؟ لا أعلم! كل ما أعرفه الآن أن هناك أوقاتاً عصيبة آتية لا محالة كما أن هناك وسط هذه الجموع ثورة يجب أن تخشاها المملكة وتُعد لها كل ما تستطيع من قوة لإيقاف هذه الثورة....

انطلقت ثورتهم من "اليمن" مروراً بالجزيرة العربية ثم "مصر" وجيرانها في شمال إفريقيا مروراً بوسطها إلى جنوبها ثم جميع أنحاء العالم الإسلامي ، ونادى هذا المعتوه إلى تحرير المدعوة "فلسطين"!!!

إنه يهذي بلا شك! فهو يتحدث عن خلافة إسلامية مُوحدة ، المسلمون كلهم تحت راية واحدة ، يُحاول تكرار نفس ما فعله البائسون قبل عقدين من الزمان على ضفاف الفرات ، صحيح أن هناك شيئاً مُختلفاً هذه المرة في تصرفاتهم ، وحتى هياتهم ، لكن من قال إن النتائج ستتغير ؟ الأحمق يُنادي بعاصمة واحدة هي (القدس) ، عاصمتنا! عاصمة مملكتنا الكبرى! أيُّ وهم هذا الذي يكتنف هؤلاء ، كيف يفكّرون أن يحصلوا منا على هذه الفرصة ونحن القوة الأولى في العالم؟!

الأفكار والأحداث تكاد تعصفُ بعقلي! الكثير والكثير من الأشياء غير المفهومة تحدث ، فما هو مشروع الوهمي بدأ في التحقق على أرض الواقع ، فقد نجح في إقناع أتباعه بإرساء قواعد (دولة الخلافة الإسلامية الموحدة) التي يجب أن تكون عاصمتها (القدس) ، لكنني موقنٌ تمام اليقين بأن ردة فعلنا ستوقظ الجميع من سباتهم ، سنعيدهم إلى رشدهم مرةً أخرى حينما نقرّر ذلك.

كانت تصريحاتهم تتميز بلهجة حازمة، مفزعة، واستبدال لفظ (الشرق الأوسط) إلى (المشرق الإسلامي)! وغيرها الكثير من مصطلحاتهم الغريبة!

ما صدمني، وصدّم كثيراً من أبناء شعبي؛ أن الجيوش العربية بكل قواتها المسلحة قد اندمجوا في هذه الثورة! حتى جيش مصر الذي اعتبرها فرصة لاسترداد سيناء كما أتوقع.

هل أصبحنا في خطر؟ أهدأ ما كان ينتظره "نضال"؟ ربما، وإلا ما أعلن جيش الدفاع حالة الاستنفار والتعبئة القصوى وأصبح مستعداً في جميع الاتجاهات لصد أي اعتداء من أي معتدٍ أيًا كان.

أصبحت أعين جنود جيش الدفاع مترقبةً نهاراً ساهرةً ليلاً لتأمين شعبنا الأبوي المتماسك، وبالفعل كانت هناك اشتباكات على حدودنا البعيدة مع هذه الجماعات الإرهابية المتطرفة، بالطبع تصدّى جنودنا البواسل لها بكل حزم، أبلت الكتيبة الدرزية في هذه المعركة بلاءً عظيماً، أثبتت للجميع بأن جيشنا جيش لا يُقهر، وأن هؤلاء ما هم إلا شرذمةٌ وضيعةٌ إرهابيةٌ مرتزقةٌ سنسحقها تحت أخطينا كالحشرات الدنيئة التي لا وجود لها على أرض الواقع.

أمرٌ غريبٌ قد حدث لم أستطع أن أفبِّره؛ هذا المعتوه "التميمي" كان يظهر في وسائل الإعلام كما يحلو له، وكان الأمر يُعاد مرةً أخرى بالزمن كما حدث بعد (ثورات الربيع العربي) منذ اندلاعها في أواخر العام (٢٠١٠) في تونس مروراً بمصر في عام (٢٠١١) كما حدث في الثورة الليبية، والثورة السورية في نفس التوقيت، وسيطرت الجماعات الدينية المتطرفة وتصدّر أصحاب اللحي المشهد السياسي، واعتلاء كرسي الحاكم، لكن سرعان ما سقط هذا النظام في مصر في أواخر

يوليو (٢٠١٣) مع سقوط مروع للجماعة المحظورة حيث عزل الجيش الرئيس المصري بناءً على رغبة شعبية منقطعة النظير.

كذلك انتشرت عدوى التغيير إلى باقي الدول ، نجحت في دول بعينها ، واستطاعت حكومات أخرى أن تُجهض هذه الرياح ، لكن الشعوب ظلت متمسكةً بحلم الخلافة الذي يُقال إنه قد بشر به (نبيهم) منذ أكثر من (١٤٤٠) عامًا مضت واستطاع هذا "التميمي" المعتوه أن يُحيي فكرة هذا الحلم المتطرف الذي سيكلفنا الكثير من الدماء ، لكنهم أبداً لن ينجحوا ، ستعيش إسرائيل حرةً مستقلةً ، وسيبقى شعبها حرّاً أبيضاً ، وسيظل جيشها منتصراً قوياً.

تحدّث الإعلام كثيراً عن هذا "التميمي" ، فيقولون عنه الأساطير ، ويحكون عن قوته وصلابته مع الأعداء ، بينما يتعامل مع رفاقه بوقارٍ ورقيٍّ.

جمع حوله خبراء ومستشارين كثيراً ، كان كبيرُ المستشارين السياسيين له مسلماً من متطرفي الخليج العربي ، بينما كبيرُ المستشارين الاقتصاديين ماليزياً ، ومساعدُه نيجيرياً ، أما كبيرُ مستشاريه العسكريين فهو مصري ، ومساعدُه الأول من مسلمي ألمانيا المتطرفين ، وكبير مستشاريه للشؤون الداخلية من البوسنة!

كيف استطاع هذا المجنون أن يجمع كل هذا الشتات ؟ فتحت رايته الآن يجتمع مسلمون كثيرون من كل حدبٍ وصوب ، يتحدثون بكل لسانٍ ، اختلفت ألوانهم لكن اتحدت عقيدتهم لأول مرةٍ منذ زمنٍ بعيدٍ. في الواقع ليس هذا ما يُقلقني ، فأنا على يقينٍ تام بأن جيشنا هو الأعظم والأقوى ، لكن ما يُقلقني حقاً هو "نضال" ومن على شاكلته من عرب الداخل ، فهؤلاء جزءٌ لا يتجزأ من نسيج المجتمع الإسرائيلي ، ماذا

سيحدث لو انضموا لذلك المجنون؟ سنعاني من الاضطرابات الداخلية بجانب الخطر الخارجي المُحدق بنا الآن.

هل تتحقق نبوءات "نوستراداموس"<sup>(٤٩)</sup> وبشارات "نضال" بالعودة المحمدية الأولى، وتصبح إمبراطورية الهلال على أرض الواقع من قبرص والإسكندرية وشمال إفريقيا وتوسع حتى أوروبا، وتتسع إلى حدود الأردن والحدود السورية العراقية وتمتد جنوبًا بالجزيرة العربية؟ أهؤلاء الذين يتبعون المجنون المدعو "التميمي" هم ما أسمتهم النبوءات "الجماعة القاسية ذات الرداء الطويل"؟ وهل هم من يُهدون لظهور القائد المسلم الكبير الذي قد وُلد بالجزيرة العربية السعيدة وهو من سيحكم العرب وسيسيطر على العالم؟

هل ستكون الحروب والمعارك أكثر دمويةً من أي وقتٍ مضى؟ وسوف تُحرق المدن والقصور وكل المباني الأخرى، وسيتم هجرها وتدميرها، مع إهراق عظيم لدماء العذارى والأمهات والأرامل المغتصابات، والأطفال الرضع الذين سيُرْمى بهم على جدران المدن وتحطّم عظامهم؟ هل سيقوم "الأمير العربي" بالعمل الغادر من الشرق ونصبح في ضيقةٍ عظيمة؟ هل سيظفر الشرق البربري في النهاية؟

اللجنة عليك وعلى نبوءاتك يا "نوستراداموس".

رُحماك "الوهيم" ..

اشتدت سطوة العمليات الإرهابية على حدودنا من كل حذب وصوب، وتكاثرت أعداد جنود جيشنا الصامد لتأمين هذه الحدود، وردع الخطر الذي يُحدق بالأمن القومي للبلاد، وحتى لا تنكسر هيبة جيش الدفاع الذي لا يُقهر، تم استدعاء عشرات الآلاف من الجند

الاحتياط لتأمين الحدود ، لتعويض سقوط شهدائنا بأعدادٍ غير مسبوقَةٍ في تاريخ جيشنا.

تعاونتُ معنا في صد هذه الهجمات البربرية قوات المارينز الأمريكية وبعض قوات حلف "الناتو" ، فالعالم كله الآن يستشعر هذا الخطر ، ولا بد من وأد هذه الفتنة في مهدها ، وإلا ستكون العواقبُ وخيمةً.

أما في الداخل فقد انتشرت الشرطة بغزارةٍ في الشوارع لحماية المؤسسات العامة والخاصة ، وإلى جوارها بعض كتائب جيش الدفاع وخاصة الكتائب النسائية ، وأصدرت الحكومة قراراً رسمياً بعدم السماح للعرب والمسلمين بمغادرة البلاد ومنعهم من السفر ، إذن ندوة "نضال" لا محل لها من الإعراب الآن.

اتصلتُ به لأخبره بالقرار الحكومي الذي لا بد أنه قد عرفه ، ليخبرني أنه في إحدى الدول العربية في الوقت الحالي ؛ وأنه قد غادر المملكة قبل هذا القرار بثلاثة أيام ، نصحني مجدداً بأن أتابع الندوة ، وأكد لي بأن هناك الكثير مما يهمني التعرف عليه.

وعندما وصلت الأحداث ذروتها أذاع المتحدث الرسمي للتميمي العديد من البيانات حادة اللهجة ، تتضمن ما قد زعموا تحقيقه من مكاسب ؛ لو كانت حقيقة لأثرت بشكلٍ ضار على المنطقة كلها بشكلٍ عام ، وعلى وضع مملكتنا الإقليمي بشكلٍ خاص.

تضمّنت البياناتُ عدة مصطلحاتٍ غريبةٍ ، وأهدافٍ مزعومةٍ ، شعرتُ بالراحة عندما سمعتها ؛ لأننا قد سمعناها من قبل كثيراً على لسان جماعاتٍ إرهابيةٍ صرّحت بها مراراً وتكراراً ولم يتقدموا شبراً واحداً للأمام ، وفُضِّي عليهم تماماً ، ولم يعد لهم وجودٌ يُذكر.

من بين هذه التصريحات: ما يشهده الكيان المغتصب هذه الأيام ليست عملياتٍ متقطعةً ستبدأ يوماً ثم تنتهي.. إن الجهاد قد بدأ ولسوف ينطلق هذا الجيش بعون الله ونصره محرراً كل أرضٍ مسلمةٍ حتى يصل الأرض المقدسة.. ولن يستطيع أحدٌ إيقاف هذا الجهاد.. لا أحد.. قال هذا الرجل بلهجةٍ مفزعةٍ إن هذه هي الثورة الإسلامية الكبرى ، وأن هذه الثورة تهدفُ إلى أن تكون كلمة ربهم هي العليا ، وأن قرآنهم سيصبح الدستور الوحيد الذي تنبثق منه كافة القوانين والتشريعات ، وأنهم يسعون إلى مساندة وتأييد كل الشعوب المسلمة الثائرة على الحكام الخونة المستبدين وتوعية الشعوب بضرورة العودة إلى كتاب ربهم ، والأخطر تصريحهم المزعوم بتحرير كل شبرٍ من الأراضي الإسلامية ، وأنهم يُريدون نشر تعاليم دينهم كما نزل على رسولهم ، وتوحيد الأمة المحمدية! والأدهى والأمرُّ إقامة الخلافة الراشدة المزعومة ووحدة البلاد والعباد ونصرة الضعفاء. والغريب أنهم يريدون مساندة كل مظلومٍ أو مستضعفٍ في الدنيا أيًّا كانت عقيدته أو ديانتَه! ونشر العدل في أرجاء المعمورة! وأضافوا أن هذه الثورة هي عمليةٌ استثنائيةٌ في تاريخ الجهاد الإسلامي.

لقد هزَّتني هذه الكلمات بالفعل ، فلا يمكن أن تصدر عن مجنونٍ لا يدري ماذا يُريد ، إنما هي صادرةٌ من قلبٍ صادقٍ مع نفسه ويعرف جيداً ماذا يريد ، قد يكونون غير محقين فيما يفعلون ، لكنهم قد يكونون صادقين فيما يقولون.. المقلق حقاً هل يُدركون كيف يُحققون هذا الذي يُريدون؟!

إن الذي أصاب جسدي بالقشعريرة صوته العميقُ ، ونظرته الحادةُ ، وابتسامته وهو يقول بقوة:

- يَلْغُوا الأَنْدلسَ تَحِيَّةَ فَجْرِ الصَّبَاحِ.. قُولُوا لَهَا ..انتظري فاتِحًا كَمَا  
ينتظرُ الأَقصى صلاحُ.

بعدما انتهى من إلقاء هذا البيت الشعري المعبر ، انفجرت القاعةُ  
بالتصفيق الحاد ، ابتسم الرجل وأشار إليهم بالهدوء ، واستطرد:

- يَلْغُوا العالم بأسره أن هذا الفاتح على الأبواب.. فاروق وصلاح هذا  
الجيل عينه صوب الأقصى الآن.. ولن يرتضي بغير تحريره.. ونحن  
من سئمهد له حتى يتم فتحه بإذن الله وأمره.. هذا.. وصلى الله وسلم  
وبارك على نبينا وحبينا محمد.. الله أكبر والعزة لله.. ولا إله إلا الله  
محمد رسول الله.

انتهى البيان ، وانتهت الخطب ، وانتهت قوة احتمالي على التركيز.

أغلقتُ التلفاز تائهاً في كل شيء ، غير قادر على استجماع ما تبقى  
من قواي العقلية ، لم أقوَ على التفكير ، لم أقوَ حتى على الشك ، الشك  
الذي اختزله عقلي الباطن لحين اللحظة المناسبة التي يجب أن ينتقل  
بطريقة طبيعية لباقي خلايا عقلي المهترئ.

حاولتُ الاتصال بـ"نضال" فهو الوحيدُ الذي لديه إجاباتٌ منطقيةٌ  
لكل ما يدور بخلدي ، لكنني تذكرت أنه قد سافر لإحدى الدول العربية  
التي دعتة للتكريم وإجراء لقاءٍ ناري سيكون على الهواء مباشرةً حول  
الأوضاع الراهنة مقارنةً مع تنبؤاته للسنوات المقبلة.

إذن كل ما عليّ هو انتظار هذا اللقاء علّه يشفي غليلي ويُجيبني على  
أسئلتِي المحيرة.

أيعقل أن يكونوا على حق ؟ أمن الممكن أن تكون تكهنات "نضال"  
حقيقةً ؟ أحقيقة هي تحليلات الكاهن السامري عن دين محمديم ؟ هل  
النبوءات التوراتية سوف تتحقق على أرض الواقع قريبًا ؟

هل غضب الطبيعة علينا وعلى بقاع أخرى في العالم ما هي إلا  
علامات لظهور القائد المنتظر؟ وهل بظهوره حقاً تنتهي إسرائيل؟  
أبانا في السماوات ، يا أول الأوائل ، يا خالق كل خلق ، ارحم  
أبناءك الأنقياء الأطهار ، فلا إله لنا إلا أنت ، ولا معبود سواك ، نجنا  
من هذه الغصّة ، وحاربنا عنا وارحمنا .  
أبدًا ليس لنا سواك !



## سفر (٤٧) "إِسْحَاتُون"

اليوم هو الموعد المحدد لندوة "نضال". سيقول فيها كل ما تمناه ، سيقول الحقيقة عاريةً ، كما هي ، دون تزييفٍ أو تغييرٍ ، هكذا قال لي.. أخبرني بأن هذه الندوة رسالةٌ موجهةٌ لي ، وتمنى مِنِّي أن أعيها. ترى ماذا ستقول يا "نضال"؟

الندوة مذاعةٌ على الهواء مباشرةً على أشهر القنوات العربية ، القنوات التي دار حولها جدلٌ كثيرٌ ، حتى الدول التي ترعاها أثارت الجدل أكثر من القنوات نفسها.

ظهر المذيعُ ليُقدم "نضال" قائلاً:

- والآن مع صاحب نوبل.. مع من رفع رأس المسلمين عاليًا.. مع بطل عرب الداخل.. صاحب المواقف السياسية المشرفة.. الرجل الذي عاش وسط أعدائه بكل وضوح وينال احترامهم.. الرجل الذي رفض أرفع المناصب في مملكة الكيان الصهيوني الواهية لتمسكه

بعبادته.. فلنحيي فارس الكلمة والموقف والمبدأ.. الأديب والشاعر العربي "نضال خلايلي".

ظهر "نضال" لتلتهب القاعة بالتصفيق ، أمسك "نضال" الميكروفون محاولاً التحدث ، كلما بدأ توقف لارتفاع صوت التصفيق ، لكن ما أن هدأ التصفيق حتى تنح "نضال" ليلقي بصوته الشعاري قصيدته الملحمية التي منعت من النشر نهائياً داخل إسرائيل ، فلقد كتبها وهو في الثامنة عشرة من عمره:

لا بِالْداخِلِ قُبُلْتُ.. ولا بِالخارجِ قَبْلُونِي	عَرَبِيّ الدَّاخِلِ أنا.. أَسْمُونِي
في أَعناقِكُمْ وبالجِياثَةِ تَدْعُونِي	أنا ارْتَضَيْتُ بِذَلِي وَعَارِي
وهُويّتي الرِّزْقاءُ تُعْدُو مَدَّ عُيُونِي	عَبْرِيّتي صارتَ لِسانَ خالي
بشرايينِ قَلْبِي الذي ماتَ بِعِشْقِكُمْ وَحَدَلْتُمُونِي	عَرَبِيّتي تَدْبُونوا في الوَرِيدِ مُرورًا
سَمِعْتُمُوهُ نواحاَ وَمِنْ نَمِّ لَمْ تُجِيبُونِي	أَعْرَفْتُمُونِي في طَبْرِيّتي وَنَجِيبِي
دَسَسَ المِخْرابَ مُتَكَيِّئًا عَلى صُهْبُونِي	أيا أُمَّةً حَضَعْتَ مِرازاَ لِعَدُوِّ
لِلسَلَمِ رِسايلَ المُعْتَمَلِ لِلْمَسْجُونِ	صادَ حَمامَ السَلامِ الرّاجِلِ، الحامِلِ
اغْتَضَبُوا اليَينَ والرَّيْثُونِ	بَتَرُوا نَجِيلَ بِيسانِ السَّامِخِ السَّيْقانِ
بِنَهْمٍ نافِثِينَ بِالغُلْبُونِ	صاَجَعُوا الأَرْضَ البَتُولَ المُقَدِّسِيَّةَ
وقُلْتَ مَعادَ اللهِ لَنْ تَسْتَبِيحُونِي	سُمُونُهُمْ، وَعَربِيُّهُمْ، فَرقَضْتُهُمْ
وأَصْلِي مُتَأَصِّلٌ فيكُمْ وَأَنْتُمْ لَمْ تُعِينُونِي	شَرَدُوا جَدِّي، ذَبَحُوا أَهْلِي، اسْتَأصَّلُوا أَصْلِي
العَرَبُ الكِرْامُ نَكروا تاريخي قَبْلَها ثُمَّ يَسْونِي	أنا اللَّمَّاني والأَرَبِيعِ كُنَيْتِي ومُصِيبَتِي
أَلَيْهِ وإِنكم لتابعوني	أَمْجِيبُ عَبيْرَ اللهِ أَدْعُوهُ لَكُمْ يَهْدِيكُمْ
وإنكم لمشاهدوني	أنا الذي إِذ نادى الجِهادُ
وابني كمثلينا، حتى وإن كذبتوني	أنا المَنقوشُ على جِيبِيهِ اسمُ الشَهِيدِ
رغم أنوف كبرائكم لهؤمونون	أنا العَرَبِيُّ لا كَذِبُ، وأبي هو ابنُ العَرَبِ
وإنهم لمعايرونِي	فانظروا بشرى الكَريمِ وإِنكم
فما وغوا، ولا سمفوا، ولا يتكلمون	فَهُمُ الذِّينَ تَواطَوا بِنَكيَّةٍ صَنعَواها بِحَرفِيَّةِ
وبسوءٍ لن تمشونِي	اشتاَقوا لِلعبوديَّةِ بَعدَ عَرَبِيَّةِ
حتى وإن كره الكافرون	فلاذخِلنَّ المَسجِدَ كما دَخَله الكَريمِ
	أمرُ اللهِ حَتْمٌ نافِذٌ لا رادَ لَهُ

ينتهي من قصيدته لتدور الكاميرات في القاعة الكبيرة ، جميع الحضور واقفون على قدمٍ وساقٍ ، يُصفقون بحرارة ، بعضهم تحجرت الدموع في أعينهم ، بينما "نضال" أخذ يكفكف دموعه متأثراً ، هل يبكي من حفاوة الترحاب ؟ أم من معاني قصيدته ؟

يتمالك نفسه مرةً أخرى ليُبادر المقدم بقوله:

- اليوم هو يوم الفصل .. بعدما علم كل العالم العربي والإسلامي حقيقة تكليف ملكة إسرائيل لك بتشكيل الحكومة المؤقتة ورفضك الأصيل بشروطك التي صارت حديث الإعلام العالمي .. اليوم نتحدث كما يحلو لك .. وما هو موضوع روايتك الجديدة التي تحوي أسراراً غير مسبوقه عن التجمع الصهيوماسوني .. فاسمح لي أن أستعير تعبيرك المعهود .. تحدث إلينا كمواطنٍ عربي مسلمٍ يعيشُ داخل الخط الأخضر .. مناهضٍ للممارسات الصهيوماسونية ومواجهٍ مباشرٍ للعدو ..

اعتدل "نضال" في جلسته وبدأ الحديث:

- أشكركَ على هذه المقدمة .. ولا أشكركَ على مبالغتك في المجاملة .. سأوضح للجميع الأسباب الحقيقية لموافقتي على هذه الندوة .. فالأسباب ليست بالهينة .. ولا هي بالبسيطة .. فالقادم أسوأ بكثيرٍ من ذي قبل .. ما يحدث اليوم من أحداثٍ حيدت من سيطرة التكنولوجيا وأعجزت العلم عن الصمود أمام غضب الطبيعة .. التي بدورها هي من جنود الله لتثبت قوله تعالى: "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" .. ويتم التصديق على الآية الكريمة السابقة لتثبت صحة قوله تعالى: "ولا يعلم جنود ربك إلا هو" .. قريباً سيتم الاجتماع الأعظم للمحفل الماسوني الكوني بـ"تل الربيع" المحتملة (تل أبيب) .. لتدبير حادثٍ جليلٍ يُغير الخريطة العالمية .. وتنال الفتنة من الجميع في شتى المناحي .. وما على الأمة الإسلامية إلا التماسك كما وصّانا خير خلق الله وأشرف المرسلين بقوله: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً" .

يُشِكُّ "نضال" بين أصابعه بقوةٍ ويستطرد:

- هل نُشِكُّ أصابعنا لنعود جسديًا واحدًا قويًّا كما كنا.. أم ينجح المخطط "الصهيوماسوني" وتقطع أصابعنا.. "واعصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا".. الغرض من هذا الاجتماع الشيطاني تفريقنا أكثر وأكثر.. وهذه المرة بالذات أخطر مما سبق..

توقف "نضال" عن الحديث لحظاتٍ، ثم أخذ نفسًا عميقًا وأكمل حديثه:

- كنتُ أتحدث مع صديقٍ يهودي مزراحي دائمًا ما كنت أقول له: "أنت يهودي تنقصك الشهاداتان".. وأنا على يقينٍ تام من أنه يتابع هذه الندوة بشغفٍ لا نظير له.. قلتُ له ليلتها: "سأخبرك بما لم تكن لتسمعه من أحدٍ آخر سواء كان يهوديًا أو غير ذلك.. قبل أن أقحمك في مشكلات المستقبل القريب.. التي ستهل علينا عامة في المملكة وعليكم بالأخص كيهود.. سأخذك إلى عقب الماضي وتاريخ اليهود الأسود وتنفيذهم لمخططهم اللعين؛ وتسببهم في الحرب العالمية الأولى، والثانية، والهولوكوست حتى وعد من لا يملك لمن لا يستحق..

أضاف المقدم قائلًا:

- وعد بلفور تقصد؟

فأجابه "نضال":

- وعد من لا يملك لمن لا يستحق.. وتحقيق المخطط الماسوني للسيطرة على العالم من خلال خدعة الأرض المقدسة على أرض فلسطين.. وبالتالي بدأ المخطط كما أرادوا بالضبط.. حيث رسَّخوا قواعده بداية من العام (١٩٤٨) حينما احتلوا فلسطين وبدأوا في التوسع في العام (١٩٦٧) واحتلال القدس مرورًا بالبقعة الأهم.. فما كان ليفعل ذلك يهوديٌّ يعبد الله بل كان عليه أن يكون ملعونًا تابعًا للشيطان حتى يقتل الأغيار بهذا الشكل..

يضيف المذيع:

- ولكنهم يقولون بأن التلمود أمرهم بذلك..

أجابه "نضال" وهو قاطبُ الجبين:

- إنسانٌ مضللٌ من يعتقد أن الرب أملى التلمود بعد وفاة نبيه "موسى" عليه السلام.. التلمود يا صديقي هو من تأليف الحاخامات المضللين الذين أملى عليهم الشيطان ما يجب أن يفعلوا منذ بدأوا في بداية التأليف والتحريف والتخلي عن كلام الرب واستبداله بكلام الشيطان لأجل أغراضٍ سياسيةٍ دنيويةٍ لن تنفعهم في يوم الرب.. ومن ذلك المجمع الكهنوتي لحاخامات اليهود المتمسكين بتعاليم التوراة المحرفة والتلمود الخبيث انبثقت أخطر وأخبث خطة عرفها العقل البشري للاستيلاء على العالم والتحكم فيه وإفساد الدين والأخلاق..

- برتوكولات حكماء صهيون..

- بالضبط.. وعنها انبثقت المؤسسات والمنظمات والنوادي اليهودية الصهيونية السرية التي عاثت في الأرض فسادًا..

تساءل المقدم بهدوء:

- كالماسونية؟

- والروتاري.. والليونزكلب (نوادي الأسود).. وجمعية "بنائي بْرث" (أبناء العهد) وغيرها مما تنوع فيها الأسماء..

- ولكن يبقى المضمون والهدف واحدًا..

- تمامًا.. خدمة الأهداف الصهيونية اليهودية الرئيسة وهي على ثلاث مراحل.. الأولى: تجميع اليهود وإقامة دولة ووطن لهم في فلسطين..

- وقد نجحوا في ذلك بتعاونٍ مع القوى الاستعمارية الحاقدة.

- الثانية: توسيع دولة إسرائيل لتصبح "إسرائيل الكبرى" لتشمل الأراضي الواقعة بين النيل والفرات وتشمل المدينة المنورة وخبير..

- وهم على مشارف المدينة المنورة.. والثالثة سيد "نضال"؟
  - الثالثة والأخطر المملكة اليهودية العالمية.. حيث يخضع العالم لسيطرة اليهود وتكون أورشليم عاصمة المملكة العالمية التي يحكمها ملك يهودي.
  - تلك بعض نتائج وأثار الانحرافات العقديّة والتشريعية عند اليهود.. وتأثيرها في علاقتهم مع الآخرين..
  - بل هذا هو خطر اليهود على الآخرين.. والخطر المحدق بالإسلام والعالم أجمع..
  - ما طبيعة هذا الخطر سيد "نضال"؟
  - كل ما هو خطر على البشرية هم بارعون بصياغته وابتكاره بحرفية عالية..
  - كيف؟
  - يتخذ اليهود جميع الوسائل والطرق في إثارة الفتن والحروب.. ونشر الفساد الأخلاقي والدعوة إلى الإباحية.. والإجهاض والزنا.. وإشاعة الربا.. والفساد الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني في سبيل تحقيق أهدافهم وأحلامهم.. وهم في حقيقتهم أحقر وأجبن وأضعف من أن يحققوا شيئاً من ذلك.. لكنهم انتهازيون يستفيدون من الأحداث والاضطرابات والفتن في تحقيق أهدافهم ولا يتناهون عن منكر في سبيل ذلك..
- لأول مرة في حياتي أرى "نضال" بهذه الحالة العصبية! حقاً أنا في أشد صدمة من قوله! ما الذي حدث حتى يُسَحَن بهذا الكم الهائل من البُغض؟ ما الذي يمكن أن يحدث حتى يتحوّل إلى إنسانٍ آخر أكاد لا أعرفه! رأيتَه يشرب بعض الماء، ويستترد وهو ينظر إلى المقدم نظرةً حادةً:

- نعود للسياسة..

شعر المقدم بالحرّج وقال:

- تفضل.. معذرة..

تحدث "نضال" بكل ثقة:

- كان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تزبح "المملكة المتحدة" من طرقها لكي تعتلي عرش السيطرة على العالم، وكذلك تأثير المنظمة الصهيونية العالمية على الكونجرس الأمريكي.. وتشكيل جيش جرار من طبقة "الكومبورادور" حول العالم.. هؤلاء هم "الجساسة" كما تسميهم لغتنا العربية.. وبالتالي بدأت ثاني مراحل تأثير الدجال على العالم.. وهي فترة تقل عن سابقتها ولكن ماذا تفعل إسرائيل كي تزبح من أمامها أمريكا التي ما كانت لتتنازل عن عرش العالم بإرادتها؟ ولكنها ستفعل ذلك مضطرةً..

سأله المقدم:

- نعم ماذا عليها أن تفعل؟

أجاب "نضال" بنفس الثقة:

- كان يجب على إسرائيل إجبارها على شن حروبٍ أكثر ضراوةً كي تضعها في مأزقٍ لن تخرج منه إلا بمساعدتها..

- لماذا؟

- لأن كثرة الحروب يا صديقي تتسبب في انهيار الاقتصاد الأمريكي وبالتالي انهيار الدولار.. وهذا ما قد حدث.. لكنهم تناسوا أن المسلمين خاضعون لهم منذ قرنٍ مضى بالحروب وبالاحتلال سيوقظون المارد الذي بداخلهم.. فلو تذوق المسلمون للراحة طعمًا فلن يتفكروا.. ولكن إن ضيقوا عليهم استفاقوا.. بطمعهم تسبوا في سقوط الكؤوس والأواني والرفاهية ونسي المسلمون مذاق الخمر وحياة الفجور وبدأ

كل بلدٍ احتلته قوات الناتو في الاتحاد من جديدٍ.. وهذا إن دُلَّ فإنما يدلُّ على أن المسلمين على مشارف التوحد في كيانٍ واحدٍ مرةً أخرى.. ويعود الفضل في ذلك لليهود كما كان الفضل في إقامة دولة إسرائيل وزيادة عدد اليهود فيها للزعماء العرب الذين طردوا اليهود من بلادهم كما ذكروا ذلك فيما مضى قائلين بأعلى صوتٍ: "شكرًا أيها الزعماء العرب فإن الفضل في إقامة هذه الدولة يعود إليكم".. تكالبت علينا الأمم وقبلها جعلونا نتناحر فيما بيننا وعندما أفقنا كان الأوان لم يكن قد فات بعد.. ولكنها الصحوّة.. الصحوّة الإسلامية يا صديقي ستصبح صيحةً كبرى كما النفخ في الصور في يوم الرب.. لم يستطع "الناتو" دخول "مصر" من الغرب وبدأت "ليبيا" تتفوق على نفسها وتجاهد نفسها في كيان "الناتو" بقوته.. ولسوف يساعدها جيش مصر الأبويّ على ذلك.. فوالله لو استسلم جيشها لن يستسلم شعبها..

- سيد "نضال" لو ضاعت مصر لن تقوم للعرب قائمةٌ إلى يوم الدين..
- هذا ما قد قلته له يومها.. فقال لي: "جيش الدفاع هو جيش له شعب".. فقلت له: "ذلك لعدد الدولة الصغير".. أما في مصر فالوضع مختلفٌ لأن العدد أضعافٌ مضاعفة.. الجيش والشعب لا فرق بينهما.. فلا تستطيع أن تقول: جيش له شعب ولا هو شعب له جيش.. هما كيانٌ واحدٌ لا ينفصلان مهما كانت الأسباب وهم في رباطٍ إلى يوم الدين.. يتعثر الفراعنة وينهضون مهتطين جياذ الحرب.. نحن كعرب الداخل عدنا أمل في ذلك الجيش أو بالأحرى ذلك الشعب الأبويّ بحق.. وننظر تحقيق بشارة رسولنا الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى..

قال المذيع متضرعًا:

- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..

فرددتها "نضال" خاشعًا واستكمل حديثه:



- نعم سنحرر الأرض المقدسة ونصبح "القدس" آخر دارٍ للخلافة قبل نزول "المسيح ابن مريم عليه السلام" رسول الله وهو من يخلف "الإمام" وتكون خلافة على منهاج النبوة.. ويكون الأمر كله لله..

- سيدي هل من الممكن أن تحدثنا أكثر عن "الإمام"؟

ابتسم "نضال" ابتسامةً أعرف مقصدها ، وقال:

- بداية.. سيرفض "الإمام" أن يقود الأمة فيجبره الناس على ذلك.. وعلى رأسهم "التميمي" الذي تدعوه وسائل الإعلام بقائد الإرهابيين وهو على رأس قائمة المطلوبين عالمياً.. ويباعونه بين الركن والمقام.. ثم تأتيه عصائب أهل الشام.. وأبدال العراق.. وجنود اليمن.. وأهل مصر.. وتتجمع الأمة حوله.. ثم تحدث معركة بين المسلمين والروم حتى يصل المسلمون إلى القسطنطينية (إسطنبول) ثم يفتحون.. يفتحون بالتكبير والتهليل.. ويصل هذا الجيش إلى أوروبا.. بالتكبير والتهليل.. ثم يصل الجيش إلى "روميا" (إيطاليا).. بالتكبير والتهليل.. أما اليهود ينتظرون "المسيح" من نسل داوود..

- أليست هذه أسطورة؟

- بل أكبر أسطورة وكما جرت العادة على أن يعيشوا الأساطير.. أنا لا أقصد بذلك أن أخرج مشاعره كيهودي ولكن أريده أن يستفيق.. خلاصة حديثي معه قضية الأرض ما زالت مركز الصراع.. الصراع على الأرض هو صراع بقائنا ووجودنا ومستقبلنا.. نبهنا بأن النكبة لم تنته في العام (٤٨).. آثارها ما زالت مستمرةً يومياً في التمييز ضدنا.. وفي تضيقها المستمر على حياتنا اليومية.. في جميع المجالات..

- هذا لا شك فيه.. مثل السكن..

- السكن والتعليم والاقتصاد وسوق العمل.. منذ عام (٤٨) إلى اليوم مرَّ شعبي بالعديد من النكسات والضربات التي لم تزدنا سوى غضبٍ وإرادةٍ.. سقط وهمنا بأن حياتنا طبيعية في هذه البلاد.. سقط قناع

التعايش معهم على المستوى اليومي.. سقطت الأقنعة كلها.. وبان الوجه العاري لإسرائيل.. الوجه العنصري الصهيوني الهمجي الذي نتجنبه رغمًا عنا كي نستطيع أن نتعايش معهم في الدولة.. لم نكن يوماً بشراً بالنسبة لهم.. بل مخلوقات غريبة تُسمى "عرب".. لقد ظهر الوجه الحقيقي لطبيعة العلاقة بين الدولة وبين المواطنين العرب..

تنهّد المقدم تنهيدة طويلة وقال:

- هم يقولون أن العرب حشرات وأفاعٍ يجب أن يُداسوا بالأقدام..  
فأضاف "نضال":

- تُدرك للمرة المليون أننا طفيليات بالنسبة لهم على هذه الأرض.. وأن الديمقراطية تُطبق على جميع المواطنين ما عدا المواطنين العرب.. ونستنتج مجدداً أن هذه الدولة أو هذه المملكة هي للشعب اليهودي.. وليست لجميع المواطنين.. لذا لا يمكن أن تكون ديمقراطية.. لفت انتباهي في الثورة نسبة الشباب والصبايا العرب اليافعين.. وحماسهم لقضيتهم.. لا تدرك الحكومة وقتها أن استعمالها لسياسة الترهيب هذه ليس فقط تزيد الجيل الجديد تمسكاً بهويته وقضيته.. بل وتزرع الغضب والروح الثورية في صدورهم وقلوبهم إذا لم نتصد لهذا المخطط سيمر الجيل الثالث للنكبة.. بنكبة جديدة ليس على المستوى العربي فقط بل على المستوى الإسلامي ككل.. وستصادر أكثر من نصف ما تبقى من أراضي المسلمين..

وبحزنٍ واضحٍ سأله المذيع:

- وما هو الحل في رأيك سيد "نضال"؟

- وحدة الشعب الإسلامي في توحيد الصف خلف قائد الثورة الإسلامية بعد ذلك البيان الناري.. لقد بعث الأمل في داخلي من جديد.. وأنا على يقين تام أن الجيل الجديد لن يسقط راية الإسلام كما تهاون الآباء والأجداد ولن يتراجع عن إسقاط المخطط الصهيوناسوني..

- إذن أنت مع الثورة الإسلامية الكبرى سيد "نضال"؟
- يُجيب "نضال" بكل قوة:
- قلبًا وقالبًا..
- هل نحن في نهاية الطريق؟
- بالطبع لا.. نحن على أول الدرب.. انظروا للكوارث التي حلت بالعالم.. لتعلموا أنها إشارات من رب الوجود لنا.. إشارات ليجتمع الشمل مرةً أخرى.. كلنا يعلم ما حدث في "بلو ستون" فلقد دمّر هذا الإعصار كل شيء في طريقه.. وكذلك ما حدث في "أركنساس" من نفوق آلاف الطيور وملايين الأسماك..
- نعم وكذلك البركان الرهيب في "أيسلندا"..
- بالضبط.. والأزمة الاقتصادية الأمريكية الكبرى.. والمظاهرات العارمة في الشوارع والفضى غير المسبوقة في الشوارع الأمريكية.. والكوارث الطبيعية التي شلت جميع الأماكن التي حدثت بها..
- أيضًا الجفاف والأمراض والأوبئة التي تفشت في معظم البلدان الإفريقية..
- والفيضانات والأعاصير والعواصف الثلجية التي ضربت أوروبا وأمريكا وبلاد الشام.. والحرائق الرهيبة التي نشبت في غابات أمريكا الجنوبية وإفريقيا.. وكذلك ظاهرة الاحتباس الحراري التي تُعاني منها الأرض والحروب الوشيكة.. والتهديدات النووية.. وانتظام استقامة المجرة.. والعواصف الشمسية المتأهبة.. وقريبًا ستكمل الأرض ستة وعشرين ألف سنة من الميلان المحوري.. والخطر الداهم الذي يُهدد كوكبنا باقتراب كوكب "نيبيرو" من الأرض.
- قال المقدم مؤكّدًا:
- هذا سيسبب حدوث اختلالٍ في المجال المغناطيسي..

- لا شك في ذلك.. كذلك ظاهرة اختفاء النحل الغامضة.. أما عن ظاهرة انهيار خلايا النحل الذي قال عنها اليهودي "أينشتاين": "إذا اختفى النحل من سطح الأرض.. فإن العالم لديه فقط أربع سنوات".. والمظاهرات العارمة في العراق ومصر وتونس وليبيا واليمن وسوريا والبحرين والبلدان العربية والإسلامية.. ووقوف المسلمين كالرجل الواحد تحت راية العُقاب.. راية رسولنا.. وقریبًا ستكون خلافة على منهاج النبوة.. هذه هي جنود ربي.. الجنود التي لا يعلمها إلا هو.. إخواني.. صديقي الغائب.. لقد اقتربت النهاية.. العالم كله على المحك.. لا وقت للتراجع.. لا وقت إلا للاتحاد.. الاتحاد تحت راية العُقاب.. الاتحاد في كيانٍ واحدٍ.. التجمع خلف قائدٍ واحدٍ..

تساءل المقدم وهو ينظر إلى "نضال":

- أهذا كل شيء سيد "نضال"؟

- هذا أخيرًا وليس آخرًا.. فليستعد العالم أجمع لحادثٍ كبيرٍ في الفترة القادمة.. يتسبب في انقراض قوةٍ على قوةٍ أخرى أضعف.. لسفك الدماء.. يتسبب هذا الحدث في الحروب والنزاعات.. كما فعلوا من ذي قبل.. فأخر حوادثهم المدبرة كان حادث الحادي عشر من سبتمبر عام (٢٠٠١)..

- هذه كانت مؤامرةً واضحةً لضرب الإسلام.. واحتلال بلاده.. وإخضاع الدول الإسلامية للسيطرة والهيمنة الغربية..

- والتالي سيكون أسوأ بكثيرٍ.. ليس من الصعب أن تكون الدولة التالية هي دولة عربية إسلامية كبيرة.. لا نستبعد أن تكون "مصر".. لأن "النااتو" لم يستطع أن يدخلها من الغرب حتى الآن.. وقد تكون هذه الدولة هي المملكة العربية السعودية.. وذلك لمواقف شمالها في الفترة الأخيرة ضد القوات الأمريكية التي تُهيمن على "الأردن" لصالح "إسرائيل" الفاشيستيّة.. كذلك "المملكة الأردنية الهاشمية" نفسها.. و"الجزائر" التي على شفا الثورة.. كذلك لا نستبعد أن تكون

"قطر" .. ولا نستبعد أيضاً أن تكون "المملكة المغربية الهاشمية" ..  
والله أعلى وأعلم ..

- هل تقصد أيضاً القوات البريطانية الأمريكية التي تسيطر على العراق  
والكويت ..

- بالتأكيد فهي تسيطر لصالح إمبراطورية إسرائيل العنصرية .. سيكون  
هذا الحادث مأساوياً .. ولا يستطيع أحد أن ينكر التهديدات النووية  
التي ستلوح بها دول الغرب في وجوهنا .. فهم مأمورون من الشيطان  
نفسه .. الذي يتحكم بدوره في القوة الخفية التي تُسيطر على العالم ..

- لقد تلقينا أسئلة كثيرةً سيد "نضال" .. هل لنا أن نطرح بعضها  
عليكم ..

- بالطبع .. تفضل أخي ..

بدأ المقدم ينظر باهتمامٍ إلى الشاشة التي أمامه ، ويهرول بأصابعه  
عليها وهو يقول :

- سنأخذ أهم الأسئلة نظراً لضيق الوقت .. أول هذه الأسئلة المهمة ..  
هل ينجحون في السيطرة على العالم ؟

- الحق أقول لكم .. لقد نجح المخطط "الصهيوماسوني" في تحقيق  
تسعين بالمائة من أهدافه .. وجعلونا نتبعهم كالعميان .. لا نسمع ولا  
نتكلم .. فقط نطيع دون أن نفقه .. جعلونا نتبعهم ونتخذهم أمثلاً غلبا  
وقدوة لنا .. يشربون ويسكرون لتذهب عقولهم .. فيمتطون بعضهم  
بعضاً .. فشاعت الرذيلة بيننا وزاد التخلف والجهل والإلحاد .. وما  
من عاقلٍ يعقل .. ونحن كالأنعام بل أضل .. جعلوا الإلحاد حرية ..  
أنكروا وجود الخالق فأممًا خلفهم .. استحلوا أرضنا وأموالنا فركعنا  
دون تملق .. استباحوا أهلنا وأعراضنا فتأوهنا متلذذين ..

- هناك سؤال آخر .. أهنالك أسماء تتكهن بها سيد "نضال" ؟

- بالطبع.. أولاً هل تستطيع أن تخبرني لماذا يوجد هناك شارع باسم "روتشيلد" تحوّل بعد ذلك لشبه مقاطعة خاصة؟

تردد المقدم قليلاً قبل أن يجيب:

- تقريباً لأنهم كما يُشاع أوائل من تبرّعوا لإنشاء الدولة ومساعدة المستوطنين اليهود.

أشاح "نضال" برأسه نايفاً:

- لا يا صديقي.. ذلك لأن "آل روتشيلد" هم من أسسوا هذه الدولة..

ولهم الحق الكامل في تنفيذ ما شاءوا لأنهم في خدمة "إبليس" منذ

القرن السابع عشر.. تتحكم هذه القوة الخفية في رأس المال العالمي..

والقدرة الهادية والعالمية منذ عهود قديمة إلى "آل روتشيلد" في أوروبا

في القرن السابع عشر.. حيث تأسست "الماسونية" في "فرانكفورت"

بألمانيا ومنها انطلقت إلى أوروبا.. واستقرت وضمت تحت سلطانها

عدداً كبيراً من كبار الماليين العالميين الذين باعوا ضمائرهم

لإبليس.. كذلك "آل روكفيلر" الماسونيين في أمريكا للسيطرة وبسط

النفوذ على العالم.. أدعوا الله أن يهدينا.. ويرشدنا إلى طريق الصواب..

- إنهم الآن أصحاب عز وملك وسلطان بعد أن أصبح لهم كيانٌ دولي

قوي.. أصبحوا الآن مملكة قوية.. ما قولك في ذلك؟

- الجواب قوله تعالى: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا ثَقُفُوا إِلَّا يَجْلِبُونَ مِنَ اللَّهِ

وَجَلِبُونَ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا وَغَضِبَ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا

وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) (٥٠).. إنهم مع قيام هذه الدولة يعيشون تحت حماية

غيرهم من دول الكبرى التي تُحارب الإسلام والمسلمين.. فهي التي

تحميهم.. وتهدمهم بأسباب الحياة والقوة.. فينطبق على هذه الحالة

أنها "جلب من الناس"..

- لكنهم تطوروا وتقدّموا في كل شيء.. ويتحكمون في كل كبيرة وصغيرة من كل شبرٍ بالعالم.. بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ.. وذلك واضحٌ كالشمس..

ابتسم "نضال" ابتسامةً تهكميةً وقال ساخراً:

- اليهود أصحاب حضارةٍ فيسفاائيةٍ هلاميةٍ.. فلا سلطان لهم.. ولا عزة تكمن في نفوسهم.. ولكنهم مأمورون مسخرون أن يعيشوا في تلك البقعة من الأرض.. لتكون مركزاً لتلك الأمم التي تعهدت بحمايتهم ليقفروا منه إلى محاربة المسلمين.. إذا أتحت لهم فرصة.. يكفي وصف السيد المسيح عليه السلام بأنهم: "بقايا الفريسيين الطائفة الملعونة سبع لعنات".. وقول بعض الخبراء والمحللين السوسولوجيين والسيكولوجيين: "إن البحث في العقيدة اليهودية التلمودية متاهة".. فعندما نعرف من هو اليهودي فسوف يخلو التاريخ من الأسرار.. فهم فضلاً عن أنهم نتاج معاناة المجتمعات المختلفة فإنهم يحملون عُقداً نفسية وتربسبات مَرَضِيَّة تجاه كل جنسيات العالم، وتعدد عرقياتهم على هذا النحو يرسخ لعادات وتقاليد وقيم متناحرة ومتعارضة ومتضاربة.. ذلك أقل ما يمكن أن يُقال عن تلك "الجمعيات السرية الماسونية" ومتفرعاتها المعلنة وغير المعلنة، والمتشعبة والموزعة على أقطار الأرض الأربعة.. ولو أن المسلمين غيَّروا ما بأنفسهم.. وتمسَّكوا بشريعتهم.. واجتمعت قلوبهم.. وتوحَّدت أهدافهم لكانت تلك الدولة ومن يحميها في رعب من المسلمين.. والأمل في الله.. أن يتنبه المسلمون إلى ما يُحيط بهم من أخطار فيدفعوها.. ويعتصموا بحبل الله لتعودَ لهم قوتهم وهيبتهم.. وها هي ذي الفرصة قد جاءت فلنغتمنها مهما كلفنا الأمر..

- اسمح لي بتساؤلٍ آخر..

- تفضل..

- إن ضاعت هذه الفرصة؟

- سيستبدلنا الله بقوم غيرنا أولي بأسٍ شديدٍ ينصرون دينه ويرفعون راية رسوله وينشرون العدل في أرجاء الأرض بأمر الله..
  - وهنا يأتي موعدُ آخر سؤال للضيف الكريم.. ما هو موضوع روايتك الجديدة؟
  - كل ما سبق قوله من تساؤلاتٍ وإجاباتٍ.. إضافة إلى ما تتفق عليه الديانات الإبراهيمية حول النهاية العنيفة للعالم.. كذلك العلامات الكبرى للساعة بما يتفق مع الرؤية الإسلامية..
  - هل لنا معرفة اسم الرواية؟
  - "إسختون" ..
  - ماذا تعني؟
  - هي كلمة يونانية تعني أخير.. وهي تحوي مضمون الإسختولوجيا أو علم الأخرويات في مفهوم اللاهوت والفلسفة بما يهتم بالأحداث المستقبلية والأخيرة قبل نهاية العالم..
  - نشكرك سيد "نضال" شكرًا جزيلاً.. ونتمنى لك دوام التوفيق والنجاح.. ونتمنى أن نقتنص وعدًا منكم باللقاء مرةً أخرى..
  - إن أراد الله.. شكرًا جزيلاً لكم ولكل الحضور..
- عاد التصفيق ليدوي في القاعة كأقوى ما يكون ، ووقف "نضال" لتحية الحاضرين ، بينما كانت الأعاصير تهب في رأسي ، والدوامات تعصف بعقلي ، هل ما قاله "نضال" صحيح؟ ولو كان صحيحًا ، هل هذا معناه بداية النهاية؟ لقد أيقظني "نضال" من كابوسي أيام الثورة ، لأعيش في كابوسي حقيقي أشد وطأةً وظلامًا.
- كابوس إسختوني!

## سفر (٤٨) "الاجتماع الأخير"

زلزالٌ خفيفٌ مرَّ من هنا.. قاطعاً كلَّ أفكاري.

في تلك اللحظة المزدحمة التي تكالبت على عقلي فيها نقاشات اجتماعنا داخل الكنيسة حول الأحداث الدائرة خارجية ، وداخلية ، والصدمات التي لا أول ولا آخر لها ، وقرار الحكومة المؤقتة بسحب الجنسية الإسرائيلية من "نضال" وعدم السماح له بزيارة إسرائيل مرةً أخرى ، بتهمة التحريض على العنف ضد المملكة والسبب العلني لها ولشعبها وعدائه للسامية ، وتأييده البيّن للجماعات الإرهابية المتطرفة... والمشاورات التي رافقت كلَّ ذلك حول تحديد دولةٍ بعينها لنفيه إليها وتحديد إقامته... وأيضاً.. الهجمات الإرهابية الخارجية التي تنظمها وتشارك فيها "الحركات الإرهابية الإسلامية" التي تستهدف تدمير مملكتنا الفتية ، العفية ، الصامدة ، التي لم تكن موجودةً قبل أن يُظهِر جيش الدفاع قطاع "عزة" بمن فيه ، غافلاً عن انتقالهم للاختباء في الضفة الغربية وبعض المناطق الجبلية ، ثم امتداد نشاطهم إلى

صحراء النقب ، وبعض الأماكن الأخرى التي لم نسيطر عليها بعد في الصحراء.

في تلك اللحظة كنتُ مغموراً في ذلك الازدحام ، وفي اللحظة التي تليها مرَّ الزلزال. سقطت صورة "هرتزل" و"بن جوريون" و"شارون" ، بعده مباشرةً ، قبل أن يدخل علينا أحدُ أبطال كتيبة المستعربين وهو العين المجردة لنا في "مصر" كان يلهث من شدة التعب والتوتر الذي بدا عليه وكأنه جاء راکضاً من "مصر" حتى وصل إلى هنا دون أن يأخذ لحظةً واحدةً للراحة.. يبدو أن الأمر غايةً في الأهمية.

- ماذا هناك؟ ماذا بك يا "شاؤول"؟!

سأله رئيس الحكومة المؤقتة "يؤاف بن يهودا" الذي كان يرأس جلسة اليوم المهمة.

أخذ "شاؤول" أنفاسه ، وشرب كوب الماء الذي أعطيته إياه حتى آخر قطرة ، ولم يترك قطرةً واحدةً وكاد أن يلغقه بلسانه الذي بدا طويلاً أمام هذه القطرة المتبقية!! والجميع منتظرون أن يتفوه بأي شيء ، وجميعنا نحدق به في ترقب ، وبدأ "شاؤول" في فتح فاه وهو يُبادلنا نفس النظرات ، المترقبة ، القلقة ، الحذرة ، وأخيراً نطق:

- عندما كنت أحضر اجتماعات العرب في جامعة الدول العربية حيث تكثر خلافاتهم كالعادة، وزادت توتراً في الفترة الأخيرة، حتى بدا لي أنهم على بعد خطوةٍ أو أقل من التناحر، ودائماً كما تجري عاداتهم كانوا ينتهون إلى لا شيء، ولا شيء إلا لخلافاتٍ أكثر وأكبر، ولكنهم في آخر نقاشٍ اتفقوا أخيراً على شيء واحدٍ لم يحدث منذ أكثر من قرنين من الزمان، وهو عودة الخلافة الإسلامية مرةً أخرى، وبهذه الخطوة سيتم تحرير جميع الأراضي التي احتلتها إسرائيل في الأماكن المتفرقة من الشرق الأوسط، وجزيرة العرب، والعراق، وسوريا، والأردن، وسيناء، واتفقوا على أن الخلافة الإسلامية هي الحل لكل

المشكلات الداخلية والخارجية، لأنها ستجلب عليهم الخير الذي زال مع زوالها في العام (١٩٢٤)، ولكنهم لم يتفقوا على دولة لتكون عاصمة للخلافة واحتدم بينهم الخلاف.

ضحك رئيس الحكومة وهو على المنصة والكلمات تخرج من فمه متقطعةً من أثر الضحك:

- لقد وصلت المسرحية الهزلية إلى ذروتها.. أكمل يا "شاؤول"..  
فأنا على يقين بأن المشهد الذي ستصفه لا يستطيع أعظم كتّاب الكوميديا صياغته.

- تنازعا بشدة فيما بينهم على أهمية بلد كل منهم وبأنه الأحق والأجدر ليكون هو عاصمة الخلافة.. ونادى زعمائهم على أن كلاً منهم هو الأصلح بأن يكون الخليفة..

كاد رئيس الحكومة أن يغشى عليه من الضحك، فانتابت الحضور جميعاً موجة عارمة من الضحك، وقال وهو لا يزال يضحك:

- هكذا هم العرب دائماً.. أكمل.. أكمل يا "شاؤول"..

ظل "شاؤول" متجهماً الوجه ونظرات القلق تملأ عينيه وهو يكمل حديثه:

- عمّت الضوضاء.. وتعالى الشجار.. وتناذبوا بالألقاب.. وانفجر المكان بالضجيج.. وكاد الأمر أن يصل إلى التناول بالأيدي..

كان كلما تحدث "شاؤول" كلما ارتفعت الضحكات حتى ساورني الشك بأن سقف الكنيست سينهال على رؤوسنا من شدة اهتزازة، لم يتمكن رئيس الحكومة من الكلام لكنه أشار إلى "شاؤول" بيده أن أكمل، لكنه لم يستكمل حديثه بسبب الضحك، فلاحظ الحضور ذلك فبدأت الضحكات في التراجع عن حديثها بعد أن أنهك الضحك

الجميع ، بينما أخذ "شاؤول" نفساً عميقاً ، محاولاً استجماع قوته ، ثم أكمل حديثه:

- استمروا على هذا الحال فترةً ليست بقليلةٍ.. وفجأةً ودون سابق إنذار فُتح باب القاعة بقوةٍ غير مسبوقَةٍ ودخل رجلٌ ذو هيبةٍ يرتدي زياً عسكرياً قديماً بعض الشيء ، وتملاً وجهه لحيهً متوسطة الحجم زادته رهبةً ، ويضع على رأسه عمامة سوداء اللون نقش عليها باللون الأبيض "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ، كان عاقد الحاجبين ، وتبدو عليه علامات الغضب ، ودخل خلفه رجالٌ لهم نفس الزي حاملين راياتٍ سوداً نقش عليها نفس الشعار "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ثم صرخ في الجميع: "كفى.. لا داعي لخلافاتكم.. لقد ظهر الخليفة".

ارتعد كلُّ من في الكنيسة وساد الصمت لحظاتٍ ، إلا أن رئيس الحكومة قطع الصمت بالسؤال وقد بدا عليه الخوف:

- ... و... هل صدقوه؟

التفت "شاؤول" خلفه ورفع عينيه إلى منصة الرئيس الذي كاد أن يختفي في مقعده ورفع صوته وكأنه يُدلي بشهادة أمام قاضٍ في محكمة:

- انتبه إليه الجميع وعلامات الذهول قد سيطرت عليهم في وقتٍ واحدٍ.. وحدث هرجٌ ومرجٌ وامتعاضٌ واستنكارٌ واعتراضاتٌ.. وبدأت الأسئلة تنهال عليه: "ماذا تقول يا هذا؟".." عن أي خليفةٍ تتحدث أيها المجنون؟".." أجنت يا صاح؟".." فصرخ الرجل فيهم وقد بدأ من خلفه يزمجرون ، وقال بلهجةٍ حادةٍ: هكذا كنتم وهكذا تظنون.. التناهر من أجل الدنيا وزينتها.. لقد صدقتم القول.. فمن أراد أن يتبع جيش "الإمام" فليأت معنا إلى مكة.. ومن لم يُرد فليلزم داره.. فسنبداً حرب التحرير قريباً ، فلقد بدأ المجاهدون يتوافدون على جيش "الإمام" من شتى بقاع الأرض.. بعدما علموا خبر الجيش الذي

حُسف به وهو في طريقه إلى قتالنا.. وبالطبع لم تسمعوا أنتم عن هذا فأنتم غارقون في شهوات الدنيا".....

حاول رئيس الحكومة استجماع قواه واعتدل في مقعده ، وقد اختفى عنقه بين كتفيه ، وبدا القلق في عينيه ، وفي نغمات صوته وهو يسأل:

- إذن لم يصدقوه؟

- لقد صمت الجميع سيدي الرئيس وقد بدأ بعضهم ينصت مصدقاً وبدأ السؤال: "مَن هو؟" ..

برز عنق رئيس الحكومة قليلاً ولكنه عاود الاختباء مرةً أخرى بين كتفيه:

- وماذا كان رده؟

- كان الرجل يقف في ثباتٍ وقوةٍ وهو يرد عليهم: "إنه "الإمام" الذي بشر به رسؤلنا الكريم" ..

عاود رئيس الحكومة الغوص في مقعده وهو يرتعد فخرج صوته مهزوزاً:

- هل اتبعوه؟

- انهالت عليه الأسئلة.. كلها تعني التشكيك في صحة ادعاء الرجل فمنهم من قال: "وما حجته ، ومعجزته؟" وأضاف آخر: "وما أدرانا أنه "الإمام" الحقيقي؟" رفع الرجل جبينه إلى أعلى وقد ارتسمت على فمه ابتسامة سخرية وخرجت الكلمات من فمه وكأنها طلاقات اتهام ترشق في صدورهم: "لقد عمت أبصاركم وطمس الله على قلوبكم.. تأملوا الأحداث التي تدور حولنا.. وإن أراد الله لكم الهدى لهداكم.. إنه "الإمام" دون شك.. اسمٌ على مُسمى.. فهو رجلٌ هداه الله للهدى.. وثبته عليه.. وأيده بجندٍ من عنده.. وسيهدي الأمة لطريق العزة والرشاد والتمكين".....

أخذ "شاؤول" يلتقط أنفاسه بصعوبةٍ بالغةٍ ثم أكمل:

- ظل الجميع ينظرون إلى هذا الرجل وبدأ الهدوء يُخيم على القاعة.. حيث ظل كل منهم يُقنع نفسه ويتحدث إلى من بجواره خشية أن يكون الأمر وهمًا من الأوهام.. أو خدعةً أخرى تحدث كما حدث من قبل.. كثيرون ادعوا أنهم هذا "الإمام" قد ظهروا في السابق وتواترت الأحاديث عن هذا "الإمام" المنتظر.. هل هو حقيقي هذه المرة أم هو مدعٍ جديدٌ؟ وفجأة قطع هذه الجلبة سؤال أحدهم: "وماذا عن البيعة؟ من بايعه؟ وكم أعدادهم الآن؟".. فابتسم هذا الرجل أكثر وهو يجيب: أقبلت إليه الوفود المسلمة من كل أرجاء الأرض ليشدوا على يديه وأعلنوا له البيعة.. وعاهدوا الله معه على الجهاد في سبيل الله.. وعلى إعلاء كلمة الله لبلوغ إحدى الحسنين.. إما النصر.. أو الشهادة.. بدلًا من الجدل في اللاشيء اسألوا الله ألا يحرمننا من هذا الشرف.. إن "الإمام" الآن يحل الخلاف بين الشيعة والسنة في بلاد الشام والبلدان العربية كخطوة أولى.. بإداره رئيس الجلسة في الجامعة العربية وقد علت وجهه ابتسامة كبيرة: "لو استطاع فض النزاع لأصبح المسلمون القوى المطلقة على ظهر الأرض.. ولاتبعناه.. ولأصبح اسمه على مسمى.. كما بشر به رسولنا الكريم".....

توقف "شاؤول" عن الكلام ، وبدأ النقاش بين أعضاء الكنيست ، وعمّ الضجيج القاعة ، ورأيت الذعر قد سكن أعين الجميع .

صرخ أحد الأعضاء:

- كيف سيجتمع الشيعة والسنة معًا؟

ردّ آخر:

- إن الشيعة والسنة متفقون في العقيدة ومختلفون في التاريخ والسياسة.. وإن الأزمة الطائفية التي نشاهدها أحيانًا هنا وهناك.. ما هي إلا وليدة الديكتاتورية وثمره من ثمارها المرّة.. وليست الخلافات

بين الطائفتين بخلافاتٍ حيويةٍ معاصرة.. أو ذات مضمونٍ اجتماعي راهنٍ.. وإنما هي خلافاتٌ اسمية.. وهمية.. تاريخية.. قشرية.. وليست جوهرية.

- لكن الوحدة بينهما أمرٌ مستحيلٌ.

- إن أسماء الطوائف "السنية" و"الشيعة" هي أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة.. وإن التقسيم الحقيقي الذي يقسم المسلمين اليوم.. هو الذي يضع غالبيتهم في جانبٍ.. ويضع الطغاة المستبدين المنافقين من حكامهم في الجانب الآخر.

لم أفهم ما قد قيل! ربما لأن ما سيطر عليّ لحظتها، كان حديث الكاهن السامري عن وحدة المسلمين وحلّ الخلاف بين الشيعة والسنة! هل كان حديثه نبوءة؟ هأنذا أرى ما لم أكن أتوقع أن يحدث! السنة والشيعة يدٌ واحدةٌ، للمرة الأولى منذ فتنتهم الكبرى قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان!

واستدعى حديث الكاهن حديث "نضال": "إنه لا بد من اعتبار كل من يؤمن بالله واليوم الآخر وبنبوة الرسول الأعظم محمد "صلّى الله عليه وسلم" هو أخ مسلم بغض النظر عن هويته الطائفية، أو الاختلاف معه حول بعض التفاصيل الجزئية، ولا بد من وضع الأمور في نصابها بعدم تضخيم السلبات الجزئية، أو توهين المشتركات الأساسية الجامعة، انسياقًا وراء حملة إعلامية مضادة، أو تمهيدًا لحربٍ سياسيةٍ أو عسكريةٍ شيطانية".

أيُّ كارثة عظيمة توشك أن تحلّ بأبناء الرب وأحبابه!

إذا كنا على حق ستنقذنا يد الرب، وإن لم نكن على حق من يُنجينا من بطش يده القادرة؟

يا لحيرتي التي لن تنقضي! فحتى وإن كنا على حقِّ فَمَن يضمن لنا  
أن يرحمنا الربُّ هذه المرّة.. ربما يسبق غضبه رحمته ، ويحلُّ البلاء  
على الأجمعين ؛ حتى على أبنائه وأحبائه.

## سفر (٤٩) "لا جاذبية"

"اقتل الآخر قبل أن يقتلك!

إن السلام لغة الضعفاء، الجبناء!

الإمبراطوريات لا تقوم إلا على الحروب!

أبناء الرب لا يمكن هزيمتهم!

والرب لا يحمي إلا الأقوياء.. فقط الأقوياء!"

اللعنة عليكم أيها الحاخامات الملاحدة، أيُّ مجدٍ ذلك الذي تبحثون عنه بين الأشلاء والدماء؟ أيُّ كارثةٍ تلك التي تعدُّون لها؟ سيلعنكم ذلك التاريخ الأحمق الذي لا يخدِّد إلا الحكام ويتناسى عمدًا هؤلاء الجنود القتلى منهم والأحياء.

قد لعنتُ نفسي كثيرًا ولم أخبر أحدًا بهذا، والآن أن الأوان كي ألعنكم.

صمّتاً أيها العجائز الغابرون ، كفاكم ثرثرةً ، بسببكم يلقي الشباب حتفهم ، وما زالت ألسنتكم المرنخة بالخطايا تترنح بالكلمات اللعينة ، فلتذهبوا جميعاً إلى أسفل درك عزازيل وبلا عودة ، فالرب قد صَبَّ لعنته على الجميع ، وأغلقت التوبة أبوابها ونوافذها إلى يوم الدينونة..  
الويل لنا كل الويل .

عدتُ إلى منزلي لا أقوى على الحراك ، ولم أستطع التفكير ، فتحتُ التلفاز لتطل بلكنتها الإشكنازية ، وصوتها النحاسي الذي سَمِته ، قالت وكأنها تشفي غليلها:

- ليلاه طوف مشاهدينا.. الليلة مظلمةٌ بلا قمرٍ لحدوث ظاهرة خسوف القمر الذي يُبشِّرنا بخبرٍ سعيدٍ.. النائب السابق "نضال خلايلي" الذي سُحبت منه الجنسية الإسرائيلية بقرارٍ من الكنيسة.. ومُنِع من دخول البلاد مرةً أخرى.. قد تعرَّض منذ قليلٍ لإطلاق الرصاص.. وثُوفى في الحال هو وبعض مرافقيه.. وقد أفادتنا المصادر أنهم خمسة أشخاص تقريباً.. ونُقل الخائن على أثرها إلى مستشفى الخليج الدولي واثنين آخرين.. وسنوافيكم تباعاً.

لم أتمالك نفسي هذه المرة ووجدتني أنتزع شاشة التلفاز وألقي بها أرضاً ، وأخذتُ أكسِر كل ما حولي كثورٍ هائج ، كل ما وقعت عيني عليه لم تُكتب له النجاة ، صرختُ وكأنني لم أصرخ من قبل ، شعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في مفارقة الحياة!

لماذا يحدث كل هذا؟ لماذا أفقد كل من أحب بهذه الطريقة؟  
لماذا تأتي الأخبار السيئة دفعةً واحدةً وتُرافقني حيثما أكون؟ لماذا يا إلهي؟!

نزلتُ إلى الشارع في الحال لا أدري لأي مكانٍ سأذهب ، تجولتُ على قدمي في شوارع "تل أفيث" ، أنظر إلى مبانيها الفارهة وأبراجها ،

كأنني أنظر إليها نظرةً أخيرةً ، لا أدري هل تكون الأخيرة؟ وجدتني وعلى حين غرةٍ مني أشعر ببرودةٍ شديدةٍ تدبو في أوصالي ، فتحت عيني التي امتلأت بالدموع لتعيقني عن الرؤية لأجدني جالسًا أمام بحر "يافا" ، هاج البحر وثارَت أمواجه ، هل هذه الثورة حزنًا على فراق "نضال"؟

زاد الموج من ثورته لترتطم الأمواج بالشاطئ بصورةٍ مرعبةٍ ، أصابني بالفرع ، تضرب الأمواج فنارة "يافا" لترديها صريعةً مدمرةً ، لم أشعر بنفسي حينما أخذت قدمي رد فعلها الطبيعي بالركوض هربًا ، خوفًا من الموت الذي كنتُ أرغب به قبل نزولي من البيت.

يا لسوء الطالع! تشرق شمس يومٍ جديدٍ لأجدني لمرةٍ أخرى دون أدنى شعور.. أين أنا! وجدتني أمام الحائط الغربي ، فعلتُ كل ما يتوجب على اليهودي فعله ، هزرتُ رأسي للأمام وللخلف مرتلاً وملاّت الحائط بأمانبي ، ودعوتُ إلهي أن يلهمني الحقيقة ، وفجأةً تشنجتُ الكلمات في حلقي ، وماتت صلاة آبائي وأجدادي ، وانطفأت أمام عيني الشمعة الأزلية!

منذ أيامٍ نسمع عنه ، اسمه بات يطير في جنبات العالم ، ولكيّن ما زلتُ لا أصدّق ، فقط بعضُ الشكِّ قد يدفعني إلى التصديق هذه المرّة ، ما زلتُ أذكر أحجية السيدة العجوز وهي تفتحُ: "وسياتيكم حين تكفرون بهجيئه.. الأماذ عند إلهي ليست قصيرةً كما هي عند أبنائه".

هل وصل العالم إلى نهايته؟ أم غضب الرب علينا صبَّ جمرات الجحيم من فوق رؤوسنا؟ من هو إلهنا؟ أهو إله الانتقام الذي يصفنا ضد بعضنا البعض بالسيوف والرماح؟! أحقًا مات "نضال" الذي كان يملأ الدنيا ضجيجًا؟ كيف ذلك؟ إن الأمر لخطيرٌ ، اهتز هاتفي الخلوي في جيبي ، إنها "بيسان" ، كم أحتاج إليك الآن ، أتاني صوتها

نحيبًا ونوحًا ، لتخبرني بأن الجدة العجوز قد فارقت الحياة! شعرت بالصدمة المتتالية تعصفُ برأسي كالأعاصير العاتية ، أغلقت الهاتف متخذًا قراري للذهاب إليها لتقديم العزاء ، وما أحوذجني أنا لهذا العزاء ، وصلت إلى هناك ودموعي تنهمر متساقطةً على خدي ، وكلمات "نضال" لا تفارق رأسي ، فكل ما يحدث على أرض الواقع ما هو إلا أحاديثه .

وصلتُ إلى كوخها الذي انتشر حوله السامريون ، مشكِّلين حلقةً من العجائز أصحاب اللحي البيضاء الكثة ، والملابس المتنوعة الألوان بين الأخضر والأبيض والأسود ، يرتلون بانتظام من توراتهم ، لم أستطع الاقتراب أكثر ، لم تطاوعني قدماي ، ولم يتقبل عقلي أن أكبر معمرة في الأرض قد رحلت عن الدنيا في هذه الأيام الكئيبة ، يبدو أنها لم تتحمل أن تبقى أكثر في مثل هذا العالم ، بين هذه الأنواع المختلفة من البشر ، جلست "بيسان" على أرض الكوخ متشحةً بالسواد ، تمتلئ عيناها بالدموع ناظرةً إلى الأرض ، رفعت رأسها ناظرةً إلى سقف الكوخ ، وكأنها تُناجي الرب في لحظة استجابة ، خفضت رأسها لتصدم نظرتها بعيني ، شعرت بصرخات دموعها تقطر قلبي ، الذي لم يستطع أن يتحمل المزيد ، تمنيتُ أن أشكو إليها حالي ، ولكن هي تحتاج لهذه الشكوى أكثر مني ، حملتني قدماي بعيدًا ، وكأنني أهربُ من الهم والوجع إلى الحزن والأسى .

أخذتني قدماي هذه المرة إلى "المتحف السامري" ، حيث وجدت الكاهن السامري في متحفهم الذي يعكف على خدمته ليل نهار دون كللٍ أو مللٍ ، استقبلني هذه المرة بابتسامةٍ غريبةٍ عندما حدثته عما في قلبي ، وقال :

- في الزمان القديم كان هناك حكيمةٌ يهودي قال سوف تصبح هناك دولةٌ يهوديةٌ.. فسخرَ من حوله منه وأخذوا يضحكون.. فنظر إليهم

وقال: "غداً كل واحدٍ منكم يحضر ديكاً للمصارعة بين الديكة".. وذهبوا وجمعوا الديكة.. والحكيم أيضاً معه ديكٌ مريضٌ فأدخلوا الديكة للحلبة.. والمعركة بدأت بين الديكة.. تقتل بعضها بعضاً.. وبقي الديك المريض الذي يملكه الحكيم في الزاوية يُخبئ نفسه وعندما قتلت الديكة بعضها.. بقي الديك المريض الوحيد على قيد الحياة فاعتبر المنتصر.. وهذه هي استراتيجية إسرائيل تجعل الدول تتصارع فيما بينها والمذاهب تختلف معاً وسوف تقوى إسرائيل بالتدريج.. وعندما تصل إلى قمة الهرم لن تصمد طويلاً.

- لماذا لن تصمد.. ونحن أقوى دولة في العالم!!

- لأن المارد أوشك على النهوض مرةً أخرى.. ولن يستطيع أحدٌ أن يوقفه هذه المرة.. وعلى يديه ينتهي التاريخ.. والشاهد أن اليهودية كانت على مرّ التاريخ في محنةٍ لن تنتهي.. كان الصراع قوياً بين الدين والعقل.. أدى إلى صدامٍ أكبر بين الدين والسياسة.. وفيما حاول فيلسوفكم الأشهر "موسى بن ميمون" التوفيق بين العقل والنقل.. جاء "سبينوزا" من داخل الدين وانتهى خارجه.. مؤمناً بالعقل وناقداً للنقل.. ولا تزال إسرائيل منقسمةً ما بين "سبينوزا" و"بن ميمون".. فلقد أسّسها ملحدٌ وحكمها ائتلافٌ من الملحدين والملتطفين.. في أي جانبٍ أنت؟

صدمتني صراحته الشديدة وقراءته العميقة لواقعنا المرير ، لم يذكر الكاهن شيئاً واهياً ، لقد ذكر الحقيقة مجردةً من أي تجميل ، وزاد من حيرتي ، فسألته:

- أي ماردٍ تقصد؟

لم يُجبني! لكنه ابتسم على الرغم من أن شاربه الكثيف كان يُغطي فمه تماماً إلا أنني استطعت تمييز ابتسامته الواسعة وقلماً يفعل ذلك ، عيناه هي الأخرى تبتسم وهي تنظر إليّ ، نهض ببطء وما زال يبتسم ،

وفتح الشاشة الكبيرة التي أمامنا ، وبدأ بتشغيل فيديو قديمٍ لحاخام روسي يعودُ إلى العام (٢٠١٢م) كانت لكنته الروسية مميزةً ، كما أذكر أن هذا الفيديو نسبة مشاهدته كانت كبيرةً وقتئذ ، وكان هذا ما قاله :

- أولاً بالنسبة للمسيحية.. فإنها بدأت بالاندثار في العهد الذي كتب فيه "ماركس" البيان الشيوعي والذي إذا ما اطلعنا عليه فسنعجد أنه يصف بدقة وضع المسيحية.. أي أنها "ستموت" وهذه حقيقة أيضاً.. لأنه بحكم كيفية نشأتها لم تستطع الصمود في وجه الثورات الاجتماعية.. وبدأت تموت في أواسط القرن التاسع عشر وحتى بدايات القرن العشرين وتوقف تقريباً تواجد المسيحية بمثابة دينٍ قائدٍ باستطاعته أن يجمع الناس وأن يحركهم.. أو أن تستطيع أن تعمل شيئاً في الجانب الديني.. وقد تكيفت بكل سهولة مع العصر الحديث.. وتوجد الأحزاب المسيحية الديمقراطية كما هو الحال في "إسرائيل" مع الأحزاب الدينية اليهودية داخل السلطة.. أي أن المسيحية بمثابة دينٍ ذي قاعدةٍ روحيةٍ للناس قد ماتت..

كان الحوار قد أصابني بالذهول ، ولم أشعر بالتعبيرات التي صدرت عن وجهي ، إلا أنني شعرتُ ببعض الآلام قد أصابت عظام فكي ، فأغلقتُ فمي على الفور وأنا أتابع مشاهدة هذا الحاخام وقد استطرد قائلاً:

- أما الإسلام في عهد ظهوره فقد تم بناؤه بحيث يكون قادراً على الصمود وهو ذو عقيدةٍ قويةٍ تستطيع أن تتحمل حالات التغير في العالم.. فقد نشأ الإسلام بطريقةٍ تختلفُ عن نشأة المسيحية وكان له قائد حي وحقيقي يعتقدون أنه أوحى إليه القرآن وفي هذا لا يوجد أدنى شك.. وليس كما في المسيحية لوجود اختلافات في نشأتها حتى المسيحيون يثيرونها فيما بينهم.. ففي الإسلام الأمر جدُّ واضحٌ كان هناك النبي كما يعتقدون.. ثم أوحى إليه القرآن ثم بدأ ببناء مجتمعه الديني.. وعلى هذا الأساس بنى مجتمعاً جديداً بتعاليم

جديدة.. واتضح فيما بعد ذلك بأن هذه التعاليم قادرةٌ على الصمود في الحالات الصعبة وهذا هو حقيقة ما حدث..

ما هذا؟ كيف لحاخام يهودي إشكنازي أن يتحدث هكذا! لوهلةٍ ظننته مسلمًا! لا وقت للتساؤلات الآن عليّ أن أكمل المشاهدة ، فأكملت وهو يقول:

- ليس هذا فحسب.. بل وكان للإسلام ميزة تفوّق ألا وهي ظهوره في المشرق بعيدًا عن أوروبا وثوراتها الاجتماعية والصناعية.. وُلد بعيدًا.. وتطور بعيدًا.. وقوي بالدرجة الكافية.. واليوم في عصرنا الحاضر بعد مجيء حقبة الإلحاد الجامح المتمثلة في الديمقراطية ليس لكونها شيئًا قبيحًا.. ولكنها الإلحاد في أعلى مراتبه على الإطلاق.. وبعد أن أغرقت الديمقراطية العالم لم يتبق فيه من المسيحية غير المباني الأثرية فقط لا أكثر.. كما لم يتبق من اليهودية أي شيء بحكم وقوعها تحت مظلة الصهيونية..

يا للهول! لقد شئتَ هذا الحاخام تفكيري ، أنا أيضًا ضد المظلة الصهيونية ، ولكن كيف له أن يتحدث هكذا عن دين الإسلام وكأنه الدين الحق! فتابعْتُ المشاهدة والاستماع جيدًا:

- وفي عالم اليوم لم يتبق شيء غير الإسلام.. والإسلام قبل كل شيء نشأ بحيث إن من اتبع محمدًا فيما بعد التزم بتعاليم هذا الدين أي أنهم كانوا دائمًا في اتصالٍ مع الخالق.. أما المسيحي إذا ذهب كل يوم أحد إلى الكنيسة فهذا جيد.. بينما المسلم يجثو على ركبتيه مصليًا خمس مرات كل يومٍ محددةٍ بهواعيد دقيقة.. إذ إنني أعيش معهم هناك.. علاوة على ذلك عندما سافرت إلى أوروبا وكنت أفطر في المطار كان هناك ركنٌ هادئٌ وقد جاء وقت الصلاة فذهبت إليه ثم اقترب مني مسلمين.. وقفت لأصلي صلاتي.. أما هما فقد افترشا الجرائد وجثيا على ركبتيهما يصليان.. هذا هو الإسلام.. وهذا بمجمله له معانٍ كثيرة.. إنسانٌ يصلي خمس مرات في اليوم.. ومع أنها خمس

صلوات فإنها غير طويلة لكنها جادة جدًا وعميقة جدًا.. الإنسان في خمس دقائق عندما يجثو على ركبتيه ويركع مصليًا ويقرأ ما هو مكتوب فيها.. فهو عندها في تخاطب مع العليّ.. هذا شيء مهم جدًا وهذا شيء ذو معنى كبير.. لذا فالإسلام في مجمله هو دين المستقبل..

الإسلام هو دين المستقبل! كيف؟ ومتى سيحدث هذا؟ وأين بالتحديد؟ نظر إليّ الكاهن السامري وكأنه قد سمع حديثي إلى نفسي دون أن أتقوه بنت شفة! فما كان مني إلا أن انتبهت إلى الحاخام الإشكنازي الذي تابع قوله:

- إذا أمكننا أن نقول إن العالم اليوم لن يغلق بحكم وجود ما تسمى بدولة إسرائيل.. فنحن حاليًا نوجد في هذه المرحلة وهي أن العالم متوجه باندفاع نحو الانغلاق.. لأن "إسرائيل" لا تملك الحق في الوجود.. منذ سنة ونصف انتهت كل المواعيد المتاحة والممكنة.. العالم بدأ بالانغلاق أي أن العليّ يغلقه.. وكل محاولات التنبؤ بحلول مستقبلية لإيقاف كل هذه الكوارث الاقتصادية وغيرها والتي تتوالى تبعًا سوف تكون بلا معنى.. العالم سوف ينغلق وهذا أمر لا مفر منه.. إذا ما تم القضاء على هذه الدولة والتي هي في حقيقة الأمر أصل الشر.. فإذا تم القضاء عليها فإنه كما أعتقد بعد سبعين عامًا سوف يدين أكثر سكان الأرض بدين الإسلام.. لأن هذا الدين قوي صحيح ويقود الناس في الاتجاه الصحيح.. نعم توجد حقيقة مشاكل بين الشيعة والسنة وعدم التوافق بينهما في بعض المسائل.. هذا أمر مفهوم الآن.. ولكني أمل إذا ما تم القضاء على "إسرائيل" ستختفي المشاكل بينهم.. وسيدين أكثر أهل الأرض بدين الإسلام.. الأمر واضح للعيان لأنهم بدأوا يكثرون وينتشرون إلى الحد الذي قامت فيه إحدى الدول الأوروبية بمنع بناء المساجد الجديدة لأنه في انتشار.. مستقبل العالم في الإسلام وهذه بدقة هي الحقيقة.. إذا ما تم القضاء على المشكلة وهي "إسرائيل".

أغلق الكاهن السامري الشاشة بعدما أنهى الحاخام الروسي تقريره  
الناري الصادم ، ونظر تجاهي ، كنتُ غارقًا في التفكير فيما سمعته  
فهزني بصوته العميق قائلاً:

- إذن عُمر هذه الدولة لن يدوم أكثر من (٧٦) سنة فقد اقترب المذنب  
"هالي" من إتمام دورته الكاملة حول الشمس.. وسيمنعه جُرْمُ  
سماويٍّ أكبر ويعترض طريقه قبل لحظاتٍ قليلةٍ من إتمام دورته  
ووصوله إلى نقطة الحضيض.. وسوف تمطر السماوات النيران على  
رؤوسنا!!

ردّني تعليقه للكابوس الذي يلازمي منذ فترةٍ ؛ ورأيتهُ مرةً أخرى  
لكن هذه المرة وأنا مستيقظٌ تمامًا وبكامل قواي العقلية والجسدية.  
انتبهتُ إليه تمامًا حين قال لي:

- إذا كنتَ تبحث عن الحقيقة فاذهبْ حيث تتوجه عقارب بصلة  
عقلك.. وتزداد كلما اقتربت دقائق قلبك.. فإن الحقيقة لا تظهر إلا  
بشيءٍ من الخوف.. والقلق.. والحيرة.. فلا تتردد.. وابدأ من حيث لا  
تريد.

- لم أكره يومًا أكثر من الماسونية.. ولم أستظل لحظةً بالمظلة  
الصهيونية.. لكن هذا لا يعني أنني لا أخشى الإسلام.

- بُني.. أمامك طريقان.. عليك أن تقرر جيدًا قبل أن تسلك أحدهما..  
فإن كان التردد ما زال يُسيطر عليك اذهب إلى المحفل الماسوني  
وعش ليلةً ماسونيةً خالصةً.. حتى تتعمق أكثر في معرفة مخططاتهم  
المُضلة.. وكيف يقنعون الناس ليتمكنوا من السيطرة على العالم..  
لا يخفى عليك أن المحفل الماسوني الكوني مقره في "تل أبيب" .. و  
تعلم جيدًا أنه قد جرى احتفالٌ لوضع حجر الأساس لأكبر محفلٍ  
ماسوني في العالم عام (١٩٦٤)، ولقد تحدّث في هذه المناسبة  
الحاخام الإسرائيلي الأكبر قائلاً: "طوبى للأغنيار الذين يصنعون

التاريخ الذهبي لأيقونة الحضارات، ومملكة الرب الموحدة" ثم أردف:  
 "أيها الإخوة الماسون من كل بلاد العالم.. نحتفل اليوم بوضع  
 الحجر الأساسي لأكبر محفل ماسوني في العالم، وسيضيء تاريخ  
 الماسونية لتحقيق أهدافها.. إننا جميعًا نعمل من أجل هدف واحد  
 وهو العودة بكل الشعوب إلى أول دينٍ محترم أنزله الله على هذه  
 الأرض وما عدا ذلك فهي أديان باطلة.. أديان أوجدت الفرقة بين أهل  
 البلد الواحد.. وبين أي شعبٍ وآخر.. ونتيجة مجهوداتكم سيأتي يوم  
 يتحطم فيه الدين المسيحي والدين الإسلامي.. ويتخلص المسلمون  
 والمسيحيون من معتقداتهم الباطلة المتعفنة.. ويصل جميع البشر  
 إلى نور الحق والحقيقة. أيها الإخوة الماسون فلتجعلوا هذا المحفل  
 قبلةً لمحافلكم.. قبله تتجهون إليها في صلواتكم إذا أردتم الخير لهذا  
 العالم.. وإذا أردتم الخير لأنفسكم".

نظر إليّ وقد زالت ابتسامته تمامًا وهو يقول بأسفٍ واضحٍ:

- أعلمت الآن أين يكمن الخطر الحقيقي؟

\*\*\*\*\*

إلى البيت قد عدت لا أعرف ماذا أنا فاعل؟! لم أجد أحدًا، جمعت  
 البعض من ملابسني في حقيبة كتفي الصغيرة، كنت على يقين بأن  
 "المملكة" الآن لم تعد بالمكان الآمن؛ لكن إلى أين أنا ذاهب؟ وإلى  
 أي مكانٍ يذهب أولادي وزوجتي؟

فكرت مليًا، أفضل حل هو أن تعود "سارة" والأولاد إلى عائلتها في  
 "روسيا". كتبت رسالةً صغيرةً إليها بهذا المعنى، وأرقتها برسالةٍ أخرى  
 تركتها لها على جهاز البصمة الصوتية، بصوتٍ مرتجفٍ مختنقٍ:

- "إشكنازيتي التي ما أن وطئت أناملها موضع شرباني التاجي.. وحطت  
 أولى خطواتها تدبو في وريدي.. حتى ثوجت ملكة مالكة كل ما أملك

من مُلك.. إشكنازيتي التي أذاقتني مذاق الروح.. أهوفاًتي.. لم تعد "مملكة الرب الموحدة" و"أيقونة الحضارات" وطناً صالحاً كما كانت من ذي قبل.. لقد جاهدنا كثيراً حتى نكون أول الأمم.. لكن بعض أصحاب العقول الصغيرة المتحجرة.. الذين لا يعرفون إلا لغة الهمجية البربرية.. يضعون أمثالنا بين المطرقة والسندان.. مطرقة همجيتهم.. وسندان إنسانيتنا.. لذلك وحفاظاً على زهورنا اليانعة.. التي طالما حللنا لهم بوطني يكتنفهم ويرعاهم ليشبوا أسوياء.. أدعوك.. بل أرجوك أن تأخذينهم وتعودي بهم إلى "روسيا".. فهو المكان الأكثر أمناً في العالم.. على الأقل في هذه الحِقة.. حيث يمكن أن يعرضهم دفاً حضن الأجداد عن بعدي.. أما أنا فقد اخترت طريقي.. الحقيقة هي غايتي وهدفي.. فإن قُدر لي العيش.. عُدت إليكم لهنأ جميعاً.. وإذا لم يُقدر لي العيش.. فعزائي أنكم بمأمن.. بعيداً عن الشيء الذي أخشى حدوثه.. تحياتي وقبلاتي لك ولأطفالنا".

تدثرتُ بما تبقى لي من عقلٍ وجأشٍ ، وأخذت سيارتي وانطلقت دون هدى ، لا أدري إلى أي وجهةٍ أنا منطلق! لكنني لا بدّ أن أنطلق.

إلى أين يا "يائير"؟

أين؟!



## سفر (٥٠) "الطريق"

"أذهب حيث لا تريد!"

وأنا أريد إسرائيل. مملكة الرب التي لم تُعدّ آمنة!  
كيف اجتمع المسلمون على هدفٍ واحدٍ لا أريده؟ كيف ولماذا وكم  
وأين وكل الأدوات الاستفهامية الممكنة!

سأذهب إليهم وأعرف إجاباتها كلها.. نعم ، أعلم أنهم يجتمعون  
لمحونا ، يتقاربون لإبادتنا ، يتماسكون لتفتيتنا ، يهملون ويكبرون  
لإرعابنا.. لكن ثمة "ما وراء" أكثر من هذا ، لا بدّ أن أحصل على إجابته  
بنفسي. عليّ أن أصل إلى الحقيقة ، هأنذا أترك كل شيء خلفي فقط من  
أجل الوصول إليها. إن لم أصل ، فإلى أين أذهب بعد ذلك؟ أي مصير  
سيكون مأواي؟ أي العقبات سيستقر عليها قدرتي؟

لم يكن من السهل أن أفعلها ؛ كان عليّ أن أستقل الحافلات  
المتجهة غرباً صوب معسكر المسلمين في جزيرة العرب. وفي وجود  
رفيقٍ قديمٍ جمعته الصداقة يوماً بـ"نضال" تأملتُ أن تصير الأمور إلى

الأسهل.. ذكّرته بي وبتلك الأيام التي عرفته فيها مع نضال ، فاكتفه حينئذٍ شجّي ميّزت معه رغبةً متواريةً في الثأر.

كان لا بدّ أن أطمئنّه بأنني لستُ في الموضع الذي يكرهه ، قلتُ له: "دَعَكَ من يهوديّتي.. ليس لديّ ما يستحقُّ أن تقلق لأجله". أخبرته أن "نضال" حمّلي رسالةً خاصةً كي أسلمها شخصياً للقائد.

انتابته الريبة وسأل عن مضمونها.. فأجبتُه بأن تلك أمانة ، وأمانة الشّهداء لا أقبل خيانتها مهما جرى.

كان لمصطلحاتي أثرٌ واضحٌ في تجاوبه معي أكثر.. وافق على اصطحابي معه في الطريق. لا أدري كيف تجاوز كلماتي هذه ولم يتوقّف عندها ؛ وصفتُ "نضال" أمامه بالشهيد ولم يعلّق ، بل ولم يبدُ عليه أنه قد انتبه. هل سمع اسم نضال كثيراً مسبقاً بنعت "الشهيد" ولهذا لم ينتبه؟! أم أنه يتعامل معي بحذرٍ يتوارى خلف قناع الحيادية والغفلة؟! ثمّ أين ذلك المسلم الذي يصدّق أنّ يهودياً قد يحفظُ الأمانة؟! لقد انقرض هذا النوع من المسلمين منذ زمنٍ قريبٍ.

لم يتركني لحيرتي كثيراً؛ بعد قليلٍ فوجئتُ به يميلُ عليّ ويخبرني بخطورةٍ وصدقٍ وحذرٍ:

- لا تخبر أحداً عن خلفيتك اليهودية مهما حدث. قدّم نفسك على أنك مسيحي من الناصرة.. هذا سيفيد كثيراً حتى تصلَ إلى "الإمام" شخصياً. تعرف جيداً كيف يبدو مسيحيو الناصرة.. أليس كذلك؟ جميل.. لكن عندما تصل إليه لن يفيدك هذا بشيء ، سيعلم من تلقاء نفسه أنك يهودي.

- وكيف سيعلم؟

- كيف سيعلم! إنه "الإمام". لذا من الأفضل أن تُبادره بإخباره بحقيقة يهوديتك.. وأنك تود أن تُسلمه رسالة "نضال" رحمة الله عليه.

أخذتُ نصائحه بعين الاعتبار ، هو أعلم بهم مني ، ولا يمكن أن أخالفها مثقال ذرة ، بل هو أعلم بإمامهم .

لم تكن الحافلة التي تقلُّنا تُمكننا من رؤية شيء إلا اللون الأصفر الذي يطلي الصحراء ، وواجهة ومؤخرة الحافلات التي تتقدم أمامنا وكذلك التي تعقبنا ، ظل عقلي لا يقوى على التفكير ، ولكن ثورة عقلي الباطن أجبرت ذاكرتي المنهكة على الاستسلام .

تفور في عقلي صور ما جرى في العام العسكري ؛ الجثث المتراكمة والأشلاء المتناثرة والدماء الراكدة لثلاثين ألف قتيل من الأطفال والنساء والشيوخ ، لم تجد من يجمعها أو يدفنها .. اهتزَّ العالم للمذبحة ، وارتجَّ العائمة في المملكة ، وارتجفتُ أنا .. لم أكن أتوقع أننا بهذا السوء والبشاعة!

كان سبب المذبحة كالعادة ، تقليدياً ؛ أصدر جيش دفاع المملكة بياناً اتَّهم فيه فصائل إرهابية فلسطينية بالضلوع في عمليات التفجيرات التي تمت بـ"تل أقيف" ، مؤكداً أنهم اختبأوا داخل "غزة" ، انقطعت كل وسائل الاتصال بين القطاع والعالم فجأةً وبلا استثناء ، ومن فوره قام جيش الدفاع بإنزال برِّيٍّ لألف جندي مسلحٍ إلى القطاع ليلاً للبحث عن الفلسطينيين الإرهابيين .

كان الجميع يعلم حينها أن إرهابيي غزة ليسوا هنالك ؛ وإنما هم مع زملائهم في الجماعات الإرهابية الأخرى ينفذون عمليات إرهابية مكثفة في النقب . لم يكن في القطاع سوى الأطفال والشيوخ والنساء ، والخوف والضعف . لم يتمكّن الرجال من الرجوع سريعاً .. وقبل أن يرجعوا كانت الأمور قد تمّت بدمٍ باردٍ ، وملأت الجثث الشوارع والحواري والأزقة .

مذبحَتَيْدٍ؛ طَوَّقَتْ كَتَائِبَنَا النَّسَائِيَّةُ (قطط الصحراء) القطاع  
المُظْلِم ، وقمن بإنارته بالقنابل المضيفة ، واستمرت التصفية حتى  
الصباح لا يغادرون روحاً بشريةً إلا أزهقوها ، وتكفّلت الطائرات بالباقي  
منذ الظهيرة وحتى الغروب ، على كلِّ شبرٍ غارةً.. استحال القطاع مقبرةً  
بشريةً رخوةً عامرةً بالموت والزوجة.

في الصباح دخلت جرافات المملكة العملاقة تزيح أمامها أطلال  
البشر وأشلاء المنازل.. كان مشهداً مهيباً مفرغاً.. ما الذي يوجد في  
الجحيم إذن إذا كان هذا هو ما يحدث في الدنيا؟ أم أنه ليس هناك  
جحيم سوى هذا الذي تعجلناه بأيدينا؟

كانت بعض التسريبات قد وجدت طريقها عبر غطاء التعقيم  
المُحكّم الجاثم..

أعرف تلك القشعريرة التي لم أكن أعرفها من قبل ، حين دبّت لأول  
مرة في أوصالي وأنا أتسمّع نزرًا يسيرًا من تفاصيل المذبحة.. صمّت  
فترةً ولكن الصمت كل يومٍ كان ينتهكني بطريقته ، عبر صرخات وأنين  
وقرقعة عظام أولئك الذين لم أرهم من قبل ولكنهم صاروا ضيوف  
مخيلتي وكواييسي ، ثم باتوا سكّانها الدائمين.. كان السواد يزداد  
بداخلي ، أحسست أنني أتحوّل إلى شيطانٍ أحرص! لولا أنني قررتُ أن  
أثير القضية على مرأى ومسمع من الشعب الجالس أمام الشاشات ،  
وليكن ما يكون!

وكان ما كان..

خرجت المظاهرات الحاشدة المنديّة بوزارة الدفاع والجيش ، (جيش  
عزازيل) كما أطلقوا عليه ، احتشد عرب الداخل صارخين في وجه  
رئيس الحكومة الذي لم يجد أي مبرر ولم تستطع شفتاه التفوه ولو

بكلمة ، تردد كثيراً ، وبحث أكثر عن مبرر لفعلة ، وبحث مستشاروه أيضاً ، لكن المبررات لم تلبّ رجاءهم ، أبداً .

ذهبت بنفسى إلى أرض المذبحة ، وليتني ما ذهبت . كانت صورهم وأصواتهم في كوايسى ومخيلتى أرحم بكثير ممّا أرى .. وأخفّ بكثير ممّا جرى . ها هو ذا الواقع ينتصر لنظرية "نضال" حول كون الواقع هو التجلي الأكثر تطرفاً للخيال .

استحالت أرض القطاع إلى لون الدم البني القاتم الذي تبخّرت منه حمرة الحياة .. وانطلى الهواء بلون الغبار ، أحسستُ بأسراب الأرواح الحزينة الساخطة المغدورة تسبح مراقبةً متزاحمة تُثخن الهواء وتثقل الأنفاس ..

لحظتنيّ أيقنتُ أن هذا العالم الذي نعرفه لن يعود أبداً كما كان .  
وقد كان .

فما بدأ بعدها كان كفيلاً يازاحة صور المذبحة من بؤرة المخاوف قليلاً ، وحتى حين .

كم سيطول بي الطريق ؟

وهذا "الإمام" الذي يعرف يهوديتي دون أن أخبره بها .. هل يعرف إجابة أسئلتى ؟ هل سأتمكّن من اللحاق بلحظة حياة لأطرح عليه سؤالاً أم سيحلّ بي ما حلّ بغيري من اليهود ؟

عدتُ أغوص بعينيّ في اللون الأصفر الذي كسا ظهر الأرض وباطن السماء وجوف الأفق .

دمعت عيناى ..

لو أنّ الحقيقة تجلّى وحدها لي كما تجلّى الربُّ لـ"موسى" !!



أواه يا إسرائيل .

هل من مجيرٍ يُجيرنا من بطش يد الرب!

ما من مجير!

لقد صَبَّ الرب لعنته علينا جميعًا وما من سبيلٍ للنجاة من عذابه .

رحمك يا "إلوهاي" .. ارحم أبناءك الذين ما عادوا بأنقياء ، وما هم

بأطهار!

هل من المنتظر أن نكون نحن ضحايا مذبحهٍ جديدةٍ على أيدي

المسلمين والعرب؟ هل سيردون لنا الصاع صاعين؟ هل ستغرق

شوارع إسرائيل بدماء أبناء الرب العاقين؟

وكيف لي بالإجابة إلا إذا دخلت إليهم وتعرفت على نواياهم ، ومدى

قوتهم .

أدعو الرب أن تكون تعاليم رفيقي للمعسكر كافيةً لإتمام الأمر

وعودتي سالمًا .

لماذا ما زلتُ أرتجف؟!!

أقسم بقوة "يَهُوه" وجبروته ، أقسم بالعليّ القادر القدير!

لأخذن طاليتي ولأتوشحن به .. ولن أعود إلى رشدي حتى تقبل

تضرعاتي ، أو أهلك دونها .

انجدي من تيهي أيا "إيل" .

رحمك يا أبانا في السماوات ، رحمك يا "إلوهيم" .

رحمك إنني أنتحب!

يُثبَع ..

الحقبة الثانية

(الأمير القاسي ذو الرداء الطويل)



## الهوامش

(١) "إلوهيم": كلمة عبرية تُستخدم لوصف الإله، وهي متعلقة بكلمة "إيل" (إله) أو الرب، وهي صيغة جمع تم اختيارها لأنها أكثر احترامًا؛ ومن صفات التأدب مع الذات الإلهية، ومعناها المتعارف عليه "الإله الواحد لبني إسرائيل"، وأحد أسماء الرب المستخدمة في اليهودية، وتُستبدل غالبًا بكلمة "إلوقيم" و"إلوهاي".

(٢) "الطاليت": شال الصلاة عند اليهود.

(٣) "الحريديم": طائفة من اليهود الأصوليين المتشددين، يرفضون الصهيونية ويحرصون على التعليم الديني ودراسة الشريعة منذ نعومة أظفار النشء.

(٤) "يَهُوَّة": أو "يَهُوفاه"؛ اسم عَلَم لإله بني إسرائيل، وأحد أسماء الرب المستخدمة في اليهودية، ولكن نظرًا لقداسة الاسم لدى اليهود يُحظر التلفظ به وينطقون بدلًا منه "أدوناي" في صلاتهم وتضرعهم للرب.

(٥) الشوفار: أداة مصنوعة من قرون الكباش، تستخدم في الأعياد والمناسبات الدينية الطقسية، للتنبية على مناسبات معينة مثل: دخول يوم الصوم، أو دخول العيد، ويستخدم بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المساء، وفي عيد الغفران وسنة البيوبيل. وقديمًا كان الشوفار يستخدم في الحروب لإخافة العدو.

(٦) "عائلات أبو طبول": هي عائلات إجرامية شهيرة تتمركز في مدينة "نتانيا".

(٧) "السامرة": أو السامريون بينهم وبين اليهود الحاليين اختلافات كثيرة رغم أنهم يعتمدون على التوراة لكنهم يعتبرون أن توراتهم هي الأصح وغير محرفة وأن ديانتهم هي ديانة بني إسرائيل الحقيقية، تعدادهم (٧٨٣) شخصًا تقريبًا، أماكن تواجدهم في نابلس وحولون جنوب تل أبيب.

(٨) سفر المزامير، مزمور (١٣٧) فقرة (١).

(٩) "بنيامين بن إيعازر": ولد بالبصرة في (١٢ فبراير ١٩٣٦) باسم (فؤاد)، شغل عدة مناصب منها وزير الصناعة والتجارة والأيدي العاملة، ووزير الدفاع، ووزير الاتصالات وكذلك وزير البنى الأساسية في الحكومة الإسرائيلية، وكان قائدًا لوحدة (شكيد) العسكرية إبان حرب (١٩٦٧).

(١٠) "فلفل كرجي" أو "كُرخي": هو (قاريء المقام) من مواليد عام (١٩٣٥) في منطقة سوق حنون الشعبي وسط بغداد واسمه الحقيقي "إلياس چورچي". وهو من عائلة يهودية متهن التجارة، عُرف منذ طفولته بين الناس المقربين له بامتلاكه قدرة شعرية نادرة وصوتًا ملائكيًا رائعًا. وتعلم على يد المطرب العراقي المسلم "حسن حبكة". وقد منحه تعليمه الإسلامي الكلاسيكي والموسيقى الامتياز لقراءة القرآن إلى ملايين المشاهدين العرب خلال شهر رمضان على تلفزيون إسرائيل. عندما حدث "فريهود اليهود" (أعمال عنف ونهب نشبت في بغداد واستهدفت اليهود) لم يعد "كرجي" قادرًا على إخفاء هويته اليهودية فهرب إلى إيران في إحدى الليالي المظلمة من عام (١٩٥٠). وبعد ستة أشهر هاجر من إيران إلى إسرائيل.

(١١) "عوفاديا يوسف": هو حاخام مزراحي حريدي، باحث في التلمود. وهو الحاخام الأكبر السابق لليهود السفارديم في إسرائيل، على الرغم من أنه هو نفسه من العراق، أي مزراحي وليس سفاردي. وقد كان الزعيم الروحي لحزب (شاس) السياسي الممثل في الكنيست الإسرائيلي، من مواليد (٢٤ سبتمبر ١٩٢٠) بغداد، وتوفي بالقدس (٧ أكتوبر ٢٠١٣).

(١٢) "ألموج بيهار": كاتب وشاعر إسرائيلي، ترجع أصوله من ناحية الأم إلى بغداد بالعراق، ومن ناحية الأب إلى إسطنبول بتركيا وبرلين بألمانيا، وهو من أبرز كتّاب القصة القصيرة في إسرائيل، ولد عام (١٩٧٨) بالقدس، تحتل ثقافة عائلته اليهودية الشرقية وما واجهته كعائلة شرقية جزءاً من أقلية في المجتمع الإسرائيلي؛ مكانة مركزية في كتاباته. ينشط "بيهار" ضد المخططات الإسرائيلية لتجسير سكان حي الشيخ جراح في القدس الشرقية، وضد إخلاء حي دهمش غير المعترف به، وضد جدار الفصل العنصري وغيرها، وذلك من خلال الاحتجاج السياسي والثقافي ومن خلال كتابة قصائد مناوئة لهذه الانتهاكات. ويعبر في قصصه عن غزلة "اليهود العرب" في مواجهة اليهود الغربيين الذين يستعمرون المشهد السياسي والثقافي في إسرائيل. صدرت له أربعة كتب ومجموعات شعرية، جميعها حظيت بترجمة عربية، كما ترجم شعره إلى الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والإيطالية والصينية والفرنسية والرومانية. ويُشكل "شعر محمود درويش" موتيفاً مهماً في إنتاج هذا الأديب الإسرائيلي شعراً ونثراً.

(١٣) "المزواه": هي قيمة الباب.

(١٤) "الشماع": دعاء "الشَّمَاع" من كلمة "شَمَع" العبرية وتعني "اسمع" (ويُعرف أيضاً باسم "قرينات شماع" ويُختصر إلى "قريشماع")، تُقرأ في صلاة الصباح والمساء.

(١٥) "شُدّاي": اختصاراً للجملة العبرية (شومير دلاتوت يسرائيل) أي حارس أبواب إسرائيل.

(١٦) "مايا أنجيلو": هي "مارجريت آن جونسون"، شاعرة وكاتبة أمريكية من أصل أفريقي، من مواليد (٤ أبريل ١٩٢٨) بسانت لويس، وتوفيت (٢٨ مايو ٢٠١٤).

(١٧) الشاعر الفلسطيني "محمود درويش".

(١٨) يافو: يافا.

(١٩) "عزرا هاسوفير" (עזרא הַסּוֹפֵר): وتعني عزرا الكاتب، عاش في الفترة من (٤٨٠) وحتى (٤٤٠) قبل الميلاد، وله سفر في التوراة يحمل اسمه (سفر عزرا)، اختلف العديد من العلماء المسلمين والأكاديميين الغربيين على أن "عزرا" هو الذي ورد ذكره في القرآن باسم "عزير" في الآية رقم (٣٠) من سورة (التوبة)، في قوله تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ".

(٢٠) "شوشاق" (שושק): أو شيشق، ششنق، شاشانق، شيشاق، (٩٥٠ - ٩٢٩ ق.م)، ملك مصري ترجع أصوله إلى أسرة من مدينة "إهناسيا" قدم مؤسسها "بويو واوا" الجد الخامس للفرعون "ششنق" من إحدى واحات الصحراء الليبية، لذلك عُرفت أسرته لدى المهتمين بالتاريخ المصري القديم باسم الأسرة الليبية، وهو مؤسس الأسرة الثانية والعشرين.

(٢١) "التلمود" תלמוד: هو شريعة بنى إسرائيل الشفهية، يتكون من متن عبارة عن "مِشْنَا" وضعها عدة أجيال من العلماء يسمون "تنائيم"، وشروح هذا المتن تسمى "جمارا"، وضعها الأواميم في مرحلة لاحقة، يعتبره اليهود مصدرًا من مصادر التشريع اليهودي، وهناك تلمودان، الأول هو: التلمود البابي وهو المستخدم في الأمور الحياتية والقضائية لليهود وذلك لشموليته وإيضاحه، والثاني هو التلمود الأورشليمي الذي يتميز بالإبهام وبصغر محتواه.

(٢٢) "المِشْنَا" (المِشْنَاة מִשְׁנָה: هي (التكرار) أو (الشريعة المتكررة)، وهي بمثابة المتن، كُتِبَ معظمها باللغة الآرامية، وهي عبارة عن مجموعة من الشرائع والتقاليد والروايات اليهودية المختلفة المروية التي تناقلتها الألسنة لقرون عديدة إلى أن قام بتبويبها الرباي "يهودا هناسيه" في نهاية القرن الثاني بعد الميلاد.

(٢٣) "الجمارا" גמרא: ومعناها التتمة (التكملة) أو (الإكمال). وهي عبارة عن المناقشات التي دارت في حلقة مناقشة التشريعات الواردة في "المِشْنَا"، وهي الأقوال المروية عن حاخامات اليهود من طائفة الفريسيين في موضوعات شتى وعصور مختلفة منذ القرن الثالث الميلادي إلى نهاية القرن الخامس الميلادي. وقد كُتِبَ معظمها باللغة الآرامية.

(٢٤) الآية: "وَإِذَا جَاءَ بِكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِيَكِي تَمْتَلِكَهَا، فَاجْعَلِ الْبُرْكَةَ عَلَى جَبَلٍ جَرْدِيْمٍ، وَاللَّعْنَةَ عَلَى جَبَلٍ عِيَالٍ". سفر التثنية (٢٩/١١).

(٢٥) أسمانجوني: اللون الأزرق الموجود على علم إسرائيل، وهي لفظة توراتية.

(٢٦) هي إحدى الطوائف المسيحية الأصولية التي لا تعترف بالطوائف المسيحية الأخرى، كما أنهم يفضلون أن يُدْعَوْا بشهود يهوه تمييزًا لهم عن الطوائف الأخرى.

(٢٧) حركة الأمهات الأربع (ארבע אמהות): هي حركة سلام نسائية إسرائيلية مناهضة لحالة الحرب، ومقرها "تل أبيب"، تكونت هذه الحركة عندما قامت أربع أمهات إسرائيليات فقدن أبناءهن إثر سقوط مروحياتهم في إحدى المعارك الإسرائيلية بجنوب لبنان، إبان احتلال إسرائيل له؛ بمظاهرة صغيرة على مفترق الطرق بإحدى البلديات شمال إسرائيل احتجاجًا على الحكومة الإسرائيلية، وتهدف إلى انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها، وبخاصة من الجنوب اللبناني، وإنهاء حالة الحرب بين العرب وإسرائيل، وحل جميع المشاكل بالمفاوضات والطرق السلمية.

(٢٨) إيتمار: مستوطنة إسرائيلية جنوب شرق نابلس، حدثت بها جريمة مقتل عائلة "فوغيل" بتاريخ (٢٠١١/٣/١١)، واتهم بها شابان فلسطينيان.

(٢٩) "الظَلِيمُ": هو ذكر النعام العربي، والجمع ظُلْمان، ذلك النوع كان يعيش بالجزيرة العربية، وآخر مرة شوهد فيها كانت عام (١٩١٨).

(٣٠) الأبيات للشاعر (محمد الفيحاني)، وهو (محمد بن قاسم عبدالوهاب الفيحاني)، ولد في شمال دولة (قطر) ودرس في دولة (الكويت).

(٣١) "رون أراذ": هو مصمم صناعي، وفنان، ومهندس معماري إسرائيلي من مواليد تل أبيب (٢٤ أبريل ١٩٥١) له صيت عالمي، وهو من قام بتصميم (متحف التصميم) ببلدية (حولون).

\* "ملحوظة": هناك (رودن أراد) آخر، وهو الطيار الإسرائيلي الذي توفي بלבنان في عام (١٩٨٢) وإسرائيل دائماً البحث عن رفاته، وعند أية مفاوضات يطرح اسمه من جديد لعل وعسى يستطيعون الحصول على رفاته.

(٣٢) "أودري هيبورن": ممثلة بريطانية وعارضة أزياء، كانت ناشطة في المجال الإنساني كسفيرة للنوايا الحسنة لمنظمة الأمم المتحدة للطفولة. ونالت "الوسام الرئاسي للحرية" لأعمالها الإنسانية، وحاصلة على جائزة الأوسكار لأفضل ممثلة، وجائزة البافتا لأفضل ممثلة بريطانية، وجائزة الغولدن جلوب لأفضل ممثلة في دور درامي، وجائزة دائرة نقاد نيويورك لأفضل ممثلة، عن فيلم "عطلة رومانية" عام (١٩٥٣).

(٣٣) "بنيامين فولفورد": (Benjamin Fulford) هو كاتب وصحفي أمريكي من مواليد (كندا) عام (١٩٦١)، وهو من أكثر الكتاب والصحفيين إثارة للجدل في العالم، عمل بمجلة "فوربس" (For bes Magazine)، انتهت به المطاف ليستقر باليابان، وترجمت له أكثر من (١٠) كتب باليابانية، تحدث كثيراً عن الزلازل التي يتم إنشاؤها عمدًا، كما تحدث عن تكنولوجيا مشروع "هارب" (HAARP) العسكري، وادعى أن الإيدز والسارس، وأسلحة الهندسة الحيوية مصممة خصيصًا للحد من سكان آسيا، وأشهر أقواله أن كل ما يريد فعله هو "إنقاذ الكوكب من الدمار الذي يعد له النخبة ويكون ضحية هذا الدمار قتل ثلثي سكان الأرض".

(٣٤) أبوكريفًا: كلمة يونانية قديمة تعني (أشياء تم إخفاؤها)، وتعني أيضًا الكتب المنحولة، واليوم يستخدم المصطلح للإشارة إلى النصوص الدينية غير الموثقة والتي لم يتم الإجماع عليها من قبل الأثرية الدينية.

(٣٥) سورة (البقرة)، الآية (١٧٤).

(٣٦) باقي الفقرات: (٣١) وَبَنَى بَيْتَ الْمُرْتَفَعَاتِ، وَصَيَّرَ كَهَنَةً مِنْ أَطْرَافِ الشَّعْبِ لَمْ يَكُونُوا مِنْ بَنِي لَأْوِي. (٣٢) وَعَمِلَ يَرْبَعَامَ عَيْدًا فِي الشَّهْرِ الثَّامِنِ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، كَالْعِيدِ الَّذِي فِي يَهُودَا، وَأَضَعَدَ عَلَى الْمَذْبُحِ. هَكَذَا فَعَلَ فِي بَيْتِ إِبِلَ بِدْبُجِهِ لِلْعَجَلِينَ الَّذِينَ عَمَلُهَا. وَأَوْقَفَ فِي بَيْتِ إِبِلَ كَهَنَةَ الْمُرْتَفَعَاتِ الَّتِي عَمَلُهَا. (٣٣) وَأَضَعَدَ عَلَى الْمَذْبُحِ الَّذِي عَمِلَ فِي بَيْتِ إِبِلَ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الثَّامِنِ، فِي الشَّهْرِ الَّذِي ابْتَدَعَهُ مِنْ قَلْبِهِ، فَعَمِلَ عَيْدًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَصَعَدَ عَلَى الْمَذْبُحِ لِيُوقَدَ.

(٣٧) سفر التثنية (٢ / ١٤).

(٣٨) سفر اللاويين (٢٠ / ٢٤ - ٢٦).

(٣٩) هولوكوست: من اليونانية (holókaustos): حيث (hólos) تعني "الكل"، و(kaustós) تعني "محروق"، تعرف أيضًا في العبرية باسم "هاشواه - 777777" وتعني "الكارثة"، وهي إبادة جماعية يختلف تقدير عدد الضحايا فيها ليصل إلى ما يقرب من ستة ملايين يهودي على يد النظام النازي لأدولف هتلر والمعاونين معه..

(٤٠) "الحزب النازي": هو "حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي"، حركة سياسية عملت في ألمانيا خلال النصف الأول من القرن العشرين. وقد تزعم الحزب طيلة معظم فترة قيامه "أدولف هتلر".

(٤١) "محمود عبدالرحمن قدح": هو وكيل الجامعة الإسلامية للتطوير، وعضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، حاصل على درجة الدكتوراة من كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية، شغل أستاذًا للعقيدة والأديان والفرق بالجامعة الإسلامية، وأشرف وناقش على أكثر من (٧٠) رسالة لمرحلتى الماجستير والدكتوراة في عدد من الجامعات، وشارك في تحكيم البحوث العلمية وبحوث التزيينات العلمية، كما شارك في عدد من الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية، وهو عضو في عدد من اللجان المتخصصة، وله العديد من الكتب والأبحاث المنشورة.

(٤٢) "موريس بوكاي": من مواليد مدينة (بون ليفيك) في شمال غرب (فرنسا) في التاسع عشر من يولييه عام (١٩٢٠)، وهو طبيب فرنسي نشأ مسيحيًا كاثوليكيًا، وكان الطبيب الشخصي للملك "فيصل آل سعود" ومع عمله في "المملكة العربية السعودية" وبعد دراسة للكتب المقدسة عند اليهود والمسلمين ومقارنة قصة "فرعون": أسلم وألف كتاب (التوراة والأنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث) الذي ترجم لسبع عشرة لغة تقريبًا منها اللغة العربية، وتوفي في الثامن عشر من فبراير عام (١٩٩٨) بباريس.

(٤٣) سورة (هود) الآية (١١٠).

(٤٤) "جمارا بابل": عبارة عن شروحات وحواشي أخبار اليهود على (المشنا) في بابل (العراق) -حيث استمر تجمع اليهود هناك كجالية أجنبية منذ السبي البابلي- من سنة ٢١٩ ق.م. إلى سنة ٥٠٠ م.

(٤٥) "جمارا أورشليم": عبارة عن شروحات وحواشي أخبار اليهود على (المشنا) في أورشليم (فلسطين) -ممن بقي هناك من فلول اليهود أو ممن جاؤوا إليها متمسلين- من سنة ٢١٩ ق.م. إلى سنة ٧٥٩ م.

(٤٦) "شاهين مكارئوس": صحافي وشاعر يهودي من مواليد لبنان (١٨٥٣) مات ودفن في القاهرة (١٩١٠) وهو من مؤسسي جريدة المقطم، يعترف بوقوع التحريف حتى في التلمود المختلق، فقال: ((وأما التلمود البابلي، فكان الفراغ الأول منه نحو أواخر القرن الخامس، ولم يمض زمن طويل حتى اعتور التلمود تحريف وأدخل فيه تقاليد لم تكن هناك، وأضيف إليه تفاسير وشروح وفتاوى جديدة، وسبب ذلك أن التلمود لم يكن قد قيّد بعد في الكتب والدفاتر، فكان تحريفه سهلاً، ثم إن انتشار اليهود في أنحاء الأرض وكثرة المدارس والجمعيات اليهودية التي نشأت معهم أينما حلّوا، جعلت فرقًا في أحوالهم بحسب تباين تلك الأحوال، فكانت الأحكام الصادرة من هذه الجمعيات في المكان الواحد تباين في بعض الأحيان أحكام جمعيات أخرى في مكان آخر، ولما كثرت التحريف والزيادة قام أحد علمائهم المشهورين وعني بتأليف التلمود ثانية بمعونة تلامذته ومريديه وكتبته، وقضى ستين سنة في التحجير والتحرير والتنقيب والتهذيب، وجاء بعده غيره فسعى سعيه واقتفى خطواته، فتمّ بذلك هذا العمل وجاء كتابًا كبيرًا كما تقدم الكلام، وهو بمثابة إنسيكلوبيديا (موسوعة أو دائرة معارف) كبيرة)).

(٤٧) سورة (المائدة) الآيات (٥٠، ٤٩، ٤٨).

(٤٨) "أوجست ستيندربرج" (August Strindberg): هو روائي وكاتب مسرحي وشاعر ورسام سويدي من مواليد "ستوكهولم" في ٢٢ يناير عام (١٨٤٩)، وعاش حياة حافلة بالإنتاج الغزير، وبالأحداث المثيرة والعجيبة، وهو من معاصري ("ابسن" و"تشيكوف")

وبه يكتمل الثلاثي الرائد الذي قاد حركة المسرح الحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر، إلى مطلع القرن العشرين، وأعطاه ملامح التجديد فيه، وله أنواع عديدة من المسرحيات، وتوفي ١٤ مايو عام (١٩١٢) في "ستوكهولم" بالسويد.

(٤٩) "نوستراداموس": هو مسيحي كاثوليكي فرنسي ذو أصل يهودي، عاش في الفترة (١٥٠٣ - ١٥٦٦م) أَلَّفَ أحد أشهر كتب النبوءات التوراتية والإنجيلية. يقول هذا المتنبي في مقدمة كتابه إن مصدر نبوءاته، هو مجموعة من الكتب والمجلدات القديمة، التي كان قد ورثها عن أجداده اليهود، كانت مخبأة منذ قرون عديدة، أو كان قد حصل عليها خلال اغارة المغول على (بغداد) وعلى ما يبدو أنه استطاع من خلالها، الكشف عن الرموز التوراتية اللفظية والعددية، التي استخدمها مؤلفو التوراة من الكهنة والأخبار، ومن ثم قام بقراءة الأحداث الواردة في النبوءات. ووضعها في كتاب على شكل رسائل نثرية وأبيات شعرية سمّاها الرباعيات، استخدم فيها الكثير من الاستعارات والرموز الواضحة الدلالة أحيانا والمضلّلة والمُحيرة أغلب الأحيان.

(٥٠) سورة (آل عمران)، الآية (١١٢).

## قالوا عن تلك الرواية

يقول الشاعر العربي "يهودا عميحاى": (في بلادنا لا يمكن إلا أن نكتب الشعر السياسي، شعر الحب عندنا أيضًا شعر سياسي).

فالغاية التي نشدتها الحركة الصهيونية منذ البدايات الأولى لتأسيسها، والتي انعكست بدورها على الأدب العربي؛ هي تأسيس دولة وجمع اليهود من كل دول العالم فيها إن أمكن، ولكي يتحقق هذا الغرض لابد أن يفتتت العرب وتشرذم كل مقدراتهم ومصادر قوتهم سواء العسكرية أو الاقتصادية أو العلمية والثقافية كذلك، وقد تعارض هذا الهدف مع وجود دولة بحجم مصر وثقلها التاريخي والحضاري، وقدرتها على استيعاب الجميع و(تصيرهم)، من هنا تنبع أهمية دراسة الأدب العربي في مصر.

والأهمية تكون مضاعفة حين يبادر باحث متخصص بتمرس الفن والتذوق -مثل محمد آدم- بكتابة عمل أدبي عن الجانب الآخر، فقد خرجت الكتابة طازجة متميزة عامرة بمعلومات تضيف للقارئ المتخصص وغير المتخصص بجانب متعة القراءة.

أتمنى لكم رحلة ممتعة مع سطور وصفحات تزيد من قدرة التوعية التي نحتاجها لمجابهة إسرائيل ومخططاتها وأساطيرها في الفترة القادمة.

حفظ الله مصر من كل شر بالعلم والإبداع والاتحاد والردع.

د. أحمد فؤاد أنور

عضو هيئة تدريس كلية الآداب جامعة إسكندرية

وكاتب ومحلل سياسي.



خيرًا فعل العزيز/ محمد آدم، حين اختار الطريق الصعب؛ فأعاد إلى ذاكرتنا حوادث الجدة، رحمها الله، التي كانت تُرَكِّز على أن بطل حوادثها كان يختار "الطريق اللي تودي ما بتجيب"، متجنبًا "طريق السلامة"، و"طريق الندامة"! ورغم كل الأهوال التي يلاقيها ذاك البطل، فإنه ينتزع النصر من أنياب تلك الأهوال، في النهاية.

في حدود قراءاتي، فإن أيًا من الروائيين العرب - بمن في ذلك عرب 48 لم يخض مثل هذه التجربة، وإن كان بعضهم زج بيهودي أو يهودية، هنا أو هناك، من زوايا روايته.

الأمر بالغ الصعوبة، إذ يتطلب إلمامًا بجملة مستعصية من الأمور؛ في مقدمتها اللغة العبرية، وشتى أوضاع التجمُّع الصهيوني في فلسطين، الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والدينية، والإثنية، والعسكرية، والأمنية. وهذه الأوضاع صعبة المنال؛ فنحن أمام فسيفساء، تضم نحو خمسين لغة، من نحو تسعين قطرًا، لم تنجح القيادة الصهيونية، حتى الآن، في صهر تلك الفسيفساء في سبيكة واحدة؛ وإن نجحت تلك القيادة في إبقاء مفردات هذه الفسيفساء ملتصقة إلى بعضها البعض، بتأثير ثلاثة عوامل مجتمعة: أولها مستوى معيشة عالٍ، أساسًا بفعل الهبات الأمريكية الضخمة، وثانيها الديموقراطية المقتصرة على يهود إسرائيل دون غيرهم، وآخرها الإلحاح على الخطر المحدق بإسرائيل، وتضخيمه، ما يفضي إلى وحدة مفردات الفسيفساء، من باب المحافظة على البقاء، وإلا لما استمرت غالبية مستوطني إسرائيل في ذاك القطر المختصّب، فالنسبة الغالبة من المهاجرين اليهود إلى إسرائيل إنما أتت لتعيش في "دولة سبع نجوم"، وإلا لما تركوا مسقط رؤوسهم، لذا، نلاحظ ارتفاع منسوب الهجرة المعاكسة (من إسرائيل)، بمجرد اهتزاز تلك النجوم السبعة، عند وقوع هجوم عسكري، أو صاروخ، أو عملية استشهادية في إسرائيل.

كلنا أمل أن تكون رواية "الطريق إلى السيدة العجوز" مجرد القطرة الأولى، المبشّرة بالمطر الغزير؛ لنلم بتفاصيل ذاك التجمُّع، ذلك "أن تعرف نفسك، وتعرف عدوك، ففي مئة معركة ستنتصر مئة مرة"، على ما أكد المفكر الاستراتيجي الصيني الشهير "صن تزو" قبل أكثر من أربعة قرون..

**عبد القادر ياسين**

مفكر ومؤرخ فلسطيني

القاهرة ٢٠١٥/٣/١٨



## شكر وتقدير

لم يكن من اليسير أبداً أن أُنمّ وحدي عملاً كهذا، فلقد أخذ مجهوداً شاقاً جداً، ولقد صاحبني خلال الإعداد والكتابة العديد من الرفاق المخلصين الذين ساعدوني بشتى الطرق على إتمام العمل، حقيقة لا يمكنني حصرهم، ولكن أود بشكل خاص توجيه الشكر والتقدير إلى أصحاب الفضل: أ/ خالد الجزائر- محمد السيد أبو ريّان- أحمد عبد المقصود- د/ خالد سعيد- محمد سليم (سيما)- محمد مناع- أحمد عوض- كابتن/ محمد كامل صقر.

وأخص بالشكر صاحبات الفضل: أثير صفا- مروى علي الدين- فيفي جابر- آيه عادل هاشم.

ومع هؤلاء من لا أنكر فضلهم، وعليّ أن أشكرهم جزيل الشكر لتقديم النصيحة وإبداء الرأي بإخلاص:

محمد منصور- عمي/ أحمد سوكارنو- عمّتي/ نجلاء الأباصيري- شيماء محمود- محمود الشبراوي - أحمد عبدالعزيز الشرقاوي- محمود فؤاد- محمد لطفي- حكيم المصري- فؤاد يوسف- ريم هوارى- هدى ميهوب- د/ رشا زاهر- شيماء عز الدين- نسمة المصري- عمي/ خالد حامد- محمود محمد فرج- أ/ أحمد عطية توفيق- شيماء فريد- محمد زين- عصام عبدالمعطي- فريدة إبراهيم الزهيري- شروق محمد صميذة- الفنان/ عادل فتحي- محمد ياسر- أحمد ضاضا- أماني مختار- د/ رحاب محمد- فراو/ هاجر عادل وهبة- منى محمد صبرا- د/ أحمد عبدالشكور.

وأتوجه بشكر خاص لأصدقائي الباحثين وزملاء دورات اللغة العبرية والتركية: محمد حسن محمد- سامية أشرف عطيوّة- أحمد جبران- د/ نبيل محمد سعيد- كابتن/ هيثم عاطف حشيش- وليد الجاويش- أسامه محمد فهمي- محمد عصام- إسلام مدحت- جهاد إبراهيم محمد- نهاد خالد

نجيب- نانسي مجدي الحسكي- إيمان عطية- نهاد أسامة- إيمان سمك-  
أسماء رضوان- أسماء ناجي عبدالعظيم- أمينة محمد أبو العطا.  
وأتوجه بشكر واجب لكل من قدم إليّ يد العون من فلسطين الحبيبة:  
أ/ عبدالقادر ياسين- د/ زينات أبو شاويش- أبو محمد نعيم- أحمد  
محمود أبو جبنة- سندس الحسيني- ريم أحمد- سمر عبدالعليم- غادة  
الرجوب.

وعليّ أن أوجه خالص الشكر والعرفان إلى أساتذتي الأجلاء:

د/ أحمد فؤاد أنور- د/ فتحي العفيفي- د/ هدى درويش- د/ عبدالرازق  
سليمان- د/ سامي الإمام- د/ محمد عرفات عبدالواحد- د/ فضل محمد  
أحمد- د/ وائل أحمد سلطان- د/ محمد حسين صادق.

وعليّ أن أتقدم بشكر خاص إلى معلمتي الجليلة د/ هدى زكريا.

وأقدم خالص تحياتي لعائلتي: أبي وأمي وأخي محمود وأختي وزوجتي.

كما أتقدم بخالص التقدير لعائلتي الثانية:

إبراهيم يحيى- سمر سمير- جنة إبراهيم- سمير أنور- آمال الطاهر-  
أمي الثانية "أمل"- وباسل وليلى وأروى.

ويجب عليّ أن أتوجه بخالص الشكر لكل من:

أ/ محمد جاد الله - أ/ منتصر أمين- أ/ أحمد القرملاوي- أ/ محمد حامد-  
رشا عبدالله - إبراهيم أحمد عيسى- عبدالرحمن جاويش- عبدالهادي  
عباس- إنجي مطاوع - سمر لطفي - د/ منى حارس محمد- محمد جميل  
صبري- نيفين التهامي- تامر أنور - د/ دعاء السيد .

كما أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير العظيم لإدارة دار "تويا للنشر  
والتوزيع":

هالة البشبيشي- شريف الليثي.

فيإلى هؤلاء، وهؤلاء، وكل من آمن بهذا العمل وقدم النصيحة ولو  
بكلمة أو ملحوظة خالص العرفان والتقدير، وأمنياتي الدائمة لهم بالتوفيق..

محمد أوم



## مصادر ومراجع الرواية

### أولاً: المصادر:

- القرآن الكريم.
- السنة النبوية.
- العهد القديم.

### ثانياً: المراجع:

- الاتجاهات الدينية والاجتماعية لحزب شاس وتأثيرها على مسيرة السلام (الراي عوفاديا يوسف نموذجًا)، رسالة ماجستير غير منشورة، إعداد: نبيل محمد سعيد عبدالعزيز.
- موسوعة (اليهود واليهودية والصهيونية) للدكتور عبدالوهاب المسيري.
- موسوعة (الماسونية) "القوة الخفية التي تحكم العالم"، تأليف: دكتور الحسيني الحسيني معدّي.
- موسوعة (المصطلحات الدينية اليهودية) للدكتور رشاد الشامي.
- بحث (الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في إنحرافهم - عرض ونقد) للأستاذ الدكتور محمود عبدالرحمن قح.

- قصة (بين ريم وعيوني.. بندقية) لأموج بيهار، ترجمة دكتور محمد عبود.
- كتاب (إستراتيجية إسرائيل ٢٠٢٨) "دراسة تحليلية للمكونات والتحديات" للدكتور إبراهيم البحراوي وآخرون، صادر عن مركز الدراسات الإسرائيلية، جامعة الزقازيق.
- كتاب (التفكير الإستراتيجي)"إسرائيل ومتغيرات العولمة" للدكتور فتحي العفيفي.
- كتاب (حين صَبُّوا الرصاص على غزة) للدكتور خالد سعيد.
- كتاب (التقييم الإستراتيجي لإسرائيل للعام ٢٠٠٩) ترجمة وإعداد: دكتور خالد سعيد.
- كتاب (التلمود والصهيونية) تأليف: أسعد زروق.
- كتاب (القدس في القرآن) للشيخ عمران نزار حسين.
- كتاب (المهدي) للدكتور محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم.
- كتاب (أكذوبة تأبي الموت ... مائة عام على بروتوكولات حكماء صهيون) تأليف: هداسا بن عيتو (قاضية سابقة)، ترجمة: جورج جريس فرح.
- كتاب (الأصولية اليهودية في إسرائيل) تأليف: إسرائيل شاحاك، نورتون ميزفينسكي، ترجمة: ناصر عفيفي.
- كتاب (الصهيونية غير اليهودية) "جذورها في التاريخ الغربي"، تأليف: ريجينا الشريف، ترجمة: أحمد عبد الله عبدالعزيز.
- كتاب (إنهيار إسرائيل من الداخل) للدكتور عبدالوهاب المسيري.
- كتاب (النبأ العظيم) "المسيح الدجال برز إلى الوجود"، إعداد: محمود محمد عبدالمنعم محجوب.

- كتاب (ما بعد إسرائيل) تأليف: أحمد المسلماني.
- كتاب (معادة السامية الجديدة ... ما بعد الصفاقة)، لمؤلف صناعة الهلوكوست نورمان جي. فينكلشتاين، ترجمة: دكتورة فاطمة نصر.
- كتاب (نشيد الإنشاد)، للأديب توفيق الحكيم.
- كتاب (يوم الغضب.. هل بدأ بانتفاضة رجب؟) للشيخ سفر بن عبدالرحمن الحوالي.
- محاضرات في "مقارنة الأديان" للأستاذة الدكتورة/ هدى درويش.
- محاضرات متفرقة في "الديانة اليهودية" للأستاذ الدكتور/ سامي محمود الإمام.
- محاضرات متفرقة في تعليم اللغة العبرية للدكتور عبدالرازق سليمان، والدكتور أحمد فؤاد أنور، والدكتور خالد سعيد.
- مقالات متفرقة للكاتب والصحفي الأمريكي (بنيامين فولفورد - Benjamin Fulford).
- مقالات وفيديوهات وتقارير متفرقة عن الطائفة السامرية.
- مقالات وتقارير متفرقة من الصحف الإسرائيلية.

### ثالثًا: قواميس:

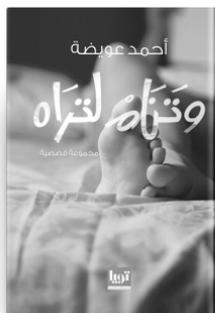
- دافيد سجييف، قاموس عبري - عربي للغة العبرية المعاصرة، دار شوكن للنشر، أورشليم وتل - أبيب، ١٩٩٠.

### رابعًا: مواقع إلكترونية:

- موقع الأنبا تكلاهيمانوت القبطي الأرثوذكسي. <http://st-takla.org/>
- موقع (بكرة). <http://bokra.net/> ، تقرير بعنوان (شهادة شاهين "١١٨عام".. أكبر المعمرين في البلاد)، نشر بتاريخ (١٢ / ٩ / ٢٠١٠)، ميساء أبو غزالة.

- موقع (رصد)، ازدياد ظواهر الانتحار والمخدرات والشذوذ داخل مجتمع الجيش الصهيوني، إحصائية ديسمبر (٢٠١٤). <http://rassd.com/>.
- موقع (عرب ٤٨). <http://www.arab48.com/>.
- موقع (عرب ٤٨)، مقال بعنوان "سقط القناع"، نشر بتاريخ (١٨ / ٧ / ٢٠١٣)، سهيلة غطاس.
- موقع (ماكو). <http://www.mako.co.il/>.
- موقع (مؤسسة ياد فاشيم). <http://www.yadvashem.org/yv/ar/>.
- موقع فيس بوك، صفحة إسرائيل تتكلم بالعربية. <https://www.facebook.com/IsraelArabic/>.
- موقع فيس بوك، صفحة "إفيخاي أدرعي" (المتحدث بلسان الجيش الإسرائيلي للإعلام العربي) <https://www.facebook.com/IDFarabicAvichayAdraee/>.
- موسوعة ويكيبيديا.









**دار تویا للنشر والتوزيع**



